

قصص القرآن

تأليف

محمد أحمد جاد المولى — محمد أبو الفضل ابراهيم

على محمد البجاوى — السيد شحاتة

١٤٠٥ هـ — ١٩٨٤ م

الطبعة الثالثة عشر

فيها زيادة قصص وضبط، وشرح، وتعليق

مكتبة
دار التراث
٢٢ شارع الجمهورية – القاهرة



قصص القرآن



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

امتاز قَصَصُ القرآن الكريم بسمو غاياته ، وشريف مقاصده ، وعلو مراميه ، اشتمل على فصول فى الأخلاق مما يهذب النفوس ، ويجمِّل الطباع ، وينشر الحكمة والآداب ، وعلى طرق فى التربية والتهذيب شتى ، تُساقُ أحياناً مساق الحوار ، وطوراً مسلك الحكمة والاعتبار ، وتارة مذهب التخويف والإنذار ، كما حَوَى كثيراً من تاريخ الرسل مع أقوامهم ، والشعوب وحكامهم ، وشرح أخبار قوم هُدُوا فمكن الله لهم فى الأرض ، وأقوام ضلوا فساءت حالهم ، وخربت ديارهم ، ووقع عليهم العذاب والنكال ، يضرب بسيرهم المثل ، ويدعو الناس إلى العظة والتدبر . . . كل هذا قَصَّهُ الله فى قول بَيِّن ، وأسلوب حكيم ، ولفظ رائع ، وافتنان عجيب ، ليدل الناس على الخلق الكريم ، ويدعوهم إلى الإيمان الصحيح ، ويرشدهم إلى العلم النافع ، بأحسن بيان ، وأقوم سبيل ، وليكون مثلهم الأعلى فيما يسلكون من طرق التعليم ، ونبراسهم فيما يصطنعون من وسائل الإرشاد .

ولكنه — على كريم مقاصده ، وتنوع مذاهبه ، وافتنان طرقه — وجد من أبناء هذا العصر من يهجره إلى غيره ، ويتركه إلى سواه ، مما وضعه الناس من قصص فيها الحق والباطل ، وفيها الصحيح والزائف . . . هذا على الرغم من أنّ القرآن الكريم يعمر المدارس والمساجد ، والمنازل والمجالس ، ولا يجد منهم من كان له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيد .

ولعل هذا لم يصدر منهم عن سوء نية ، أو قصد العزوف عن الإفادة من كتاب الله القويم ، ولكن قد يقع كثيراً أن يخفى عليهم فى القصة معنى ، أو يغمّ عليهم لفظ ، أو يعوزهم التأويل فلا يجدوا ضالتهم — فيما بين أيديهم من كتب التفسير — سهلة المنال ، ميسورة الجنى ؛ لأن بعض المفسرين جعلوا همهم بيانَ

المذاهب النحوية ، والنكات البلاغية فى محكم الآيات ، وبعضهم عُنى بالأحكام واستنباطها ، وآخرين وقفوا جهدهم على الشئون الكونية ، والمناحى الفلسفية ، والتدليل عليها . إلى غير ذلك من وجُوه البحث والشرح للقرآن .

نعم ، إن هناك بعضاً من المفسّرين نهجوا فى تأويل القصة تأويلا صالحاً ، وسلكوا مسلكا مقبولا ، ولكن هذا لا يخرج عن نتف متفرقة وآراء مبعثرة ، لا تسدّ حاجة قارئ لا صبر له على تشعب الآراء ، ولا جَلد عنده على مراجعة كتب القدماء .

ولما رأيناه من إقبال الناس على قراءة القصص ، ولما شاهدناه من انصرافهم عن قصص القرآن — على ما فيه من شريف المقاصد والأغراض — وضعنا هذا الكتاب قصصاً شتى فى ضوء القرآن وهديه ، وعلى طريقته الحكيمة ، من الاقتصار على بسط موضع العبرة ، إلا أن يكون موضعاً يحتاج إلى بيان ، أو إشارة يعوز فيها القارئ التوضيح ، وجلوناه فى ثوب أدبى وأسلوب سائغ ، ولم نخرج فيما كتبناه عن آراء انتخلناها من كتب التفسير المشهورة ، وأخبار رويناها عن ثقات المؤرخين .

وغرضنا من هذا أن نحبب إلى الناشئين والناشئات أسلوب الموعظة القصصية فى القرآن . وأن نحملهم على الاستفادة من هديه وقويم نهجه .

وقد شجعنا إقبال القراء على أن نزيد فى هذه الطبعة بعض القصص ، ونعنى بشرح الكلمات الغامضة وضبط الألفاظ الصعبة ، ونرد كل آية إلى سورتها ، وهدفنا من ذلك أن نيسِّرَ قراءته لجل المسلمين فى أقطار الأرض ، وأن نقرب إليهم ما فى الكتاب الكريم من قصص فيها هداية وفيها إيمان . .

والله نسأل أن يرزقه من قبول الناس وانتفاعهم ما قصدنا به ، وما أملنا منه إلا ابتغاء وجه الله ؟

المؤلفون

ربيع الثانى سنة ١٣٨٩ هـ (يونيو سنة ١٩٦٩ م)

آدم [*]

خلق الله الأرضَ في يومين ، وجعل فيها رواسِيَ من فوقها ، وبارك فيها ، وقدّر فيها أقواتها[1] في أربعة أيّام سواء للسائلين ، ثم استوَى إلى السماء وهي دُخَان ، فقال لها وللأرض : ائْتِيَا طَوْعاً أو كرهاً ، قالتَا : أتيْنَا طائِعين .

ثم استوَى على العرش ، وسخَّرَ الشمس والقمر كلٌّ يجرى لأجل مسمًّى ، ثم خلق ملائكته الذين يسبِّحُون بحمده ، ويقدِّسون اسمَه ، ويُخْلِصُون في عبادته .

ثم شاءت إرادتُهُ تعالَى ، واقتضت حكمتُه ، أن يخلقَ آدمَ وذرِّيتَه ، ليسكنوا الأرضَ ويعمُروها ، فأنبأ ملائكتَه أنه سينشيء خَلْقاً آخر ، يسعَوْن في الأرض ويمشون في مناكبها ، وينتشر نسلُهم في أرجائها[2] ، فيأكلون من نَبْتِها ، ويستخرجون الخيراتِ من باطنها ، ويخلُفُ بعضهم بعضاً فيها .

والملائكة خَلْقٌ اصطفاهم الله لعبادته ، وأسبغ عليهم نعمتَه ، وحباهم بفضله ، ووفّقهم إلى رضاه ، وهداهم إلى طاعته ، فآدَهم[3] أن يخلقَ الله خَلْقاً غيرهم ، وخافوا أن يكون ذلك لتقصيرٍ وقع منهم ، أو لمخالفةٍ كانت من أحدهم ، فأسرعوا إلى تبرئة أنفسهم ، وقالوا : كيف تخلُق غيرنا ، ونحن دائبون على التسبيح بحمدك ، وتقديس اسمك ؟ على أنّ هؤلاء الذين تستخلِفهم[4] في الأرض

(*) البقرة ٢٩ – ٣٨ ، الأعراف ١٠ – ٢٣ ، طه ١١٤ – ١٢٥ ، الإسراء ٦٠ – ٦٤ ، الحجر ٢٧ – ٤٢ ، ص ٧١ – ٨٥ ، فصلت ٩ – ١٢ ، الرعد ٢

(١) أرزاق أهلها ومعايشهم ومايصلحهم .

(٢) أرجاؤها : نواحيها .

(٣) آدهم : كبر عليهم .

(٤) استخلفه : جعله خليفة .

لا بدَّ أن يختلفوا على ما فيها من منافع ، ويتجاذَبُوا ما بها من خيرات ، فيفسدوا فيها ، ويسفكوا الدماء غزيرة ، ويُزهقوا الأرواح طاهرة بريئة ، (أتجعلُ فيهَا مَنْ يُفسِدُ فِيهَا ويَسْفِكُ الدِّماء ، ونَحْنُ نُسَبِّحُ بحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)[١]؟ قالوا ذلك رغبة فيما يزيل شُبهتَهم ، وينزع الوساوسَ من صدورهم ؛ وامتدَّ رجاؤهم إلى الله أن يستخلفَهم فى الأرض ؛ لأنهم أسبقُ إلى رِعَاية نعمته ، وأولى بمعرفة حقِّه ، ولم يكن سؤالهم ذلك إنكاراً لفعله ، ولا شكًّا فى حكمته ، ولا تنقُّصا لخليفته أو ذرِّيته ، لأنهم أولياؤه المقرَّبون ، وعبادُه المكرَمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون .

أجابهم الله بما اطمأنّت له قلوبُهم ، وثلِجت به صدورُهم ، فقال : (إنى أعْلَمُ مالا تَعلمونَ)[٢] ، وأعرف من حكمة استخلافِه مالا تدركون ، فسأخلق ما أشاء ، وأستخلفُ مَنْ أريدُ ، وسترَوْن بعدُ ماخفِيَ عليكم ، واستَتَرَ عنكم ، (فإذا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لهُ ساجِدِين)[٣] .

سَوَّى الله آدمَ من طين من صلصال من حَمَإٍ مَسْنُونٍ[٤] ، ثم نفخ فيه من رُوحه ، فسرَت فيه نَسَمةُ الحياة ، وصار بشراً سويًّا .

ثم أمر اللهُ الملائكةَ أن يسجُدُوا لآدمَ ، فاستجابوا لربهم خاضعين ، وأقبلوا على آدمَ معظِّمين ، وعفرُوا جباهَهم له ساجدين ، إلاّ إبليسَ فقد خالفَ أمرَ ربه ، وانحاز إلى معصيته ، وأبَى واستكبر ، وكان من الكافرين .

سأل الله إبليسَ عن سبَب امتناعه ، واستَنْبَأَهُ حِكْمَة تخلُّفِهِ ،

---

(١) سورة البقرة ، آية ٣٠ (٢) سورة ص ، آية ٧٢
(٣) الحمأ : الطين الأسود . المسنون : المصور .
(٤) سورة ص ، آية ٧٥

فقال : (مامنعكَ أنْ تَسْجُدَ لِمَا خلقتُ بِيدَىَّ أسْتَكْبَرْتَ أمْ كُنْتَ مِنَ العَالِينَ) ؟

فزعم أنه خيرٌ من آدم عُنصراً ، وأزكى منه جوهراً ، وظنَّ أن لا أحدَ يُباريه فى علوِّ قدره ، ولا يستشرف إلى سموِّ مكانته ، وقال : أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين .

جهر بالعصيان ، وصرح[1] عن المخالفة والبهتان ، واستكبر عن أمرِ ربه ، واستنكف أن يسجد لمن خلقه بيدِه ، فصار من الكافرين .

فجازاه الله على عصيانه ، وعاقبه على مخالفته ، وناداه قائلا له : (فاخْرُجْ مِنْهَا[2] فإنّكَ رَجيم[3] ، وإنَّ عليكَ اللَّعْنَةَ إلى يَوْمِ الدِّينِ) .

سأل إبليس ربه أن يُنظِرَهُ[4] إلى يوم الدين ، وأن يمدَّ له فى الحياة حتى يوم يبعثون ، فأجاب الله سُؤْله ، وقال له : (فإنكَ مِنَ المُنْظَرِينَ إلى يومِ الوَقْتِ المَعْلوم)[5] .

ولما استُجيبَ سُؤْلهُ ، وتحققت رغبته ، لم يشكر لله فضله ، بل قابل نعمته بالكُفران ، وفضله بالجحود والنُّكران ، وقال : (فَبِمَا أغْوَيْتَنى لأقْعُدَنَّ لهم صِراطَكَ المستقيم) ، مُتَرَصِّداً لغوايتهم ، جاهداً فى إضلالهم ، (ثم لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أيديهم ومِنْ خَلْفِهم وعَنْ أيمانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ولا تجِدُ أكثرَهم شاكرينَ)[7] .

---

(١) صرح : كشف .

(٢) سورة الحجرات ، آية ٣٤ ، ٣٥

(٣) الرجيم : الملعون المبعد المطرود .

(٤) أنظره : أمهله .

(٥) سورة الحجر ، آية ٣٧ ، ٣٨

(٦) سورة الأعراف ، آية ١٦

(٧) سورة الأعراف ، آية ١٧

طرد اللهُ إبليس من الجنة ، ومدَّ له فى أمله ، وقال له : امضِ لسبيلك الذى اخترته ، وسر فى طريق الشرِّ الذى أردته ، (واستَفْزز[١] مَنِ استطعتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ، وَأَجْلِبْ عليهم بِخَيْلِكَ ورَجِلك[٢] وشارِكْهُم فى الأموالِ والأولاد) ، وعِدْهم المواعيد الكاذبة ، ومَنِّهم الأمانى البعيدة ، فلن أُخَلِّيَ بينك وبينَ من صحَّت عقيدته ، وقويت عزيمته من عبادى المخلصين ، ولن أجعل لك عليهم سلطاناً ، فقلوبهم منصرفة ، وآذانهم لقولك غير مُصْغِية .

أما ما اعتزمتَه من إغواء الناس وفتنتهم ، فحسابُك عليه عسير ، وجزاؤك على اقترافه عظيم ، ولأملأنَّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين .

سجدوا لآدم ، فاعترفوا بفضله ، وأقروا بأنه خيرٌ منهم مقاماً ، وأقرب منهم إلى الله مكاناً ، ولعلهم قد ظنوا أنهم ربما كانوا أغزرَ منه علماً ، وأكثر منه دراية وفهماً ، لذلك آتاه الله من علمه ، وأفاض عليه من نوره ، وعلّمه أسماء الكائنات كلها ، ثم عرض هذه الكائنات على الملائكة ، فقال : (أَنْبِئُونى بأسماءِ هؤلاءِ إن كُنْتُمْ صادِقينَ)[٣] ، ليظهرَ عجزهم ، ويستبينَ قصورَ علمهم ، ويعرفوا أن حكمة الله قد اقتضت أن يكون آدمُ أولى بذلك وأجدر ، وأن خلافته أحقُّ ألاّ تنكر .

بُهتوا لِما وُوجِهوا به ، وسُقط فى أيديهم حينما حاولوا البحث فى طوايا

---

(١) سورة الإسراء ، آية ٦٤

(٢) استفزه : استخفه . أجلب : من الجلبة ، وهى الصياح . الخيل : الخيالة . والرجل : اسم جمع للراجل . وهو كلام ورد مورد التمثيل ، فقد مثلت حاله فى تسلطه على من يغويه بمغوار أغار على قوم فصوت بهم صوتاً يستفزهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم ، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم .

(٣) سورة البقرة ، آية ٣١

نفوسهم ، وأرادوا الرجوع إلى سابق علمهم ، فلم يجدوا إلى الجواب سبيلا ، فأقرّوا بعجزهم ، واعترفوا بقصور علمهم ، و (قالوا[١] سُبْحانك[٢] لا عِلْمَ لنا إلاّ ما علّمتنا إنكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ) .

ولما كان آدمُ قد اغترف من فيض ربه ، واقتبس من نور علمه ، أمره أن يُنْبِئهم بما عجزوا عن معرفته ، ويخبرهم بما قصُرَت مداركهم عن علمه ، بياناً لفضله ، وإظهاراً لحكمة استخلافه ، فأخبرهم خليفةُ الله بما عجزوا عنه ، فناداهم ربهم : (ألم أقلْ لكم إنى أعلمُ غَيْبَ السمواتِ والأرضِ وأعلمُ ما تُبْدُون وما كُنْتُمْ تكْتُمُون)[٣] .

حينئذ تبيّنوا فضله ، وأدركوا سرَّ خلقه ، وظهرت لهم حكمةُ استخلافه .

أذاق الله إبليس بأْسَهُ ، وسلبه نعمته ، وأقبل على آدم فأسكنه وزوجه جنّتَه ، وأوحى إليه أن اذكر نعمتى عليك ، فإنى خلقتُك ببديع فِطرتى ، وسَوَّيتك بشراً على مشيئتى ، ونفختُ فيك من روحى ، وأسجدتُ لك ملائكتى ، وأفضْتُ عليك قَبَساً من عِلْمى ، وهذا إبليسُ قد أيأستُه من رحمتى ، ولعنتُه حين خرج عن طاعتى ، وها هى ذى دارُ الخلد جعلتها لك منزلا ومقاماً ، فإن أطعتَ كافأتُك بالإحسان ، وخلدتك فى الجنان ، وإن تركتَ عهدى أخرجتُك من دارى ، وعذّبتك بنارى ، ثم لا تنس أن إبليس هذا عدوٌّ لك ولزوجك ، فلا يُخرجنّكما من الجنة فتشقَى .

أباح لهما أن يأكلا من الجنة رغداً حيث شاءا ، وأطلق لهما العنان فى اجتناء ما يريدان من ثمارها ، ونهاهما أن يقربا شجرةً من بين أشجارها الكثيرة .

---

(١) سورة البقرة ، آية ٣٢

(٢) نقرلك بالعبودية .

(٣) سورة البقرة ، آية ٣٣

ولُيُزِيل كلَّ إبهام فى شأنها ، وشك فى معرفتها ، أشار إليها تعييناً لها ، وإزالةً لكلِّ رَيْب قد يتسرب إلى نفسيهما ، وتوعدهما بالدخول فى زمرة الظالمين إن قَرُبا منها ، أو تناولا شيئاً من ثمارها ، ووعدهما أن يمُدَّ لهما فى أسباب النعيم إن اجتنبا الشجرةَ التى نهاهما عنها ، فلا يمسَّهما فى الجنة جوعٌ ولا عُرْىٌ ، ولا ينالهما ظمأ ولا نَصَب ، فقال : (يا آدم اسكُنْ أنتَ وزَوْجُك الجنة وكُلاَ منها رَغَداً حيثُ شِئْتُما ، ولا تقربَا هذه الشَّجَرَةَ ، فتكونا من الظالِمِينَ)[1] ، (إنَّ[2] لك ألاّ تجُوعَ فيها ولا تعْرَى وأنَّكَ لا تَظْمَأُ فيها ولا تَضْحَى[3]) .

سكن آدمُ الجنة ، وصار يتمتع بما فيها من كل ما تشتهى الأنفُس، وتلذُّ الأعين ، ولعله كان يتنقلُ بين أشجارها ، وَيَتفَيَّأُ فى ظلالها ، ويقتطف من أزهارها ، ويتفكه بثمارها ، ويرتوى من عَذْبِ مياهها ، وشاركتْهُ هذه النُّعمة زوجُه ، وعاشا كذلك مدَّة يرشُفان من مَنَاهل السعادة .

حزَّ ذلك فى نفس إبليس ، وعز عليه أن يَنعم آدمُ وزوجُه بما ينعمان به ، وهو مطرود من رحمة الله ، مُبْعَد عن جنته ، فصحَّت نيتُهُ على أن يقوِّض عَرْش سعادته ، ويسلبه نعمتَه ، أليس هو الذى أنزله من عَليائه ، وأبعده عن نعمة الله ورضائه ، واستبان بسببه جحودُه ونكرانُه ؟ فليُقدم على الثأر لنفسه،وليحاول أن يتنقّص ذلك الذى أُمر بالسجود له والاعتراف بفضله ، فدلف[4] إلى الجنة ، وحدَّثه فى سرّ وخفاء ، وأوهمه بأنه صادقُ الودّ ، مخلص فى النصح ، ثم جدَّ فى استمالته إليه ، فلم يترك سبيلا إلا وَلجه[5] ، أو باباً إلا طرقه ، وأظهر له ولزوجه

---

(١) سورة البقرة ، آية ٣٥ (٢) سورة طه ، آية ١١٨ ، ١١٩ .

(٣) لا تضحى : لا يؤذيك حر الشمس .

(٤) دلف : مشى . (٥) ولجه : دخل فيه .

عطفه عليهما ، وإشفاقه من زوال نعمتهما ، فقال : (ما نهاكما رَبُّكما عن هذه الشَّجَرَةِ إلاّ أن تكونا مَلَكَيْنِ أو تكونا من الخالدينَ)[١] .

ولما شام[٢] منهما مجافاةً لرأيه ، وبُعْداً عن مشورته ، ورأى أن آذانهما صَمَّت عن سماع صوته والإصاخة إلى نصيحته ، أقسم لهما إنه من الناصحين ، لا يقصد إلى ضررهما ، ولا يريد النكاية بهما ، ليؤكد صحةَ قَصْده ، وصوابَ رأيه ، ولاشكّ أنه أكثر وألح ، وتمادى في إغوائه وألحف ، وحاول إغراءهما بطيب ريح تلك الشجرة ، وبديع طعمها ، وحُسْنِ لونها ، فاغترّا بقوله ، وافتتنا بزُخْرفِ لفظه ، ومعسول وَعْدِه ، وتابعا رأيه ، وزَلاّ بإغوائه .

فلما خرجا عن أمر ربهما سلبهما نعمتَه ، وحرَمهما جنّتِه ، وناداهما ربهما : (أَلَمْ أَنْهَكُمَا عن تِلْكُمَا الشجرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إنَّ الشيطانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ)[٣] .

أنابا إلى الله ، وندما على فعلتهما ، و(قالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنا وإِنْ لم تَغْفِرْ لَنَا وترحمنا لنكونَنَّ منَ الخاسرينَ . قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لبعضٍ عَدُوٌّ ولَكُمْ في الأرض مُسْتَقَرٌّ وَمتاعٌ إلى حِينٍ)[٤] .

تاب الله عليهما ، وغفر لهما زَلّتهما ، فأثلج ذلك صدرهما ، وقرّت به عينهما ، وانبثق الأملُ في نفسيهما ، بالبقاء في الجنة ، والتمتُّعُ بنَعيمها ، وقد علم اللهُ ما جال بخاطرهما ، ووقف على ما تطلّعت إليه نفسهُما ، فأمرهما بالهبوط منها ، وأنبأهما أن العداوةَ بينهما وبين إبليس ستظلُّ قائمة ، ليحذَرَا فتنته ، ولا يُصغيا إلى إغوائه ، فقال : (اهْبِطَا منها جميعاً بعضكم لبَعْضٍ عَدُوٌّ فإمَّا يأتِيَنَّكُم مني هُدًى فمن اتَّبعَ هُدَايَ فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى)[٥] .

---

(١) سورة الأعراف ، آية ٢٠ — (٢) شام : رأى .

(٣) سورة الأعراف ، آية ٢٢ — (٤) سورة الأعراف ، آية ٢٣ ، ٢٤

(٤) سورة طه ، آية ١٢٣

فجعل له مأرباً فى الحياة ، وأملاً يسعى إليه ، وأخبره أنه قد انتهى طَوْرُ النَّعيم الخالص والراحة التامة ، وأنه بعد خروجه من الجنة وحرمانه نعيمها قد دخل فى طَوْرٍ له فيه طريقان : هُدًى وضلال، إيمان وكفر، فلاح وخُسران، فمن اتبع هُدَى الله الذى شَرَعَهُ ، وسلك الصراط المستقيم الذى حدَّدَهُ ، فلا خوف عليه من وَسْوَسةِ الشيطان وإغوائه ، ومن أعرض عن ذِكْرِ اللهِ ، وحاد عن سبيله ، فسيكون عيشُه ضَنْكاً[1]، وسيكون من الذين ضلَّ سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحْسِنُون صُنْعا .

(١) الضنك : الضيق فى كل شيء .

نبأ ابنى آدم(*)

بدأ نظامُ الحياة يستكمل حينما تهيّأت حوّاء لتستقبلَ أولادها ، أوّلَ زهر تفتّح فى رياض الإنسانية ، وأولَ نفحة من نفحات البشرية ، وبهم تأنس وتسعد مع زوجها آدم . وقد كانا شديدَى الحب والشغف : أن يريا فلذات أكبادهما على ظهر البَسيطة ، فتمتلىء جوانبُ الأرض بنسلهما ، يمشون فى مناكبها ، ويأكلون مِنْ رزق الله . ولقد كان آدم حفيًّا بأبنائه ، وحوّاء مستبشرةً بقدومهم ، رغم ما قاست من أهوال وآلام ؛ هى لِزَام على الأم دائماً فى مثل هذه الحال ، إلا أنها لا تلبثُ حتى تنتشىَ برُخاء العطف والحنان، فإذا هى قَرِيرَةُ العين ، باردة الفؤاد .

وضعت حوّاء توأمين : قابيل وأخته ، وهابيل وأخته ، وشب الإخوة فى رعاية الأبوين ، حتى ملأتهم نضارةُ الحياة ، وقوةُ الشباب ؛ فنزعت[1] البنتان إلى منازع النساء ، وانبعث الولدان يضربان فى الأرض كَسْباً للرزق ، وابتغاء للخير ؛ فكان قابيل من زُرّاع الأرض ، وكان أخوه من رعاة الأغنام .

لانَ للأخوين مِهَادُ الحياة ، وسهُل عيشها ، وانتشر رِوَاق السلام والأمان على هذه الأسرة السعيدة الطاهرة . وعلى امتداد الزمن ، وتتابع فُسْحَةِ الأجل، قويت فى كلا الفتيَيْن غريزةُ الرجولة ، ومال كلٌّ منهما إلى أن تكون له زوجة ليسكن إليها ويطمئنّ بصحبتها ، وتعلقت نفسه بذلك الأمل الحُلو المعسول ، وراحت تتفَقّده وتتلمس كلَّ سبيل حتى تصل إليه ، وإرادةُ الله جلّتْ حكمته

(*) سورة المائدة ٣١ - ٣٥

(١) نزع : مال .

قضت منذ الأزل أن يُمتحن بنو آدم على ظهرْ البَسيطة ، فيكثر المال والبنون، وتأخذ الأرض بهجتها وتَزَّيَّن ، كما جرى القَدَر ألاّ يكون الناسُ أمة واحدة ، بل لا بدّ من التكاثر ، والتباين فى الرأى والمنزَع ، والنوع والخلقة ، والسعادة والشقاء . فأوحى الله تعالى إلى أبى البشرية أنْ يزوِّج كلّ فتى من فتيَيْهِ بتوأم[1] أخيه .

بهذا أفضى آدمُ إلى أبنائه ، راجياً أن يكونَ قولهُ الفصلَ ، ولولا جموحُ النفس البشرية . وانسياقُها إلى مهاوِى البَوَار والخسران لكان للأب ما تمنّى .

والغريزةُ الإنسانيةُ قِوَامُها الحرصُ والطمَع ؛ فمن كبح جِماح شهوته ، وكسر حِدّة سطوته، وجعل لعقله سلطاناً على هواه ؛ فأولئك هم الذين أكرمهم الله فى الدنيا والآخرة .

وأمّا من ترَخَّصَ لشهواته ، وانفلت من عَقْلهِ زِمَامُ هوَاهُ ، فهو من الأخسرين أعمالا الذين ضلّ سَعْيُهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحْسبون أنهم يُحْسنُون صُنْعاً .

ذلك محكُّ الطبيعة الإنسانية ، وممتَحَنُ النفس البشرية فى هذه الأرض .

بعد أن أسرّ آدم بمكنون صَدْرِه إلى ابنيهِ ثار قابيل ، ولم ينزل على إرادة أبيه ؛ لأنّ نصيبه أقلُّ جمالاً من نصيب أخيه ، فنفِس[2] عليه ، ولم يَرْضَ بالقسمة ، وودّ لو تكون توأمته من نصيبه دون أخيه .

---

(١) التوأم : المولود مع غيره فى بطن ، ذكراً كان أو أنثى . ويقال أيضاً : هذا توأم هذه ، وهذه توأمته .

(٢) نفس عليه : حسده .

وقد كان الجمالُ الخِلْقىُّ – وما زال – ريحاً هَوْجاء تتقاذفُ النفسَ البشرية، وقد توردها مواردَ الحتْفِ والهلاك .

كان الجمالُ سبباً للشقاق والمَوْجِدة والحفيظة بين الأخوين ، فجمح أحدُهما عن طاعة أبيه ، ونقض ما كان قد أبْرَمَ ، وفصَم ما كان قد أحكم .

هبَّت على الأب رِياحٌ عاصفة ، وما دارت يوماً فى خَلَده ولا حُسبانه ، وتوزَّعت نفسُه بين رغبة ابنيه ، والإبقاء على السلام بينهما والأمان ، إلى أنْ هَدَاهُ اللهُ إلى مخرَج يسدُّ به مَهبَّ الريح ، فطلب إليهما أن يقرِّب كلٌّ منهما قُرْباناً إلى الله ، فأيهما تُقُبِّلَ قُرْبَانُه كان أحقّ بما اشتهى وأراد .

فقدّم هابيل جَمَلاً من أنعامه ، وقدّم قابيل قَمْحاً من زراعته ، وكلٌّ منهما يترقرق فى صَدْرِه فَيْض الأمل ، راجياً أن يظفرَ بقَصَبِ السبق ، وأن يَحوزَ أعوادَ الرهان .

وكان هابيلُ موفورَ الحظ موفّق الخطوات ، فتُقُبِّل قُرْبَانه ولم يتقَبل قُرْبَان أخِيه ، لأنه لم ينزل على حُكْم أبيه ، ولم يخلص النية فى قُرْبَانه .

بعد ذلك سُقِط فى يَدِ قابيل؛ إذ انطفأ أملهُ ، وراح ضحيةَ الأثَرَة والحقد، وانبعثت شرورُه ، وامتدت نَوَازِيه ، فتوعّد أخاه ، وقال : لأقتلنَّك حتى لا أصاحبك شقيًّا وأنتَ سعيد ، ولا أؤاخيك مبسوط الأمل وأنا مضطهدُ العاطفة ، كاسف البال .

فقال هابيل لأخيه — والحسرةُ تقطع فؤاده : كان أولى لك يا أخى ثم أوْلَى ، أن تتعرّفَ موضعَ الداء فتحسمه ، وأن تتحرّى مسالك السلامة فتنبعث إليها ؛ لأنّ الله لا يتقبلُ إلاّ من المتقين .

وكان هابيلُ رجلا رزقه اللهُ بسطةً فى العقل والجسم ، من الذين حُمِّلوا الأمانة فصانوها ، ووُهبوا الحكمة فأجلُّوها ، يُؤثِرُ[١] رضا الله ، ويتعشق طاعة الأبوين ، ويرضى بقسمة ربّه ، ويرى أن الحياة متاع زائل ، وعرَض حائل[٢] ، وكان شديد الإشفاق على أخيه ، دائبَ النصح له ، والرَّعْوَى[٣] عليه ، وكان كذلك يرى فى نفسه قوةً من قوة الله ، فما يَضيرهُ تهديدُ قابيل ، وهو غِرٌّ مفتون ذو أَثَرَةٍ ، وذو عصيان !

ترك المقادير تجرى فى أعنّتها ، وما تملّقت مشيئته بسوء لأخيه ، ولا اختلجت نفسُه بأذى ؛ لأنّ الله الذى خلق الطهارة طبَعَهُ عليها يوم طُبع ، فهو يخافُ الله رب العالمين .

اتجه بعد ذلك هابيلُ بالنصح إلى أخيه : علَّ كلماته يكون فيها الشفاء فتنزع داء الحقد من قلب أخيه ، فقال : يا أخى ، إنكَ لجائر ، مائل عن طريق الصواب ، آثمٌ فى عزمك ، بعيد عن جادّة[٤] الحق فى رأيك ، فأَوْلى لك ثم أولى أن تستغفرَ الله ، وأن ترجعَ عن غَيّك . أمّا إذْ عقدت عَزْمَك ، وكنتَ فى تدبيرك ماضياً لا محالة ؛ فإنى لأترك الأمر إلى الله ، مخافةَ أن يلحقنى إثم ، أو يتعلّق بنفسى أثرٌ لعصيان ، فتحمل وحدك الإثم فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين .

لم تكن آصِرَةُ[٥] الأخوّة شفيعة أمام ذلك الحقد المتقد فى صدر قابيل ، ولم يكن مبعثُ الحنوّ والرحمة والعطف ليهدّىء من ثورة ذلك البركان الثائر ،

---

(١) يؤثر : يفضل ويقدم . (٢) حائل : زائل متغير .
(٣) الرعوى : رعاية الحفظ للعهد . (٤) الجادة : الطريق .
(٥) آصرة : رابطة .

ولم تكن مخافة الله ، ولا رعاية حقوق الأبوين ، رادعةً لتلك النفس التي كانت أول من أجرم على ظهر البَسيطة من الناس .

في ساعةٍ منْ ساعاتِ الفَلَكِ الدائر ، ولنزْوَةٍ حقيرةٍ منْ نزوات النفس الجامحة وقعت الواقعةُ ؛ فراح هابيل قتيلاً بيد أخِيه ، فريسةَ الْخُلُقِ والجهالة والغرام .

ذَوَى[1] عُود الأخ النَّضير ، وانطفأ مصباحُه ، وغاب عن الأُفُق الذي كان يطالع أباه فيه ؛ فاستوحش آدم ، وراح يتفقّد ابنه هابيل ، عَلّه يقف له على أثر ، أو يَبُلُّ أُوَام[2] شوْقه بخبَر . فسأل قابيل عن أخيه ؛ فردَّ رَدًّا ملؤه الخفّة والطيش ، وقال : ما كنتُ عليه وكيلا ، أو راعياً وحفيظاً . ولكن آدم عرفَ بَعْدُ أنّ ابنَهُ قد قُتل ؛ فسكت على هَمٍّ وَتَبْرِيح[3] ، وكبت في نفسه تلك الشعلة التي هاجت حُزْناً على فقيده وإشفاقاً على أخِيه :

أقول للنفس تَأْساءً وَتَعْــــزِيةً   إحدى يديَّ أصابتني ولم تُرِد

ولقد كان هابيلُ أوّل من قُتل على ظهر الأرض ، وما عرف قابيل كيف يوارى جُثة أخيه ؛ فحمله في جراب على ظهره ، وظل مضطرباً حائراً قَلِقَ النفس مُلتاع الفؤاد ، كيف لا ، وقد غدت نفسُه ميداناً تختصم فيه الحفيظة والعاطفة ؛ فبات معذباً نابيَ المضجع ، موسَّدَ الهم والحزن والعار !

أَرْوَحَ[4] الميتُ ، وناء قابيل بحمله ، ولم يَدْرِ كيف السبيل !

هنا لا بدّ أن تهبط رحمةُ الله رعايةً لحق تلك الجثة الطاهرة ، وسنًّا لدستور

---

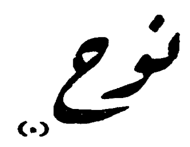
(١) ذوى : ذبل ، ويريد : مات .
(٢) الأوام : شدة الظمأ .
(٣) تبريح : شدة .
(٤) أروح : فاحت رائحته .

الخليقة ، وإبقاء على كرامة آدم وولديه ، وهنا كذلك لا بد أن يكون دَرْسٌ قاسٍ يتلقّاه ذلك الغِرُّ المأفون ، وما هو بأهل لوحى الله ، ولا لإلهام الله ، بل لا بدّ أن يكون تلميذاً للغُراب ! يتضاءل فهمُهُ أمام حُنْكَةِ ذلك الحيوان الأسود الضعيف ، وَتَفْنَى شخصيتُهُ بعد ذلك الدرس المؤلم الذى يتلقاه ذليلا ، صغير النفس ، معذب الفؤاد .

بعث الله غُرابين فاقتتلا ؛ فقتل أحدُهما صاحبه ، ثم حفر له بمنقاره ، ووَارَى[1] جثته تحت التراب . هنا استشعر الندم والحسرة ، فقال : (يا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هٰذَا الغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْأَةَ أَخِى)[2] .

---

(١) وارى : أخفى .
(٢) سورة المائدة من الآية : ٣١



(*)

ظلَّ قومُ نوح يعبدون الأصنامَ دهْراً طويلا ، واتخذوها آلهة يرجُون منها الخير ، ويستدفِعُون بها الشرّ ، ويردُّون كلَّ شيء فى الحياة إليها ، ودَعَوْها بمختلف الأسماء ، تارة وَدًّا وسُوَاع ويَغوث ، وتارة يَعُوق ونَسْراً[1]، على حسب ما يُملى عليهم الجهل ، ويزَيِّنُ لهم الهوى ، فأرسل الله إليهم نوحاً عليه السلام ، وكان رجلا فَتيق[2] اللسان ، واضحَ البيان ، رَزِين الحَصَاة[3]، بعيد الأناة[4] ، رزقه الله صبراً على الجدَل ، وقدرة على تصريف الحجج ، وبَصَراً بمسالك الإقناع . دعاهم إلى الله فأعرضوا ، فأنذرهم بالعِقَاب فَعَمُوا وصَمُّوا ، ورغّبهم فى الثواب فوضعوا أصابِعَهُم فى آذانهم واستكبروا ، ولكنه ناضلَهم وجادلهم ، ثم صابرهم وطاولهم ، فمدّ لهم حبلَ أناته ، وأفرغ معسولَ كلماته ؛ ولم يَضْعُف فى إيمانهم رجاؤه ، ولم يدع اليأس يسلك سبيلا إلى قلبه ؛ بل أخذ يفتنُّ فى الدعوة ، ويجاهدُ فى إبلاغ الرسالة ، فدعاهم ليلا ونهاراً ، وسرًّا وإعلاناً ، ووَجَّه نظرهم إلى سرِّ الوجود ، وإبداع الكائنات : ليلٌ داج[5]، وسماء

(*) آل عمران ٣٤ ، النساء ١٦٣ ، الأنعام ٨٤ ، الأعراف ٥٩ – ٦٢ ، يونس ٧١ – ٨٣ ، هود ٣٦ – ٤٩ ، الأنبياء ٧٦ ، ٧٧ ، الفرقان ٣٧ ، الشعراء ١٠٥ – ١٢٢ ، العنكبوت ١٤ ، ١٥ ، الصافات ٥ – ٨٢ ، نوح ١ – ٢٨ ، القمر ٩ – ١٦ المؤمنون ٢٣ – ٣١

(١) ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر : أسماء أصنام ، وقد انتقلت عن قوم نوح إلى العرب .

(٢) فتيق اللسان : فصيح اللسان . (٣) الحصاة : العقل والرأى .

(٤) الأناة : الحلم . (٥) داج : مظلم .

ذات أبراج ، وقمر يسبح ، وشمسٌ تسطع ، وأرض فجّر خلالها الأنهار ، وأنبت فيها الزروع والثمار ؛ كلّ هذا يتحدث بلسان فصيح ، وينطق ببرهان صحيح ، عن إلٰهٍ واحد ، وقدرة فذّة عجيبة .

وهكذا ظل يناضل ويساجل ، ويقيم الحجج ، ويبسطُ البراهين ، حتى آمنتْ به شِرْذِمة[1] قليلون ، استجابوا لدعوته ، وصدقوا برسالته .

أمّا الذين طبع الله على قلوبهم فلم يؤمِنُوا ، وسبقت لهم الشقوة فلم يهتدوا — وكانوا من عرَانين[2] القوم وذوى الشرف الصاعد فيهم — فقد تمالئوا عليه ، وتظاهروا على الاستهزاء به وتسفِيه رأيه .

قالوا : ما أنت إلا بشر مثلنا ، وواحدٌ منا ، ولو أراد الله أن يبعث رسولا لبعثه ملكا ، ولكنّا أصخنا لقوله ، وأجبناه لدعوته ، ثم ماهؤلاء الأراذل من طَغام[3] الناس وحُثالتهم ، وأهل الصناعات الخسيسة والحرف الدنيئة ، الذين انقادوا إليك بادِىَ الرأى[4] من غير أن يُمَحِّصوا آراءهم ، أو يُنْضجوا أفكارهم . لو كان خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء ! لو كان حقّاً ما تقولُ لكنّا — ونحن أولو الفطنة والزكانة ، وأصحاب الأذهان الصافية ، والأحلام الراجحة — أسبقَ إلى الإيمان بك ، والاقتداء بهداك !

ثم لَجُّوا فى الجدل ، وأمعنوا فى المراوَغة ، وقالوا : ما نرى لك يا نوح ، ولِصَحبك علينا من فضل ، لا فى العقل والحِجا ، ولا فى بُعد النظر ، ولا فى رعاية المصالح ، ولا معرفة المعاد وخاتمة المطاف ، بل نظنُّكمُ كاذبين !

---

(١) الشرذمة : الجماعة .
(٢) عرانين : جمع عرنين ، وهو السيد الشريف .
(٣) الطغام : أوغاد الناس .
(٤) بادى الرأى : من غير تعمق فى الفكر .

فأجابهم نوح ـ وسفاهةُ قولهم لم تصدَعْ صَفاة[1] حلمه ، ولم تُثِرْ قَطاة رأيه وعقله[2] : أرأيتم لو أننى كنت على بيِّنة من ربى ، وحجة شاهدة بصدق دعواى ، وآتانى رحمة منه وفضلا ، فَعَمِىَ عليكم القصد ، واشتبه الأمر ، وحاولتم ستر الشمس بأكفكم ، أو طمْس النجوم بأيديكم ، فهل أستطيع لكم إلزاماً ، أو أملك لحملكم على الإيمان سلطاناً .

قالوا : يانوح ، إن أردت لنا هداية وتوفيقاً ، وأردت منا نصراً وإعزازاً ، فاعمد إلى هؤلاء الأوزاع[3] الذين آمنوا بك ، فأقصهم عن حظيرتك ، وانبذهم عن حماك ، فإننا لا نستطيع أن نجرىَ فى عِنانهم ، أو نسيرَ على أسلوبهم ، أو نُقْرَنَ فى الاعتقاد بهم ، وكيف نستجيب لدين يستوى فيه الشريف والمشروف ، والملك والسوقة ؟

قال لهم: إنها دعوة عامَّة شاملة لكم جميعاً ، يستوى فيها نبيهكم وخاملكم ، مشهوركم ومغموركم ، الأغنياء منكم والفقراء ، والمرءوسون والرؤساء . وهبونى أجبتكم إلى مطلوبكم ، وحقّقتُ بطردهم مرغوبكم ، فمن الذى أعتَمد عليه فى نشر الدعوة وتأييد الرسالة ؟ وكيف أطْرُد قوماً نصرونى وقد لقيت منكم الخِذلان ، ووصلت كلماتى إلى قرارة نفوسهم ، وما صادفتْ منكم إلا الجحود والنكران ! وهم ما برحوا قَوَّاماً على الدين ، داعين إلى الله . ثم كيف يكون حالى معهم بين يدى الله إذا خاصمونى وحاجُّونى ، وشكوا إلى الله أنى قابلت خيرهم بالكنود[4] وإحسانهم بالجحود ؟ ألا إنكم قوم تجهلون !

---

(١) لم تصدع صفاة حلمه : لم تخرجه عن حلمه . وأصل الصفاة : الصخرة الملساء .
(٢) لم تثر قطاة رأيه وعقله : لم تغير مألوف رأيه وعقله .
(٣) الأوزاع : الأخلاط من الناس . (٤) الكنود : كفران النعمة .

ولما اشتدّ بينهم وبينه الجدل ، وانفرجت مسافة الخُلْف ، سئموا منه ، وضاقت صدورهم به ، وقالوا : (يَا نُوح قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) .

فهزىء بهم نوح ، وقال : إنكم تسرفون فى الجهل ، وتمعنون فى الحق ، ومَنْ أنا أحتى آتيكم بالعذاب ، أو أصدّه عنكم ؟ وهل أنا إلا بشر مثلكم يوحَى إلىّ أنما إلهكم إله واحد ، فأبلِّغكم ما أُمرت به ، وأبَشِّركم بالثواب مرة ، وأنذركم بالعذاب أخرى ؟ ألاَ إنّ مردّ كل شىء إلى الله ، إن شاء هداكم ، وإن شاء استعجل فأذاكم ، وإن شاء أملى[1] لكم ليزيدَ فى عِقابكم ، ويُمعِن فى النِّكاية بكم .

* * *

والأنبياء — لكى يؤدُّوا رسالتهم على وجهها الكامل — رزقهم الله صبراً على الإيذاء ، وجلداً على الخِصَام ؛ كما وسَّع فى رُقعةِ أحلامهم ، ومادّ[2] لهم فى حِبَالِ رجائهم ، لكيلا يكون للناس على الله حُجَّة بعد الرسل ، ولا لمن كفر عذرٌ بعد الأنبياء .

ونوحٌ كان من أولى العَزْم من الرسل ، مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، صابراً على أذاهم ، صامداً لاستهزائهم ، يرصد فيهم بَرْقَ الأمل ، ويشيم منهم بارقَ الإيمان[3] ، ولكنهم ما ازدادوا على الأيام إلا عُتُوًّا ، وما بلغت دعوتُه منهم إلا نفوراً ، فعاد حَبْلُ الرجاء بالياً ، ووجه الأمل أسودَ حالِكا ؛

---

(١) أملى لكم : أمهلكم . (٢) ماده : مده .

(٣) يتطلع إلى إيمانهم والبارق فى الأصل : السحاب ذو برق .

ففزعَ إلى الله شاكياً ملتجئاً ، مستعيناً مستهدياً ، فى هؤلاء الذين عجزت حيلتُه فيهم ، ويكاد الأملُ ينقطعُ فى إيمانهم ، فأوحى الله إليه : (إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ[1] بِمَا كَانُوا يَفْعَلُون)[2] .

ولما رأى نوحٌ أنَّ اللهَ قد حقّت كلمتُه ، وقضى وَحْيُه أنه لن يؤمنَ أحدٌ بعدُ ، وأنه قد طبع على قلوبهم ، ووضعت عليها الأقفال ، فلم يعودوا يخضعون لبرهان ، أو يُذْعِنُون إلى إيمان ، نَفِدَ صبره ، وقال : (رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً[3] . إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً)[4] .

فاستجاب الله دعاءه ، وأوحى إليه : أَنِ اصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ولا تخاطبنى فى الذينَ ظلَمُوا إنهم مُغْرَقُونَ ؛ فاتخذ مكاناً قاصياً[5] عن المدينة ، وأعدَّ الألواح والمسامير ، وأخذ يعملُ ، ولكنه لم يَنجُ من سُخْرِية القوم واستهزائهم .

وقال بعضهم : إنك يا نوحُ كنت تزْعُمُ قبل اليوم أنك نبيٌّ ورسوله ، فكيف أصبحتَ اليوم نجّاراً ، أزَهِدْتَ فى النبوَّة ، أم رغبت فى النجارة !

وقال غيرهم : ما بَالُ سفينتِكَ تصنَعُها بعيدةً عن البحار والأنهار ! أأعدَدْت الثيران لجرِّهَا ، أم كلّفت الهواء حَمْلَها ؟ ولكنه أعرض عن استهزائهم ، ومرَّ كريماً على لغوهم ، وقال : (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُون . فسوفَ تَعْلَمُون مَنْ يَأْتِيهِ عذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عليه عذابٌ مُقِيم)[6] .

---

(١) لاتحزن ولاتستكن .
(٢) سورة هود ، الآية : ٣٦
(٣) دياراً : أحداً .
(٤) سورة نوح ، الآية : ٢٦ ، ٢٧
(٥) قاصياً : بعيداً .
(٦) سورة هود ، الآية : ٣٨

وانصرف إلى السفينة يُقيم ألواحها ، ويصل أجزاءها ، حتى استوت سفينة مَكِينَةً ذات ألواحٍ ودُسُرٍ[1] ، وانتظر نوح ما يكون مِنْ أمر الله ؛ فأوحى إليه : إذا جاء أمْرُنَا ، وظهرت آياتُنَا ، فاعمد إلى سفينتك ، وخُذْ مَنْ آمن مِنْ قومك وأهلكَ ، واحْمِلْ معك مِن كلٍّ زوجين اثنين حتى يبلغَ أمْرُ الله .

وتفتّحت أبوابُ السماء بالماء ، وتفجّرت عُيُون الأرض ، وبلغ السيل الزُّبَى[2] ، ثم جاوز القِيعان والرُّبَا ؛ فهرع نوحٌ إلى السفينة ، وحمل ما أمر الله بحمله من الإنسان والحيوان والنبات ، وسارت باسم الله مجراها ومُرْساها : مرّةً هيَ في ريحٍ رُخاء ، وآونة في زَعزَعٍ نَكْبَاء[3] ، والأمواجُ تَفتَح بين طيّاتها للكافرين قبوراً ، والزّبدُ يَخيط لهم أكفاناً ، يغالبون الموت والموت يغلبهم ، ويصارعون الموجَ ولكن الموجَ يصْرَعهم ، حتى طوتهم الأمواه[4] طيّ السرّ في الفؤاد .

وأشرف نوح فوقَ ظهر السفينة ، فرأى ابنه كنعان — وكانت شقْوَةُ الله قد غلبَتْ عليه فاعتزل أباه ، ورغِبَ عن دِينه — يخوض اللُّجج ، ويُدافع المَوْجَ ، ويحاول أن يعتصم بجَبَلٍ يُنجِيه ، أو ربْوَة تُنقذه ، ولكن الحِمَام[5] كان منه يَدْنُو ، والغَرَق يقترب ، فرقّتْ له كبده ، ولانَتْ أعطافُ رحمته ، وهاجَ مَوْضعُ الإشفاق والحبِّ فيهِ ؛ فناداهُ لعلّ نداءهُ يصلُ إلى مكان الإيمان من قلبه فيؤمن ، أو يلمس ناحيةَ الشعور فيه فَيُذْعِن : إلى أين يابنيّ؟

---

(١) دسر : مسامير .

(٢) الزبى : جمع زبية ، وهى الرابية لايعلوها الماء .

(٣) الرخاء : اللينة . والزعزع : الريح التى تزعزع الأشياء . والنكباء : ريح انحرفت ووقعت بين ريحين .

(٤) الأمواه : المياه .

(٥) الحمام : الموت .

إنك تفرّ من قضاء الله وقَدَره إلى قضاء الله وقَدَره ، هَلُمَّ إلى السفينة مؤمناً ، فيلتئم شَمْلُكَ بأهلك ، وتَنْجُو ببدنك : (يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ)[1] .

ولكنَّ هذه الكلماتِ لم تَصِلْ إلى قرارةِ وِجْدانه ، ولم تجاوز شِغَافَ قلبه ، وحسبَ أنه قادرٌ على أن يَحْذرَ المكروه ، وَيُفْلِتَ من يَدِ القدر ، فقال : إليك عنى ، فإنى (سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ)[2] .

قال نوح — وقد أشجاه[3] الهمّ ، وغلبهُ الوَجْدُ[4] : يا بُنَيَّ ، إنه (لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ)[5] .

ثم فصلَ بينهما الموجُ ، وحجز السيل ، ولم يَعُدْ يرى ابنه ؛ فلذَة كَبِده ، وَحُشَاشَةَ قَلْبه ؛ فاعتلج صَدْرُه همًّا ، واتجه إلى الله ملجإ الملهوف ، وغَوْثِ المكروب ، وقال : (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي)[6] ، وقد وعدتَ — ووعدك الحق — أنكَ تنجينى ومَنْ آمن مِنْ أهلى ، وأنت أحكم الحاكمين .

فأوحى الله إليه : يا نوحُ ، إنَّهُ ليس من أهلك ، ولا من خاصَّة عشيرتك ، فقد سبقَتْ له الشَّقَاوَة ، وحقّتْ عليه كلمة الكفر ، فلا تَعدّ من أهلك إلا مَنْ آمن بك ، وصدّق برسالتك ، واستجاب لدعوتك ، هذا الذى تعده حقًّا من أهلك ، وهو الذى وعدتك بنجاته ، وإنقاذ حياته : (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)[7] .

أما من جَحَد برسالتك ، وكذب بكلمات ربك ، فإنه خارجٌ عن أهلك ، منبوذٌ من شفاعتك ، وإن كان بينك وبينه رَحِمٌ ماسة ، أو نَسَب جامع ،

---

(١) سورة هود ، الآية : ٤٢

(٢) سورة هود ، الآية : ٤٣

(٣) أشجاه : أحزنه .

(٤) الوجد : الحزن .

(٥) سورة هود ، الآية : ٤٣

(٦) سورة هود ، الآية : ٤٥

(٧) سورة الروم ، الآية : ٤٧

وهو لا بُدَّ واردٌ حَوْضَ المنيّة[١]، مشرفٌ على الغاية المحتومة ، وإن اعتصم بجبَل ، أو أوَى إلى رُكْنٍ[٢] شديد ، فإياك بعدها أن تسألنى عن شىء لا تعلمه ، أو تجادلنى فى أمر لا تدركه : (إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)[٣].

وحينئذ أدرك نوح أن العطف أذهله عن الحق ، والإشفاق ستر عنه الصواب ، وكان أولى به أن يبْسُط كفَّيه شكراً لله على ما خَصَّه وقومه المؤمنين من النجاة ، وعلى ما أوقعه على الكافرين من الغرق والهلاك ؛ فالتجأ إلى الله مستغفراً من ذنبه ، ومستعيذاً من سخطه ، وقال : (رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)[٤] ، وحال المَوْج بينه وبين ابنه فكان من المغرقين .

ولمَّا بلغ الشوطُ غايَتَهُ ، وطُوِيت صحيفةُ القوم الظالمين ، كفَّت السماء ، وابتلعت الأرض الماء ، ورسَت السفينة على جبل الجُودِىّ[٥]، وقيل : بُعْداً للقوم الظالمين !

وقيل لنوح : اهبط بسلام إلى الأرض ، أنت وَمَنْ آمنَ معك مِنْ قومك ، تحفّكم البركة ، وتكلؤكم العنايةُ ، عناية الله .

---

(١) المنية : الموت . (٢) ركن الرجل : قومه وعدده ومادته .
(٣) سورة هود ، الآية : ٤٦ (٤) سورة هود ، الآية : ٤٧
(٥) قيل : إنه جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح .

هود (*)

أقامت عاد[1] بالأحقاف ما بين اليمن وعُمان ، رَدَحاً من الزمن في بُلَهْنِيَةٍ[2] من العيش ، ورَغَدٍ من الحياة ، حباهم الله نعَماً وافرة ، وخيرات جليلة ، ففجَّروا العيونَ ، وزرعوا الأرض ، وأنشئوا البساتين ، وشادوا القصور ، ومنحَهم فوق ذلك بَسْطةً في أجسامهم ، وقوة في أبدانهم ، وآتاهم مالم يُؤْتِ أحداً من العالمين .

ولكنهم لم يُفَكِّروا في مبدأ هذا الخلق ، ولم يحاولوا التعرف إلى مصدر هذه النعم ، وغاية ما وصلت إليه عقولُهم ، وارتاحت إليه طباعُهم ، أن اتخذوا أصناماً لهم آلهة يَعْنون[3] لها بجباههم ، ويُعفِّرُون في ثَراها خُدودهم ، ويتوجَّهون إليها بالشكر كلما وقعوا على خير ، ويفزعون إليها بالاستنصار كلما أصابهم ضَيْر[4] .

ثم إنهم بعد ذلك عثَوْا[5] في الأرض ، فأذلَّ القويُّ منهم الضعيف ، وبطش الكبيرُ بالصغير ؛ فأراد الله — هدايةً للأقوياء ، وتمكيناً للضعفاء ، وتهذيباً للنفوس ممّا ران[6] عليها من الجهل ، ورفعاً للحُجُب التي تراكت على بصائرهم — أن يرسل إليهم رسولا من أنفسهم ، يحدِّثهم بلغتهم ، ويخاطبهم

(*) الأعراف ٦٥ — ٧٢ ، هود ٥٠ — ٦٠ ، والشعراء ١٢٢ — ١٤٠

(١) عاد : أبو قبيلة اشتهرت باسمه ، وموضع بلادهم اليوم رمال ليس بها أنيس .

(٢) بلهنية من العيش : أي سعة ورفاهية .

(٣) يعنون — من عنا يعنو — إذا خضع وذل .

(٤) ضير : ضرر .

(٥) عثوا في الأرض : أفسدوا فيها .

(٦) ران : غطى .

بأسلوبهم ، ويُرْشِدهم إلى خالقهم ، ويبيّن لهم سفاهةَ عبادتهم ، رحمةً منه وكرماً .

وكان هودٌ رجل من أَوْسطِهم[1] نسباً ، وأكرمهم خُلُقاً ، وأرجحهم حِلماً ، وأرحبهم صَدراً ؛ فاختاره اللهُ ليكونَ أمينَ رسالته ، وصاحبَ دعوته ، لعله يهدى هذه العقول الضالة ، ويقوّم من هذه النفوس المعوجّة . فصدَع بالأمر ، واضطلع[2] بالرسالة ، وادّرَع[3] بما يَدَّرِع به صاحبُ كلٍّ دعوة : عزْم يُقلقل الأجْبال ، وحِلْم يهزِمُ الجهّال ، وخرج عليهم مُنكِراً أصنامهم ، ومسفِّها عبادتهم .

قال : يا قوم ، ما هذه الأحجار التى تنْحِتونها ثم تعبدونها وتلجئون إليها ! ما خطرها وما غَناؤها[4] ، وما ضررها وما نفعها ؟ إنها لا تجاب لكم نفعاً ، ولا تدفع عنكم شرًّا ، إن هذا إلاّ ازدراء لعقولكم ، وامتهان لكرامتكم ، ولكنّ هناك إلٰهاً واحداً حقيقاً بأن تعبدوه ، وربًّا جَديراً بأنْ تتوجّهوا إليه ، هو الذى خلقكم ورزقكم ، وهو الذى أحياكم ، وهو الذى يُميتكم ، مكّن لكم فى الأرض ، وأنبت الزّرْعَ ، وبسَط لكم فى الأجسام ، وباركَ لكم فى الأنعام ؛ فآمِنُوا به ، واحذروا أن تعمَوْا عن الحقّ ، أو تكابرُوا فى الله ، فيصيبَكم ما أصاب قومَ نوح ، وما عَهْدُهُم منكم ببعيد .

قال ذلك هود ، وهو يرجُو أنْ تَصِلَ كلماتُه إلى أعماق نفوسهم فيؤمنوا ، أو تنفُذَ إلى عقولهم فيفكِّرُوا ويهتدوا . ولكنه رأى وجوهاً ساهمة وعيوناً حائرة ، أن سمعوا كلاماً لم يكونوا قَبْل قد سمعوه ، وألقى إليهم قول لم يَالَفُوه .

---

(١) يقال : فلان وسيط فى قومه ، إذا كان أرفعهم مجدا .

(٢) اضطلع : تحمل . (٣) ادرع بالدرع : لبسها .

(٤) الغناء : النفع .

قالوا : ما هذا الذى تَهذِى به وتخوضُ فيه ؟ وكيف تريد أن نعبد الله وحده من غير شركاء ؟ إننا نعبد هذه الأصنام لتقرِّبنا إليه ، وتشفعَ لنا عنده .

قال : يا قوم ، إنما الله واحدٌ لا شريكَ له ، وعبادتُه وحدَه هى جوهر العبادة ومُصاصها[1] ، ومُخُّها ولُبابُها ، وهو قريبٌ غير بعيد ، أقرب إليكم من حَبْل الوريد[2] ، أما هذه الأصنام التى تعبدونها زُلْفى إليه وشفاعةً عنده فهى تبْعُدكم عنه من حيث ظننتم أنكم إليه تقربُون ، وتَدُلُّ على جهلكم فى الوقت الذى تظنُّون أنكم تعلمون وتفهمون .

فأعرضوا وقالوا : ما أنت إلا سفيهٌ طائش الحِلْم ، تسفِّه عبادَتنا ، وتعيب ما وجَدْنا عليه آباءنا ، ما أنتَ مِنْ بيننا ؟ وما مَيَّزتك عن واحد منا ؟ أأنت تأكل كما نأكل ، وتشرب كما نشرب ، وتجرى فى حياتك على أسلوبٍ كالذى نجرى عليه ، فلِمَ اختصك الله بالرسالة ، وآثرك بالدعوة ؟ ما نظنّ إلا أنك من الكاذبين .

قال هود : يا قوم ، ليس بى سفاهةٌ عقل ولا حماقة رَأْى ، ولقد عشتُ فيكم دهراً طويلا فما أنكرتم علىَّ شيئاً ، وما جرَّبتم علىّ خُلُقاً ولا طيشاً ، وما الغريب فى أن يختصَّ الله واحداً من قومه برسالته ويحمِّله دعوته ! إنَّما الغريب أن يتركَ الناس سُدًى من غير رسول ، وفَوْضَى لا وازعَ لهم ولا رادع ، على أنى لست بيائس من إيمانكم ، ولا ضائق الصدر بسفهائكم ؟ ففكِّرُوا بعقولكم ، وانفذُوا إلى الحقائق ببصائرِكم ، تروا أن الله واحدٌ فى كل شىء ، فى هذا النظام العجيب ، والخلْق الغريب ، والفلكَ الدائر ، والنجم الثاقب[3] .

---

(١) المصاص : خالص كل شىء .
(٢) الوريد : عرق تحت اللسان .
(٣) النجم الثاقب : المضىء .

وفى كلِّ شىء له آيةٌ تدل على أنه الواحدُ

فآمِنُوا به واستغفروه يرسل السماء عليكم مدرَارا[1]، ويُمْدِدكم بأموال فوق أموالكم ، ويزِدْكم قوةً إلى قوتكم ، ولا تتولَّوا مجرمين .

واعلموا أنكم بعد موتكم سوف تُبعثون ، مَن عمل صالحا فلنفسه ، ومَن أساء فعليها ، فتدَبَّرُوا لأنفسكم ، وخذُوا الأُهبَة لآخرتكم ، وقد أبلغتُكم ما أرسِلْتُ به إليكم ، وإنى لكم به نذيرٌ مُبينٌ .

قالوا : لاشكّ أن واحداً من آلهتنا قد مَسَّك بسوء؛ فَخُولطت[2] فى عقلك ، ودُخِل عليك فى تفكيرك ؛ فأصبحتَ تهذِى بكلماتٍ لا حقيقةَ لها إلا فى خَلَدِك، ولا ظلّ لها إلا فى تفكيرك ، وإلاّ فما الاستغفار الذى يرسلُ اللهُ بعدَه السماء ، ويمدّ بالمال ، ويزيد فى القوّة ؟ وما يومُ البعث الذى تزعُم أنّنا نعود فيه بعد أن نُصبِح عظاماً نَخِرَةً[3]، وجُثَثاً بالية ؟ هيهات هيهات لما تَعِد وتزعُم ! وما هى إلا حياتنا الدنيا ، نموتُ ونحيا وما يهلكُنا إلاّ الدهر !

ثم ما العذابُ تَعِدُنا وتتوقّع أن نلقاه ؟ إننا لن نُذعِنَ لما تقول ، ولن نرجعَ عن عبادة آلهتنا ، فأتِنا بما تَعِدنا إن كُنْتَ من الصادقين .

فلما تبيَّن له العنادُ فى أحاديثهم ، والإصرارُ فى ثنايا أقوالهم ، قال لهم : إنى أشهد الله أننى قد بلّغت وما قصَّرْت ، وجاهدتُ وما أحجمْت ، وسوف أستمرُّ على هذا البلاغ وذاك الجهاد ، ولا أبَالِى جَمْعَكم ، ولا أخاف بطشكم ، فكيدونى كيداً ، أو أجمعوا بى بَطشاً ، إنى توكلت على اللهِ ربّى وربِّكم ، ما من دابة إلا وهو آخِذٌ بناصِيَتِهَا[4]، إنَّ ربّى على صِرَاطٍ مستقيم .

---

(١) درت السماء بالمطر : إذا كثر مطرها .

(٢) خولط فلان فى عقله : إذا اختل عقله . (٣) النخرة من العظام : البالية .

(٤) الناصية : خصلة الشعر فى مقدم الرأس ، والمراد فى قبضته .

وظلَّ يدعو والقومُ مُعْرِضون ، وفيما هو على هذه الحال شامُوا[١] سحاباً أسودَ يعترض السماء ، فاستشرفَ[٢] القومُ إليه ، وخفُّوا إلى رؤيته سِرَاعاً ، وقالوا : هذا سحاب عارضٌ[٣] سيُمطرُنا ، ثم تهيَّئُوا لاستقباله ، وأعدّوا حقولَهم لنزوله ، ولكن هوداً قال لهم : ليس هذا سحابُ رحمة ، وإنما هو ريح نِقْمة ، هو ما استعجلتم به ، ريحٌ فيها عذاب أليم !

وما رَاعَهم إلا أن رَأَوْا رِحالهم ودوابَّهم التى فى الصحراء ، تحملها الرياح على أجنحتها القوية ، وتقذفُ بها إلى مكان بعيد ! فداخلهم الفزَعُ ، وأدركهم الهلَع ، وهرَعُوا[٤] سِرَاعاً إلى بيوتِهم يُغلقونها عليهم ظَنًّا أنهم بذلك يَنجُون ، ولكن البلاء كان عامًّا ، والخَطْب شاملاً ؛ إذ حملت الريحُ رمالَ الصحراء ، وظلّت سبْعَ ليال وثمانية أيام متتاليات ، أصبح القوم بعدها صرعَى كأنهمُ أعجاز[٥] نَخْلٍ خاوية ، وعَفَا[٦] ظلُّهم ، ودَرَس رَسْمُهم ، وامَّحَى من التاريخ أمرهم : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصلِحُون)[٧] .

أما هود فقد آوى إليه صَحْبُهُ ، ومن آمن به ، وظلوا بمكانهم ، تهزِم[٨] حولهم الرِّيَاح ، وتَسْفِي[٩] الرمال ، وهم آمنون مطمئنون ، حتى هدأت الريح ، وصفا الحال . ثم انتقل إلى حضرموت ، وقضى بعد البقية الباقية من عمره .

---

(١) شاموا السحاب : نظروا إليه أين يمطر ؟
(٢) استشرف القوم : تطلعوا .
(٣) العارض : السحاب الممطر يعترض فى الأفق .
(٤) هرعوا : أسرعوا .
(٥) أعجاز النخل : أصولها .
(٦) عفا : ذهب وانتهى .
(٧) سورة هود ، آية ١١٧
(٨) هزيم الرياح : صوتها .
(٩) تسفى الرمال : تحملها وتنثرها

صالح (*)

هلكت عادٌ بذنوبها ، فأورث اللهُ ثمودَ أرْضَهُم وَدِيَارَهم ، فخلفوهم فيها ، وعمروها أكثر مما عمروها ، وفجّروا العيون ، وغرسوا الحدائق والبساتين ، ونحتوا من الجبال بيوتاً ، وأمنوا غوائلَ الدهر ، ونوائبَ الحدثان ، وكانوا في سَعَةٍ من العيش وَرغَد ، ونعمة وترَف ، ولكنهم لم يشكروا الله ، ولم يَحْمَدُوا له فضلَه ، بل زادوا عُتُوًّا في الأرض وفساداً ، وبُعداً عن الحقّ ، واستكباراً ، وعبدُوا الأوثانَ من دون الله ، وأشركوا به ، وَأعرَضوا عن آياته ، وظنُّوا أنهم في هذا النعيم خالدون ، وفي تلك السَّعَة متروكون .

بعث الله إليهم صالحاً ، من أشرفهم نسباً ، وَأوْسَعهم حِلْماً ، وأصفاهم عقلا ، فدعاهم إلى عبادة الله ، وحَضَّهم على توحيده ؛ فهوَ الذى خلقهم من تراب ، وعمرَ بهم الأرض ، واستخلَفهم فيها ، وأسبغ عليهم نِعَمه ظاهرة وباطنة ، ثم نهاهم أن يعبدُوا الأصنام من دُونه ، فهى لا تملكُ لهم ضرًّا ولا نفعاً ، ولا تُغْنى عنهم من الله شيئاً .

ذكَّرَهم الله بأواصر[1] القُرْبى التى تربطه بهم ، وَوَشائج[2] النَّسَب التى تصل بينه وبينهم ، فهم قومُه وأبناء عشيرته ، وهو يحبُّ نفعَهم ، ويسعَى فى خيرهم ، لا يضمر لهم سوءاً ، ولا يريدُ بهم شرًّا ، وأمرَهم أن يستغفروا الله ، ويتوبوا

(*) هود ٦١ - ٦٨ ، الأعراف ٧٣ - ٧٩ ، الشعراء ١٤١ - ١٥٩ ، النمل ٤٥ - ٥٣ ، القمر ٢٣ - ٣١ ، الشمس ١١ - ١٥

(١) أواصر : صلات وروابط .

(٢) وشائج النسب : اشتباكه وارتباطه .

إليه مما اقترفوا من ذنب ، واجترحوا من إثم ، فهو لمن دعاه قريب ، ولمن سأله مجيب ، ولمن أناب إليه سميع .

صَمّت منهم الآذانُ ، وغُلِّفت القلوب ، وعميت الأبصار ، فأنكروا عليه نبوَّته ، وهزئوا بدعوته ، وزعموا له أنها نابيةٌ عن الحقِّ ، بعيدة عن الصدق ، ثم لامُوهُ فيها ، وأنبُوهُ على صُدورها منه ، وهو الرَّاجحُ عَقلاً ، الصائب رأياً ، وقالوا : يا صالح ، عهدناك ثاقِبَ الفِكر ، مصيبَ الرَّأى ، وقد كانت تلوحُ عليك مخايلُ الخير ، وأمارات الرشد ، وكُنَّا نَدَّخرك لمُلِمَّات الدهر ، تضىء ظلماتها بنور عقلك ، وتحلُّ معضلاتها[1] بصائب رأيك ، وكنا نرجو أن تكون عُدَّتنا حين يَحزُبُ[2] الأمر ، ويشتدُّ الخطب ، فنطقْتَ هُجْراً[3] ، وأتيت نُكْراً ، ما هذا الذى تدعونا إليه ؟ أتنهانا أن نعبُدَ ما كان يعبد آباؤنا ، وقد دَرَجنا عليه ، ونشأنا متمسكين به ! إننا لفى شك مما تدعونا إليه مُرِيب ، لا نطمئنّ إلى قولك ، ولا نثق بصدق دعوتك ، ولن نترُك ما وجدنا عليه آباءنا ونميل مع هَوَاك وَزَيْغك[4] .

حَذَّرَهم مخالفته ، وأعلن فيهم رسالته ، وذكَّرَهم بما أسبغ الله عليهم من نِعَمه ، وخوَّفهم بَأْسَه وَبَطْشَه ، وأبان لهم أنَّهُ لا يقصد من وراء دعوته إلى نفع ، ولا يطمح فى مغنم ، أو يتطلّعُ إلى رياسة ، وهُوَ لم يسألهم أجراً على الهداية ، ولا يطلب جزاء على النصيحة ، وإنما أجرُه على الله ربِّ العالمين ، درءاً[5] لكلّ شبهة قد تُساور نفوسهم ، وَدَفْعًا لكل شكّ قد يَجُولُ فى خواطرهم .

---

(١) المعضلات : المشاكل .
(٢) حزبهم أمر : أصابهم .
(٣) الهجر : السيىء من القول .
(٤) الزيغ : الميل ، والجور عن الحق .
(٥) درءا : دفعاً .

آمن به بعض المستضعفين من قومه ، أما الملأ الذين استكبروا فأصرُّوا على عنادهم ، وتمادَوْا فى طغيانهم ، واستمسكُوا بعبادة أوثانهم ، وقالوا له : إنك قد خُولِطْتَ فى عقلك ، وضاع صوابك ، وما نظنُّ إلا أن أحداً سَلّط عليك شيطانه ، أو أعملَ فيك سِحْره ، فأصبحت تهرِفُ بما لا تعرف ، وتنطق بما لا تفقه ، فلست إلا بشراً مثلنا ، وما أنت بأشرفنا نسباً ، أو أفضلنا حَسَباً ، أو أوسعنا غنى وجاهاً ، وفينا مَنْ هو أحقُّ منك بالنبوّة ، وَأَجْدرُ بالرّسالة ، فما حملك على انتهاج هذه الطريق ، وسلوك تلك السبيل ، إلا رغبتك فى تعظيم نفسك ، وتطلعك إلى الرياسة على قومك !

حاولوا صدَّه عن دينه ، وصرفه عن دعوته ، وزعموا أنهم إن اتبعوه حادوا عن الصراط المستقيم ، وخالفوا الطريق القويم ، فأعرض عن بُهتْانهم ، ولم يستمع إلى غوايتهم ، وقال : يا قوم ، إن كُنتُ عَلَى بيِّنَة من ربى ، وآتانى منه رحمة ، ثم اتبعت طريقكم ، وسرت فى سبيلكم ، وعصيت ربى ، فمن يمنعنى من عذابه أو يعصمنى من عقابه ؟ إن أنتم إلاّ مُفترون .

فلما وجدوا منه استمساكا برأيه ، واعتصاما بحقِّه ، خاف المستكبرون من قومه أن يكثُرَ تابعوه ، ويعظم ناصرُوه ، وعزَّ عليهم أن يكون المرشد للقوم ، والموئلَ[1] عند اشتداد الخطب ، والكوكب المنير إذا أدلهمّ الأمر ، فينصرف الناس عنهم ، ويفزَعون إليه فى كلِّ شأن ، ويطرقون بابه كلّما حزَبَهم أمر[2] ، ولا شكَّ أنه سيهديهم إلى ما يقربهم إلى الله ، ويصدّهم عما يُثْنيهم[3] عنه ، فخافوا زوالَ دولتهم ، وذهاب سلطانهم ، وأرادوا أن

---

(١) الموئل : الملجأ .

(٢) حزبه الأمر : أهمه وأصابه.

(٣) يثنيهم : يبعدهم .

يظهروا للناس عَجْزَه ، فطلبوا منه أن يأتيهم بآية يتبيّنون بها صدق دعوته ، ومعجزةٍ ظاهرة تصدِّق رسالته . فقال لهم : هذه ناقة لها شِرْبٌ[1] ولكم شرْبُ يوم معلومٍ فذرُوها تأكل فى أرض الله .

لم ير الناس قبلاً ناقة تستأثر يوماً بمائهم ، ولم يعهدوا غيرها تَكفُّ يوماً عن شِرْبهم ؛ ولا شكَّ أن صالحاً قد عهد فيهم إصراراً على الكفر ، واستمساكاً بالباطل ، وعلم أن المُنكِر يفزعه ظهور حُجَّة خصمه ، ويخيفه وضوح برهانه ؛ بل يحرِّك كامن غيظه ومستور حقده قيامُ شاهده ، وقوةُ آيته ؛ لذلك خاف إقْدامُهم على قتلها ، وحَذّرهم الفتك بها ، فقال لهم : لا تمسُّوها بسوء فيأخذكم عذابٌ قريب .

مكثت الناقةُ بينهم زمناً تأكلُ فى أرض الله ، تَرِدُ الماء يوماً ، وتصدُّ عنه يوماً ، ولاشك أن قيامَها قد استمال إليه كثيراً مِن قومه ، إذ استبانوا بها صدقَ رسالته ، وأيقنوا بصحة نبوّته ، فأفزع ذلك المستكبرين من قومه ، وخافوا على دولتهم أن تَبيد[2] ، وعلى سلطانهم أن يزول ، فقالوا للمستضعفين من قومه — وهم الذين أشرق نورُ الإيمان فى قلوبهم ، فعمرت به صدورهم ، وانصاعت إليه أفئدتهم : أتعلمون أن صالحاً مُرْسلٌ من ربه ؟ فقالوا : إنا بما أُرْسل به مؤمنون . فلم تلنْ قناةُ القوم ، ولم يخفِّفوا من غُلوائهم[3] ، بل أعلنوا كفرهم ، وصارحوهم بتكذيبهم ، وقالوا : إنا بالذى آمنتُم به كافرون .

لعلَّ هذه الناقة كانت ضخمة الجسم ، متميزة الشكل ، فأرهبت أنعامهم وأخافت إبلهم ، فكرهوا لذلك مُقامها بينهم ، وقد تكونُ حالت بينهم

(١) الشرب : النصيب من الماء .
(٢) تبيد : تذهب .
(٣) الغلواء — بالضم وفتح اللام ، ويسكن — الغلو .

وبين الماء حين اشتدادِ الحاجة إليه ؛ إذ كان لها شِرْبٌ ولهم شِرْبُ يومٍ معلومٍ .

وقد تكون نَوازى[1] الشرّ دفعتهم إلى إخفاء آيته ، وطَمْس معالم حجته؛ لأنهم رأوها تجذبُ القلوبَ نحوه ، وتستميل النفوس ، فخافوا أن يكثرَ المؤمنون به ، وينتشر أنصاره وتابعوه .

قد يكون هذا أو ذاك ، أو كلّ هذا قد حملهم على عَقْرها ، ودفعهم إلى قتلها ، رغماً من تحذيرهم بالعذاب ، وتوعُّدهم بالهلاكِ إنْ مسُّوها بسوء .

ما أظنُّ إلا أن القومَ حسبوا هذه الناقة خطراً جسيما ، وشرًّا مُستطيراً ، ففكَّروا طويلاً ، وأمعنوا كثيراً ، ولا إخالهم إلاّ هابُوا قَتْلَها ، وأشفقوا على أنفسهم من إهلاكها ، وكلما همُّوا بها قَفَلوا راجعين وأدبروا خائبين .

وبقى القوم يَدْفعهُم الشر ، وتمنعهم الرَّهْبة ، لا يجرُؤ أحدهم على إيذائها ولا يتقدم واحدٌ إلى مسّها ، فاستعانوا[2] بالنساء يبذلن ما يملكْنَ من دَلّ ، ويغرين بما فيهنّ من جمال ، والمرأةُ إذا أمرَتْ كان الرِّجالُ طوعَ أمرها ، وإذا تمنَّت تسابقوا إلى تحقيق أمنيتها ، فهاهى ذى صَدُوق بنت الْمُحَيّا ، ذات الحسب والمال ، تعرض نفسها على مصدع بن مهرج ، إنْ هُوَ عَقَر الناقة ، آية صالح البيِّنة وحجَّته البالغة ، وتلك هى عُنَيزة العجوز الكافرة تجتذب قُدَار بن سالف إليها ، وتعرض عليه إحدى بناتها ، ولا تطلب إليه بذلا ، ولا تسأله عطية أو مالا ، إلاّ عقر الناقة التى تستميل القلوب ، وتشعل جذوة الإيمان ، وهى مع ذلك تقضُّ مضجعهم ، وتستأثر بشربهم ، وتنفر منها أنعامُهم .

---

(١) النازية : حدة الرجل وسورته إلى الشر .

(٢) راجع الألوسى فى روح المعانى ، وقصص الأنبياء للشيخ النجار، صفحة ٢٨٣

فصادف هذا الإغواء هوًى فى نفسهما ، ورغبةً فى فؤادهما ، وزادهما بأساً وقوة ، وأفاض عليهما إقداماً وجُرْأةً ، فسعيا بين القوم يلتمسان مَنْ يؤازرهما، ويبحثان عمن يُعاضِدُهما ، فاستجاب لهما سبعة آخرون ، وانطلقوا إلى الناقة يَرْصُدونها ، وخرجوا يرقبونها ، فلما صدَرَت من وردها ، ورجعت عن مائها، كمن لها مصدع بن مهرج ، فرماها بسهم انتظم[1] عَظْمَ ساقها ، وابتدرها[2] قدار بن سالف بالسيف ، فكشف عن عُرْقوبها[3] ، فخرَّت على الأرض ، ثم طعنها فى لَبّتها فنحرها ! وأزاحا عن كاهلهما همًّا ثقيلا ، وحملا عظما ، ورجعا يزُفان إليهم البُشرى ، واستقبلهما الناس كما يستقبل القائد الظافر ، أو الملك الفاتح ، وهللوا لمقدمهما ، ونسجُوا لهما أكاليل المدْح ، وأضفَوْا عليهما جميل الثناء .

عقروا الناقة ، وعَتَوْا[4] عن أمر ربهم ، وكشفوا عن ذات أنفسهم ، واستخفوا بوعيده ، وقالوا : ياصالح ، ائتنا بما تَعِدُنا إن كنتَ من المرسلين .

فقال لهم صالح : قد حَذَّرتكم إن أصبتموها بأذى ، أو مسستموها بسوء ؛ ولكنكم قد اجترحتم الذنبَ ، واقترفتم الإثم ، فتمتعوا فى داركم ثلاثة أيام يأتيكم بعدها العذاب ، ويحلُّ عليكم فى نهايتها العقاب ، ذلك وعدٌ غيرُ مكذوب .

ولعله قد ضرب لهم ذلك الميعاد ، ترغيباً لهم فى الإنابة إلى الله ، وحثاً لهم على الإصاخة إلى دعوته ، ولكن الشكوك مازالت مُتأصلة فى نفوسهم ، والأوهام متسلطة على أفئدتهم ! فلم تُغنهم النذُر ، ولم يثوبوا إلى رشدهم ، بل ظنُّوا وَعِيده كذباً وَمَيْناً ، وتحذيره زوراً وبهتاناً ، فتمادَوْا فى استخفافهم ، وسألوه أن يعجِّل بعذابهم ، ويأتيهم بما وعدهم ، فقال : يا قوم ، لِمَ تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، لولا تستغفرون الله لعلكم تُرْحَمُون !

---

(١) انتظم الصيد : إذا طعنه أو رماه حتى ينفذه .

(٢) ابتدرها : عاجلها .   (٣) العرقوب : عصب موثق خلف الكعبين .

(٤) عتا : استكبر ، وجاوز الحد .

ولكنهم تمادَوْا في الضلال ، واستسلموا لنوَازِي الشر ، فقالوا : اطَّيَّرْنا[1] بك وبمن معك .

واجتمع نَفَرٌ من قومه ، وتقاسموا على أن يتسللوا إليه فى جُنْح الظلام ، ويباغتوه[2] وأهله والناسُ نِيام،فيوقعوا بهم من غير أن يراهم أحد،فأجمعوا أمرهم بينهم على أن يكون ذلك سِرًّا مكتوماً ، لا يذيعونه ولا يتناقلونه .

بيَّتوا له الشر ، وأضمروا له ولأهله القتل ، ظنّا منهم أن ذلك يَعصمهم من العذاب ، ويُنجيهم مما سيحلُّ بهم من عقاب ، ولكن الله لم يُمهلهم ، بل أحبط مكرهم ، وَرَدَّ إليهم كيدهم ، ونجاه مما أرادوا به ، وأنقذه والذين آمنوا معه من العذاب ، وأنزل بالكافرين عقابه ، تصديقاً لوعده ، ومظاهرةً لنبيه ، فأخذتهم الصاعقةُ بظلمهم فأصبحوا فى ديارهم جاثمين .

ولم يمنعهم ما شادوا من قصور شامخة ، وما جمعوا من أموال وافرة ، وغرَسوا من جنات واسعة ، ونحتوا من بيوت آمنة .

ورأى صالح ما حلَّ بهم؛ إذ أصبحت جُثَثُهم هامدة ، وديارهم خاوية،فتولى عنهم والأسى يملأ نفسه ، والحسرة تقطِّعُ نياطَ قلبه ، (وقال : يا قومِ ، لقد أَبْلَغْتُكم رِسالة رَبِّي ونَصَحْتُ لكم ولكن لاَ تُحِبُّون النَّاصحين)[3] .

---

(١) تطير عن الشيء وبالشيء : تشاءم به .   (٢) يباغتوه : يفاجئوه .

(٣) سورة الأعراف ، آية ٧٩ .

ابراهيم

إبراهيم وآية البعث(*)

كان أهلُ بابلَ يَنعمون برغد العيش ، ويتفيَّئُون ظلال النعمة ، ولكنهم كانوا يَخْبطون فى دَياجير(1) الظلام ، ويتردَّوْنَ فى مَهَاوِى الضلالة ، فقد نحتوا الأصنام بأيديهم ، وصنعوها على أعينهم ، ثم جعلوها أربابا(2) ، ونصبوها آلهة ، وعكفُوا على عبادتها من دون الله الذى خلقهم ، وأسبغ عليهم نعمهُ ظاهرة وباطنة .

وكان نمرُود بن كنعان بن كُوش قابضاً على زمام الملك فى بابل ، وحاكماً بأمره مستبدّا برأيه ، ولما رأى ما يتقلّب فيه من نعيم ، وما يتمتع به من سطوة الملك ، وما يحيط به من قوة السلطان ، ثم ما أطبق على القوم من جهل ، وما ران على قلوبهم من عَمَهٍ(3) ، أقام نفسهُ إلهاً ؛ ودعا الناس إلى عبادته ؛ ولماذا لا يُلزمهم الخضوع له ، ويطلبُ منهم عبادته وتعظيمه ، وقد وجد الجهل فاشياً ، والعقائد فاسدةً ، والقوم فى ضلال مبين ! ألم يعبدوا الحجارة الصمّ ، والتماثيل الجوفاء ، وهى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تملك لهم نفعاً ولا ضرًا ! أما هو فينطق ويفكِّرُ ، ويُدرك ويشعر ، ويُفيضُ عليهم الخير ، ويدفع عنهم الشر ، ويستطيع أن يصيِّر فقيرهم غنياً ، ويجعل عزيزهم ذليلا ، وهو ذو قوَّة فيهم وصاحب سلطان عليهم .

فى وسط هذه البيئة الفاسدة ، وفى بلدة فدام آرام من هذه المملكة وُلدَ إبراهيم لأبيه آزر ، ثم آتاهُ اللهُ الرُّشد ، وهداه إلى الحق ، فعرف بصائب رأيه ، وثاقب فكره ، وَوَحْى ربِّه أن الله واحد ، وأنه المهيمن على الكون ، المسيطرُ

(*) البقرة: ٢٦٠

(1) جمع ديجور : الظلام .

(2) أرباباً : آلهة .

(3) العمه : التردد فى الضلال .

على العالم ؛ وأدرك أن هـــذه الأصنامَ التي يعبدونها ، وتلك التماثيل التي ينحتونها ، لا تُغني عنهم من الله شيئاً ، لذلك أزْمَعَ الدعوةَ إلى توحيد الله ، وعزم على تخليص قومه من وَهْدَة الشرك ، وحمأة الرذيلة ، وَأَعَدَّ العُدَّةَ لينقذهم عن ضلالهم ، واتخذ الأهْبة لردّهم عن غيّهم .

وقد كان إبراهيمُ مفعمَ القلب بالإيمان بربه ، ممتلئاً بالثقة واليقين بقدرة خالقه ، مؤمناً بما أوحى إليه ، من بعثِ الناس بعد موتهم ، وحسابهم في حياة أخرى على أعمالهم ؛ ولكنه أراد أن يزداد بصيرة وإيماناً ؛ وثقة ويقيناً ، وتطلع أن يلمس الآية البينة على البعث ، ويرى الحجّة الواضحة على النشور ؛ فسأل ربه أن يُريه كيف يحيي الموتى بعد موتهم ، ويبعثُهم بعد فناء أجسامهم ؟ فقال الله له : أو لَمْ تؤمِنْ ؟ قال : بلى ! قد أوحيتَ إليّ ، وآمنتُ وصدقتُ ، ولكني تاقت نفسي للعِيان[1] ، وامتدّتْ عيني إلى المشاهدة ، ليطمئن قلبي ، ويزدادَ يقيني .

ولما كان إبراهيمُ يقصِدُ إلى أن تطمئن نفسه ، ويستقر فؤادُه ، أجاب الله سُؤله ، وأمره أن يأخذ أربعة من الطير ، ويضمّها إليه ، ليتعرف أجزاءها ، ويتأمل خَلْقها ، ثم يجعلها أجزاء ، ويفرقها أشلاء[2] ، ويجعل كل على جبلٍ منهنّ جُزءا ، ثم يدعوهنّ إليه ، فيأتينه سَعْياً بإذن الله .

فلما فعل صار كلُّ جزء ينضمُّ إلى مثله ، وعادت الأشلاء كل في مكانه ، وسرعان ما سرَت فيها الحياةُ ، ورجعت إليها الرُّوح ، وسعت إليه بقدرة الله ، وسارت إليه بإرادته ، وهو يرَى آياتِه البينة ، وقدرتَه الباهرة التي لا يعجزها شيء في السموات ولا في الأرض .

---

(١) عاين الشيء عياناً : رآه بعينه .

(٢) الأشلاء : جمع شلو ، وهو العضو .

هذه الطيور قد أزهق رُوحَها ، ومزّق أجسادها بيده ، ثم تناثرت أشلاؤها ، وتفرقت أعضاؤها على عَيْنِه ، ولما دعاها أقبلت عليه ، واجتمعت إليه ، ثم تماسكت أجزاؤها ، واتصل ما تفرق منها ، وعادت إليها الحياة ، وما مِنْ أحد يرى ذلك ثم يُساوِره شكٌ ، أو يَتخالجه رَيْب فى قُدْرَة الله على بَعث الموتى من مَرْقدهم ، ونَشْرهم من قبورهم ؛ سبحانه ! إذا أراد شيئاً فلا مردّ له ، وهو العزيزُ الحكيم .

* * *

إبراهيم يتلطف فى دعوة أبيه(*)

وكان آزَرُ يعبد الأصنام ، بل كان ممن يَنْحَتُها ويَبِيعها ، وهو أقربُ الناس إليه وألصقُهم به ، وأولاهم بالهداية ، وأجدرُهم بإخلاص النصيحة ، فمن البرّ به أن يَهديَه سواء السبيل ، ثم هو أيضاً من المسوّين خَلْقها والناحتين لها ، والداعين إلى عبادتها ؛ إنه لذلك داعيةُ إثم ، ومبعث فِتنة ، فهدايتُه قُرْبى إلى الله ، واستئصال لبذور الشر ، واجتثاثٌ لجذور الضلال .

لم يبدأ الدعوة مع أبيه بتَسْفِيه معبوداته ، أو تحقير آلهته ، لئلا ينفر منه أو يُصِمّ آذانه عنه ، أو يرميه بالعقوق والجحود ؛ بل رتّب الكلام معه على أحسن اتساق ، وخاطبه بالقول اللين ، والأدب الجميل ، وابتدأ حديثه معه بذكر بنوّته ، ليستثير عطفه ويمسّ شَغَاف قلبه ؛ ثم يسأله عمّا يدعوهُ إلى رُكُونِه إلى الأصنام ، وعُكوفه على عبادتها ، مع أنها لا تَسمع دعاءه وثناءه ، ولا تبصر خُضوعَه وخشوعه ، ولا تُستَدفَعُ فى بلاء فتدفعه ، أو تُسْتَمنح شيئاً فتمنحه .

وخاف أن ينصرف عنه استصغاراً لشأنه ، وامتهاناً لرأيه ، فقال : يا أبت ،

(*) الزخرف ٢٦ – ٢٨ ، الأنعام ٧٤ ، التوبة ١١٤ ، مريم ٤١ – ٤٨ ، الأنبياء ٢٥ .

إنه قد جاءنى من العلم ماليس لك ، وأوتيتُ حظًّا من المعرفة لم تؤتَه ، فلا تستنكف أن تُتابعنى ، ولا تتخاف عن مُسَايَرَتى ؛ وإن كنتُ لا أبلغُ شأوَك ، أو أشارف[1] سِنّكَ ؛ ثم توسل إليه أن يتبع خطواته ، ويسيرَ على هَدْيه ، فذلك هو الصراط المستقيم ، والطريق القويم .

ثم أراد أن يُزَهِّدَه فى أوثانه ، ويَنأى به عن عبادة أصنامه ، فأبان له أنه بالعكوف عليها ، والانقياد لما يعبدُ الشيطان ، ويلتجىء إلى ساحته ، وهو الذى عصى الرحمن ، وتوعّد الناس بالإغواء ؛ فهو عدوٌّ لا يُرشِدُ إلى خير ، ولا يبغى إلا الهلاكَ والشر ؛ ثم خوّفه سوء العاقبة وشرّ المصير ، ولكنه لم يصرّح بأنّ العذاب لاحِقُه ؛ والعقاب مُحِيق به ، برًّا به ، وتأدباً معه ، واستعطافاً له .

فلما عرض هذا الرُّشْدَ عليه ، وأهدى هذه النصيحة إليه ، أبى آزرُ مُتابعة رأيه ، وأصرّ على عناده وكفره ، وأقبل عليه بفظاظة الكفر ، وغِلظة العناد ، وتجاهلَ بُنُوّته ، وأنكرَ حَدَبَهُ عليه وشفقته به ؛ وتجهّم له ، وقال ـ محتقراً لشأنه ، مُتعَجِّباً من جرْأته ، مُنكِراً عليه نصيحتَه : أراغبٌ أنت عن آلهتى يا إبراهيم ! لئن لم تَنْتَهِ عن زَيْغِك ، وترجع عن غَيِّك ، وتَثُبْ إلى رشدك ـ لأرجمنّكَ بالحجارة ، ولأرمينك بِهُجْرِ[2] القول ؛ فاحذر سَوْرَةَ[3] غضبى ، وتجنّب إثارة سُخْطى ، واهجرنى مَلِيًّا[4] ، فليس لك فى دارى مكان ، ولن تجد فى قلبى أثارَةً[5] من عطف ، أو بقية من إحسان .

قابل إبراهيم تَهديد آزر بصدْرٍ رَحْب ، وتلقّى وعيده بنفس مطمئنة ، ثم أجابه بما يُنبىء عن برِّه به ، وإخلاصه النصحَ له ، وقال : ([6] سلامٌ عليكَ سأستغفرُ لك رَبِّى إنّهُ كان بى حَفِيًّا[7] ، وأعتزِلُكم وما تَدْعُون

(١) أشارف : أقارب .
(٢) الهجر من القول : الفاحش منه .
(٣) سورة الغضب : شدته .
(٤) ملياً : طويلا .
(٥) أثارة : بقية .
(٦) سورة مريم : ٤٧ ، ٤٨
(٧) حفياً : بالغا فى الكرم .

مِنْ دونِ اللهِ وادْعُو ربِّي عسَى ألا أَكُونَ بِدُعاء رَبِّي شَقِيًّا) .

وودّعه وانصرف ، وهو كاسِفُ البال ، محزون الفؤاد ؛ لأن دعوتَه لم تجد آذانا مُصغِيةً عند أبيه ، واعتزله لئلا يَكونَ مُظاهِراً[1] له على الكفر ، ومشايعاً في الشّرْكِ .

* * *

إبراهيم يحطم الأصنام(*)

خاب رجاء إبراهيم حين أنكر عليه أبوه دعوته ، وحزّ في نفسه أن يدعوَه إلى الخير فلا يستجيبُ إلى دعائه ، وأن يهديَه إلى الخير فيبرَأ منه ويَنأى عنه ، ولكنْ هذه الغلظة التي بدَتْ من أبيه ، وذلك الجفاء الذي ظهر منه لم يقعداه عن متابعة دعوته إلى الحقّ ، ولم يَثنياه عن النّكير[2] على قومه إشراكهم بالله ، وعبادتهم الأصنام من دونه ، بل أزْمَعَ أن يمحوَ هذه العقائد الفاسدة ، ولو ناله في ذلك أذى كثير ، ولحقه شَرٌّ مُسْتَطِير .

كان إبراهيم ذَكِيّ الفؤاد ، صائبَ الرأيِ ، ثاقبَ الفكر ؛ فرأى أن الحجةَ القولية ، والبرهان اللفظي ، وإن وضحا وضوحَ الصبح ؛ لا ينبتان نباتاً حسناً في الأرض الجُرُز[3] ، فأراد أن يشركَ أبصار القوم مع بصائرهم ، وحواسهم مع أفئدتهم في تفهُّم عقيدته ، والوقوف على حقيقة دعوته ، علّهم يثوبون إلى رُشْدهم ، ويرجعون عن غيِّهم .

انظر إليه يستدرجُهم إلى مُجادلته ، ويَسْتنزلهم إلى مجال محاورته ، فيسألهم : ماذا تعبدون ؟

(*) الأنبياء ٥٢ – ٦٨ ، الشعراء ٦٩ – ١٠٢ ، والعنكبوت ١٦ ، ١٧ ، ٣٤

(١) مظاهرا : معينا . (٢) النكير : الإنكار . (٣) الجرز : الأرض التي لا تنبت .

أفاضوا الحديث فى شأن أصنامهم ، وأطنبوا[1] فى جوابهم ، مُعتزّين بعبادتها ، معتدّين بالخضوع لها ، وقالوا : نَعبُد أصناماً فنَظلُّ لها عاكفين .

قد كان إبراهيم مُلهَماً فى سؤاله ، موفَّقاً فى استفساره ؛ فهو كالطبيب حاول أن يتحسَّس الداء ، ليصفَ الدواء ، أو كالقاضى أراد أن يحملهم على الإقرار بارتكاب الجُرْم ، والاعتراف باقْتِرَافِ الذّنْب ، وهو فى ذلك يُضَيِّق دائرة الجدل ، ويجمع أشتاتَ الخلاف فى مسألة واحدة ؛ فإذا أوْهنَ[2] أساسَها ، وقوّض أركانها ، وأوضح بُطْلانها فَقَدْ ألزمهم الحجّة ، وحينئذ لا يجدون مَحِيصاً من اتّباعه ، ولا مناصاً من طاعته .

كرَّ عليهم يَنقد زائفَ آرائهم ، ويبيّن فاسدَ اعتقادهم ، فقال : هل يسمعونكم إذ تتوجّهون إليهم بالعبادةِ ، ويُبصرونكم حين تقدّمون لهم الطاعة ؟ وهل ينفعونكم أو يضرُّون ! ؟

ما أقبح التقليد ، وما أعظم كيْد الشيطان الذى استدْرَجَهم إلى أن حاكَوْا آباءهم فى الكفر ، وجارَوْهم فى الشرك ، وزيّن لهم عبادة التماثيل ، فعفَّرُوا لها جباهَهم ! وما أشدّ جَهلَهم حين أعتقدوا أنهم على حقّ ! بل جدّوا فى نصرة مذهبهم ، وجادَلُوا أهلَ الحقِّ عن باطلهم ، وما أوْهَى ما نطقوا به! وما أضعف ما أجابوا به! فقد قالوا: (وَجَدْنا آباءَنا لها عَابِدِينَ)[3].

أقَرُّوا أنها لا تَسمَعُ داعِياً ، ولا تملك لهم ضَرًّا ولا نفعاً ، واعترفوا بأنهم ما عَبَدُوها إلا اقتداء بأسلافهم واتّباعاً لآبائهم ؛ فجعلوا ما دَرَج عليه قومُهم ، وما اهتدى إليه قدماؤُهم دليلا على استمساكهم بالحق ، ورأَوْا قِدَمَها برهاناً على استحقاقها للإجلال والتعظيم ؛ فكانوا بذلك عن النظر الصحيح نائين ، وعن التفكير السليم بعيدين .

(١) أطنبوا : أطالوا .　　(٢) أوهن : أضعف .

(٣) سورة الأنبياء ، آية ٥٣ .

قال إبراهيم : (لقدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)[1]، قالوا : أتنتقِصُ آلهتنا ، وتَسُبُّ أصنامَنا بالحق أم أنتَ من اللاعِبين ؟

قال إبراهيم : إنى أقولُ لكم ذلك جادًّا لا هازلا ، فقد جئتكم بالدِّين القويم، وأُرسلت إليكم بالهدى والحق المبين؛ فإنَّ ربكم الخليقَ[2] بالعبادة هو فاطرُ السمواتِ والأرض ، ومدبِّر شؤونهما ، والقائم على أمورهما . أمّا هذه الأصنام فلاتملكُ لنفسها نفعاً ولاضَرًّا ، وهى حجارة صمّاء ، وخُشُبٌ مُسنَّدة[3]. فعليكم أن تجتَنِبُوا عبادتَها ، وتنأوْا بأنفسكم عن الخضوع لها ، واحذروا فِتْنةَ الشيطانِ وإغواءه ، وفكِّروا بعقولكم ، وانظروا بأبصاركم ، لعلكم تهتدون .

على أنى قد سبقتكم إلى البُعْد عن عبادتها ، وبادَرْتُ قبلكم إلى النَّأْيِ عنها ، فلو كانت تضرُّ لضرَّتنى أو تملك شيئاً لنالت مِنِّى .

ثم أظهر لهم بديع صُنْعِ الله ، وباهرَ قدرته ، ليتبَيَّنُوا أثرَ حكمته ، ويدركوا الفرقَ الواضح والبَوْن الشاسع بين ما يَدْعُوهم إليه ، وما يعبدون من أصنام لا تغنى عنهم شيئاً ، فقال :

ألا تنظرون إلى ما تَعْبُدُون من دون الله أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ • الذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ • والذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ • وإذا مرضْتُ فهو يَشْفِينِ • والذِي يُمِيتُنِي ثم يُحْيِينِ • والذِي أَطْمَعُ أن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)[4] .

ولـمَّا لم تنفعهم الحجة ، ولم تُغْنِهم النُّذُر ، وصدُّوا عن سبيله ، وأعرضوا

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٥٤ . (٢) الخليق : الجدير .

(٣) كل شىء أسندت إليه شيئاً فهو مسند .

(٤) سورة الشعراء ، آيات ٧٧ — ٨٢ .

عن دعوته ، ورأى إبراهيم أن آذانهم صمّاء ، وقلوبهم غُلْف[١]. وأنّهم ما زالوا متعلّقين بأوهامهم ، متمسّكين بعبادة أصنامهم بيت الشر لها ، وأقسم ليكيدَنّها حتى يَرَوا أنها لا تضرُّ ولا تنفع ، ولا تدفَعُ الأذَى عن نفسها ، فتدرَأه[٢] عنهم ، ولا تلحق بهم ضَرًّا إذا تركوا عبادتها ، أو تُكسِبهم خيراً إذا عكفُوا عليها ، وأخلصوا لها .

وقد كان من عادةِ أولئك القوم أن يُقِيموا عِيداً لهم فى كل عام ، يقضون أيامه خارجَ المدينة ، يُهرَعُون إليه ، بعد أن يَضَعوا طعاماً كثيراً فى بيت العبادة ، حتى إذا ما رجعوا من عيدهم أكلوه فَرِحين ، وأقبلوا عليه مُغْتبطين ، وقد باركته الآلهة ، وأضْفَتْ عليه الخير .

ولما همُّوا بالذّهاب إلى عِيدهم طلبُوا إليه أن يُرافقهم ، وسألوه أن يشاركهم فى الخروج إلى ظَاهِر[٣] مدينتهم ، فأبى أن يَصْحَبَهُم ، وامتنع عن الانتظام فى سِلْكهم ، وقد عقد العزمَ على أن يَهْدِمَ صَرحَ آلهتهم ، ويقوِّض عَرْشَ معبوداتهم ، وادَّعى العِلّة ، وتظاهر بالسقم ، ولم تكن به علةٌ ولا مرض ، ولكنه كان سَقِيمَ النفس ، كاسفَ البال ، يتقطّع فؤادُه حزناً على إشراك قومه ، ويتميزُ غَيْظاً ؛ لأنهم لم يلبُّوا نداءه ، ولم يُصِيخُوا إلى دعوته .

ولما كانوا يخشون الدّاء ، ويهابون الوَباء تَوَلّوْا عنه ولم يستمسكوا بدعوته ، بل أظهروا الرِّضا عن تخلّفُه ، والاقتناعَ بحجّته ، وخرجوا إلى عيدهم مسرورين.

ها هى ذى المدينة قد خَلَتْ من أهلها وسكانها ، وها هو ذا بيتُ العبادة قد أقفر ، حتى من كهَنته وسَدَنَتِه[٤] ، فقد خرجوا جميعاً إلى ظاهر المدينة ، ولم يتخلّف عن اللّحاق بهم إلا إبراهيم .

---

(١) جمع أغلف : أى كأنما غشى القلب غلافا فهو لا يعى .

(٢) تدرؤه : تدفعه وتمنعه . (٣) ظاهر المدينة : خارجها .

(٤) السدنة : جمع سادن ؛ وهم القائمون على خدمة البيت .

ولما خلا الجوُّ من العيون التى تترصَّده ، واختفت الأبصارُ التى كانت تترقّبه ، دَلف(١) إلى أصنامهم ، ودخل إلى بيت عِبادتهم ، فوجد باحَةً(٢) قد اكتظت بالتماثيل ، وانتشرت فى أرجائها الأصنام ، ورأى الطعام مترا كماً تحت أقدامها ، فخاطبها متهكّماً بها ، محتقراً لشأنها : ألاَ تأكلون ؟ ولم يجد منهم إصغاء ، ولم يسمع منهم جواباً ، فقال : مالكم لا تَنطِقون ؟ وأنّى للحجارة أن تنطق ، وللخُشُب المسنَّدة أن تَعقل ؟

لا إخاله الآن إلا مُزدرِياً لقومه ، محتقراً تلك الأصنام التى نَصَبوها آلهة ، فصار يَلطِمها بيده ويَركُلها برِجْله(٣) ، وأخيراً تملّكته سَورَة الغَضَب لدينه ، واستولت عليه شِرة(٤) الغَيْظ لربه ، فتناول فأساً ، وهَوَى عليها ، يكسّرها ويحطّم حجارتَها ، وما زال بها حتى جعلها جُذاذاً(٥) ، وصيّرها حُطاماً ، إلا كبيرهم فإنه أبْقَى عليه ، ليَرْجِعوا إليه ، ويسألوه عمن انتهك حرمةَ بيتهم ، وكسر أصنامهم ، حتى إذا استبانوا أنها لا تنطِقُ ولا تعقل ، ولا تدفع عن نفسها مَنْ أرادها بسوء ، ثابُوا إلى رشدهم ، ورجعوا عن مكابرتهم .

تركها حجارةً مبعثرة ، وخُشُباً متناثرة ، وانصرف عنها ، وهو مُطمئنّ البال ، قريرُ العين ؛ لاستئصاله جذُورَ الشر ، وطَمْسه معالمَ الشرك ، وأقام يرقب ما يبدو منهم ، وينتظر أثر فَعْلته فى نفوسِهم ، وأخذ العُدة لما قد يرمونه به ، أو يجادلونه فيه .

ورجعوا من عِيدهم ، ورأوا ما حلَّ بمعبوداتهم فبُهتوا لِهَوْلِ ما رأوْا ، وسُقِط(٦) فى أيديهم عندما وجدوا الآلهة متهَشّمةً ، والنُّصُبَ مكسّرة ! وتساءلوا : مَن فعل هذا بآلهتنا ؟ إنه لمن الظالمين !

---

(١) دلف : مشى وقارب الخطر . (٢) ساحة . (٣) الركل : الضرب برجل واحدة .
(٤) شرة الغيظ : شدته . (٥) جذ الشىء : كسره ، والجذاذ بضم الجيم وكسرها : ما كسر منه . (٦) سقط فى أيديهم : دهشوا .

قال قائلهم : سمعنا فتى يقالُ له إبراهيم ، يذكر آلهتنا ، ويَعيب علينا عبادتَها ، ويَزْدَريها ويحتقرها ، فهو المجترىء عليها ، والمحطِّم لها .

عرَفوا إذن مَنْ تطاوَل على آلهتهم ، واعتَدى على معبوداتهم ، فاعتزموا أن يُوقِعُوا به من العقاب بمقدار ما ارتكَب من وِزْر ، وما اجْترَم[1] من ذنب ، وثارت ثائرةُ القوم ، ونادَوا بأن يَأتُوا به على أعين الناس ، ليشهدُوا عليه بمقالته ، ويرَوْا ما يحلُّ به من القصاص .

ولا شكَّ أن اجتماعَ القوم فى صعيد واحد كان أُمْنية إبراهيم التى طالما جاشت بها نفسهُ ، ليقيمَ لهم الحجَّة جميعاً على بُطْلان ما يعتقدون ، ويريهم البرهانَ على فساد ما هم عليه عاكفون .

تقاطرَت الوفودُ ، وتكاثرت الجموع ، كلٌّ يرغب فى القِصاص من إبراهيم ، ويودُّ أن يرى عِقَابَه ، ويشاهد عذابه ، ففى ذلك إرضاء لنفوسهم المتعطشة إلى الثأر منه ، وإشباعٌ لرغبتهم المتوثِّبة للفتك به ، ثم جاءوا به وسط هذا الجمع الزاخر ، وابتدءوا محاكمته أمام هذه الجماعات التى تحرق عليه الأُرَّم[2] حَنقاً وغيظا . وقالوا له : أنْتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟

هاهى ذى الفرصة قد سنحت لبلوغ مأربه وللوصول إلى مقصده ، فسارَ بهم فى الجدال ناحيةً أخرى ، وجرَّهم بأسلوبه الحكيم إلى طريقٍ لم يَقصدوه ، ليُلزمهم الحجة ، فيرجعوا إلى صَوَابهم ، ويثُوبوا إلى رشدهم ، فقال : (بَلْ فَعَلَهُ كبِيرُهُمْ هذا فاسْأَلُوهم إن كانوا يَنْطِقون)[3] .

---

(١) اجترم : اقترف .

(٢) حرق نابه يحرقه : سحقه حتى تسمع له صوت . والأرم : الأضراس ، ويقال : فلان يحرق عليك الأرم : إذا كان منيظاً .

(٣) سورة الأنبياء ، آية ٦٣

يا لها من حُجَّة دامِغَة قد صفعَهم بها صفعة نبَّهتهم من غفلتهم ، وأيقظتهم من غَفْوَتهم ! فأقبل بعضُهم عَلَى بعضٍ يتلاوَمُون[1]، وقالوا : إنكم أنتم الظالمون ، فتركتموها لا حافِظَ لها ولا رقيبَ عندها .

ثم أدركتهم الحَـيْرَة ، وعقد الحصَر[2] ألسنتهم ، فأطرقوا برءوسهم مفكِّرِين ، واستجمعوا شارِدَ عقولهم جامدين ، ثم قالوا : لقد علمتَ يا إبراهيم أنها لا تردُّ سؤالا ، ولا تحيرُ جواباً[3] ! فكيف تأمرنا بسؤالها ، وتطلبُ إلينا الاستشهاد بها ؟ أقَرُّوا بعَجْزِها عن الإصغاء إليهم ، واعترفوا بقصورها عن العلم بما يجرى حَوْلها ، أو الشعور بما يقعُ عليها ، وجَرَّدوها من القدرة على أن تصدَّ المعتدين ، أو ترد كَيْدَ العادِين .

فأخذ يُبَكِّتهم عَلَى جهلهم ، ويتأفَّفُ من ثباتهم على الباطل بعد وضوح الحق ، وهو يتغيَّظ من غفلتهم ومكابرتهم بعد انبلاج الصبح ، ثم حضهم على الروية[4] فيما ينطقون ، والتفكر فيما يدعون ، فقال : (أفَتَعْبُدُون من دُونِ اللهِ مالاَ ينفعُكُمْ شيئاً ولا يضُرُّكم أفٍّ لكم ولما تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أفَلاَ تَعْقِلون)[5] .

كانت على أعينهم غشاوَةٌ فلا يُبْصرُون ، وفى آذانهم وَقْرٌ[6] ، فلا يسمعون ، وقلوبهم غُلفٌ فلا يعقلون ، فلما غُلِبوا على أمرهم ، وخافوا افتضاحَ حالهم ، ولم تَبْقَ لهم حجة أو شُبهة ، عدلوا عن الجدل والمناظرة ، وعمدوا إلى القوة يَسْتُرُون بها هزيمتهم ، ويُخْفُون باطلهم ، وقالوا : (حَرِّقوهُ وَانصرُوا آلِهَتَكُمْ إن كُنتُمْ فاعِلين)[7] .

---

(١) يتلاومون : يلوم بعضهم بعضاً .
(٢) الحصر : العي .
(٣) يقال : كلمته فما أحار جوابا : أى مارد جواباً .
(٤) الروية : الأناة .
(٥) سورة الأنبياء ، آية ٦٦ ، ٦٧
(٦) الوقر : الثقل فى الأذن والصمم .
(٧) سورة الأنبياء ، آية ٦٨

إبراهيم يلقى فى النار(*)

أرادوا أن يعاقبوه بالإحراق ، ولا ذنبَ له إلا أن قال : ربىَ اللهُ ، ولا جُرْم ارتكبه إلاّ نقمتُهُ على أصنامهم ، وإنكارُه عبادَة أوثانهم ، ولكنّ إعلان التوحيد والجهْر بدعوةِ الناس إليه ، يُقِضُّ مضاجعَ الطُّغاة ويكدِّر صفوَ عيشهم؛ لأنه يخلِّصُ الناس من رِبْقة استعبادهم ، وتنكشف به خبايا أراجيفهم ، فيحذر الناسُ الوقوعَ فى شِرَاكهم ، وينفضُّون من حولهم ، ويهبُّون لدفع الحَيْف(١) عنهم ، وفى ذلك ذَهابُ سلطانهم ، والحدُّ من طُغيانهم .

جاش خاطرُ إحراقه فى نفوسهم ، ولكن كيف يحرقونه ؟ لابدّ أن يُصْلوهُ ناراً حامية ، تعادلُ لَظَى الحقْد المتأجِّج فى صدورهم . إنّ شرارةً تكفى لإحراق مدينةٍ بأسرها ، ولكنهم أبَوْا إلا أن تكون ناراً هائلة ، وشرعوا يجمعون حَطباً من هُنا وهُناك ، وجعلوا ذلك قُرْبَاناً لآلهتهم ، وبِرًّا بمعبوداتهم، حتى إنّ المرأة منهم كانت إذا مرضت نذرت : إن عوفيت لتجمعنّ حطباً لحريق إبراهيم .

مكثوا مدّةً يجمعون الحطب ، حتى تراكمت أعواده ، وضاق المكان بأكوامه ، ثم ابتنوا حظيرة واسعة، وأشعلوا النار فيها ، فاضطرمت وتأجّجَت، واندلع لسانها ، وعلا لهيبها ، وسطع ضَوْءها ، واحمرّ جمرُها ، ثم قيّدوه وَرَمَوْا به فيها ، وهم له كارهون ، ولعذابه مغتبطون !

أُلقَى فى النار المُسْتعرة ، وقلبُهُ بالإيمان مُفْعم(٢)، وثقته بالله شديدة ، وصلته

(*) الأنبياء ٦٨ - ٧٣ ، الصافات ٩٧ - ٩٩ ، العنكبوت ٦ ، ١٧ ، ٢٤

(١) الحيف : الجور والظلم . (٢) مفعم : ممتلىء .

به وثيقة ، وأمله فى النّجاة وَطِيد[1]، لذلك لم تُزَعْزِعه النكبات ، ولم تزلزله الحوادث ، ولم تَرُعْه[2] النار ، بل أقبل عليها بصدر رحب ، ونفس مطمئنة !

إنه الآن فى جَوْفِ النار ، يخفيه دخانها ، ويحتويه لهيبها ، ويغلب على صوته زَفيرها وشَهيقها ، فماذا فعلت النار بإبراهيم ؟

إنها أحْرَقت منه الوِثاق[3]، فصار حُرًّا طليقاً ، وأذهب الله عنها حِدَّتها ، وصعَّد منها حَرَارتها ، وحفظه من لظاها ، وأنقذه من سعيرها ، وجعلها عليه بَرْداً وسلاماً !

ولما خبا ضَوْءها ، وانقشع دخانها ، وسكَن أوَارُها[4]، وجدوه معافى سليماً ، ورأوه حُرًّا طليقاً ، فعجبوا لحاله ، وشُدِهُوا[5] لنجاته ، وانصرفوا عنه ناقمين ، وتوارَوْا عن أعين الناس خَجِلين .

وهكذا تمثلت الآيةُ الكبرى ، والمعجزةُ العظمى : غالبوه بالجدل فغُلِبُوا على أمرهم ، وفَزِعوا إلى القوّة فردّ اللهُ كَيْدَهم فى نحورهم ، ولجئوا إلى النار ، فنزع الله منها طَبْعها ، ودفع عنه أذى حرها ، وأرادوا به كيداً فجعلهم اللهُ من الأخسرين .

بُهِرَ الناسُ بتلك الآية الكبرى ، حتى أوشكوا أن يُسْلِموا زمامَهم له ، ويُلقوا قِيَادَهم إليه ، وكادوا يجمعون أمرهم على اتباعه ، ولكن بعضهم آثر مايتقلب فيه من نعيم الحياة وسؤدُدِها ، وخاف غيرهم أن ينالهم أذى الكافرين والملحدين ، لذلك لم يؤمن بإبراهيم إلا نفر قليل ، كتموا إيمانهم عن القوم خوفاً من الطُّغاة ، وحذراً من الموت .

---

(١) وطيد : ثابت ، قوى . (٢) ترعه : تخفه .
(٣) الوثاق : الحبل أو الشيء الذى يوثق به — وتكسر واوه .
(٤) أوار النار : حرها . (٥) شدهوا مثل دهشوا .

إبراهيم ونمرود(*)

أما الملك نمْرُود فقد انتهى إليه شُعاعٌ من ذلك النور الذى بُهِرَ به قومه ، واقتحمت عليه قصرَه مَوْجَةٌ من هذا التيار الجارف ، وترامى إليه خبرُ إبراهيم ومعجزَته الخالدة ، فطغى طُغْيَانهُ ، وزادَ بُهتَانه ، أليس من آلهتهم وإبراهيم يكيل القَدْح فيها ، ويعيب على القوم عبادتها !

فدعا إبراهيمَ إليه ، فلمّا مثلَ بين يديه صَوّب إليه نظره ، وقال : ما هذه الفتنة التى أيقظتها ، وتلك النار التى أشعلتها ؟ وما هذا الإله الذى تدعو إليه ؟ هل تعرف رَبًّا غيرى ، وإلهاً يستحقّ العبادة دونى ؟ من الذى يعلو مَقامه علىّ ، ويرتفع قدرهُ فوق قَدْرى ! ألا تَرَانى أُصَرِّفُ الأمورَ وَأُدَبّرها ، وأنقضها وأبْرِمها ؟ فأمْرِى نافذ ، وحُكمى قاطع . عيونُ الناسِ متطلعةٌ إلىّ ، وآمالهم متعلقة بى ؛ فهل تجد لى مخالفاً ، أو تَرَى علىّ خارجاً ؟ فلماذا خرجتَ على إجماعهم ، وانتقضت على معبوداتهم ! ما ربّكَ الذى تدعو إليه ، ومن إلهك الذى تحُثُّ الناس على عبادته ؟

فأجابه إبراهيمُ فى ثباتِ جَنَان(1) ، وطلاقة لسان ، وقال : ربى الذى يحيى ويميت ؛ فهو وحدَه يمنَحُ الحياة ويسلبها ، وينشىء الخلق ويُفنِيه ، ويبدع العوالم الحيَّة ويُميتها ؛ فألقمه الحجرَ ، وأفحمه بالحجة .

ولكن نمْرُود أخذته العزة بالإثم ، فكابر وجادل بالباطل ، وقال : أنا أحيى من أساء بالعفو عنه ، فيَنْعم بالحياة بعد أن تمثل له شَبَحُ الموت ، ويتنسم ريحَ الحياة بعد أن تقطعت نفسه حسراتٍ على الحرمان من مَتاعها ،

(*) البقرة ٢٥٨ .   (1) الجنان : القلب .

وأوصدت[1] فى وجهه أبوابُ الأمل فيها ، وأنا كذلك أميتُ مَنْ أشاء بأمرى، وأقضى عليه بحكمى ، وسرعان ما تزهَق رُوحه ، ويحرَم حياته ، فلم يأت ربك بِدْعاً ولم يفعل عجباً .

وارب نمرُود فى حِواره ، ومارى فى جداله ، إذ نأى عما ذكره إبراهيم من إنشاء الحياة وخَلقها ، ومَنْحها وسلبها ، ولجأ إلى المراوغة ، ولكن أين يجول هذا الغِرّ الجاهل ! وكيف يستطيعُ الثباتَ أمام عَزْم النبوّة الباهِر ؟

أجابه إبراهيم بقوله :

إنّ الله سَخّر الشمسَ ، وجعل لها نظاماً لا تحيدُ عنه ، فهو يأتى بها من المشرق ، فإن كنتَ كما تدّعى قديراً ، وكما زعمت إلهاً ، فغيِّر هذا النظام الذى جرَت به سُنّة الله ، واقتضتْهُ إرادتُه ، وَأْتِ بها من المغرب .

فبُهِتَ[2] الذى كفر ، إذ بان ضلالُهُ ، وظهرَ كذِبُهُ ، ووضح بُهتانه ، وبدت جهالته ، فقد قرعَتْه الحجّةُ البالغة ، وصدمته الآيةُ البينة ، وخاف أن يُثلّ عرْشه ، وتُدَكّ قوائمُ مُلكه ؛ فصار إبراهيم أبغضَ الناس إليه ، وأشدَّهم عداوة له ! ولكن ما يصنع به ، وقد أتى بعقيدةٍ جديدة دعمها بمعجزةٍ باهِرَة ؟

ما أظنه إلا أوجَسَ خِيفةً منه ، وخاف أن يكْتَسِحَ إبراهيمُ مُلكه ، ويقَوِّضَ عرْشه ، إن أعلن له العدَاء ، أو كشف له عن البغضاء ، لذلك أبقى عليه ، وهو يتربّصُ به الدوائر ، وينتظرُ أن تحينَ لهُ الفرْصة للانتقام منه .

---

(١) أوصدت : أغلقت .   (٢) بهت : دهش وتحير .

ثم بثّ عيونه ليحذّروا الناسَ اتّباعه ، ويبعدوهم عن حظيرته ، فكان إبراهيم يرى من التضييق عليه ، والإضرار به ما يراه المصلحون فى كل أمة ، فضاقت نفسه بالمقام بينهم ، وارتأى الهجرة عنهم ، وفرّ بدينه من تلك الأرض الجرداء التى لم يزدهر بها نبتَهُ ، ولم يُثمِر فيها غرسه ، وهاجر إلى أرض قد تنمو فيها دعوته ، ويخصبُ فيها بذره ، وترك وطنه وقومه بعد أن حقّت عليهم كلمةُ العذاب ؛ إذ لم يؤمنوا بَعْدَ إذ جاءهم الهدى ، وكفروا بعد أن قامت البينة ، وسار حتى حطّ رحاله بفلسطين .

* * *

إبراهيم يهدى قومه عن طريق الحوار (*)

ألقى إبراهيم عصاهُ فى حرّان ، فاراً بدينه ، تاركاً وطنَهُ وقومه ، علّه يجد فى غيرها آذاناً مُصغية ، وعقولا ناضجة ، ونفوساً ظاهرة ، ونزل بين ظهرانىْ أهل هذه البلاد ، وسرْعان ما تبين ضلالهم ، وعرف زيغهم ؛ إذ وجدهم يعبدون الكواكبَ من دون الله ، فأراد أن ينبّههم على خطئهم ، ويرشدهم إلى فساد اعتقادهم ، فاختار لذلك سبيلَ العقل ، وطريق الحجة ، حتى إذا ما استبانوا الحق ، وتبينوا الرشدَ سلكوا سبيله ، وأصغوْا إلى ندائه واتبعوا دعوته .

جَنّ[1] عليه الليل ، وستره الظلام ، فرأى كوكباً مما يعبدون ، وهوَ بين جماعة منهم يتحدّثون ويسمُرُون ، فجاراهم فى زعمهم وحكى قولهم ، فقال: هذا ربى !

(*) الأنعام ٧٦ – ٨٣

(١) جن عليه الليل : ستره .

طريقٌ فى الحوار حكيم ، ومنهج فى الكلام قويم . انظر إليه يحاكيهم فى اعتقادهم ، ولا يُعلنُ مخالفتهم ، أو يسفّه أحلامهم ، ويحقّر معبوداتهم ، فذلك أدعى إلى إنصاتهم لقوله ، وتفهمهم لحجته ، ثم لم يلبث أن كرّ على قولهم ينقضه ، ورجع إلى مذهبهم يزيّفه ، ولكن من طريق خفى ، يُغْنِي عن سداد رأيه ، ونقاء بصيرته !

فلما أفَلَ[1] هذا الكوكب، وغاب هذا النجم تحت الأفق ، تفقّدَه فلم يجده، وبحث عنه فلم يره ، فقال : لا أحِبُّ الآلهة المتغيرين من حال إلى حال ، المتنقلين من مكان إلى مكان ، ثم عرّض بآلهتهم ، وتنقص معبوداتهم ، وأعلن بُغْضَه لها ، وتبرُّأه من حبها .

ولما رأى القمر بازغاً[2] ، وهو أسطعُ نوراً من ذلك الكوكب ، وأكبَرُ منه حجْماً ، وأكثر نفعاً ، قال : هذا ربِّى ! استدراجاً لهم ، واستهواء لقلوبهم .

فلما أفل أيضاً واحتجب ، واختفى نوره واستتر ، قال : (لئن لَمْ يَهْدِنِى رَبى لأكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ)[3]، بياناً لهم أنّ الله مصدرُ الهداية،ومانحُ التوفيق عند الشكّ والحيرة .!

جاوَز التعريضَ إلى ما هو أفصح منه ، لمّا أنِسَ منهم سكُوتاً على بُغْضه لآلهتهم وإغضاءً عن ذمّه معبوداتهم ، وأبان أنه غير مطمئن النفس ، مُبَلْبلُ الفكر ، لم يهتدِ بعدُ إلى طريق الحقِّ ، ولمّا يقف على سبيل الرُّشد ، وطلب من الله أن يُنقِذَهُ من ذلك الضلال البَعيد، وينيرَ له هذا الليل البهيم[4]؛ فهذا الذى يعبدُونه مخلوق مسيَّر ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضَرًّا .

---

(١) أفل : غاب .

(٢) بازغا : طالعاً .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٧٧

(٤) البهيم : الأسود .

ثم رأى الشمسَ بازغة يتألّق نورُها ، وينبعث شُعاعها ، وقد كست الدنيا جمالا ، وملأت الأرض حياةً وبهاء ، وأرجاء الكون نوراً وضياء ، فقال : هذا ربى ، هذا أكبر من كل الكواكب ، وأكثر نفعاً ، وأجلّ شأناً . فلما أفَلَتْ كغيرها ، وغابت عن عُبّادها رماهم بالشرك ، وَوَسَمهم بالكفر ، وقال : إنى برىء مما تشركون ، فهذه الكواكب التى تنتقل من مكان إلى مكان ، وتتحوّل من حال إلى حال ، لا بدّ لها من خالق يدبّرها ويحرّكها ، وإله يُطلعها ويسيّرها ، فهى لا تستأهل عبادة ، ولا تستحقّ إكباراً ولا تعظيماً .

وبعد أن أعلن انصرافه عن آلهتهم ، وبراءته من معبوداتهم ، أفاض فى الحديث عمن يخصّه بخضوعه ، ويتوجّه إليه بعبادته ، فقال : (إنى وَجّهْتُ وَجْهِيَ للذى فَطَرَ السموات والأرضَ حَنيفاً[1] وما أنا مِنَ المُشرِكين)[2].

حاجّهُ قومُه فى ذلك الذى فجأهم به ، ودعاهم إليه ، عساهُ أن يرجع إلى عقيدتهم أو يَرْتَدّ عن ادّعائه إشراكهم ، فقال : أتحاجُّونى فى الله وقد هدانى إلى الطريق المستقيم ، وأرشدنى إلى الطريق القويم ؟

خوّفوه بطشَ آلهتهم ، وحَذّرُوه أن تصيبه بسوء ، أو تُلحِق به أذًى إذا نكَلَ[3] عن عبادتها ، وتجانف[4] عن الخضوع لها ، ولكنه لم يستمع إلى نُصْحهم ولم يستجب إلى دعائهم .

وتعجّب أن يخوّفوهُ شيئاً مأمُونَ الجانب ، لا يملكُ ضرًّا ولا نفعاً ، وهم لا يخافونَ إشراكهم بالله ما لم ينزِّل بهِ عليهم سُلطاناً ، وقد كان

---

(١) فطر : خلق . حنيفاً : مخلصاً .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ٧٩

(٣) نكل : تأخر .

(٤) تجانف : ابتعد .

عليهم أن يحذَرُوا الله ويخافوا عقابه ، فقد ارتكبُوا إثماً كبيراً ، واقترفوا ذنباً عظيماً ، فجزاؤهم — إن استمرُّوا على كفرهم — جهنمُ وبئس المَصير .

* * *

إبراهيم فى مصر

عمّ القَحْط ، وشَمِل الجدبُ والغَلاَء ، وضاقت سُبُل العيشِ فى الشام ، فرحل إبراهيم إلى مصر ، تصحبهُ زوجُه سارّة ، وَهَبَط أرضها حين كان القابضُ على زمامها والمسيطِرُ على أمورِها أحدَ ملوك العرب العمَاليق ، الذين استبَدُّوا بالملك آونةً من الدهر .

وكانت سارّة ذات جمال باهر ، فوشَى بها أحدُ بِطانة السوء إلى الملك ، وأغراه بجمالها ، وزيّنَ له حُسْنَها ، وحبّب إليه الاستحواذ عليها ، فصادفت هذه المقالة رغبَةً فى نفسه ، وهوًى فى فؤاده ، فدعا إبراهيمَ إليه ، وسأله عما يربطهما من سبب ، وما يَصِلُ بينهما من قرَابة .

ففطنَ إبراهيم إلى مأرَبه ، وعرف مقصدَه ، وخاف إنْ أخْبره أنها زوجته يَبيِّتَ الشرّ له ، وعمِل على الإيقاع به ، ليتخلَصَ لهُ من دونه ، ويستأثر بها من بعده .

فقال له : هى أختى — والأختُ كما تكون فى النسب تكون فى الدين ، واللغة ، والإنسانية .

فهمَ الملك أنها ليست بذات بَعْل[1] ، فأمَرَ أنْ يذهَبُوا بها إلى قصره ،

---

(١) بعل : أى زوج .

ويسوقوها إلى مخدعه ، ورجع إبراهيم إلى زوجته ، فأخبرها بقصته ، وطلب إليها أن تكون مُصَدِّقة لقوله ، مؤكدة لخبره ، ثم أسلمها لِعَيْنِ الله تحرسها ، وعناية الله ترعاها وتحفظها .

أُدْخِلت إلى قصره ، وزُيِّنَت بفاخِرِ الثياب وثمين الحُلِيّ ، ولكنها لم تعبأ بهذا الزخرف البرّاق ، ولا بذاك البَذخ الخلّاب ، ولم تُعْنَ بما أحيطت به من نعمة ، وما رأتْ من سَعَةِ السلطان وبَسْطة العيش ، ولم يُنسها كلُّ ذلك الوفاء لزوجها والاستمساك بدينها ، وجلست مكتئبةً حزينة ، بل انتبذَت مكاناً قصياً[1] .

ولما أقبل الملكُ عليها ، ورأى ما بها من لوعة وأسى ، حاول أن يخفف من حزنها ، ويؤنسَ وَحشتها ، ويزيل اكتئابَها ، فجفلت ، وانتكسَ[2] يحسُّ اضطراباً في نفسه ، ووَجِيباً[3] في قلبه ، وأرادَ أن يُعيد الكَرَّة ، فعادَ إليه اضطرابُهُ ، وعاوَده انتكاسُه ؛ فأوجسَ خيفةً منها ، وأوَى إلى فراشه ، وغطّ في نومه ، ورأى رؤيا استبان بها وَجْهَ الحقِّ ، وتبيَّن منها سبيل الرشد ، وعرَف أن لها بَعْلا ، وأن عليه أن يخلّي سبيلها ، ويتركها وشأنها ، وألا يمسها بسوء ، أو يقرَبها بإثم .

فلما أفاق من نومه رأى أن لا مَنَاصَ من إطلاق سراحها ، فوهَبها هاجر خادماً لها ، وأسلَمها إلى زوجها .

فهل ترى مِحْنَةَ أشدَّ ، وفتنةً أعظم من ذلك ؟ رجل غريب يَفِد إلى

---

(١) قصياً : بعيداً .
(٢) انتكس : انقلب على رأسه ، والمراد رجع خائباً .
(٣) الوجيب : الاضطراب .

بلد يسعى فيه لجلب الرزق، فتسلَب منه زوجُه ، ويفرَّق بينه وبين أهله، ولـكن الذى نجى إبراهيم من حَرِّ النَّارِ وسعيرها ، حفظهُ من وصمة العار ، ونجَّاهُ من الظلم والعدوان .

أقام بمصر ما شاء الله أن يُقيم ، وكان وادعَ النفس ، دَمِث الخلق ، ليِّن العريكة ، طويلَ الأناةِ ، دَءوباً على العمل ؛ لذلك كثرُ ماله ، ونمت أنعامُه ، وارتفع ذكْرُه ، ولـكن القومَ حسدُوه على مكانته ، ونقموا عليه سعة نعمته ، وسَوَّلت لهم نفوسهم أن تمتد أيديهم إليه بالأذى ، وأحسَّ منهم إبراهيم جَفوة ، فأزمع[1] الرحيلَ عنهم ، وجعل وجهتَه فلسطين ، تلك الأرض المقدسة التى اتخذها قبلُ موطناً ، وأقام فيها زمناً ، فانطلق حتى ألقى بها عصا التَّسيار.

(١) أزمع الأمر :ثبت عليه ولازمه .

اسماعيل (*)

هاجر إبراهيم إلى فِلَسطين ، ومعه زوجُه ســـارّة ، وخادمها هاجَر ، واستاقوا معهم أنعامَهم ، واحتملوا مايملكون من مال جزيل ، وخير جليل ، وأقام وسط أهله وعشيرته ، والطائفة القليلة التي آمنت به .

كانت سارّةُ عقيماً لا تلد ، وكان يُحزنها أن ترى بعلَها الوفيّ يتطلع إلى النسل ، وقد أصبحت هي على حال لا يُرْجَى فيها الولد ، فقد بلغت من الكِبَر عِتيًا ، فأشارت على زوجها أنْ يدخلَ بأَمَتِها هاجر ، وهي الوفيّةُ الكريمة ، المطيعةُ الأمينة ، علّها تُنْجِب ولداً تشرقُ به حياتهما ، ويُسَرِّي عنهما بعضَ ما يَجدان من لوعة الوحدة ، ومَرَارة الوحشة ، فانصاع لرأيها ، وخَضَع لإشارتها.

فلما وهبته إياها أنجبت غُلاماً زكياً ، هو إسماعيل ، فانتعشت نفسُ إبراهيم ، وقُرّت عينه . ولعل سارّة قد شاركت إبراهيم في سروره ، وشايعته زمناً في بهجته ، ولكن الغَيْرةَ لم تلبث أنْ دبَّت إلى قلبها ، بل عصفت بها أعاصيرُ شديدة من الحزن والشجَن[1] ، أثارها قلقها واضطرابها ، فَحُرمت الهدوء والهجوع ، وتشعب لبُّها ، وعقدت عليها الكآبةُ سحابةً مُطْبقة ، وأصبحت لا تُطيق النظر إلى الغلام ولا تحتمل رؤية هاجر .

هي الآن مُلْتَاعَة[2] متحسرة ، كئيبة متذمّرة ، لم تجد دواء لعلّتها، وكشفاً لدائها إلا إقصاءه وأُمّه عن دارها ، وإبعادهما عن عينها ، فتمنت على زوجها أن يذهبَ بهاجر وطفلها إلى أقصى الأماكن ، حتى لا يصلَ صوتهما إلى سمعها ، ولا تقذَى برؤيتهما عينُها .

(*) سورة إبراهيم ٣٧ ، ٣٨ .

(١) الشجن : الهم والحزن .

(٢) الالتياع : الاحتراق من الهم .

أذعنَ لإرادتها ؛ وكأن الله أوحى إليه أن يُطيعَ أمرها ، ويستجيب إلى رجائها ؛ فركب دابته ، واصطحب الغُلامَ وأمه ، وسار تُرْشِده إرادة الله ، وتحدُوه عنايته ، وطال به السير ، وامتدّ الطريقُ حتى وقف عند مكان البيت ، فأنزل هاجر وطِفْلها في هذا المكان البَلْقع[1] ، وتركهما في تلك البُقْعة الجرداء ، وهما ضعيفان لا يملكان شيئاً ، سوى مِزْوَد[2] به قليل من الطعام ، وسِقاء فيه شيء من الماء ، وإيمانٌ بالله يَعمُر قلبهما ، ويغمر نفسهما .

ترك الديارَ ، واستودعهما الله في هذا المكان ، وقفل راجعاً ؛ فتبعته أمُّ إسماعيل وتعلقت به ، وأمسكت بثوبه ، وقبضت على خِطام[3] دابته ، وقالت: يا إبراهيم ؛ إلى أين تذهب ؟ ولِمَنْ تتركنا بهذا الوادى الموحِش المقْفِر ؟

حاولت أن تستعطفه ، ولعلها قد أشارت إلى ابنها تسترحمه بحقه ، وتتوسل إليه بفلذة كَبِدِه ، وترجو ألا يخلِّيَ بينهما وبين الجوع القاتل ، والعطش المميت .

وقد تكون سألته : مَنْ يَحْميها مِنْ سَطْو الذئاب ؟ ومن يمنعها من فتك الوحوش ؟ وكيف يحتمون من لفح الشمس ، وحرارة الجو ؟ وأسالت تحت قدميه العبرات الغزيرة ، وذرفت الدموعَ السخينة ، ترجو أن يُصيخَ إلى استعطافها ، ويستجيب إلى ندائها . ولكنه لم يستمع إلى قولها ، ولم تَلِنْ قناتُه لرجائها ؛ بل أبان لها أن ذلك أمر الله وتلك إشارته ، فلابُدّ لها من الخضوع لحكمه ، والتسليم لأمره ! فلما علمت بذلك كفّت عن حِوَاره ، واستسلمت لأمر الله ، وركَنَتْ إلى رحمته ، وقالت : لن يُضَيِّعَنا .

أما إبراهيم فإنه انحدر من تلك الرَّبْوَة يُثقله الإشفاق والخوف ، ويدفعه الإيمان والثقة بالله ، ولاشك أنه الآن يتحسّر جوى ولوعة ، لِبعاد فلذة كبده ، وفراق حُشاشة نفسه ، ووداع بكْرِه الذى اكتحلت عيناه به بعد أن اكتمل

(١) البلقع : الأرض القفر . (٢) المزود : ما يحمل فيه الزاد .
(٣) الخطام : الزمام .

عمره أو كاد ، وكان يصعّد الزفرات ، ويختنق بالعبرات ، ولكن إبراهيم فى مكانه من الله ، وفى مقامه من النبوة ـ لابد أن يَصْبِرَ على البلاء ، ويستسلم للقضاء ، لذلك سار إلى وطنه ، وخلّف وراءه وَحِيده فى تلك البقعة النائية ، وهو يدعو الله أن يكلأه بعنايته ، ويحفظه برعايته ، ويقول : (ربَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غيرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصلاةَ فاجْعَل أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تهوِى إليهِمْ وارْزُقْهُمْ مِنَ الثمرات لَعَلَّهم يشكُرُونَ)[١] .

نبع زمزم

قد امتثلت هاجرُ للقضاء المحتوم ، وتحلّت بالصبر الجميل ، ومكثت تأكلُ من الزاد ، وتشرب من الماء حتى نَفِدَا ، فخوى بطنها ، وعَصب[٢] رِيقُها .

واحتملت ذلك صابرةً ، ولم تلبث أن جفّ ضَرْعُها ، وأصبحت لا تجد لبناً ترضعه الطفل ، أو ماء يَبُلّ صداه[٣] ، وثقلت عليه وطأة الجوع والعطش؛ فبكى وانتحب ، وصرخ وأعْول ، وأمه تتقطع نَفْسُها حسرات ، ودُموعها تَنْهَلُّ غزيرات ، وودّت لو استطاعت أن تَرْوِى ظمأه بدمُوعها ، وأن تردّ عنه غائلةَ العطش بماء شئونها[٤] ، ولكن هيهات !

حاولت أن تجد لها من مَأزِقها مخرجاً ، وكان قذًى فى عينيها أن ترى ابنها يتلوّى ، وتتميّع[٥] نفسه أمامَها، فتركته مكانَه ، وسارت هائمةً على وجهها ، تعدو وتهرْول، وقد هاجها التياع طِفْلها ، وأحزنها بكاؤه ونحيبه، وأخذت تبحث عن الماء ، وتفتّش له عن غِذَاء ، حتى قرعت صَفاةَ الصفا[٦] ، ثم عادت فَزِعة

(١) سورة إبراهيم ، آية ٣٧

(٢) عصب الريق بالفم ـ بفتح الصاد وكسرها : جف ويبس .

(٣) صداه : عطشه . (٤) الشئون : الدموع . (٥) المراد تفنى نفسه .

(٦) الصفا والمروة : جبلان بمكة .

مذعورة لهول مُصابها فى وحيدها . وسعت نحو سَرَابٍ حسِبَتهُ ماءعندالمَرْوَة ، حتى إذا جاءته لم تجده شيئاً ، ثم كرّت راجعةً إلى هدَفِها الأول ، ورجعت ثانية إلى غرَضِها الثانى، وهكذا سعت سَعْىَ المجهود سَبعة أشواط[1] ، والطفلُ يصيحُ ويَصْخب ، يُقطّع بصوته نياط قَلبها ، ويَحزُ بَعويله فى أعماق فؤادها .

رُحماك يا ربّ ! هذا طفل جفّ حلقه حتى عىّ عن البكاء ، وانقطع عن الغذاء حتى خارت قُوَاه ، وخفتت أنفاسه ! وهذه أمٌّ ترى وحيدها يُسْلِمُ رُوحه ويجود بنفسه ، وهى لا تجد لها معيناً فى وحدتها ولا سَلوة فى مصابها ! إنه الآن يفحص الأرض برجليه ، ويضرب الصّلد[2] بقدميه ، علّه يرقّ لحاله إذ قست القلوب ، ويلين لاستعطافه إذ عزّ النصير ، وهذا هو ذا يضرب ويضرب ، فإذا الماء قد انبجس من تحت قدميه ، وفار من قَرْع رِجليه ! وإنّ من الحجارة لما يتفجّرُ منه الأنهار !

رأت رحمةَ الله تحوطها ؛ وعناية ربها تُظلّها ؛ فجلست خائرة القُوَى ، يقطر العرقُ من جبينها ، وأكبّت على الطفل متلهفةً ، تروى ظمأه ، وتُبلّل بالماء شفتيه ، فَسَرّها أن ترى الحياة تَدِب فى جسمه ، وأن يُقبل عليها فى لهفة وشوق ، تضمُّه إلى صدرها ، وتربّت[3] عليه بيدها ، ثم تكفكف دموعَه ، وتسرّى عنه شجونَه وأحزانَه ، حتى إذا اطمأنت على وليدها ، وعادت إليها الثقة بنجاته ، وعاودها السرورُ بحياته ، ارتوت هى أيضاً ، فسرتْ فيها الحياة ، وانقشعت تلك السحابة السوداء التى أظلتها زمناً ، وذلك بفضل الله وعنايته .

هذه العين هى زمزمُ ، ولازالت قائمةً يزدحم حولها الحجيج[4] ، ويستبقُ الناسُ إلى حَوْضِها ، علّهم يفوزون منه بقطرة ، أو يرجعون بِشَربة .

(١) هذا هو أصل السعى الذى يقوم به الحجيج .

(٢) الصلد : الصلب الأملس ، ويريد الصخر .

(٣) التربيت : ضرب اليد على جنب الصبى لينام .

(٤) الحجيج : الحجاج .

ولما نبع الماء اجتذب الطيرَ إليه، فحومّت حوله، وحلّت فوقه، وكان قوم من جُرْهم[1] يسيرون قُرْبَ هذا المكان، فرأوا الطيرَ تحطُّ فى ساحته، وتحوِّم فوقه، وإنهم ليعرفون أن الأطيار لا تقع إلا على الماء، فأرسلوا واردَهُم[2] يرتاد المكان، ويخبرهم بخبره، ولما ذهب إليه وجد الماء، فرجع يَزُفّ إلى قومه البُشْرَى، فوفدوا إليه زُرَافَاتٍ ووُحْداناً[3]، واتخذه بعضهم موطناً ومُقاماً، فأنِست هاجَرُ بهم، واطمأنت إلى جوارهم، وشكرت لله أن جعل أفئدةً من الناس تَهْوِى إليهم.

***

الذبيح إسماعيل[4]

لم يَنْسَ إبراهيمُ ابنه، بل كان يَفِدُ إليه لِمَاماً، ويزوره غِبًّا[5]، ليطمئنّ على حاله، ويقرّ عَيْناً بمَرْآه. فلما شبّ وأطاق السعى والعمل، رأى إبراهيم فى نومه أنه يُؤْمَر بذبح ولده - ورؤيا الأنبياء حقّ، وأحلامُهم صدق.

فتنةٌ إثْرَ فتنةٍ، ومحنةٌ تتلوها محنة: شيخ هَرِم، جالدَ الأيامَ، وعَرَكَ الدهر، وأحْنته السنون، قد كان طولَ حياته يأمُلُ الولد، حتى إذا بلغ من الكِبَرِ عتيًّا[6]، رزقه الله بغلام وحيد، قرّت به عينُه، وأشرقت له نفسُه، ثم أُمِر بأن يُسكنه بوادٍ غيرِ ذى زَرْع، ويتركه وأمه فى مكان قَفْرٍ، ليس به حسيس ولا أنيس[7]، وامتثل لأمر الله، وتركهما هناك ثقةً بالله، وإيماناً به، وإطاعة لأمره، فجعل الله لهما من ضِيقِهما فَرَجاً ومخرجاً، ورزقهما من حيث لا يحتسبان، ثم يؤمَر

(١) جرهم: من قبائل اليمن التى كانت تزحف للشمال.
(٢) كل من أتى مكاناً منهلا أو غيره فقد ورده.
(٣) جماعات وأفراداً.
(٤) الصافات ١٠٢ - ١١٢.
(٥) غبا: أى قليلا.
(٦) عتا الشيخ يعتو عتيا - بضم العين وكسرها: كبر وولى.
(٧) ليس به أحد.

يذبح هذا الولد العزيز ، الذى هو بكره ووحيده ! إن هذه لمحنة تنوء بها الجبال الراسيات ، ولكن العظائم كفؤها العظماء ؛ فعلى قدر إبراهيم ، وعلو منزلته ، وعلى مقدار ثبات يقينه ، وكمال إيمانه يكون ابتلاؤه واختباره .

استجاب لربه ، وامتثل لأمره ، وسارع إلى طاعته ، وارتحل حتى لقى ابنه ، ولم يلبث أن ألقى إليه بتلك الرغبة التى تدك الجبال ، وتنزع القلوب من الصدور ، فقال : يا بنى ، إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى ؟

عرض عليه الأمر ؛ ليكون ذلك أطيب لقلبه ، وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ، ويذبحه قهراً .

فبادر الغلام بالطاعة ، وأسرع إلى الإجابة ، فقال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين .

بر عظيم ، وتوفيق من الله أعظم ، وإيمان وثيق ، ونفس راضية بما أراد الله وقدر .

ثم أراد أن يخفف عن أبيه لوعة الثكل[1] ، ويرشده إلى أقرب السبل إلى قصده ، فقال : يا أبت ، اشدد وثاقى ، وأحكم رباطى حتى لا أضطرب . واكشف عنى ثيابى ، حتى لا ينتضح عليها شىء من دمى ، فينقص أجرى ، وتراه أمى ، فيشتد حزنها ، وتفيض شئونها[2] . واشحذ شفرتك ، وأسرع إمرارها على حلقى ليكون أهون على ؛ فإن الموت شديد ووقعه أليم ، واقرأ على أمى السلام ، وإن أردت أن ترد قميصى عليها فافعل ؛ فإن ذلك فيه تسرية لهمها وسلوة لها فى مصابها ، وهو ذكرى لوليدها ، تشم منه عبيره ، وتتنسم فيه أريجه ، وتعود إليه حين تبحث حولها فلا تجدنى ، وتفتش عنى فلا ترانى .

---

(١) الثكل : فقد الولد . (٢) الشئون : الدموع .

قال ابراهيم : نعم العونُ أنتَ يا بنيَّ على أمر الله ! ثم ضمّه إلى صدره ، وأخذ يُقَبله ، وتباكيا وانتحبا .

ثم أسلم إبراهيم ابنه ، فصرعه على شِقِّه ، وأوثقه بكِتَافه ، وأمسك السكين ، وأخذ يصوّب النظر إليه مرة ، ويحدّق فى ابنه مرةً أخرى ، ثم تدفقت عَبَرَاته ، وتتابعت زَفَرَاته رحمةً به ، وإشفاقاً عليه ، وأخيراً وضع السكين على حَلْقه ، وأمرّها فوق عنقه ، ولكنها لم تقطع ؛ لأنّ قدرةَ الله قد ثلمت[1] حدَّها ، وفلّت من غَرْبها[2] .

فقال إسماعيل : يا أبتِ ، كُبَّنى على وَجهى ، فإنك إذا نظرت إلى أدركتك رحمةٌ بى ، تحولُ بينك وبين أمر الله ، ففعل . ثم وضع السكين على قَفَاه ، فلم تمض الشَّفْرَة ، ولم تَفرِ الأوداج[3] ، وأدركت إبراهيمَ الحيرةُ ، وشقَّ ذلك على نفسه ، فتوجه إلى الله أن يجعل له مخرجاً . فرحِمَ ضَعْفَه ، واستجاب لدعائه ، وكشف غُمَّتَهُ ونودى : (أَنْ يا إبْرَاهِيم ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إنَّا كذلِكَ نَجْزِى المُحْسِنين)[4] .

فاستبشرا بالفوز، واغتبطا بالنجاة ، وَحَمدا الله على ما أنعم به عليهما من دفعِ البلاء ، وكَشْفِ الغُمَّة ، وقد نالا جزيل الثواب ، وخَيْرَ الجزاء ، وصارا بعد هذا الاختبار أصفى نفساً ، وأثبت إيماناً ، وأرسخ يقيناً ، إن هذا لهو البلاء المبين[5] .

فدى الله إسماعيل بذِبح[6] عظيم ، رآه بجواره ، فأقبل عليه ، وهوَى بتلك السكين التى كانت كالِيلة[7] ، وأمَرَّها على حَلْقه ، فصُرِع لوقته ، وخضب

(١) ثلم السيف : كسر حده .
(٢) غرب كل شىء : حده . وفلت : كسرت .
(٣) الودج ـ محركة : عرق فى العنق .
(٤) سورة الصافات ، آية ١٠٤ ، ١٠٥ (٥) البلاء : الاختبار .
(٦) الذبح ـ بكسر الذال : ما يذبح . (٧) كالِيلة : غير قاطعة .

الأرض بدمه ، فكان فداء لابنه ، وَحقْناً لدمه ، ثم صار ذَبْحُ الضحايا أمراً مُتَّبعاً يساهِمُ فيه المسلمون كل عام ، ذكرى لذبح إسماعيل ، وشكراً لله على نعمته .

* * *

إسماعيل وجرهم

حلّق الطيرُ في سماء تلك البقعة التي نبع فيها الماء ، وحوّمت حول هذه البئر أسرابُهُ ، وسرَت في هذا المكان حياةٌ جديدة ، وإن لم يتصل خبَرُها بأحد ، حتى رأى قوم من جُرْهُم كانوا قد نزلوا في أسفل مكة طائراً عائفاً[1] ، فقالوا : إن هذا الطائر ليَدُورُ على ماء ، وَعَهْدُنَا بهذا الوادي صحراء بَلْقَع ، ثم أرسلوا رائدهم ، فسار حتى وجد الماء فرجع يزفُّ إليهم البشرى ، فأقبلوا فَرِحين ، ووفدوا مسرعين ، وحلّوا بالمكان ، فرأوا أم إسماعيل عند الماء ، فاستأذنوها في النزول بجوارها ، والسُّقْيَا من مائها ، فأذِنَتْ لهم ، على أن يكونوا ضيوفاً مُكْرمين ، لا مقيمين مغتصبين .

فنزلوا على إرادتها ، ورَضُوا حكمها ، ثم أرسلوا إلى أهليهم فأقبلوا إليهم يَزِفُّونَ[2] ، واجتمع بهذا الحي منهم أهلُ أبياتٍ كثيرة .

ثم شبّ إسماعيل ، واستقام عودُه ، وذاع صيتُه ، وطار ذِكْرُه ، واختلط بالقوم وحاكاهم في لغتهم ، وتعلم لسانهم ، وأخذ العربية عنهم ، ثم تزوج بواحدة منهم ، فتمّ اندماجُه فيهم ، وتوثقت صِلَتُهُ بهم ، وما أظنه إلا قرّ عيناً باكتمال نموِّهِ ، وامتلأ سروراً باجتماع أسبابِ السعادة ، ولكن الدهر قُلّب ، فهاهي ذي المنيّة تختطف أمه ، فعز عليه فَقْدُها ، وَتَفَطّر قلبه حزناً

(١) عائفاً : محوما يبحث عن الماء . (٢) يزفون : يسرعون .

عليها ، فقد تعهدته فى مَهْدِهِ ، ورعَتْهُ فى طفولته ، وأظلّته بحنانها فى شبابه ، وكانت له دائماً عَضُداً فى الملمّات ، ومُعِيناً فى النازلات .

ولم يكن لإبراهيم أن ينسى وَدِيعَتَه ، وأن يسلوَ فلْذَةَ كبده ، ولذلك كان يتردّد على هذا المكان الذى ترك فيه أهله وولده ، يتفقد حال ابنه ، فوفد إلى مكة مرة ، وأتى بيت إسماعيل ، فلم يجد إلا امرأته ، فسألها عنه ، فأخبرته أنه خرج يبتغى لهم شيئاً ، ثم شكت إليه سوءَ الحال ، وضِيقَ اليد ، وشظفَ العيش ، فرأى فيها امرأة متمردة على القدر ، ناقمة على القضاء ، غير راضية بما قسمه الله لها ، ورأى أنها لا تصلحُ لابنه زوجاً ، لتبرّمها بالحياة معه ، وشكواها من معاشرتها إياه ، فأشاح عنها بوجهه ، ولوى عِنَان[1] دابّته ، بعد أن حمّلها السلام لابنه ، وأوصاها أن تبلّغه أن يُغَيِّرَ عَتبة داره ، يكنّى بذلك أن يُفارِقَ زوجته ، وأن يستبدل بها خيراً منها .

وبعد لأيٍ[2] أقبل إسماعيل إلى أهله ، وكأنه أنس شيئاً ، فقال لامرأته : هل جاءنا اليوم أحد ؟ فقالت : نعم ، طرقَ بابنا شيخٌ صِفَته كيت وكيت ، سألنا عنك فأخبرناه بخبرك ، وأظهرَ حَدَباً عليك ، ورغبةً فى تعَرُّف أمرك ، وتبيّن حالك ، فأعلمتُه بما نحن فيه من الضيقِ والشدةِ .

قال إسماعيل : هل أوصاك بشىء ؟ قالت : نعم ، هو يُقرِئك السلام ، ويوصيك أن تُغَيِّرَ عَتبةَ دارك ، فقال : ذاك أبى ، وقد أمرنى بفراقك ، وتركها غير آسفٍ عليها .

ولم يلبث إبراهيم أن عاد يتفقّد وَلدَهُ ، ويطفىء لهيب شوقه ، وأتى دار إسماعيل ، ولكنه لم يجد فيها إلا امرأته ، فسألها عن مقره ومحطّ رحاله ، فأخبرته أنه خرَج يبتغى لهم رزقاً .

---

(١) عنان : زمام .   (٢) اللأى : اللبث والإبطاء .

ولما همّ بالرجوع التفت إليها يسائلُها عن حالها ، ويستخبرها خبرها ، فلهج[1] لسانُها بالثناء ، وفاض بالحمد ، وذكرت له أنهما فى خَيْرٍ من الله كثير ، وفيض من نِعمته عَميم . حينئذ اطمأنّ قلبهُ ، وانشرح صَدْرُه ؛ إذ رآها قانعة راضية، شاكرة مؤمنة ، وعلم أنها وزوجها فى خير وَسَعَة ، فأمرها أن تقرىء زوجَها السلام ، وتوصيه أن يحافظ على عَتَبة داره ، وقفل راجعاً إلى أهْلِه .

ولما طُوِى النهار أقبل إسماعيلُ إلى أهْله كعادته ، ولم يلبث أن تجاذب وزوجه أطراف الحديث، فأخبرته أنّ شيخاً حسنَ الهيئة، وَسِيمَ الطلعة ، يُجَلِّلُهُ الوقار ، وتكسوه الهيبة ، قد طرق اليوم بابهم ، وولج[2] دارَهم ، وأنه قد استنبأها خبره ، وأراد الوقوف على أمره ، فأخبرته أنهما فى خير وسعة ، وأنه قد أوصاها أن تُقرِئه السلام ، وتأمره أن يثبتَ عتبةَ داره .

قال إسماعيل : ذاك أبى ، وقد أمرنى ألاّ أفارِقَكِ . فلازمها حياته ، وكانت أمّ أبنائه .

* * *

بناء الكعبة(*)

لبث إبراهيمُ بعيداً عن ابنه ما شاء الله أنْ يلبث ، ثم وفد إليه ، لا ليتفقد أمْرَه ، أو يتعرّف حاله ، أو يُرْوِى صَدَى شَوْقِهِ ، كما كان يفعل ، بل جاء اليوم هذه البِقاع لأمرٍ جليل ، وشىء عظيم ، فقد أُمِرَ ببناء الكعبة ، وإقامة أول بيت للناس ؛ فاستجاب لأمر ربِّه ، واضطلع به غير هَيَّاب ولا وَجِل .

---

(١) لهج بالشىء : أغرى به وثابر عليه .   (٢) ولج : دخل .

(*) البقرة ١٢٥ – ١٢٩ ، آل عمران ٩٦ ، الحج ٢٦ ، إبراهيم ٣٥

وخفَّ إلى الحجاز ، وجدَّ فى البحث عن إسماعيل ، وأخذ يَجُوبُ مواقعَ الماء ومنازلَ القبائل ، ومضاربَ الخيام ، حتى عثر عليه ، وقد جلس تحت شجرة باسقة الفروع ، وهو يَبْرِى سهاماً له قريباً من زمزم .

ورآه إسماعيل مُقْبلاً ، فنفضَ يده مما كان يُعَالجه ، وخفَّ إلى استقباله وقد تهلّلَ وجهُهُ ، وانبسطت أساريره ، وانشرح صدره ، واندفع إليه مُهَلّلاً . وسرْعان ما تعانق الوالدُ والولد ، وبثَّ كل منهما للآخر ما يجدُ . وبعد أن أطفآ جَذْوَة الشوق ، وخفّفا لَوْعَة الفراق جلسا يتحادثان ، ولو مَدَدْت عينيك لرأيت مظاهرَ الحنان والعطف ، وأحسست بوادرَ السرور والغبطة ، للقاء هذا الولد البارّ بذلك الوالد الرحيم .

مضى عليهما فى هذا المقام وقتٌ طويل ، أفاقا بعده من نَشْوَةِ السرور ، وهناك أفضى إبراهيم إلى ابنه بسِرٍّ رهيب ، وأخبره بأمر عجيب ، فقال : يا بنيّ ، إن الله قد أمرنى أنْ أَبنى هُنَا بيتاً — وأشار إلى أَكَمَةٍ[1] مرتفعة على ما حولها — فكان إسماعيلُ أطوعَ له من بَنَانِهِ ، وما كان جوابه إلا السمع والطاعة .

ثم سارا إلى المكان يَحْدُوهما الرجاء ، وتُزْجيهما قوة من الله تشدُّ من أزرهما ، وتقوِّى من عَزْمِهما ، وصارا بالمعاول يحفران ، ويرفعان قواعد بيت الرحْمٰن ، وهما يسألان الله ويقولان : (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إنكَ أَنْتَ السميعُ العَليمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذرِّيتنا أُمَّةً مُسْلِمةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكنَا وَتُبْ عَلَينْا إنكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)[2] .

ولم يلبثا طويلا حتى وضح الأساسُ ، وظهر موضعُ البناء ، ثم جعل إسماعيلُ

---

(١) الأكمة : الموضع يكون أشد ارتفاعا من غيره .

(٢) سورة البقرة ، الآيتان : ١٢٧ ، ١٢٨

يأتى بالحجارة ، ويهيىء الأدوات والآلات وإبراهيم يَبنى ، ولا شك أنه قد كانت هناك قوة تعاونهما ، حتى يضطلعا بهذا الأمر الخطير ، ويستطيعا وحدهما القيام بهذا العبء الثقيل .

ارتفع البناء ، وطال الجِدَارُ ، وقصرت يدُ إبراهيم عن أن تنالَ أعلى البناء ، وضعُف الشيخُ عن أن يرفعَ الحجارة إلى هذا العلو . فقال : يا بنىّ ، اطلبْ لى حجراً أضعهُ تحت قدمىّ لعلى أستطيعُ إتمامَ ما بدأت ، وأشرفُ على ما بنيت .

فذهب إسماعيل يجدُّ فى البحث ، حتى عثر على الحجر الأسود ، فقدمه إلى أبيه ، فقام إبراهيمُ عليه ، وصار يبنى وإسماعيلُ يناولُه ، وكلما كلت ناحية انتقل إلى أخرى ، وكلما فرغ مِنْ جِدَار سار إلى آخر ، وهكذا تمّ بناء البيت الذى جعله الله مثابةً للناس ، تشتاقُ إليه أرواحُهم ، وتحنُّ إليه أفئدتهم ، استجابةً لدعاء إبراهيم إذ قال : (فاجْعَلْ أفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إليهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِن الثَّمَرَاتِ لعَلَّهُمْ يَشْكُرُون)[1] .

(١) إبراهيم : ٣٧

لوط [*]

رحل إبراهيمُ عن مصر ، واصطحب معه فى سَفَره لوطاً ، ورجعا من هذه البلاد بمالٍ كثير وخير مَوْفُور ، ونزلا بتلك الأرض المقدّسة ، ثم ضاقت بأنعامهما بُقعةُ الأرض التى نزلا بها . فنزح لوط عن مَحَلة[1] عمه إبراهيم ، واستقرّ به المقام بمدينة سَدُوم .

وقد كان أهلُها ذوى أخلاق فاسدة ، وَنوَايا سيئة ، لا يتعفَّفُون عن معصية ، ولا يتناهَوْن[2] عن مُنْكَرٍ فعلوه ، وكانوا من أفجر الناس وأقبحهم سيرة ، وأخبثهم سَرِيرَة ، يقطعون الطّريق ، ويخونون الرّفيق ، ويتربَّصُون لكل سارٍ ، فيجتمعون عليه من كل حَدَبٍ وَصَوْب ، ويسلبونه ما حمل ، ثم يتركونه يَندُب حظه ، ويبكى ضياعَ ماله ، لا يردُّهم عن ذلك دِين ، ولا يصدُّهم حَياء ، ولا يَرْعَوُون لوعظ واعظٍ ، ولا يستمعون لنصيحة من عاقل .

وكأنّ نفوسَهم الظامئة إلى الإثم لم ترْوِها تلك الذنوب ، وأفئدتهم المتعطشة إلى الإجرام لم تَكفِها هذه القبائح ، فابتدعوا فاحشةً لم يُسْبَقوا إلى اجترامها ، وتعاطوْا محرّماً ما كان يَدُورُ بخلدِ أحد اقترافُهُ ، فكانوا يأتون الذكْرَان من العالمين ، ويذرون[3] ما خلق الله من النساء فلا يقربونهنّ .

(*) الأعراف ٨٠ - ٨٤ . النمل ٥٤ ، ٥٨ ، هود ٧٧- ٨٣ . العنكبوت ٢٦ - ٣٥ . الشعراء ١٦٠ - ١٧٥ . الحجر ٥٧ -٧٧ . الصافات ١٢٣ - ١٣٨ . الأنعام ٨٦ . الأنبياء ٧٤-٧٥ . الحج ٤٣-٣٤ . ق ١٣-١٤ . القمر ٣٣ - ٣٩

(١) المحلة : منزل القوم .

(٢) لايتناهون : أى لاينهى بعضهم بعضا .

(٣) يذرون : يتركون .

وليتهم ستروا بليتهم ، أو حاولوا الخلاصَ من عارِها ، والبعدَ عن شرِّها. ولكنهم كانوا يحملون الناسَ على مُشَايَعتهم ، ويدعونهم إلى اتّخاذ مِن قَلِيبهم[1]. وتمادَوْا فى ضلالهم، حتى فشتِ المنكرات ، وكثرت المُوبقات[2]، وأُشْرِبتْ قلوبُهم حبَّ الفاحشة .

ولما أصاب القوم ما أصابهم ، واستحبُّوا الضلالةَ على الهدى ، وآثروا الغوَاية على الرُّشد ، واستحوذ عليهم الشيطان يستميلهم إلى المعاصى ، ويُزيِّنُ لهم الشهوات — أوْحَى اللهُ إلى لوط أن يدعوهم إلى عبادة الله ، وينهاهم عن اقتراف هذه الجرائم ، فأذّنَ فيهم بدعوته ، وأعلن بينهم رسالته ، ولكن آذانهم وَقِرَت[3]، وعيونهم عَمِيَتْ ، وقلوبهم غُلِّفت ، فاندفعوا فى شرورهم ، واستمروا على فجورهم ، وتمادَوْا فى طُغْيانهم ، ولم يَرْتَدِعُوا عن غيِّهم ، بل حدّثتهم نفوسهم الأمارة بالسوء ، وسَوّلت لهم عقولهم التى أضاعها العبَث ، وتملكها الشرّ ، أن يُخْرِجوا رسولهم من بين ظَهْرانَيهم . فتوعدوه ومن آمن معه بالإبعادِ عن قريتهم ، مع أنه لم يرتكب جُرْماً إلا بُعْدَه عن مساوئهم ، ولم يقترف إثماً إلا أنه تطَهّر من دَنَسِهم ، ونَعَى عليهم طريقهم ، ونأى عن قبائحهم ، ودعاهم إلى الطريق السوِيِّ ، وهداهم إلى الصراط المستقيم .

ولما رأى منهم مَيْلاً عن طاعته خوّفهم بأس الله وعذابه ، فلم يأبهوا لتحذيره ، واستخفوا بوعيده ، فألح عليهم بالعِظَات ، وأنذرهم سوء العاقبة ، ولكنهم لم يُقلعوا عما كانوا فيه ، بل ازدادوا تعلُّقاً به ورغبة فيه ، وتحدَّوه أن يأتيهم بالعذاب ، ويُنزِل عليهم ما يستحقون من عقاب .

* * *

(١) القليب : البئر .　　(٢) أوبقه : أهلكه.

(٣) الوقر : ثقل فى الأذن ، أو ذهاب السمع كله .

سأل لوط ربّه أن ينصرَه على هؤلاء القوم المفسدين ، ويُوقعُ بهم العذابَ الأليم ، وطلب إليه أن يجزيَهُمْ على كفرهم وعنادهم ، ويعاقبَهم على بَغْيِهم وفجورهم ؛ فَهُم الداء الوبيل[1] الذى يخَاف انتشاره ، والعضوُ المريض الذى لابدّ من استئصاله .

ألم يَعِيثوا فى الأرض فساداً ؟ ألم يصدُّوا عن سبيل الله ، ويُصِمُّوا آذانهم عن طريق الخير ، ويتنكّبُوا سُبُلَ الهداية ؟

استجاب الله دعاءه ، وحقق سؤاله ؛ وبعث ملائكته إلى هذه القرية الظّالم أهلُها ، ليُنزلوا بهم ما يستحقّون من عقاب ، فعاجُوا[2] أوّلاً بدار إبراهيم ، فحسبهم عابرى سَبيل ، فقدّمَ إليهم خيرَ ما يُقدَّم للأضياف ؛ ولكن أيديهم لم تمتد إلى قِرَاه[3] ؛ فنكِرَهم[4] وَأَوْجَسَ منهم خِيفة . قالوا : لا تخف ؛ ولم يُزَايلوا المكان حتى بَشّرُوه بغُلام عليم .

وما أظنّ إبراهيم قد أفْرَخ رَوْعه[5] أو سكن وَجِيب[6] قَلْبِه ؛ لذلك استفسرهم عما يقصدون ، وقال : ما خطبُكم أيها المرسلون ؟ قالوا : إنّا أرسلنا إلى القوم الذين لم يستجيبوا لدعوةِ لوط فكانوا من المجرمين ، وسَنُنْزِلُ بهم عذاباً أليماً وبأساً شديداً ، جزاء ما اقترفوا من فجور واعتادوا من شرور .

عَظم حُزْنُ إبراهيم ، وأخذ يجادلهم فى قوم لوط ، ويرجو تأخير البلاء . وتأجيلَ وقوع العذَاب ، ولعله كان يأمُل منهم الإنابةَ إلى الله ، والإقلاع عمّا يرتكبون من الذنوب ، والرجوع عما يقترفون من الفواحش .

---

(١) الوبيل : الشديد .
(٢) عاج بالمكان : نزل به .
(٣) القرى : مايقدم للضيف .
(٤) نكره : أنكره .
(٥) أفرخ روعه : ذهب فزعه .
(٦) وجب القلب وجيبا : اضطراب .

وقد يكون إبراهيم قد خاف أن يُمَسَّ لوط بأذى ، وهو مؤمنٌ مُنْكِرٌ لما يرتكبون ، ساخط على ما يجترحُون ، وهُوَ لذلك ليس أهلا للعقاب ، ولا مستحقًّا للعذاب ، فأمره الملائكةُ أن يهوِّنَ على نفسه ، ويخفِّف من حُزْنِهِ ، ويدَعَ الإنابةَ إلى الله من أجل هؤلاء القوم الذين يُصِرُّونَ على المعصية ، ويستمسكون بالخطيئة ، وأنبئوه أن لوطاً لن يُصِيبَهُ أذًى ولن يمسهُ عذاب، وسيكون هو وأهله من الناجين إلا امرأته ، فإنَّ هوَاها معهم، ورأيها تبعٌ لرأيهم .

ولما فَصَلت[1] الملائكةُ عن إبراهيم أتَوْا أرض سَدُوم[2] في صورة شُبَّان حسان ، وفيما هم يهمُّون بدخول هذه القرية عرضَتْ لهم جاريةٌ تستسقى الماء لأهلها، فسألوها أن تُضِيفَهم[3]، فأشفقت من قومها عليهم ، واستضعفت نفسها عن حمايتهم ، وأرادت أن تستنجدَ بأبيها في الدفاع عنهم ، فأمهلتْهُم حتى تذهبَ إليه فتستشيره في أمرهم . وأتت أباها فقالت : يا أبتاه ، أرادكَ فتيانٌ على باب المدينة ؛ ما رأيت وجوهَ قوم قط أصبحَ من وجوههم ، وأخاف أن يعلم بأمرهم قومُك فيفضحوهم .

هذا الوالد هو لوط ، وهذه الجاريةُ هي ابنته . وما أظنَّ لوطاً إلا دُهِشَ لهذه المفاجأة ، وأقبل على ابنته يسائلها عن أمرهم ، ويستزيدها الحديث في شأنهم، ويستلهمُهَا خير السُّبل التي ينتهجها ، وأفضلَ الطرق التي يتبعها .

ولعله قد تردد في السعي لاستقبالهم ، وحار في قبول ضيافتهم ، وحدثته نَفْسُه أن يبعث إليهم بعُذره ، وأن يُظْهِرهم على أمره ، فيكفوه مدافعته

---

(١) فصلت : رجعت .

(٢) سدوم: مدينة من مدائن قوم لوط . وقيل هي بالذال — لسان العرب (سدم).

(٣) أضاف الرجل : أنزله ضيفا .

لقومه ، ويتركوه وشأنه ، ولكن الأريحية[1] هزّته ، والمروءة دفعته ، فاستصغر هذه الصعاب ، واستخفّ بتلك العقبات ، وخرج إليهم خُفية ، وهو ينأى عن عيون القوم ، ويحاول أن يَصلَ إلى ضَيفه[2] قبل أن يعترضُوا طريقه، ويصدُّوه عن سبيله ، فقد حالُوا بينه وبين العالمين، وأمرُوهُ ألاّ يستضيفَ أحداً ، ونَهَوْه أن يأوى فى منزله طارقاً ، وكأنى بهم قد حسبوه داءً وبيلاً ، نخافوا انتشاره، وظنوه خطراً جسيماً نخشوا طغيانه، وماهو إلا عَدُوٌّ لقبائحهم ، ومنكرٌ لمفاسدهم .

تسلّلَ لوط خفيةً ، وسار حتى التقى بالملائكة ، فاستقبلهم ببشره ، وتلقّاهم بوجهه ، ثم دعاهم إلى مصاحبته ، وتقدّمهم نحو بيته ، ولكن الوساوسَ جاشت فى نفسه ، والمخاوفَ دبّتْ إلى قلبه ، فضاق ذَرْعاً[3] بضيافتهم ، وخافَ أن يعلم قومه بنزولهم ، ويَقفُوا على دخيلة أمرهم ، فيهبُّوا إليه مسرعين ، وهو ليس فى مَنعة منهم ، أو فى عصبية تمنعُهُ من اعتدائهم .

ولكنه سار بهم حتى نزلوا بِدَارِه ، وما أظنه إلا بالغ فى كتمان أمرهم وتَستّرَ ، خوفاً أن يتسَرّبَ إلى القوم خَبَرهم ، وكانت امرأته تسايِر القومَ فى طريقتهم ، فأذاعت خَبَرَهم ، وأعلمت قومها بأمرهم ، وسرعان ما جاءوا إليه يُهْرَعُون ، وأقبلوا عليه مستبشرين .

وفزع لوط حين رأى القومَ قد اجتمعوا يُرِيدُون الفاحشةَ ، ويرغَبُون فى المنكر ، فناشدهم تقوىالله ، ودعاهم إلىستر مخازيهم ، والكفِّ عن مساوئهم، ولكنهم جميعاً فجرةٌ سفهاء ، وكفرة أغبياء ، لذلك لم يستمعوا إلى نصيحته ، ولم ينزلوا على إرادته ، فأغلق البابَ دونهم ، وحال بينهم وبين ما يشتهون .

---

(١) الأريحية : الارتياح للندى . (٢) الضيف يطلق على الواحد والجمع .
(٣) ضاق ذرعا : ضجر .

ويخيل إلىّ أن القومَ قد غاض الحياء من وجوههم ، أو أصابهم مَسٌّ في عقولهم ، فتدافعوا وراء المنكرات ، وتظاهروا على القبائح !

ولما رأى لوطٌ أنهم لم يطيعوا إشارته ، ولم يُصيخُوا لدعوته ، أرشدهم إلى غِشْيَان نسائهم اللائى جعلهنَّ اللهُ حلالا لهم ، وأمرهم أن يجتنبوا هذه العادة السيئة ، ويحذَرُوا عاقبةَ هذه القبائح المنكرة ، ولكنهم مع ذلك لم ينتهوا ولم يَرْعَوُوا ، بل ازدادوا تمسُّكا بما جاءوا له ، وتعلقاً بما شُغِفَتْ نفوسُهم الدنيئة به ، وتشبثاً بما عزموا عليه من فاحِشة ، وقالوا : يا لوط ، لقد علمت ما لنا في بَنَاتِكَ من حقٍّ ، وليسَ لنا في النساء من حاجة أو رغبة ، وإنك لتعلمُ ما نريد !

ضاقت بلوط السُّبل ، وسُدَّت أمامه أبوابُ الأمل ، فأخذه من الكَرْبِ والبُرَحاء[1] ما جعله يتلهَّفُ على نجاة أضيافه ، وخلاصهم من قومه ، فقال : لو أن لى بكم قوة لاستطعتُ أن أمنَع عدْوَانكم ، وآمن شرَّكم ، وأقف في وجوهكم ، ولو كنتُ في مَنَعَة وعِزَّة لقوَّمْتُ معوَّجكم ، وألَنْتُ قناتكم .

ولكن القَوْم قد أعمتْهُمُ الضلالة، فلم يستبينوا سبيلَ الرشد الذى دلهم عليه، ولم يَحِيدُوا عن طريق الشر الذى حاوَلَ أن يصدَّهم عنه ، فهم في نزْوَةِ الشرِّ مندفعون ، وإلى اقتراف الإثم يتسابقون .

فغشيته سحابةٌ من الحزن ، وتملَّكَتْه ثورةٌ من الغضب ، حين يئس من رَدِّهم ، وناله الإعياء والكلال من صَدِّهم ، ورآهم قد اقتحموا منزله وقهروه، وهجموا على ضَيْفه وفضحوهُ ، وهو لم يألُ جُهداً في نصحهم ، ولم يترك سبيلاً لردهم .

ولما رأى الملائكةُ ما هو فيه من الوجد والحزن رَدُّوا لهفته ، وسكَّنوا

---

(١) البرحاء : الشدة .

رَوْعه ، وقالوا : يا لوط ، إنا رسلُ ربك ، جئنا لإنقاذك ، ودفع العدوان عنك ، فلن يَصِلَ هؤلاء الكَفَرَةُ إليك ، وإنهم لمهزومون .

وما عَتَّموا[1] أن تولاهم الفزع والرعب ، فتولوا هاربين متوعِّدين .

ولكن لوطاً قد أصبح ، وقد كشف الله عنه الغمة ، وأحاطه بعنايته ، وآزره بنصرته ، لا يَأْبَهُ لهذا الوعيد ، ولا يضيره هذا التهديد .

ولما انقشعت غَيَاهِبُ الحزن عن لوط أمره الملائكة أن يَسْرِيَ هو وأهله بِقِطْعٍ[2] من الليل، ويتركوا هذه القرية التي أذن الله أن ينزل بها العذاب، ويَحِلّ بها العِقَاب ، ثم نَهَوْه أن يصطحب معه امرأته ؛ فسيحلّ بها ما يحل بالقوم لنفاقها ومشايعتها لهم ، وأمروه أن يَدَّرِع بالصبر والثبات عند نزول العذاب بهم .

خرج لوطٌ وأهلُه ، وفارق تلك القرية غير آسف عليها ، حتى إذا صار بعيداً عنها جاءها أمر الله ، ونزل بها عذابُه ، وزُلزلت الأرضُ زلزالَها ، فصار عاليها سافلَها ، ثم غشيت بمطر من سِجِّيل[3] ؛ فأصبحت ديارهم بَلقعاً[4] ، وبيوتهم خاوية بما ظلموا : (إنَّ في ذلكَ لآيةً وما كانَ أكثرُهُمْ مُؤْمِنِين)[5] .

---

(١) ما عتم : ما أبطأ .
(٢) قطع من الليل : آخر الليل .
(٣) السجيل : الحجارة الصغيرة .
(٤) البلقع : الأرض القفر .
(٥) الشعراء ، آية ١٧٤

يعقوب (*)

(١)

تقدم يعقوب إلى أبيه إسحاق[١] - وكان رجلا شيخاً قد رق جلده ، واعوجت قناته[٢] - وقال : يا أبتِ ، إنى أشكو إليكَ عِيصو أخى ، وأستعديك[٣] على توعُّده وتهديده ؛ فإنه منذ رَمَقتنى[٤] بعين رعايتك ، ودعوتَ لى بالبركة ، وتكهَّنت لى بنَسْلٍ طيّب ، ومُلك موروث ، وعيش خافض[٥] ، حسدنى لهذه الدّعوات التى أسبغتها علىّ ، وَحَقدَ علىّ لهذه الرجيَّة التى تمنيتها لى ، وأنكر العلامةَ التى توَسَّمتها فىّ ، فراح ينالُنى بقارِس كلامه ، وَيرزُنى بوجيع تأنيبه ، ويُخيفنى بتهديده ووعيده ، حتى يَبس[٦] ما بينى وبينه من ودّ ، وتقَطّع ما كان يجمعنا من رَحِم .

ثم هو فوق ذلك يُفاخِرُنى بامرأتيه هاتين اللتين تزوّج بهما من كنعان ، ويُكاثرنى بما يَرتقبهُ من أولاد يضيِّقون علىّ الرزق ، ويزحموننى بمناكبهم فى الحياة ، وقد شكَوتُ إليك ، لتحكم بينى وبينه ، بما وَهَبك اللهُ من رَأْيٍ حكيم ، وحِلمٍ راجح .

(*) قصة يعقوب لم تذكر مفصلة فى القرآن الكريم ، ولكننا رجعنا فيما أوردناه إلى كتب التاريخ والتفسير .

(١) قال ابن قتيبة فى كتاب المعارف : « تزوج إسحاق رفقا بنت ناحور ، وهى بنت عمه ؛ فولدت له عيصو ويعقوب توءمين » .

(٢) اعوجت قناته : كناية عن تقوس ظهره كبراً .

(٣) أستعديك : أستنصرك .

(٤) رمقتنى : لحظتنى .

(٥) خافض : لين .

(٦) يبس الود : زال .

قال إسحاق — وقد أهمّه ما رأى من القطيعة بين الأخوين ، والنفرة بين الشقيقين : يا بُنيّ ، إنني — كما ترى من هذه اللمّة[1] البيضاء ، والجبين المتغضّن ، والظهر المتقوّس — أصبحت شيخاً متهدماً ، خذلتني قوّتي ، ووقفت بي الأيام على ثنيّة[2] الوداع ، وإنه يوشك أن يوافيني الأجل ، ويقطع ما بيني وبين الحياة من أسباب ، ولا آمنُ عليك بعدي أن يُماِلنك[3] أخوك بالعداوة ، ويحسرَ لك اللثام عن بطشٍ وكيدٍ ، وهو في منَعَةٍ من شدة أسْره[4] ، وقوّة خَلْقه ، وفي حِرْزٍ من أصهاره وذوي قُرْباه .

وما أرى إلا أن تُزْمِع رَحيلاً إلى فدّان آرام من أرض العراق ، حيث خالك لابان بن بتويل ، فابنِ على إحدى بناتِه ؛ فإنك تنالُ العزّ والشرف ، والمجد والمنعة ، ثم عُدْ بعدها إلى هذه الأرض ، وإنني لأرجو لك عيشاً أخفض من عَيْشِ أخيك ، ونَسْلاً طاهراً خيراً من نَسْلِه وولده ، واللهُ يَكلؤُك بعينه ، ويحفظك برعايته .

(٢)

كانت هذه الكلمات على قلب الفتى يعقوب أندى من نَقيع[5] بارد على فؤاد مَحْرور[6] ، وجد فيها مُتنفساً لصدره ، وروحاً[7] لقلبه ، ونزعت نفسُه إلى مَنبِت الأهل وبَلَدِ الآباء والأجداد ، فاستودع أبويه بدموع سخينة ، وشيّعاه بدعواتٍ طيبة كريمة ، وخرج مخترقاً الصحراء ، مُسْرِياً بالليل ، وسائراً بالنهار[8] ،

---

(١) اللمة : الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن .
(٢) الثنية فى الأصل : الطريق .
(٣) يمالنك : يصارحك .
(٤) الأسر : الخلق القوى .
(٥) النقيع : الشراب السائغ .
(٦) محرور : اشتد حره .
(٧) روحا : أى راحة .
(٨) السرى بالليل،والسير بالنهار .

يرفعه نَجْد ويخفضه وَهْد ، ولقاء خاله نُصْب عينيه ، وكلاتُ أبيه ملء سمعه وبصره ، وعناية الله ترمُقُه وترعاه .

وكان كلما أتعبه السير وأضْناه بُعْدُ الشُّقَّة ، تذكَّر الأمل الذى يرجوه، والخيرَ الذى يرتقِبُه ، فيسهل الحَزْن وينقاد السير .

وطلع يوم تحرَّقت سمائمه[1] ، وهبَّت سَوَافيه[2] ، ورمت الشمس الأرضَ بسهامها المُحْماة ؛ فشقّ على يعقوب السير ، وَبَعُدَتْ أمامه الشقّة ، وتلَفَّتَ أمامه فإذا بصحراء ممتدة إلى حيث ينتهى البَصَر ، ورمال ليس بها صُوًى ولا مَعْلَمَ[3] ؛ فأدركه السأم ، وأحسَّ مَسَّ اللغَب والنَّصَب[4] ، ووقف ساعة بين الإحجام والإقدام ، أيُوَاصِلُ السير ويتغلبُ على الصَّعْب ، فيظفر بما عساه أن يُقَوِّيَ عضُدَه ، ويشدّ أزْرَه . أم يُؤْثِر العافيةَ والدَّعَة[5] على هذا السفر الشاق الطويل، وَيَقْنَع من الغنيمة بالإياب ؟

وفيما هو يفكر ويدبّر لمح صخرةً تكْتَنِفُ ظِلاًّ ، فدلفَ إليها ليجلس ساعة يُريح فيها جسمه ، وَيُبَرِّد قَدَمَيْهِ ، وما أسند ظهره إلى الصخرة حتى أدركته سِنَةٌ فنام ، ورأى فى نومه رُؤْيا صالحة ، أشرقتْ لها جوانبُ نفسه ، وغرّدت بلابلُ آماله، ورأى أن الله سيؤتيه عَيْشاً رضيًّا ، ويمنحه مُلْكاً وَسِيعاً ، ويرزقه نسلا طيباً مباركاً ، يورثهم الأرض ويعلمهم الكتاب .

فقام من نومه مشروحَ الصدر ، مصقولَ الذهن ، مُطْلَقَ النفسِ من عِقَال

---

(١) السمائم : جمع سموم ، وهى الريح الحارة .
(٢) سفت الريح التراب : ذرته وحملته .
(٣) الصوى : ما غلظ وارتفع من الأرض . والمعلم : ما يستدل به .
(٤) اللغب : الإعياء . والنصب : التعب .
(٥) الدعة : الراحة .

السأم ، وقد انفسحت أمامه رقعةُ الأمل ، وشام مخايلَ الرّجاء ؛ إذ رأى تعزيزاً لنبوءة أبيه ، وبشيراً بتحقيق أمانيه ، وانطلق يَعْدُو كالسهم ، مستأنفاً السير بِعَزْمٍ جديد .

(٣)

وَطُوِيت الأرض ، وقُضِيت أيام ، وإذا هو مُشرفٌ على سَوَادِ رآه ؛ فعقد به حَبْلَ الأمل ، ووصله بما فى نفسه من رجاء ، أن يكونَ هذا طليعةَ البلد ، ومَوْطن الشيخِ لابان ، وخفّ إليه مسرعاً ، فوجد أن ظنّه لم يخطىء ، ورجاءه لم يَخِبْ .

ها هى ذى أقدامُه قد بدأت تَبْتَرِد ، وقلبه قد ذهب عنه الصدأ والفُتُور ، وها هى ذى نفسه قد عاودَها الجَمام[١] ، وتلك هى قُطْعَان الغنم ، وأسراب الطير ، وطلائع الشجر ، بل هم أولئك رُعَاةٌ يغنُّون ، وأطفال يَهْزِجون[٢] ويمزحون .

إذنْ هو قد فارق الصحراء ، وإذنْ هو فى أرض إبراهيم التى نبتت فيها رسالتُه ، وطلعت شريعتُه ، وفى أرض خاله ، غايتهُ التى يرجوها ، ورجِيَّتهُ التى قطع المفاوزَ[٣] فى سبيلها ، فليسجد لله شُكْرَاناً لنعمته ، واعترافاً بتوفيقه وهدايته .

(٤)

تقدم يعقوبُ الغريبُ سائلا متلطِّفاً : أفيكم مَنْ يعرفُ لابان بن بتويل؟ قالوا : وَمَنْ مِنَّا لا يعرف لابان صِهرَ إسحاق الرسول ؟ إنه عَمِيدُ بيته ، وشِهَاب

(١) الجَمام – كسحاب : الراحة . (٢) الهزج : التطريب بالصوت .
(٣) المفازة : الصحراء . وجمعها مفاوز .

قومه ، وصاحبُ هذه القُطْعان التى تسيل بها هذه البطاح[1] . قال : وهل فيكم من يَدلُّنى على داره أو يرشدنى إلى مكانه ؟ قالوا : ها هى ذى بنتُه راحيل مُقبلة تَغدو وَراءَ الغنم . فتلفت يعقوب فإذا فتاةٌ قسيمة[2] الوَجْه ، كاملة الخَلْق ، ذاتُ رَوْنَقٍ مُعْجِب ، وحُسْنٍ بارع ؛ فاضطرب فؤادُه ، وأحسَّ كأن حُبْسَة[3] تَعْقِلُ لسانه ، ولكنه جمع نفسه ، واستردَّ عازِبَ حِلْمه وعقله ، وتقدم إليها قائلا : إنّ بينى وبينك قرابة وَشيجة ، وآصِرَة[4] وثيقة ؛ فإنى من هذه الدَّوحة التى تُظِلك ، وَمِنْ تلك النَّبعَة التى تفرّعت منها ، أنا يعقوب ابن إسحاق الرسول ، وابن رفقة بنت جدّك بتويل ، نزحتُ من أرض كنعان ، وقطعت هذه الصحراء التى تَصْهَر الجِلْد ، وتُدْمى القدمين ، مُقْتَحِماً الصعابَ فى سبيل أن ألقى لابان فى أمرٍ جَلل .

فرَحَّبَتْ بلقياه فى طَرْف غَضِيضٍ[5] ، وحديث كريم ، وانطلقت معه إلى المنزل .

وفيما هو فى الطريق أحَسَّ كأن اضطراباً بفؤاده ، أو كأنَّ طائراً طار مِنْ قَلْبِه ، أكان ذلك لرؤية هذه الفتاة التى قد تكون أملَهُ الذى يرجوه ، ونبوءته التى تنبّأها له أبوه ، وتأويل رُؤْياه التى رآها فى الصحراء ؟ أم كان قد اعتراه ما يعترى الطارقَ الغريب مُقدماً على أمر عظيم ؟ قد يكون لهذا وقد يكون لذاك ، ولكنه على كل حال مَلَكَ نَفْسَه ، وأمسك بقُوَّته ، ومشى بخطوات مطمئنة ، حتى التقى بخاله لابان ، وما إنْ رآه حتى عانقه طويلا ، واغرورقت عيناه بالدموع فَرَحاً ، ثم أحَلَّهُ مِنْ نفسه وأهله محلا رفيعاً ومنزلة كريمة .

---

(١) البطاح : جمع بطحاء ؛ وهى مسيل واسع فيه دقاق الحصى .
(٢) القسامة : الحسن . (٣) الحبسة : تعذر الكلام عند إرادته .
(٤) الآصرة : الرحم والقرابة . (٥) غضيض : فاتر .

(٥)

أفضى يعقوبُ إلى خاله بما أرسله أبوه ، وما يرجُوه من الإصهار إليه ، وأنه قد رأى راحيل فحلّت من قلبه منزلةً رجا أن تكونَ له بعدها زَوْجاً[١] ، والسَّبَبَ الكريم الذى يربطُ بينه وبينه . فقال لابان : نعم ونعام عَين[٢] ! قد أجَبْتُك إلى سؤالك ، وأعنتُك على مُبْتَغَى آمالك ، ولكن على أنْ تُقيمَ عندى سَبْعَ حِجَج[٣] تَرْعَى ، لتكون لك صداقاً فيما تريد ، وأنت طوال[٤] هذا العهد يكنفُكَ منى جَنَاح ، ويُظِلك قلبٌ عاطف رءوم[٥] .

فقبِلَ يعقوبُ هذا الشرط ، وأخذ يرْعَى الغنم ، والأيام تَدْهن له بمعسول المُنَى ، وتُحْيِى فى نفسه بَوَارِقَ الآمال .

(٦)

كانت راحيل صُغْرَى بنتين للابان ، وكانت لَيَّا تكبرها فى السن ، وإن كانت تَليها فى اعتدال الخَلْق وحُسْن التقاسيم[٦] ، ولم يكن فى عَزْم الشيخ لابان ، ولا فى شريعة قومه ، أن يزوِّج الصغرى قبل الكبرى ، ولكنَّ نَفْسَه لم تستجب له أن يصدَّ يعقوبَ عن راحيل ، بعد أن امتلأت منها نفسه ، وتعلّق بها أمله ، فرأى مَخْرَجاً من هذه الحيرة أن يجمعَ بينهما لهذا الفتى ؛ إذ هو لذلك كِفاء[٧] وأهْل ، والشريعةُ القائمةُ لم تكن تَأبى الجمعَ بين الأختين .

فلما قضى يعقوبُ الأجلَ ، وحان أن يبنى على عِرْسه[٨] ، ويجمع شمله بأهله ،

---

(١) يطلق الزوج على الزوجة .

(٢) نعام العين : أى أفعل ذلك إكراماً لعينك .

(٣) حجج : سنين .

(٤) طوال : طول .

(٥) رءوم : رحيم .

(٦) حسن التقاسيم : كناية عن الجمال .

(٧) كفاء : كفء .

(٨) عرس الرجل : امرأته .

طلب من لابان أن يُنْجِز وَعْده ، ويُوفى له بشرطه ؛ فقال له : يابنى ، إن قَلْبَ الوالد وشريعة هذا البلد يأبيان علىّ أن أنكحك الصغرى قبل الكبرى ، فهذه لَيَّا إن فَضَلَتها راحيلُ بجمالها ، فإنها تُدَانيها فى كمال عقلها وحَزْمها ؛ فَخُذْها بصداقك زوجاً كريمة ، وإن شئتَ راحيل فامْضِ عندى سَبْعَ حجج أخرى ، ترعى فيها الغنم أيضاً فيكون لك صَدَاقٌ آخر ، أَزُفُّ إليك به راحيل كريمة عزيزة .

وما كان ليعقوبَ وهو الرسولُ الكريم أن يردّ لخاله حاجة ، أو يصده عن رغبة ، وهو الذى أكرم وفادته ، وغمره بإحسانه ، وآثره بمصاهرته ، فقبل ما اشترط ودخل بلَيَّا ، حتى انقضت سَبْعُ حِجَج أخرى تزوّج بعدها براحيل.

ووهب لابانُ لكل من بِنْتَيْه أَمَةً تقومُ بخدمتها ورعاية أمورها ، ولكنهما آثرتا يعقوب بهاتين الأمَتين ، تحبُّباً فيه وَزُلْفَى إليه ، ومن هاتين الأمَتين ، ومن لَيَّا وراحيل رُزِق يعقوب اثنى عشر ابناً هم الأسْبَاط[1] .

---

(١) الأسباط : هم رأوبين ، وسمعون ، ولاوى ، ويهودا ، ويساكر ، وزبولون وهؤلاء من ليا . ويوسف ، وبنيامين من راحيل . ودان ، ونفتالى من بلهـة جارية راحيل . وجاد ، وأشير من زلفة جارية ليا ، وقد ولدوا جميعاً فى فـدان آرام ، إلا بنيامين فإنه ولد فى أرض كنعان . (البداية والنهاية ١ — ١٩٥) .

يوسف (*)

يوسف بين إخوته وأبيه

تنفّس الصباح ، ورفّت[1] الشمس بأجنحتها على الوجود ، وهبّ يوسفُ من نومه على حُلمٍ عَذْبٍ جميلٍ ، وما جمع أشتاته وضمّ حواشيَه ، حتى خفّ إلى أبيه مُشْرِقَ الوجه ، ضاحكَ السنّ ، مُنْبَسِطَ الأساريرِ . قال : يا أبتِ ، إنى رأيت ليلة الأمس رؤيا جميلة ، ضاءت[2] لها جوانبُ نفسى ، وانشرح لها صدرى : (رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشَّمْسَ والقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لى ساجِدِينَ)[3] .

فتهلّلَ وَجْهُ يعقوب ، وأشرقَ جبينهُ ، ووضح البِشْرُ بين عينيه ، وقال : يا بنى ، إنها رؤيا صادقة ، تظاهِرُ ما تَوَسَّمْتُهُ فيكَ من فضل ، وما رجوتُه لك من خير ؛ إنها بُشْرَى بما سيخصُّك به الله من عِلْمٍ ، وما سيحبوك به من نعمة يتمُّها عليك ، كما أتمّها على أبويك إبراهيم وإسحاق من قبل ، ولكن لا تقصص رؤياك على إخوتك ؛ فقد عرفت غَيْرَتهم مما أخصُّك به وأخاك من رِعَاية ، وأوثركما به من إعزاز ، هم اليوم حديثُهم عنكما همْس ، وذِكْرُكما على ألسنتهم تعريض ، ولو أنك حدّثتهم برؤياك لا تأمن أن تُشْعِلَ حِقدهم ، وتثير كامِنِ كراهتهم ، فيدبّروا لك كيداً ، أو يَنْصِبُوا لك حبائِل[4] المكروه ، وما أسرع أن يشدّ الشيطان أزرَهم ، ويشحذ فى الشرّ عزائمهم !

(*) يوسف ٣ – ١٠٤ ، المؤمن ٣٤ .

(١) رف الطائر : حرك جناحيه فى الهواء .

(٢) ضاءت وأضاءت : بمعنى . (٣) سورة يوسف ، آية ٤

(٤) الحبائل : جمع حبالة ، وهى شرك الصائد .

كان يوسف إذ ذاك غلاماً يافعاً[١]، وَضِيء الطلعة ، مليح الهيئة ، فتّان المشاهدة ، ماتت أُمّه رَاحيل[٢]، وتركته وأخاه بنيامين فى الثامنة عشرة من عمره ، أشد ما يكونان حاجةً إلى قلبها الرءوم ، وصَدْرِها العَطوف ، ولهذا آثرهما يعقوب بالْحُبِّ ، وخصهما بفَضْل وحَنان ، ثم جاءت هذه الرؤيا مُذْكِيةً لهذا الحب ، مضاعِفة لهذا الحنان ، ولم تخْفَ على إخوة يوسف منزلتُه ومنزلةُ أخيه عند يعقوب ، وإنْ تموَّط فى الكتمان ، وتظاهَر بحب الجميع .

دلائلُ العِشْقِ لا تَخْفَى على أحَدٍ كحامِلِ المِسْكِ لا يخلو من العَبَقِ[٣]

فسرى إليهم داء الحسد ، ونبتت فى صدُورهم آكِلةُ الأكباد ، وهاجت الغَيْرَة ، وثار الحِقْد ، واجتمعوا فى نادٍ واحد ، وتشاوروا فيما يصنعون .

قال قائل منهم : ألا ترَوْن أن يوسفَ وأخاه أحبُّ إلى أبينا منّا ، وأقربُ إليه منّا جميعاً ، لستُ أدرى ما الذى يحولُ بيننا وبين قلبه ؟ وما الذى يُقصِّر من شأْوِنا عنده ! أَلَسْنَا أكبرَ من يوسف وأخيه ؟ ألسنا أشدَّ منهما قوة وأكثر حُنْكة[٤] ! أَلَسْنَا القائمين على مصالحه ، الدائبين على خِدْمته ؟ فلماذا يخصُّهما دوننا بهذا الحب ؟ ألِشَرَفٍ يَفْضُلانِنا به ؟ لا نرى ذلك الشرف واضحاً ، أم لأنَّ راحيل أمهما كانت أقربَ إلى قلبه من أمهاتنا ؟ ولكن ما ذَنْبُ الأبناء إذا تَفاضَلت الأمهات ؟ إن هذا لَحَيْف[٥] ظاهر وضلالٌ مبين .

---

(١) يافعا : شابا .

(٢) قيل لم تكن أمه ماتت بعد ، لأن ظاهر القرآن يقضى بذلك لقوله تعالى : ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ وقيل : بل ماتت ، والمقصود من أبويه أبوه وخالته ، الخالة بمنزلة الأم .

(٣) عبقت الرائحة : بقيت .

(٤) حنكته التجارب : هذبته .

(٥) الحيف : الجور والظلم .

وقال الثانى : إن محبةَ يعقوب ليوسف وأخيه قد نبتت فى قلبه كما نبتت فى الراحتين الأصابع، ولو أننا ذهبنا فى سؤاله عن أسباب هذا الإيثار، وناقشناه مظاهرَ هذا التفضيل ، فقلّ أن نَظْفَر بجَدْوَى ، أو نحظَى بنصيب ؛ إذ للحبِّ سُلطان على النفوس ، لا يُمنع ولا يُمنح ، ولا يُسْلَم ولا يُسْلَب ؛ هو عاطفةٌ فوق سُلطان العقل ، وميل يسترقُّ القلوب ؛ وما دُمنا نرى يوسف بيننا فإنه سيظل هو وأخوه بين قلب يعقوب وشَغافه[1]، وما أرى شفاء لهذا الداء الذى يقتل صدُورنا ، وراحةً من هذه البلابل[2] التى تزعجنا ، إلا أن نُريد بيوسف شرّاً : نقتله ، ونمحو آثاره ، أو نذهب به إلى مَفَازَة[3] بعيدة ، يأكله حيوان أو تَدْفِنه رمالُ الصحراء ، وحينئذ تقترب مسافةُ الخُلْف بيننا وبين أبينا أو تزول ، وندنو من قلبه ، ونأخذ ما حُرِمْنا من حبّه ، ثم بعدها نستغفر الله من ذنبنا ، وما إخالنا بعد ذلك إلاّ قَوْماً صالحين .

قال يهوذا ـ وكان من أشدِّهم رأياً ، وأرجحهم حلماً : نحن أبناء يعقوب الرسول ، وأحفاد إبراهيم الخليل ، ولنا عَقْلٌ ودين ، والقتلُ لا يُقِرُّه العقل ، ويأباه الدين ، ويوسُفُ غلامٌ برىء ، لم يَجْنِ إثماً ، ولم يرتكب جُرْماً ، ولم يقدِّم سوءاً ، ولكنكم إذا كنتم مجمعين له إبعاداً ، فهذا الجُبّ[4] الذى ببيت المقدس ، ملتَقى الغادى والرائح ، ألْقُوه فيه ، يَلْتَقِطْه بعض السَّيَّارة[5] الذين يضربون فى الأرض ، فيذهبوا به إلى حيث شاءوا ، وحينئذ نكونُ قد نلْنَا ما نرجوه من إبعاد ليوسف ، وخَلصْنَا من إثم القَتْلِ وعَاره .

فاستجابوا لهذا الرأى ، وبيّتُوا أمرهم على هذا العَزْم !

---

(١) الشغاف : غشاء القلب .

(٢) شدة الهم والوساوس .

(٣) المفازة هنا : الصحراء .

(٤) الجب : البئر البعيدة القعر الكثيرة الماء ، وليست مما حفر الناس .

(٥) السيارة هنا : القافلة .

ولما أصبح الصباح ذهبوا إلى أبيهم ، والهوَى يُزَيِّنُ لهم ما يصنعون ، والشيطان يحفزهم وهم يمكرون ، وقالوا : يا أبانا ، مالك لا تأمنّا على يوسف ، وهو أخونا وبَضْعةٌ[1] منا ، ونحن جميعاً أبناؤك ، يُظِلُّنا عطفُك ، وينتظمنا حُبُّك ! هَلاّ تُرْسلُه معنا غداً إلى ظاهِرِ البَلَدِ[2] ، حيث السماء الصافية ، والشمس الضاحية[3] ، والرِّيف الوَدِيع ، والظل الوَرِيف ؛ فبينما نحن نرعى الغنم ، ونتعهّد الأرضَ ، يلعب هو ويركض ، ويعود آخرَ النهار أصحَّ جسما ، وأصفَى نفسا ، لئن أرسلْتَه معنا لنرْمُقَنَّه بعيوننا ، ولنَرِفَّنَّ عليه بقلوبنا ، ولنفدينَّهُ بأرواحنا .

قال يعقوب ـ وقد حَذِر العاقبة ، وأشفق من وقوع المكروه : إنه لمَّا يبعث همِّى ، ويُثير أحزانى ، أن أرى يوسف بعيداً عن عَيْنِى وقلبى ، قَصِيًّا[4] عن جَنَاح عَطْفِى وظلِّ رعايتى ، وإنى لأخشى أنْ تذهبوا به فيصادف الذئب منكم غَفلة ، أو ينتهز فرصة ، فيقتله ويأكله ، وحينئذ تخلِّفون لى حُزْناً طويلا ، وقلباً لهيفاً ، وعَيْناً عَبْرَى[5] .

قالوا : أيأكله الذئب ونحن عصبة ليس فينا هَشِيم[6] ولا ضعيف ! لئن وقع ما تحذَرُ إنا إذاً لخاسرون .

قال يعقوب : أمَّا على أنْ تحوطُوه بقلوبكم ، وتلحَظُوه بعيونكم ، فدونكم وما تريدون ، والله من وَرَائِكم مُحِيط .

* * *

وأصبح الصباح وصحِبَهُم يوسف ، وأخذوا طريقَهم إلى الْجُبِّ ، وما وصلوا

---

(١) البضعة فى الأصل : القطعة من اللحم . (٢) ظاهر البلد : خارجها .
(٣) الضاحى من كل شىء : البارز الظاهر الذى لا يستره عنك حائط .
(٤) قصيا : بعيدا . (٥) عبرى : كثيرة البكاء .
(٦) الهشيم : الضعيف .

إليه حتى تكشَّفت نيَّاتهم ، وبرزت سَخائم[1] صدورهم ، وغلُظَت أكبادهم ، وقَسَت قلوبُهم ؛ فجرَّدوه من قميصه ، وألقَوْه في الجُبِّ حيث تلعب به الأقدار ، ولم يشفَعْ عندهم دَمْعٌ سَخِين ، ولا توسُّل وَجِيع .

وحَسبوا أنهم بذلك شفَوْا غَيْظَ صدورهم ، أو أطفئوا وَقْدَةَ أحقادهم ، وأنَّ قَلْبَ أبيهم سَيَخْلُو لحبِّهم ، ونفْسَه تخلُص لهم ، وظنُّوا أن الأيامَ سَتُسليه ، وحبَّه لهم من بعده يُلهيه ، ولكنهم قدَّروا وَالأقدارُ تضحك ، ودبَّرُوا وَأَمْرُ الله غالب .

* * *

ورجعوا إلى أبيهم عشاءً يلفِّقون القولَ ، ويزَوِّرُون الحديث[2] ، واصطنعوا البكاء ظنًّا منهم أن هذا سينهَض بحجّتهم ، وجاءوا على قميصه بدَمٍ كذبٍ[3] ، حُسباناً منهم أنه يقوم برهاناً على صِدْق دَعواهم .

وقالوا : يا أبانا ، لقد وَقَعَ ما كُنْتَ تحذَرهُ ، وحلَّ ما كنت تخشاه ، لقد تركنا يوسف عند مَتَاعِنا ، وذهبنا نجرى متسابقين ، وما ظننّا أن الذئبَ يقصد يوسف ويترقّب به الأذى ، ولكنه وجده وَحِيداً ؛ فهجم عليه وأكله ، وخلّف لنا هذا الحُزْنَ الذى يكاد يَفْتِك بصدورنا ، وتلك العبرات تَفيضُ بها عيونُنا ، وذلك قميصهُ مُضرجٌ بدَمه ، وما نظنّك تُؤْمِنُ بصِدْقِ قولنا ، ولو كُنَّا صادقين !

قال يعقوب ـ وقد فَطِن إلى ما كادوا ، ونفذ ببصيرته إلى ما دبَّرُوا ، وعلم أن لله شأناً فى هذا الغلام هو لا بدّ بالغه : لقد سَوَّلت[4] لكم أنفُسكم نكراً ، وأملَى عليكم الحسد أمراً ، ولكننى سأَصْبِرُ صَبْراً جميلا ، حتى ينكشف أمركم ، وتظهرَ عاقبةُ كَيْدِكم ، والله المستعانُ على ما تَصِفُون .

---

(١) السخيمة : الحقد .
(٢) زور الكلام : أعده وهيأه .
(٣) دم كذب : مكذوب .
(٤) سولت له نفسه : زينت له .

يوسف فى الجب

يوسف الآن فى الُجبّ يحتويه ظلامُه ، ويشتمله سكونه ! محنةٌ يُمتَحن بها هذا الفتى الكريم ، والله يمتحنُ المخلصين من عباده بأنواع المصائب ، ويفتنهم(١) بضروب الآلام ، ليكونوا أقدرَ احتمالا على ما يُلقَى عليهم من مهمّات الأمورِ وعظيماتها .

ولم تكن محنةٌ أنكى فى الداء ، وأبلغَ فى الألم ، وأبعث على الجزَع من هذه المحنة التى ابتُلِىَ بها يوسف . وربما كانت هذه المحنةُ أخفّ وقعاً ، وأهونَ شأناً ، لو أنها وقعت على رَجُل خَبَر أساليب الحياة ، وعجم عيدان(٢) الأمور ، إذن لعرف كيف يحتالُ لنفسه ، أو يتدبّرُ فى أمره ، ولكن يوسف لا يزال فتى غَريراً لا يَريش ولا يبرى(٣) .

وربما كانت أخفّ احتمالا لو أنّ يوسفَ كان قد اقترف خطيئةً ، أو ارتكب إثماً ، إذن كان خليقاً بهذه المحنة ، جديراً بهذا العذاب ، ولكنّه كان مُبَرّأً من العيب ، بعيداً عن التهمة ، قَصيًّا عن مواطن الرّيب ، وهو بعدُ فى ذكاء الطفولة وغَرَارةِ الفُتُوّة ، وأمْرُه فى رِقّة الحاشية ، وخَفض الجناح كان معروفاً مألوفاً .

ولو أنّ رميةَ يوسف كانت من غير إخوته ، ومحنتَهُ جاءته من غير آصِرَته(٤) لاحتملها قلبُه ، واتسعت لها جوانبُ صدْره ، ولم يتشعب فيها هَمُّه وأسَاه ، ولكنه سَهْمُ إخوته ورَمِيّةُ بنى أبيه .

ولو بغـــير الماء حَلْقى شَرِق   كنتُ كالغصّان بالماء اعتصَارى(٥)

(١) يفتنهم : يختبرهم . (٢) عجم عيدان الأمور : أى اختبرها .

(٣) يقال : أبرى النبال وأريشها : أى أنحتها وأصلحها . وأعمل لها ريشاً لتصير سهما يرمى . والمراد أنه صغير لا يستطيع عمل شىء .

(٤) من لهم به صلة . (٥) الاعتصار : إزالة الغصة بالماء قليلا قليلا .

هو الآن يجولُ بعينه فى نواحى الُجبّ ، ويتلفّت أمامه فلا يجد إلا ماء راكداً ، يرى فيه خيالَه الـكاسِف[1]، وظلّه الحزين ، ويتلفّت فوقه فلا يَلمح إلا ظلاماً متكاثفاً لا يميز فيه شيئاً ، ما عسى كانت بَلابلُه[2] ؟ وما خطراتُ نفسه ؟ لعله تذكَّر أباه ، فأعادت إليه الذكرى ابتسامتَه التى كانت تطالعهُ فى الصباح ، وحديثَه الذى كان يتساقط إلى أُذنيه فى المساء ، وكلفَه[3] بذاته ، وتعلُّقَه بشخصه ، وما حاله الآن بعده ؟ وأىّ حزن يشتمل عليه ؟

بل لعلّه قد راعه الظلام ، وأوحشه ضيقُ المكان ، فحَنّ لطلعةِ الشمس ، وتألُّق البدر ، واشتباكِ النجم ، وزُرقةِ السماء ، ورَوْنق الضحا ، وبهجة الربيع ، وانسجام الظلال .

ثم هو قد جاع ، أو أنه سيجوعُ ، فمن أين يسدُّ حاجتَه ؟ وأنّى له بالطعام الذى يحفظُ جسمه ، ويطيلُ فى الحياة أنفاسَه ؟ بلابلُ لا تحتملها ساحةُ قلبه ، وهموم لا تتسع لها رقعة نفسه .

إنّ البلاء يُطاقُ غيرَ مضاعَفٍ   فإذا تضاعف صار غيرَ مُطاق

* * *

لكن رحمةَ الله قد اقتربت منه ، فهو قد امتحنه بهذه البَلْوَى ، وهو الذى سيربطُ قلبه ، وسيجمع ماتفرّق من نفسه ، ها قد أوحى إليه : أن تجمّل بالصبر ، واعتصم بالعزاء ، فإنى جاعل لك من ضيقك مخرجاً ، ومن همك فَرَجاً ، وإنى مُظهرُك على إخوتك ولكن بعد حين . عند ذلك ذهبت همومه ، ورجعت إليه نَفْسُه ، وانتظر يَرْقُبُ أمرَ الله .

---

(١) الكاسف : سيء الحال .   (٢) البلابل : الوساوس .

(٣) كلفت به كلفا ، فأنا كلف : أحببته وأولعت به .

ها هو ذا يسمع من بعيد صدًى حركةٍ مُبهمةٍ ، وأصوات مختلطة ، لقد أرهف سمعه ، ووَدَّ لو أن كل جارحةٍ من جوارحه استحالت آذاناً .

وها هي ذي الأصوات أخذت تقترِبُ رويداً رويداً ، وتتَّضِحُ شيئاً فشيئاً ، أصوات أسْفَرَتْ عن وَقع أقدام ، وخَفْق نِعَال ، ونُبَاح كلاب ، هي قافلة ، وأمل يبتسم ، وزَهْر الرجاء بدأ ينفتح ، وساعة الخلاص آن أوانها .

ألقَت السيَّارة عصاها[1] بجانب الجبِّ ، وهتف رئيسُ القافلة بصوتٍ سمعه يوسف ، ووقع على قلبه وقوع الماء من ذي الغُلة الصادي[2] : ألقِ دَلْوَك يا هذا في الجب ، وامتَح[3] لنا ماء ننقع به غُلّتنا ، ونسدّ حاجتنا ، ونسقي دوابّنا ، بعد أن أجهدنا السير ، وأصابنا بُعْدُ الشقة ، وأخذ منا الكلال .

فألقى الرجل دَلْوَه ، ورآهُ يوسف فتعلّق به ، وما راع الرجل إلا غلامٌ متعلق بالحبل ، وجهه كأنه فلقَةُ قمر ، فصاح : يا بُشْرَى ، هذا غلام !

فاجتمع القوم ، وأخذهم الدَّهش ، ثم أجمعوا رأيهم على أن يتخذوه غلاماً يبيعونه بمصر !

ولو أنهم كانوا يحملون بين جوانحهم قلوباً رَحِيمة ، أو يحتوون نفوساً كريمة لتعرَّفوا حاله وردُّوه إلى أهله ، ولكنهم بعضُ الأنام ، يجرون على طباع البشر :

إنما أنفس الأنيس سِبَاعٌ يتفَارَسْنَ جَهرَةً واغتيالا

واستأنفت القافلةُ السير ، حتى ألقت عَصاها بمصر .

وهناك عرَضُوه للبيع في سوق الرقيق ، وهو الحرُّ الأبيُّ ، والرسول الكريم ، وباعوه بَيْعَ السماح[4] بثمن قليل[5] ، (دَرَاهِمَ معدُودة وكانوا فِيهِ مِن

---

(١) ألقت عصاها : استقرت .

(٢) الغلة : العطش . والصادي : العطشان .

(٣) متح الماء : نزعه وأخرجه .

(٤) بيع السماح : المسامحة في البيع .

(٥) سورة يوسف ، آية ٢٠

الزّاهدين) ؛ خَشية أن يفتضحَ أمرُهم ، أو أن يُهتكَ سِرُّهم ، ولو أنهم باعُوه بمِلْءِ الأرض ذهباً لما كان ذلك عَدْلا لهذه النفس العظيمة ، وكفاء لهذا الغلام الكريم .

***

اشتراه عَزيزُ مصر[1] ووزيرها الأكبر ، فتوسَّمَ فيه معدناً كريماً ، وعِرْقا طيباً ، فقال لامرأته : هذا غلامٌ يُخيَّلُ إلىَّ من معارفه وهدوء طبعه أنه نبيل الفِطْرة ، سَرِىّ[2] الأخلاق ، كريمُ المنبت ، فأكرِمِى مَثْوَاه ومَأْوَاه ، وحاشاك أن تَزْجُريه زَجْرَ الخدم ، أو تضربيه ضَرْبَ العبيد ، فإننى لأرجو إذا اكتمل عُودُه ، ونضجت سِنُّه ، أنْ ينفعنا ، أو نتَّخِذه ولداً .

وانصرف يوسفُ إلى العمل ببيت العزيز ، فى جِدّ وأمانة ، ولقى فيهم أهلا بأَهْل وجيراناً بجيران .

يوسف وامرأة العزيز

(١)

لم يكد يوسف يخلُص من محْنَة الُجبّ ، ويخلُدُ إلى حياة هادئة فى منزل العزيز ، حتى ابتدأت الأيام تخيط له محنةً أخرى ، يَقْوَى بها عَزْمُه ، وتقرب إلى الله بها نَفْسُه ، والأقدارُ قد جاءته فى محنته هذه من ناحية حُسنه وجماله ، ودخلت إليه من طريق فُتوّته وغَضَارة شبَابه ، فشقىَ بهذا الحسن زمناً ، وجرّ عليه بلاء طويلا .

وكم رَمَتْ قَسَمات الُحسْنِ صاحِبها وأتْعَبت قَصَبَاتُ السبقِ حَاوِيهَا
وزهْرَةُ الرَّوْض لولا حُسْنُ رونَقها لمَا استطالت عليها كَفُّ جانِيها

---

(١) هو رئيس شرطة مصر ، واسمه فوطيفار . (٢) رفيع .

ابتدأ يوسف فى عمله ، وهيّأت له الملابسات إظهار مكْنون حزْمِه وعقله ، وأمانته ونزاهته ؛ فازدادت به ثِقَةُ العزيز ، وأدخله فيما بين نَفْسه وأهله ، وبوّأه مكان الأشراف الأحرار ، ووَضَعه من قلبهِ موضعَ الأبناء الأبرار .

وتقدمت به الأيامُ ، وأظلهُ ربيعُ العمر ، وخلع قميص الحداثة ، ولبس بُرْدَ الشباب ، وإذا امرأةُ العزيز يشغلها أمْرُ هذا الغلام ؛ فأخذت ترقبه فى غدوّه ورواحه ، وتلحظه فى قيامه وقعوده ، وفى يقظته ومنامه ، وطعامه وشرابه ، وحركته وسكونه ، وبدت لها محاسِنهُ الخفية ، وحيويته القوية ، وشعرت أن حُبّهُ ينبت فى قلبها ، وينبض فى عرُوقها ، ويجرى مع أنفاسها ؛ فوسوست به فى خَلوتها وتمنّته ـ وللحِسان تمَنٍّ فى لياليها ـ ولكن كيف السبيلُ إليه ، وهى امرأةُ العزيز ، ومقامها فى القصر مقامه ، ومكانةُ زوجها فى مصر مكانتها ! الخيرُ لها أن تغلبَ ميلها ، وتسحق هواها ، وتصرف نَوَازِى الهوى عن نفسها ، ولكنها كلما رأته مال إليه قلبُهَا ، وبُعث الحبُّ قويّاً فى صدرها .

وأشدُّ ما لُقّيتُ من ألَمِ الجوَى ... قُرْبُ الحبيب وما إليه وصولُ
كالعِيسِ فى البيداء يقتلها الظّما[1] ... والماءُ فوْقَ ظهورها محمولُ

ولما ضاق صدْرُها ؛ وَدنِف[2] جِسْمُها ، رأت أن تجيب داعىَ الهوى ، وتجاذبه ثوْبَ الغرام ، ولكن على ألا تُذِلَّ نفسها ، أو تهبط عن عرْشها ؛ فنصبت له حبائلَ الفتْنَة ، وأطلعَتْهُ من نفسها على ماعساه أن يصبىَ نفسه ، ويثير داعيةَ هواه .

لكنه أعرض عن تلويحها وتلميحها ، وغضّ بصَرَهُ عن محاسنها ورونق جمالها ، وما كان ليوسف وهو الكريمُ ابن الكريم ابن الكريم ـ أن يميلَ

(١) العيس : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة . (٢) دنف : مرض وذبل .

قلبُه إلى محرَّم ، أو تجنَح(١) به نفسه إلى معصية . وما كان له أيضاً — وقد مهَّد له العزيزُ من كَنَفه ، وبسط له مِهاد صدره ، وائتمنه على أهله — أن يختانَه فى منزله ، أو يسوءَهُ فى امرأته .

ولكن الإعراض ضاعف هواها ، والمنع أثار كامِن غرامها ؛ فرأت أن تصِل بالتصريح إلى مالم تَنَلْهُ بالتلويح ، وأن تكون أجْرأ على ما تطلبُ ، وأشجع فيما تريد ، فما بقى فى قوْس الصبر منزع ، وما عادت اليوم تُطيقُ صدَّهُ وإعراضه ، وأجمعت الرأى ، وهيأت نفسها لما تريد ، بعد أن ألقَت صوْلجان الملك ، ولبست شِعار المتصبِّية العاشقة . ودعتْهُ لَتخدعها فلَبَّى سريعاً ؛ استجابةَ لأمرها ، وجرْياً على عادته فى طاعتها ، ثم أسدلت السُّجُف(٢) وغلَّقت الأبواب ، وقالت : هَيْتَ(٣) لَكَ !

ولكنَّ يوسف ، وإن كان فى رَيْعان الشباب ، وغَضاضة الإهاب ، وفراغ البال ، وحُسْن الحال ، قد ارتضع لبان الحكمة ، وترعرع فى كَنَف الرِّسالة ، وأعدَّهُ الله لشرف النبُوَّة ، و (اللهُ أَعْلَمَ حيثُ يجعَلُ رِسالتَهُ)(٤) ؛ فقلْبُهُ مشغول بربِّهِ ، ليس فيه موضعٌ تستميله المرأة ، أو تستهويه نزَواتُ الهوى .

أجابها : معاذ الله أن أجيبك إلى ما تُريدين ، أو أذْعِن إلى ما تطلبين ، وحاشاى أنْ أخُونَ مولاى العزيز ، وهو الذى أحسن مَثْواى ، وأكرم مأواى ، وما أنا بمنكرٍ للنِّعْمَة ، ولا بجاحِدٍ للجميل .

إن كُنتِ قد غلَّقتِ الأبوابِ ، وأسدلت الحجُب فإن الله يَعلم خائنة الأعينِ(٥) وما تخفى الصدور ! وحاشاى أن تُطاوِعنى نفسى لمعصيته ، أو أن يستجيبَ قلبى إلى ما فيه غَضَبُه ، إنهُ لا يفلح الظالمون !

---

(١) تجنح : تميل . (٢) السجف : الستور .
(٣) هيت لك : تهيأت لك . (٤) سورة الأنعام ، آية ١٢٤
(٥) أى ماتخون فيه من مسارقة النظر إلى مالا يحل .

امرأةُ العزيز فى سَطوَتِها وعِزّتِها ، وجمالها ودَلالها ، تدعو فتىً من فتيانها ، بل واحداً من خدّامها ، فيأبى ويمتنع ، ويستكبر ويعتصم ، وهى الآمِرَةُ النّاهية فى قَصْرِها ، والسيدةُ المطاعةُ فى خدَمِها وحشَمِها ! إنها لعظيمة لا يحتملها كبرياؤها ، وكبيرة لا تُسيغها نفسها !

استطار[1] غضَبها ، وهاج هائجُها ، فهمّت به بَطْشاً ، وأرادت به سُوءاً ، انتقاماً لعزّتها المُضاعة ، فهمّ أن يلقى الشرّ بالشرّ ، ويصدّ الضرب بالضرب، ولكنه أحسّ بإشراق النبوة فى نفسه ، ورأى برهان الله فى قلبه ، وأوحى إليه: إن الفرار خيرٌ من القتال ، والمسالمة خيرٌ من المواثبة ؛ فاستجابَ لِوَحْى ربه ، وهمّ إلى الباب جَرْياً ، وهمّتْ وراءهُ عَدْواً ، حتى أمسكَتْهُ مِن قَميصه ، وجذبته من ثوبه ، وما انتهى إلى الباب حتى رآه العزيز واقفاً وقميصه ممزقاً !

كان موقفاً يبعثُ على الرِّيبة[2]، ويثير الاتهام ، رجعت فيه المرأة إلى كَيْدِها ومكرِهَا ، والتجأ يوسفُ إلى صدقه وصراحته ... قالت : إن يوسف لم يَرْعَ حُرْمَتك ، ولم يحفظ يدك ؛ فإنه حاول أن يُدَنِّس ثوبى ، فَرَاوَدنى عن نفسى ، و (مَا جزاءُ مَنْ أراد بأهلك سُوءاً إلا أنْ يُسْجن أو عذابٌ أليمٌ)[3] .

فلم يجد يوسفُ ملجأً إلا الصراحة فى القول ، والاعتراف بالواقع ؛ إذ كانت جريئةً فى الكَذِب ، جريئة فى البهتان ، فقال : هى التى راوَدَتنى عن نفسى ، وجذبتنى ثَوْبى العفيف ، وهذا قميصى شاهداً على صدق دعواى .

وفيما هو فى أمره معهما دخل ابن عمها ، وكان فَطِناً لبيباً ، زَكِناً أريباً[4]، فسمع القضيةَ من أطرافها ، وفَطِن لما وراء قِصَّتها ، فقال : إنْ كان قميصه قُدّ[5]

---

(١) استطار : كثر واشتد .
(٢) الريبة: الشك .
(٣) سورة يوسف ، آية ٢٥
(٤) الزكن : الفهم . والأريب : العاقل .
(٥) القد : الشق طولا .

من قُبُلٍ[1] فصدقتْ وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصُه قُدّ من دُبُرٍ[2] فكذبتْ وهو من الصَّادقين .

فلما رأى قميصه قُدّ من دُبُرٍ ، جلت الرَّغْوَة عن الصريح[3]، ووضح الحقُّ لذى عَيْنَيْنِ ، وظهرت براءةُ يوسف ، والتفت العزيزُ إلى امرأته وقال : إن هذا من كيدِ النساء ومكرهنّ ، فاستغفرى لذنبكِ إنكِ كُنْتِ من الخاطئين ، وأنتَ يا يوسف ، اربطْ لسانك عن الخَوْضِ فى الحديث ، خشيةَ أنْ تشيع القَالَةُ ، وينتشر الحديثُ بين الناس .

(٢)

وشاع فى المدينة وعلى ألسنة النِّسْوة ، وبين جنباتِ القُصُور ، أنّ امرأةَ العزيز قد افتتنت بغلامها العبرانىّ ، ووقعت فى غرامه ، واستهامت بجماله ، وأنها لما امْتُحِنت به من حُبّه ، واصطلت بنار عِشْقه ، قد نزلت عن عرشها ، ودعتْهُ لنفسها ، وسدّدت إليه سهام فتنتها وسحرها ، ولكنَّهُ عزف[4] عنها ، وزهد فيها ، ولم يفتنه حُسْنُها ولا دلالها ، ولم يستهوه روعتُها ولا جمالها ، فهى لهذا مسلوبة الفؤاد ، مضرّمة الأنفاس ، تخفى أمرها فيفضحها الدمع ، وتستر وَجْدها فينمُّ عليه السَّقَم .

وأخذت تلك القَالَةُ[5] تَشِيع وتتشعّب ، وتتخذُ لها ألواناً وأشكالا ، حتى انتهت إلى امرأةِ العزيز ، وسقط فى سَمْعها كلُّ ما تحدث به لِدَاتُهَا[6] وأترابها من نسوة المدينة ، وما تَزَيَّدْنَ فيه ، وما نلنَهُ منها بحصائد ألسنتهم ، وقارس

---

(١) قبل : أمام . (٢) دبر : وراء .

(٣) الصريح : اللبن الخالص ، وهو من باب التمثيل . (٤) انصرف عنها .

(٥) القالة : الكلام يتنقل بين الناس .

(٦) اللدات : جمع لدة ، وهى من يساوى المرء فى سنه .

تأنيبهنّ ، فلم تر بُدّاً أن تدحض هذا القول ، وتفلّ ذلك السلاح ، وتقابل مكرهنّ بمكر ، وكيدهن بكيد .

فدعتهن فى يوم من أيامها المشرقة إلى طعامها ، وهيّأت لهن مُتكآتٍ وَثِيرة ، وأرائك مُريحةً ، وخلعت عليهن أرديةَ الحفاوة ، وحاطتهن بهالة من النعيم ، وقدمت لهنّ الفاكهةَ ، وآتت[1] كلّ واحدة منهنّ سكّيناً ، وقالت ليوسف: اخرُجْ عليهن ، وامْشِ بين صفوفهن ؛ فخرج من مَخْدعه وقد صبغ الحياء وجهه ، وملأه الحسن من أخْمَصه إلى مَفْرَقه[2] ، فشاهدْن فَتًى لا كالفتيان ، وشابًّا لا كالشبان ، أبلجَ الغرّة ، وضىء الطلعة ، سَمْح المعارف ، حُلو الملامح ، ملء أردانه قوة وشباب ، وحشو دِرْعه مهابة وجلال ، وشاهدن من وراء هذه القَسَامة[3] نفساً جميلة كريمةً ؛ فذُهِلن عما كُنّ فيه ، وخُولطنَ فى عقولهنّ ، فإذا السكاكين تَقَعُ على أيديهنّ فتقطعها ، فقلن : حَاشَ لله وتباركَ خَالِقُهُ ! (ما هٰذَا بَشَراً إنْ هٰذَا إلاّ مَلَكٌ كَرِيم)[4] .

فصفّقت امرأةُ العزيز بيديها ، وكأنه قد سُرِّى عنها ، وقالت : هذا يوسف الذى لُمْتُنَنِى فيه ، وخُضْتُنّ فى حديثى معه ، وهذا شأنكُنّ فيه ، وقد رأيتُنّهُ عَفْواً ، وشاهدتُنّهُ لمحاً ، فما بالكُنّ تلمننى فيه ، وقد ترعرع فى دارى ، وبلغ أشدَّه أمامى ، واستوى بين سَمْعى وبصرى ، فأنا أشاهِدُه فى قعوده وقيامه ، ويقظته ومنامه ، وطعامه وشرابه ، وحركته وسكونه ، وأخْلُو به فى ليلى ونهارى ، وأتراءى له فى زينتى ، وأعرض على نظره ما ظهر من محاسنى ؛ فيُعرض عنى استعصاماً ، ولا يرفع إلىّ طَرْفاً ، ولا يُميل نحوى عِطفاً[5] ،

---

(١) آتت: أعطت . (٢) الأخمص: من باطن القدم: مالم يصب الأرض . والمفرق — بكسر الراء وفتحها : الموضع الذى يفرق فيه الشعر .

(٣) القسامة : الحسن . (٤) سورة يوسف ، آية ٣١

(٥) أصل العطف الجانب ويقال : ثنى عطفه عنى ؛ أى أعرض .

بل يتجلّى فيه الروح الملائكيّ بأظهر مجاليه ، والعبادة الإلهية بأكمل معانيها .

أمِثْل هذا الملك القاهر يُسَمَّى عَبْداً طائعاً ! ومثل هذه المرأة المقهورة تُسَمَّى سيدةً مالكة ! تأمر — بل تُشِير — فتُطَاع ، ثم ينكر عليها أن تراود فتردّ ، وتريد إظهار سلطانها فتعجز !

لا أخفى عليكنّ أننى قد رَاوَدْتُه عن نفسه ، وَجَذَبْته من قلبه ، فتأبّى[1] واستعصم ، وانصرف عنّى وأعرض ، ولا أخفى عليكنّ أيضاً أننى سوف لا أطيق على إعراضه صَبْراً ، ولا أستطيعُ أن أملك لقلبى معه زماماً ، فهو قد ملك أعِنَّة قلبى ، واسترقّ فؤادى ، وأطال ليلى ، وسلب الكرى[2] من أجفانى . ولكننى — وقد أذللتُ نفسى ، وافتضح أمام الناس أمرى — لئن لم يفعلْ ما آمُرُه لأدفعنّ به إلى غَيَابات[3] السجن ، يُعَانى ظلامه ، وَيُبْلى فيه رداء شبابه ، أو لأذيقنّه هوان نفسه ، وإيذاء جسمه ؛ فهما أمران يختار أهونهما عليه .

رأى النسوةُ ما رأينَ مِنْ جمال يوسف وروعته ورَوْنقه وتألّق غرّته ، ثم رأينَ ما رأينَ مِن حُرْقَةِ امرأة العزيز ، وصَبْوَتها وتمنّيها فى عزّها وجاهها، وفى سطوتها وسلطانها ، ثم سَمِعْنَ مَا سَمِعْنَ من تهديدها ووعيدها ؛ فتألّبن معها عليه ، وتقرّبن إليه . قالت له إحداهنّ : أيها الفتى الكريم ، ما هذا التأبِّى والتمنّع ؟ ولِمَ هذا الانصراف وَالأزْوِرَار[4] ! أليس لك قلب يَلين لهذه التى أسلمت نفسها ، ودفعَت إليك بقلبها ! أليس لك عَيْنٌ تنظر إلى من تُقَيِّدُ الطّرْف بحسنها ، وتستميل العَصِىّ بجمالها ! ألستَ شابّاً مُكْتَمِلَ الشباب ، غَضِيضَ الإهاب ، لك فى المرأةِ نَصِيب ، ومن المتعة بها مقدار ؟

---

(١) تأبى : امتنع . (٢) الكرى : النوم . (٣) غيابة كل شىء : ماسترك منه . (٤) الازورار : البعد والانحراف .

وقالت الأخرى : وَدَعْكَ من جمالها وغَرَامها ، ألستَ تنظر إلى مالها وسلطانها ، وعزّها وجاهها ؟! ألم تعلم أن كلَّ ما فى هذا القصر مبذول لك لو أطَعْتَها ، مُيَسَّر لك لو أجَبْتَها ؟!

وقالت الثالثة : إن لم يكن لك مَأْرَبٌ فى جمالها ، أو مطمعٌ فى مالها ، ألستَ تخشى ما تَوَعَّدَتك به من سجنٍ لا تعلم مَدَاه ، أو عذاب لا تُدْرِك غايتَه أو مُنتهاه.؟! الخيرُ لك أن تُسْلِس من قيادِك ، وأن تخفّف من عِنَادك ، فتفوز بالحسنيين : الجمالِ والمال ، وتأمن من شَرَّين : السجن والعذاب .

قلنَ ذلك ، وَحَسِبْنَ أنهنّ بالغاتٌ بكلامهنّ قَرَارَةَ نفسه ، أو محركات مكان الهوى من فؤاده ، ولكن يوسف اضطرب بين الوعْدِ والوعِيد ، وبين المنعِ والإغراء ، حتى خاف أن يشتبه عليه الأمر ، ويُوَسوس إليه الشيطان ؛ فتوسَّل إلى الله — والمؤمنُ لا يزال يفزعَ[1] إلى الله فى كلِّ ما يحز به[2] من همٍّ ، أو يصيبه من مكْرُوه ، أو يشتبه عليه من أمر ، فيلتمس منه العَوْنَ والسَّدَاد.

وكذلك كان يوسف ؛ فإنه توجَّه إلى الله ، وتضرّع إليه أن يصرفَ عنه السُّوء ، ويصُدَّ عنه كيد النساء ، وقال : رب ، إنَّ السجنَ على ظلامه ووَحْشَته أرْوَحُ على نفسى ، وأمْيَل إلى قلبى من مجاهدة هؤلاء النِّسْوة ومغالبتهنَّ ؛ فيه أصبِر على بلائك ، وأزيد إيماناً بقضائك ، وأعلم ما خَفِيَ علىَّ من شئون خلقك ، وقد ينفتح لى باب الدعوة إلى معرفتك وتوحيدك ، وَتُهَيّأ لى الفرصةُ لعبادتك وتمجيدك ، وفيه أعدّ نفسى لإقامةِ الحق ، وَنَصْبِ ميزان العدل ، فيما عسى أن تخوّلنى من الأمر ، كما وعدتَ أن تمكّن لى فى الأرض ، ووَعْدُك الحق وقولُك الصدق ، أما أن أقيمَ بين هؤلاء النسوة ، يَفتِنّنى بالقول ، ويزَخرفْنَ لى باطلَ الحياة ، فإننى لأخشى من هَوَاىَ أن يميل ، ومن الشيطان أن يُوَسْوِس فيتغلّب ،

(١) يفزع : يلجأ . (٢) يحز به : يصيبه .

فأصبو إليهن (رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وإلاَّ تَصْرِفْ عنى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ[1] إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)[2] .

وكلُّ تلك المحن التى ابْتُلِيَ بها يوسف ، وَالْحَبَائل[3] التى نُصِبَتْ له ، والأقاويل التى نُسِجتْ حوله ، خرج منها عفيفَ النفس ، طاهرَ الذيل ؛ فقد افتنَّت سيِّدته فى مُرَاوَدَته ، ولكن لم يكُن لذلك أدنى أثر فى جَذْب خلسات نظره ، ولا خَفَقَات قلبه ، بل ظَلَّ مُعْرِضاً عنها ، مُتجاهلا لها ، حتى إذا ما صارحته بكلمة اقشعرَّ جلدُه ، واستعاذ بربه ، وَأَنِفَ أن يخونَ سيِّده ، واتهمَتْه بالاعتداء عليها ؛ فشهد شاهدٌ مِن أهلها بما أسقط حجَّتها ، وأوْهى كلامَها ، واجتمع حوله النِّسْوة يفتنه ، فما نقضْنَ له مِرَّة[4] ، ولا حَوَّلن له قلباً .

ظهرت هذه العلامَاتُ دالةً على براءته ، شاهدةً على نزاهته وأمَانته ، وعلمها العزيز ، واستيقنتها نفسه ، ولكن امرأته — وقد عِيلَ[5] صبرها ، وانقطع مِن يوسف رجاؤها — فزِعَتْ إليه ، وكان مِطْوَاعةً لها ، وجملا ذَلُولا فى يدها ، وقالت له : إن يوسف قد فضحنى فى أمرى ، وافترى علىَّ الزُّورَ فى شَرَفى ، ومَا أرى إلا أن تسجنَهُ ، فتأخذ لشرفى ، وَتَشْفِي مِن غيظى .

فانقاد لقولها ، وأطاع أمرها ، ودفع بيوسف إلى السجن ، بريئاً مِن ذَنْبه ، كما كان الذئبُ بريئاً مِنْ دَمِه ؛ فاستقبل فيه محنةً جديدة ، تلقَّاها بقلب الصابرين ، وَعَزْم المؤمنين .

* * *

---

(١) أصب : أحن وأميل (٢) يوسف ، آية ٣٣ .

(٣) الحبائل : جمع حبالة ، وهى مايصاد به .

(٤) المرة : طاقة الحبل وقوة الخلق (٥) نفد صبرها .

يوسف السجين

دخل يوسف السجنَ — لا كما يدخل مجرمٌ قتل نفساً، أو لصٌ سرق متاعاً — بل دخل مظلوم لم تُنصفهُ كلمةُ القضاء؛ فأسلم نفسه يرجو عَدْلَ السماء؛ دخله مرْتاحَ الضمير، رَضِيَّ النفس، منقوعَ الفؤاد، وما السجنُ وظلامُه، والأسرُ وأغلاله، فى جانب هذه الفتنة التى أثيرت حَوْله، والمؤامرة التى دُبِّرَت للإيقاع به؟! ألم يكن السجن نجاةً له من هذه الفتنة التى قُصِدَ بها ثَلْمُ[1] دينه والمؤامرة التى دُبِّرَتْ لوَكْس[2] خُلُقه، وإفساد عصمته! وما ضَرَّ يوسف أن يُسجن أو يمنع من الغدوّ والرَّوَاح؟ أليس هو واجداً فى السجن قوماً جُفَاةً ظالمين، أو عُتَاة مجرمين؟! الخيرُ له أن يقومَ بينهم معلماً راشداً وناصحاً أميناً، فلعله يَخْضِد[3] من شَوْكةِ الظلم فيهم، أو ينزع نَوَازِى الشرّ من صدورهم، فيكون قد طهَّرَ الإنسانية من بعضِ أدْرَانها، وخفَّفَ عن كاهلها ما تنوء به من عِبْءِ مُجرميها.

ألا يجد فيه قوْماً مظلومين، وأغْفَالا[4] مساكين؟! إنها فرصة طيِّبة، وسانحةٌ جميلة، ليواسيهمْ فى آلامهم، ويشاركهم فى محنتهم، فيكون ذلك أروحَ لنفسه الرضية، وأنسبَ لطبعه الكريم، والله قد وعده النبوَّة، وَمَنَّاه بالرسالة. وأىُّ شرف يَعْلُو هذه المنزلة؟! وأىُّ عزّ يطاول هذا المقدار؟! فما يبالى بعد ذلك السجنَ والعذاب، وَالقيد والأغلال!

***

وامتدَّت أيامُ سِجْنه، ومكث فيه دَهْراً، يَعودُ المرضى ويواسى الضعفاء،

(١) يريد عيبه والنيل منه (٢) الوكس: النقصان (٣) يخضد: يكسر.
(٤) الأغفال: جمع غفل، وهو من لا يرجى خيره، ولا يخشى شره

وينصح الأشقياء ، وينشر عليهم مع كلِّ صُبْحٍ فيضاً من علمه ، وقبساً من فضله ، حتى أحَبَّهُ المسجونون ، وكَلِفُوا به ، واطمأنت نفوسهم إليه .

ودخلَ فيمن دخل السجنَ معه فتيَان من حاشية الملك : ساقيه ، وخازن طعامه ، ذَاقا معه آلامَ السجن ، واحتملا ذُلَّ الأسْرِ والقيد ،حتى أصبحا يوما على رؤيا أَهَمّتْهُما ، وأزعجتْ طائرَ الاطمئنان فى صَدْرِهما ؛ فأسرعا إلى يوسف يستنبئانه عن رؤيتهما ، وَيَسْتَفْتِيَانِه فى أمرهما.

قال الساقى : لقد رأيتُ كأنى فى بستان كَرْم مَعروش[1] ، زَاهٍ مُخضرّ ، وكأنّ بيدى كأسَ المَلِك ، أعْصِرُ من عناقيده فيها .

وقال الخازن : وأما أنَا فقد رأيتُ كأنى أحمل سلالاً فيها أصنافُ الخبز والطعام ، وكأنّ سِرْباً من الطير يتهاوى إليها ويتخطّفها ، ويذهب بها إلى مكان سحيق ؛ فهل لك أن تنبئنا بتأويل ما رأينا ، بما نعهده فيك من فضل المعرفة والتدبير ؟ !

* * *

وكان يوسف – قبل أن يَلْجأ إليه الفَتَيَان – قد أكرمه الله برسالته ، وآتاه ما وعده ، وأمره أن يضطلعَ بما اضطلع به أبوه من قبل ، من الدعوة إلى التوحيد ، وإشعال قَبَس الإيمان ، وعسِيٌّ به أن تكون دعوته مؤكّدةَ النجاح ، مقرونة بالفلاح ؛ فهو فى قوم فقــــراء قد طهّرَ نفوسهم الفقر ، ومظلومين يستشرفون إلى الإيمان ، وهؤلاء وأولئك أقربُ الناس لِفَهم الدعوى ، وأكثرُهم استعداداً لمــا يُلْقى عليهم من هَدْى وإرشاد .

---

(١) معروش : له عرش ، والعرش هنا : السقف .

وبينا هو يتهيَّأ للدعوة ، ويُعدّ نفسه لإعلان كلمة التوحيد إذ جاءه الفتَيان ، ورآها يوسف فرصةً يمهّدُ بها للدعوة ، فقال : يا قوم ، إنّ وراء هذه الأصنام التي تعبدونها ، والآلهةِ التي تتقرَّبون إليها ، إلهاً قد أوحى إلىّ أن أدلكم عليه ، وأرشدَكم إليه ، وأن ماتعبدونه من رَعْ أو أبيس[١] ، أو تمثال أو صنم ، ليست إلا أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزلَ الله بها من سُلطان ، ولا يحملكم على عبادتها دليل أو برهان ، وإن التمستُمْ دليلا على صِدْقي ، أو أردتم برهاناً على صحة دعوتي ، فدونكم تأويلُ رُؤيا الفتَيَيْن : أما أحدُهما فسيخرجُ من سجنه ، ويعودُ إلى سابقِ عهده ، ساقياً للملك ، قائماً بينه وبين نُدَمائه ... وأما الآخر فسيُصْلَب وستأكلُ الطيرُ من رأسه ، عرفْتُ هذا عن وَحْيِ غَيْب ، لا بكهانة[٢] أو تنجيم أو ما يشبههما من صناعة أو تعليم ، ذلك مما علَّمني رَبِّي ، إني تركْتُ مِلةَ قومٍ لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون .

ويوسفُ كان عالماً بِصِدْقِ تأويله ، وبوقوع نُبوءته ، فقال للساقي — وقد عَلِم نجاته ، وتوقَّعَ صدورَ العَفْوِ عنه — : يا هذا ، إذا ما فارقْتَ سجنك ، ورجعت في قصر الملك إلى مكانك ، فاذكر له أنّ مظلوماً يحويه السجن ، ومتهماً بغير جَرِيرة[٣] يُعاني الأسْرَ والأغلال .

وصحّ تأويلُ يوسف ، ونجا رجلٌ وصُلِب آخر ، وما ابتدأ الساقي يعود إلى مليكه ، حتى اضطرب فيما يضطربُ فيه الناس ، وأنساهُ الشيطان أن يذكر يوسف لربه ، فلبث في السجن بضْعَ سنين .

* * *

---

(١) رع : علم على الشمس ، وأبيس : علم على العجل ، وكانا من الآلهة عند قدماء المصريين .

(٢) كهن : قضى بالغيب (٣) جريرة : ذنب

خروج يوسف من السجن

أصبحَ الملكُ على رُؤيا أهمَّتْهُ وأفزَعَتْهُ ، فدعا إليه علماء دولته ، وأشرافَ قومه ، وقصَّ عليهم ما رَأى .

قال : إنى أرى سبعَ بقراتٍ سِمَانٍ ، يَأكُلُهُنَّ سبعٌ عجافٌ[1] مَهازيل ، وسبعَ سُنْبلات خُضْرٍ ، وأُخرَ يابسات ، ثم طلب إليهم تعبير هذه الرؤيا وتفسير ذلك الحلم ، فكلهم عجز عن التأويل ، وَعَيَّ عن التفسير ، وقالوا : خيالاتٌ وأوهام ، وأضغاث[2] أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بِعَالِمِين !

ولكنَّ هذه الرؤيا ذكَّرَت ناسياً ، ونبَّهت لاهياً ، وأثارت عندهُ ذكريات بعيدة ، وأياماً فى تاريخه ماضية ، فساقى الملك ما كاد يسمعُ هذه الرؤيا ، ويحسّ رغبةَ الملك فى التأويل ، حتى تذكر يوسف السجين ، ذلك الذى أوّل له الرؤيا فصدَق فى التأويل ، وهو الآن يمرح فى أبْرَاد[3] النعمة ، ويتقلّبُ فى أعطاف النعيم ، حتى تذكَّر .

قال : أيها الملك ، إنَّ بالسجن فتًى كريماً ، صائبَ الفكر ، مُلْهَم الرأى ، يكشف ودائعَ الغيوب بنور عَقله ، ويصيب شاكلة[4] الصواب بثاقب تدبيره ، تُعْرَض عليه الرؤيا فيخمرُّها ويُجيلها ، ويجيدُ الفكرةَ فيها ويُطِيلها ثم يخرج بعد ذلك بالرأى الوثيق ، والتأويل الصادق ، ولو أرسلتنى إليه لجئتك بالخبر اليقين .

وانطلق الساقى إلى يوسف فى سجنه ، ومَهْبط آلامه ، فوجده كما تركه صابراً محتسباً ، مؤمناً قانتاً ، قال له : يوسف ، أيها الصدِّيق جئتك فيما أرجو أن

---

(١) العجف : ذهاب السمن ، وهو أعجف ، وهى عجفاء .
(٢) أضغاث أحلام : رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها .
(٣) أبراد : جمع برد ، وهو ثوب مخطط
(٤) أصل الشاكلة : الخاصرة ، والمراد أنه فطن ذكى .

يكون لك فيه فرجٌ من ضيقك ، وعافيةٌ من محنتك ، أفتِنَا فى سَبْع بقرات سمان يأكلهن سبعٌ عجافٌ مهازيل ، وسبع سنبلات خُضْرٍ وأُخَر يابسات ، فلعلك بعلمك تَرْوى نفوساً للتأويل ظامئة ، وتجيب على أسئلة فى الصدور مختلجة ، ثم أرجو أن يعرفَ بعدها القومُ فَضْلَك الواسع ، وعلمك الفيّاض .

ويوسف عليه السلام لم يكن عالماً يؤوِّل الرؤيا فحسب ، بل كان رسولا مصلحاً أرسله اللهُ هادياً للناس فى دنياهم وآخرتهم ، ومَعاشهم ومَعادهم ، فما كان يرى فرصَةً يتنفَّسُ فيها برسالته إلا انتهزها ، ولا نُهزةً[1] صالحة للدعوة إلاّ عَلِق بها .

فمن سنين مضت سأله الفَتَيَان عن رُؤياهما ، فوجدها فرصةً لإعلان كلمة التوحيد فأعلنها ، وللتنديد بعبادة الأصنام فهزىء بها . . . واليوم يسأله الملكُ عن رؤياهُ فيعرف التأويل ، فلا يقصر حديثه عليه ، بل يمزجُ بالتأويل رأيَهُ ، ويُسْدى إلى الشعب نُصْحَه .

قال : إنكم تستقبلون سَبْعَ سنوات ليِّنَة رُخاء ، تكونون فى أخصب تربة وأمْرَع[2] جناب ، تزدهِرُ حقولكم ، وتزكُو[3] غلاتكم ، ويَصْفُو لكم العيش ، وتطيب الحياة ، ثم تأتى فى أعقابها سَبْعٌ شِدَاد يُظلكم فيها الأمل ، وتَكشفُ لكم الأيامُ عن سَحَاب خُلّب[4] ، ووَمِيضٍ[5] خادع ، يَنْكِصُ النيل فلا يفى بوعده ، ولا يُمِدُّكم برفْدِه ، ويتجهّمُ وَجْهُ الأرض ، فلا تبثُّكم مكْنونَ خيرها ، ثم لا تجدون قائماً يُحْصد ، ولا حصيداً يُخْزَن ، وتُصابون من دهركم بالداهية الجُلى ؛ والنائبة العظمى .

---

(١) النهزة : الفرصة (٢) أمرع الوادى : أكلأ .
(٣) تزكو : تزيد (٤) سحاب خلب : لامطر فيه .
(٥) ومض البرق : لمع لمعاناً خفيفاً

ثم بعد ذلك تصالحكم الأيام ، ويُقبِل عليكم الزمان ، وتتهلّل وجوه النُّجح وتنحلّ عقَد الأمور ، ويُظِلُّكم عام خصيب ، تُفَاثون فيه من شدتكم ، وتصلِحُون ما فسدَ من أموركم ، تجودُكم الأرض بالحنطة والشعير فتأكلونَ ، والقُرْطُم والزيتون والسمسم فتعصرون وتأتدِمُون ، ذلك تأويل الرؤيا ، وذلك ما أشرقت به نفسى ، وما تلقَّيْتُهُ بالوَحْى عن رَبِّى .

وإذا كان ما أخبرتُ واقعاً لا مَحالة ، فما حصدتم فى سِنِيكم الرَّخاء فاخزنُوهُ فى أهرَائكم[1] ودُورِكُم ، مَصوناً فى سُنْبله ، حتى يظلّ سليماً نقيًّا ، إلا ما تحتاجون إليه مما يقيم أَوَدَكم ، ويحفظ حياتكم ، لِتَتَّقوا السبعَ الشِّدَادَ ، والسنين العِجَاف .

ولما وصل إلى الملك هذا التفسير ، وفطِنَ لذلك النُّصْح والتدبير ، أدرك أن وراء هذا عَقْلاً حَصِيفاً ، وفكْراً مُلهماً ، فدعاه إليه ليسبرَ غَوْرَه[2] ، ويُدْرِكَ به شأوَه[3] ويُفيد من رأيه وعلمه .

حضر إليه الرَّسولُ وناداهُ : يا يوسف ، إن الملكَ يدعوك إلى حضرته ، ويطلبك إلى مجلسه ؛ فقد شامَ[4] من تعبيرك عِلْماً غزيراً ، ولمح من نُصْحِك رأياً حَصِيفاً ، وإنه ليُوشِكُ أن يرتفعَ مقدارُك ، ويطلع نهارك .

ولكن يوسف كان رسولاً كريماً ، وعلمه ربُّه كيف يكون صبوراً حليماً ، فما استجاب للكلمة الأولى — وهو أحوجُ ما يكون إلى الانطلاق من الأسر ومفارقة السجن ؛ فقد طال عهده بوحشته وظلامه ، وأحزانه وآلامه ، وقد مرت عليه سنواتٌ مجرَّمات[5] ، لم يَرَ الشمسَ الطالعة ، ولا البدور المتألِّقة ، ولا النجوم المشتبكة ، ولا الزروعَ الناضرة ، ولا الحقول المُمْرِعة[6] ،

(١) الأهراء : جمع هرى ، وهو المخزن (٢) يسبر غوره : يختبره .
(٣) الشأو : الغاية (٤) شام : رأى .
(٥) مجرمات كاملات (٦) الممرع : المخصب .

بل لعله أمضى أيام سَجْنِه لم يذق إلاّ طعاماً يابساً ، وخبزاً قَفاراً[١]، وماء كدِراً رَنِقاً[٢]، ولعلّ رجليه لم تُحْرَم يوماً من قَيْد غليظ ، ويديه لم تَسْلم من غُلّ ثقيل ، ولعله أيضاً آذته ليال افترش فيها المَدَر[٣]، وتوسّد الحجرَ ، ونام على الألم ، وهو مع تلك الآلام التي شاهد ، والمصائب التي لاقى ، لم يكن إلاّ مظلوماً مغلوباً على أمره ، يلقى العذاب ثمناً لما ادّرَع به من عصمة وإيمان ، ونزاهة وطهارة سِرْبال .

فما أَحبَّ أن يخرجَ من سجنه مَمْنُوناً عليه بعفو ، أو مُتَفَضَّلا عليه بشيء ، بل قال للرسول : ارجع إلى الملك وَسَله أن يتعرّف أمر هؤلاء النسوة اللاتي قطّعن أيديهنّ ، وأخذتُ ظلماً بجَرِيرتهن[٤]، ليَظهرَ أمري قبل أن أغادِر السجن ، وتُعْرَف قضيتي قبل أن يُفْصَل فيها بالعفو .

فأهمّ الملكَ أمرُ يوسف ، وشغل بالَه ذكرُ النسوة ، وتشعّبتْ أمامه وجوهُ القضيَّة ؛ فما كان يظنُّ الأمر يعدُو أن يكون ذلك السجين فتى لا يُؤْبَهُ له ، وهو اليوم يدعوه إليه لما ظهر من فضله ، وعرف من علمه وخَبره ، ولكنّ ها هي ذى أمورٌ ظهرت لديه كانت خافية . واتّضحت أشياء كانت غامضة .

فأحضر النسوةَ بين يديه . وسألهنّ : «ما خَطبُكُنّ إذ رَاوَدْتُنّ يوسفَ عن نفسه» ؟ فما وجد الإنكارُ سبيلا إلى قلوبهنّ . وما استطاع الكذبُ أن يسبق إلى ألسنتهنّ . بل صرّحْن بمَحْض[٥] الحقّ ؛ فـ «قلن : حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء» وما خبرْنا فيه إلا فتًى عَفيفاً كريماً . نزيهاً أميناً . غير مُتّهم في رأي ولا ظَنين[٦] في عِفّة .

---

(١) قفاراً : غير مأدوم (٢) رنق الماء : كدر .

(٣) المدر : صغار الحجر (٤) الجريرة : الذنب والجناية .

(٥) المحض : الخالص (٦) الظنين : المتهم .

وقالت امرأةُ العزيز — وقد نالت منها الأيامُ والسنون — : « الآن حَصْحَصَ[١] الحق ، أنا رَاوَدتُه عن نفسه » ، وجَذَبته للغرام من ضَبْعه[٢] ، فقد كان فتى وسيماً جميلاً وضيئاً ، وقد كان منّي قريباً دَانياً ، وشخصهُ أمام عيني أبداً ماثلا ، فعلِقَه قلبي ، ولم أستطع له دَفعاً ، فدعوتهُ فتأبى[٣] ، وطلبته فامتنع ، وكان لربه[٤] حافظاً ، ولزوجي وفياً .

وإني أخبركم الآن أنه أعفُّ مَنْ رأيتُ نفساً ، وأزكى من شهدْتُ قلباً ، وأنه احتمل ما احتمل مِنْ آلام السجن بريئاً مظلوماً .

أنا قذفتُ به إلى السجن ، وأنا ألقيْتُ به في هذا العذاب ؛ ذلك الذي أعترف به الآن في وَضَحِ النهار ، وضوء الشمس ، بين سَمْعِ الملك وبَصَرِه ، وبين حاشيته وبِطَانته[٥] ؛ ليَعلم يوسف — وهو الآن في سجنه — أني لم أصِمه[٦] بعيب أو أرْمِه برَيب ، من يوم سجنه إلى هذه الساعة التي يُفصل فيها في أمره .

لقد صرّحتُ لهؤلاء النسوة من قبل بأني راودتُه عن نفسه فاستعصم ، والآن أعترف بأني دعوته لنفسي فأبى : (ذلكَ ليَعْلَمَ أني لم أخُنْهُ بالغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الخَائنين)[٧] .

---

(١) حصحص : بان وظهر
(٢) ضبعه : عضده كلها .
(٣) تأبى : امتنع
(٤) من معاني الرب : السيد والمولى .
(٥) بطانته . خواصه
(٦) وصمه : عابه .
(٧) سورة يوسف ، آية ٥٢ .

يوسف عزيز مصر

جاءت شهادةُ امرأة العزيز مُبَرِّئةً ليوسف من الذنوب ، مُنَزِّهَةً له عن الأغراض والعيوب ، وظاهَرَ هذه الشهادةَ مارواه الساقى من سيرته فى السجن ، وما شهده عليه من صَبْرٍ يُجَمِّله الحلم ، وعلمٍ يزيّنه التواضع ، وماخبَرَه عنه الملك من حُسْن التأويل ، وإحكام التدبير ، وما لحظه فيه حينما دعاه للخروج من سجنه ، فأبى إلا أن يخرجَ بريئاً .

هاتيك الأخلاقُ الكريمة ، والشِّيمُ الحميدة ، أثارت عند الملك رغبةً صادقةً فى أن يُقرِّبه إليه ، ليكونَ فى حاشيته ، زعيماً فى بطانته ، والملك سوقٌ يُجلب إليه ما نَفَق[1] عنده .

وَمَثَلَ بين يديه ، وحادثه ، فألفاه حصيفاً[2] أريباً ، وعاقلا رشيداً ، طابق فيه الخُبْرُ الخبَرَ ، والسمعُ البصرَ .

قال : يا يوسف ، إن ما تجمّلْتَ به من هذا الخلق الكريم ، وما خلّفته وراءك من ذكر عطرٍ ، وماضٍ زاهر ، وما نطقت به عن حلم راجح ، وعقل حصيف ، كلُّ ذلك رفع عندى مقدارَك ، وأعلى مقامَك ، وإنك منذ اليوم أمينٌ على هذه الدولة تعمل لخيرها ، وتقومُ على إصلاحها ، مكين[3] فيما تصنع ، مفوّض فيما تريد .

ولكنّ يوسف كان يعلمُ أنّ الأمة مقبلة على أيام يُسْرٍ وأيام بلاء ، وأن النيل سيمدّهم بالماء ، وينفحهم بالخير أعواماً ، ثم يكفّ عنهم الرِّفد[4] ، ويُخلف عنهم الوَعْد أعواماً ، وأنه لابُدّ لمَنْ يَلِى أمُورَهم ويدبّر شئونهم أن يكون بيده زمام المال ، وعنده مفاتيحُ الخزائن ؛ إذ المال عصَبُ الأمة وقِوَامها ، ولُبُّها

(١) نفق : راج . (٢) حصف عقله : استحكم .
(٣) مكين . متمكن ، وله منزلة عند السلطان (٤) الرفد : العطاء .

وَمُصَاصِها[١]؛ فأراد أن يمتلكَ الزِّمامَ الذى يستطيعُ أن يقودَ به الأمة إلى خيرها، وأن يُمْسِكَ بالدقة التى يستطيع أنْ يسيِّر بها سفينتها . فقال للملك : إن أردت أن أكُونَ مسئولا عن هذه الأمّة ، محاسباً عن تدبير شئونها ؛ فاجعلنى أميناً على خزائنها ، ووزيراً لأموالها ، وستجدُ الأمَّةُ إن شاء الله ما ترْجُو من صلاح الأعمال ، وَاطِّرَاد الأحوال ، فى العسر واليسر ، والرخاء والبلاء .

* * *

ومكَّنَ الله ليوسف فى الأرض ؛ فأضحى بين عشيَّةٍ وضحاها وزيراً مُطْلَقَ اليَد ، مسموعَ الكلمة ، نافِذَ السلطان ، وحضرتُه مَطلع الجود ، وَمَهْوَى الوفود ، وقد كان بالأمس سجيناً أسيراً ، وَمِنْ قبلُ غلاماً يُبَاع وَيُشْرَى ، وَيُسْلَب وَيُعْطَى، و«ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم» .

وَلِىَ يوسف الأمر فى مِصْر سَبْعَ سنوات ، جاد فيها النِّيلُ وأغلّت الأرض، فأسهل عَيْشُهم وامتدَّ خيرُهم ، وتفَيَّئوا فى ظلال الراحة والنعيم دهراً .

وكان يوسفُ نِعْمَ الحاكمُ اليَقِظ ، والمولى الفَطِن الأريب ؛ بَنى الأهْرَاء[٢]، وأعدّ المخازن ، وملأها بالغلاّت الوافرة ، والخيرات الكثيرة ، حتى إذا ما أقبلت السَّبْع الشِّدَاد استقبلها القومُ آمنين ، فلم تغيِّر لهم حالا ، ولم تَنلْ منهم شيئاً ، ولم تَدُقَّ[٣] لهم عَظْماً ، ولم تأكل منهم لحماً .

وامتدّ القَحْطُ إلى ماجاورَ مِصر من البلدان ، وَمَسَّ ماحولها مِن الأقطار، حتى وصل إلى كنعان ، حيث يُقيم نبىّ الله يعقوب وأبناؤه الأسباط .

---

(١) المصاص : خالص كل شىء .
(٢) الهرى — بالضم : بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان ، والجمع أهراء .
(٣) أى لم تنل منهم شيئا .

وسطع ذكرُ يوسف فى مصر ، وامتد نورُه إلى الأصقاع ؛ وشاع بين الناس أن بمصر وزيراً حكيماً ، يحمل بين جَنْبَيه نفساً كريمة ؛ فقد أعدَّ عدَّته للجوع والقَحْط ، والسَّنة[١] ، والجدْب ؛ فهو يوزِّعُ الحنطة بين الناس بميزان عادل ، ويقضى حوائجهم بقِسْطاس[٢] مستقيم ، لا يفرِّق بين شَعْبٍ وشعب ، ولا بين قُطْر وقطر .

قال يعقوب لبنيه :

« يا بَنِىَّ ؛ إن الجدبَ عمَّنا ، والقحطَ يكادُ يأتى علينا ، فَهَلُمَّ شُدُّوا ركائبكم ، وأعملوا فى السير نِيَاقَكم ، واقصدوا هذا العزيز الذى حملت إلينا الركبان أخباره ، وتناقل الناسُ أحاديثه ، وطبَّق[٣] اسمُهُ السهلَ والجبل ، والبَدْو والحضر ؛ ولكن اتركوا أخاكم بنيامين ، أتعزَّى ببقائه عن فِرَاقكم وأسكُن إليه حتى يعودَ جمعكم ، ويلتئم شملُكم ، واللهُ كالِئُكم وراعيكم ، وهاديكم ومبصِّركم » .

* * *

واستأذن الحاجبُ على يوسف ، فقال : إنَّ بالباب عشرة رجال تتشابَهُ معارِفهم ، ويلتمعُ نورُ الصلاحِ فى وجوههم ، وكأنهم غرَباء عن هذه الديار ، أو ضيوف على هذه الأقطار ، عرفتُ هذا من لُغامِ[٤] ولهجتهم ، وحَيرتهم وتردُّدِهم ، وإنهم اليومَ ببابك ، يستأذِنون فى الدخول عليك ، والمثُول بين يديك .

وأذِنَ لهم يوسف ، ودخلوا عليه ، فإذا هم إخوتُه وبنو أبيه ، لم تغيِّر ملامِحَهم

---

(١) السنة : الجدب
(٢) القسطاس : الميزان ، أو أقوم الموازين .
(٣) طبق : عم
(٤) لغام : لغتهم .

السنون ، ولم تخفِ معالمهم الأيام ، هم إخوته الذين تآمَرُوا على قتله ، وتظاهروا على إيذائه ، وهم الذين فرّقوا بينه وبين أبيه ، وأذاقوه بعده جَفناً مؤرّقاً ، وكَبِداً[١] مجروحة ؛ وها هم أولاء يلقاهم اليوم فى حضرته من غير سابق تدبير ؛ بل بإحكام من اللطيف الخبير :

وقد يجمعُ اللهُ الشّتيتَين بعدما   يَظُنّان كلَّ الظنِّ أنْ لا تَلاَقيَا

عَرَفهم وما عرفوه ، وتبَيَّنهم وأنكروه ، وأين يوسف الذى خلّفوهُ فى الجبّ ؛ ولا يدرون أغْتالَته شَعُوب[٢] ، أم أكلهُ سَبُعُ ، أم بيع فى سوق الرّقيق ، مَنْ هذا المليك المتوّج النافذ السلطان ، ذى الحشَم والأعوان ؟ !

ولكن يوسف كان حازمًا حكيما ، وَرَكينًا[٣] أريباً ، رَزين الحصاة[٤] ، بَعيد الأناة ، فلم يبادئهم بالإعلان عن نفسه ، والإفصاح عن أمره ، بل حاول أن يَصِلَ إلى ما فى نفوسهم ، ويعرفَ مكامِنَ أسرارهم ، وما خفى عليه من أخبارهم ، واحتجب من أحوالهم ، بأسلوب الحكيم ، ومنطِقِ الحاذِق الحصيف .

آواهم ، وأكرمَ وفادَتهم ، وأحسن ضيافتهم ، ثم دعاهم يوماً إلى حضرته وقال لهم : لقد أكرمتُكم ، ومن حقى أن أسألكم ، وَأَتَعرّف أحوالكم ، فمن أنتم ؟ ! وما شأنكم ؟ ! إنى لَأُنكِر عَدَدَكم ! وقد بدأتُ أشكُّ فى أمركم ، وأخشى أن تكونوا عُيوناً علينا من مَلِككم ! ! فهل لواحدٍ منكم أن يُفضى إلىَّ بحقيقة حالكم ، فلعله يمزّقُ قِناعَ الشكِّ ، ويبدِّد سحائبَ الريب ؟ !

---

(١) الكبد : مؤنثة . وقيل تذكر وتؤنث .
(٢) شعوب : اسم المنيّة   (٣) الركن : الفهم والنفرس .
(٤) الحصاة . العقل والرأى .

قالوا : أيها العزيز ، نحن اثنا عشر أخا ، سُلالة نبيّ كريم ، ورسول عظيم ، عشرة منهم هم رُسله الآن بين يديك ، وآمالهم منتهية إليك . وأما الحادى عشر فقد خلّفناهُ عند أبيه يقومُ على أمره ، ويسهرُ على رعايته . وأما الثانى عشر فقد فقدْناهُ ، ولا ندرى أختاره الله لجواره ، أم هو يضربُ فى الأرض الواسعة سهلها وحَزْنها[1] ، وَغَورها ونجدها ![2] ذلك هو أمرُنا ظاهره وباطنه ، جملته وتفصيله .

قال يوسف : قد يكون حقاً ما تقولون ، ولكن لا وَزْنَ لقول لم يُعزَّز ببينة أو يدعَّم بشاهد ، فأقيموا عندى البيِّنة أو ائتوا بالشاهد ، حتى أطمئنَّ لحقيقة حالكم ، وأسكنَ لصحّة أقوالكم .

قالوا : أيها العزيز ، إنّا فى غُربة عن بلادنا ، وعُزلة عن أصدقائنا وأهلينا ، وإنكَ تكلفنا مُحالاً أن نأتىَ لك هنا بمن يعرفنا ، أو يشهد بصحة أقوالنا ، ولكن التمس لنا غير هذا المخرج ، وشيئاً غير هذه السبيل .

قال : إنى سأجهزّكم بجهازكم ، وَأُوقرُ بالميرَة[3] ركائبكم ، على أن تعودوا ومعكم أخوكم الذى خلفتموه عند أبيكم ، ليكون شهيداً عليكم ، مُصدِّقاً لأقوالكم ، وسأضاعفُ إكرامكم ، وأزيدكم حِملَ بعير فى غلاتكم ، هذا هو شرطى ، وذلك هـو عهدى . . . « فإن لم تأتونى به فلا كَيْلَ لكم عندى ولا تَقرَبون » .

قالوا : أيها العزيز ، ما نظنُّ أنَّ أبانا يأذنُ بسفره ، أو يصبر على فراقه ، ولكننا سَنُرَاوده عنه ونتلطّف إليه ، وإنا لفاعلون .

---

(١) الحزن : ماغلظ من الأرض

(٢) الغور : المنخفض ،والنجد : المرتفع .

(٣) الميرة الطعام . وأوقر : أثقل

وأمر غلمانه أنْ يُوفوا لهم الكَيْل ، وأن يَدُسُّوا لهم فى رحالهم البضاعة التى حملوها ، والفضة التى جاءوا يبتاعون بها ، ليكُونَ ذلك أدْعَى لرجوعهم وأمكن لعودتهم .

* * *

وظَعَنُوا[1] عن مصر ، وسارُوا إلى بلادهم ، يحملون عن هذا العزيز أطيب الذِّكرياتِ وأزكاها ، وأعذبها وأحلاها ، وتلقّاهم يعقوب ، وأخذ يستوضح أخبارَهم ، ويستقصى أنباءهم .

قالوا : يا أبانا ، إنا لقينا رجلا عظيما ، وَوَزيراً كريماً ، عرف فضلَنا ، وأكْرَم وفادَتنا ، وَوَفَّى لنا الكَيْل ، وأنزلَنا خيرَ منزل ، ولكنه أخذ علينا عهداً وشرطا ألا يكيل لنا حتى نأتيَه بأخينا ، يخبرُه بحقيقة حالنا ، إذ أنه شكَّ فى أمرنا ، وداخَلَهُ الرَّيْبُ فى رِحْلتنا ، وغداً ستفرغُ الميرة[2] ، ونحتاجُ إلى غيرها ، فأرسلهُ معنا ليَكُونُ مُعيناً لنا على الكَيْل ، مساعداً لنا فى الرِّفْد[3] .

قال يعقوب : لن آذَنَ لكم بسفره ، ولن أستريحَ لفراقه ، وهل ترونّنى آمنكم عليه كما أمنتكم على أخيه من قبل ؟! فاصرفوا عنى كَيْدَكم ، واكْفُونى شركم .

وفتَحُوا متاعَهم ، وفتّشُوا رحالهم ، فإذا بضاعتهم قد ردّت إليهم ، وفضتهم قد عادت معهم ، فخفوا إلى أبيهم مسرعين ، وتحدثوا إليه مسرورين ، وقالوا :

---

(١) ظعنوا : رحلوا

(٢) الميرة : الطعام يمتاره الإنسان .

(٣) الرفد : العطاء .

يا أبانا ، ما كذَبْنَاك حين زعمنا أننا لقينا عزيزاً وافِرَ الفضل ، جَمَّ المروءة ، وما خدعناك حينما طلبنا إليك أن تأذنَ لنا بأخينا ، فهذه بضاعتنا قد رُدَّت إلينا ، شاهدةً على كرم العزيز ومروءته ، فأرسل معنا أخانا وسَنَفْديه بأرواحنا ونرفُّ عليه بأجنحتنا .

* * *

ورأى يعقوب أن حاجتهم إلى المِيرة ماسّة ، ورغبتهم فى الرحلة أكيدة ، وأنهم قد أخذوا على أنفسهم عهداً فلن يُخفِرُوه[1] ، وأن العزيز قد شرط لعودتهم أن يُحْضِروا له أخاهم فلن يخلفوه ، فأذن لهم ببنيامين على أن يأخذَ عليهم عهداً أكيدا ، وشرطاً وثيقاً : أن يأتوه به سليماً مُعافَى ، إلا أن ينزلَ بهم قدر لم يكُ فى الحُسبان ، أو يفاجأهم مكروه من الحدَثان ، وأخذوا على أنفسهم الميثاق ووكّدوا الأيمان وقالوا : « واللهُ على ما نقولُ وكِيل » .

وساروا يخفضهم وَهْد ، ويرفعهم نَجْد ، حتى ألقوْا عصاهم[2] بساحة يوسف ورأى يوسف أخاهُ ، فحنا عليه ورَقّ له ، ولكنه أخفى عواطِفَه ، وستر ما فى نفسه ، ودعاهم إلى طعامه ، وأجلسهم مَثْنى مثنى ، وبقى بنيامين وحيداً ، فبكى وقال : لو كان أخى يوسف حيًّا لجلس معى ، فأجلسه معه على مائدته ، ثم قال: لينزل كل اثنين منكم بيتاً ، وهذا لا ثانى له ، فيكون معى .

فبات عنده ، وقال له : أتحبُّ أن أكون أخاك بدلَ أخيك الهالك ؟قال: مَنْ يجِدُ أخاً مثلك ؟ ولكن لم يلدْك يعقوب ولا راحيل ؛ فبكى يوسف ،

---

(١) خفره : نقض عهده وغدر به . كأخفره .

(٢) ألقوا عصاهم : استقروا .

وقام إليه وعانقه ، وقال : إنى أنا أخوك الذى تَنْشده وتهتِفُ باسمه ، وتتلهّفُ لرؤيته تقلّبت بى صُدوف ، ورمتنى صُرُوف[١] ، ولقيت من كيد إخوتك ألواناً ، وتحملتُ من غدْرهم أحزاناً وأسقاماً ، وابتُليت بعدهم بمِحنة ، وأُصبت بفتنة ، ولكنى صبرتُ ، وجاهدتُ حتى أبدلنى الله — كما ترى — نعيماً ببؤس ، وغنًى بفقر ، وعِزاً بذُلّ ، وكُثراً بقلّ ؛ فاكْتُم عن إخوتك هذا الخبر ، واحجُبْ عنهم هذا السر .

وقرّت نفسُ بنيامين ، وسكَنت أحزانُهُ وانْسَلَى[٢] همُّهُ ، وارتدّ إليه عازبُهُ[٣] حِلْمه ، وغَدَا يتقلّبُ فى نعيم أخيه وعزّه ، وينعم بكَرَمه وعطفه .

* * *

وانقضت أيامُ الضيافة ، وأجمع[٤] الركْبُ الرحيل ؛ فأراد يوسف أن يعمل لهم مكْراً ، ويُحْدِث بهم أمراً ، فأمر غلمانه أن يُجَهِّزوهم بجهازهم ، وأن يدسوا السّقاية[٥] فى رَحْل بنيامين !

وبينما هم خارجون مُوَدَّعون إذا بمنادٍ جَهِير الصوت يناديهم : أيها الركبُ المُزمِعُ سفراً ، المجمع رحيلاً ، أنيخوا ركائبكم ، وأنزلوا متاعكم ، فما أنتم إلا سارقون !

فدهشوا ، وذُهلوا ، وأقبلوا على المنادى يقولون : ماهذا الهُجْر[٦] الذى تنطق به ، والفِرْيَة[٧] التى تَرْمينا بها ؟ ! وما خَطْبك ؟ ! وما الذى فَقدَ منك ؟ !

---

(١) الصروف : نوائب الدهر وحدثانه

(٢) انسلى همه : ذهب (٣) عازب : بعيد ، غائب .

(٤) أجمعوا الرحيل : عزموا عليه .

(٥) السقاية أو الصواع : وعاء جعل للكيل .

(٦) الهجر . الفحش من القول . (٧) الفرية التهمة

قال : لقد فقدنا صُوَاع[1] الملك ، وإنا لنشكُّ أن تكونوا قد سرقتموه ، وأخفيتموهُ ، فارجعوا عما عَزَمْتم عليه ، ولا بأس عليكم ولا حَرَج فى أمركم ، ومن جاء به منكم فله حِمْل بعير نافلة[2] ، وأنا زعيم[3] لكم بهذا الشرط ، كَفِيل بهذا الحمل .

قال إخوة يوسف : « تالله لقد علمتمْ ما جِئْنا لنُفسدَ فى الأرض ، وما كُنا سارقين » .

قال المنادى : إننا لا نتجنّى عليكم ، ولا ننصبُ الشَّرَاك لكم ، ولكن ما حكمُكم لو وجدنا الصُّوَاع عندكم ، مستقِرًّا فى رِحالكم ؟!

قالوا : إن لنا شرعًا ودينا ، وذمة وعهدا ، فمن وجدتموه فى رَحْله فخذوه أسيرا عندكم ، عبداً لكم ؛ ذلك هو شَرْعُنا ، وهذا هو عَهْدُنا ، وإنا على يقين من براءة ذِمّتنا ، وطهارة أعراقنا .

وطابت نفسُ يوسف لهذا العهد ، واستروح لهذا الرأى ، إذ ما كان شرع الملك فى مصر يجيز له أن يحجز السارق ، أو يتحكم فيه ، ولكن الله مكَّن له فيما أراد عن طوَاعيَة[4] من إخوته واختيار .

فبدأ يُفتِّش أوعيتهم وعاء وعاء ، حتى انتهى إلى وعاء بنيامين ، فوجد السقايةَ[5] مستقرة بين طيَّاته ، فاستخرجها منه ، وأشهرها فى وجوههم ، فسهموا وَوَجَمُوا ، وَذُهِلوا وَدُهِشوا ، وأطرقوا حياء وخجلا .

قال لهم يوسف : عليكم بالشرط ، والشرط أملك[6] ، فَدَعُوا هذا الذى

---

(١) الصواع الذى يكال به — تضم الصاد وتكسر — .

(٢) نافلة : زيادة .

(٣) زعيم : ضامن .

(٤) الطواعية : الطاعة .

(٥) السقاية : الإناء يسقى منه .

(٦) الشرط أملك ، أى مستحق أن ينفذ .

وجدنا عنده الصُّوَاع ، نتحكّم فيه ونأخذ حقّنا منه . . . قالوا : أيها العزيز ، إنّ له أباً شيخاً كبيراً ، قد ناهز العُمُرَين[١]، وإنه ايتعلق بشَخْصه ، وقد أخذ علينا عهداً أن نحافظ عليه ونردّه إليه ، وها نحن أولاء عشرة بين يديك ، (فخذ أحَدَنا مكانه إنا نراك من المحسنين . قال : مَعَاذَ اللهِ أنْ نأخُذَ إلاّ مَنْ وَجَدْنا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إنَّا إذاً لَظَالِمونَ)[٢] .

ولما استحكم فيهم اليأسُ من قبول العزيز لشفاعتهم ، ونفضُوا الأكُفَّ من رَوَاج اقتراحهم ؛ خلصوا إلى أنفسهم يتناجَوْن ويتشاورون ؛ قال يهوذا : ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم عَهْداً ، واستحلفكُمْ أيماناً أن تأتوه بأخيكُمْ ، وَأنْ تَبَرُّوا له بأيمانكم ؟ ! فما نقولُ له اليوم ؟ ! وها نحن أولاء قد فقدنا الأخ ، وَحَنِثْنا في اليمين ؟ !

إن جُرْحَ يوسف في كبدِ أبيكم لم يندمل[٣]، وإنّ دموعَه من عينيه لم تنقطع ، ونحن قد جَنَينا في الأولى ، وها نحن أولاء نجني في الثانية : (فلَنْ أبْرَحَ الأرْضَ حتى يَأذَنَ لي أبي أوْ يحكُمَ اللهُ لي وهو خَيْرُ الحاكمين . ارْجِعُوا إلى أبيكم فقولوا : يا أبَانَا إنّ ابنَكَ سَرَقَ وما شهدْنا إلاّ بما عَلِمْنَا وما كُنَّا للغيْبِ حافِظِين . وَاسْأَلِ القرْيَةَ التي كُنَّا فِيهَا والعِيرَ[٤] التي أقْبَلْنَا فِيهَا وإنا لصَادِقُونَ)[٥] .

وذهب التسعةُ ، وخلّفوا كبيرهمَ يهوذا ، وتفقد يعقوب بنيامين فلم يجده فيهم ، فكأنّ طائراً طار من قلبه أو كأن قطعة تَفَصَّت[٦] عن كبده ، ثم قال

---

(١) يقال : فلان ناهز العمرين ، إذا قارب الثمانين .

(٢) سورة يوسف ، آية ٧٩ (٣) لم يندمل : لم يبرأ .

(٤) العير : القافلة ، أو الإبل تحمل الميرة .

(٥) سورة يوسف ، آية ٨٠ — ٨٣ (٦) تفصت : انفصلت .

بصوت حزين : ماصنعتم بأخيكم ، ومافعلتم بأيمانكم ؟ ! فقصُّوا عليه قصصهم، وحدَّثوه بدخيلةِ أمرهم ، فتولى عنهم ؛ وقال : (بل سوَّلتْ لكمْ أنفُسُكمْ أمراً فصبر جميل)[1] .

لقد فقدت يوسف من قبل ، واليوم أفقد بنيامين ، وأفقد يهوذا : (عَسى اللهُ أن يأتيني بهم جميعاً إنَّهُ هوَ العَليمُ الحكيمُ)[1]

* * *

اللقـــاء

وتساورت يعقوبَ الهمومُ ، وتشعَّبتْهُ الأحزان ، وأقضّتْ مضجعه الكروب ولم يعد يجد متنفَّساً لهمِّه ، أو سلوة من ألمه ، إلا ساعتين : ساعة يفزَع فيها إلى ربه يصلِّي ويسجد ، ويتحنَّث[2] ويتهجَّد ، مُستلهِماً منه الصَّبرَ ، مستنجداً بالإيمان واليقين ، وساعة يخلُص فيها إلى نفسه ، ويَقضي حقَّ الذكرى لولديه ، ثم يستنجد بالدمع ويستروح[3] بالبكاء ، فتسحّ جفونُهُ وتفيض شئونه[4] فمن الصلاة والذكر كان يستلهمُ صبراً وإيماناً ، ومن سَخِين الدَّمْع كان يلقى راحة واطمئناناً :

لم يُخلق الدمعُ لامرىء عَبَثاً   الله أدرى بلَوْعَةِ الحزن

ومازال به واكِفُ الدمع حتى ابيضَّتْ عيناه ، وضَوِى[5] جسمه ، وتضمَّر وجهه ، وعاد كالخلال[6] شُفُوفاً وضُمُوراً ، حتى كان يومٌ أطلّ عليه أحَدُ أبنائه وهو فى مَخدَعِه ، فوجده قد انفتل[7] من صلاته ، وانتهى من دعواته ، ثم أخذ

---

(١) سورة يوسف : آية ٨٣ .
(٢) تحنث : تعبد .
(٣) استروح : وجد الراحة .
(٤) الشئون : الدموع .
(٥) ضوى : هزل .
(٦) الخلال : العود تخلل به الأسنان .
(٧) انفتل : انصرف .

يولول ويتوجّع ، ويبكى ولديه ويدمع ، ويقول : يا أسفا على يوسف ! بصوت وَجيع ، وهَمّ جميع ! فهاله ما رأى ، ودعا إخوته ليَرَوْا معه كيف يتلوّى يعقوب فى شقائه ، وكيف يتألّم لبلائه .

وقال واحد منهم : أىْ أبانا ، أنتَ رسولٌ عظيم ، ونبىٌّ كريم ، عليك يَهبط الوحى ، ومنك نتلقّى الهدى والإيمان ، فما هذا الذى تَبْخَع[1] به نَفْسَك ، وتحشد له بنات هَمّك ! ألم تَكْفِ هذه الدموع التى ذَرَفتها ، حتى هجمَتْ[2] مُقْلَتاك ، وابيضّت عَيْنَاك ! ألم تكف هذه الزّفرات التى أصعدتها حتى فَنِىَ جسمُك ، ودَنفت[3] نَفْسُك (تَاللهِ تَفتَأ تذْكُرُ يوسُف حتى تَكُونَ حَرَضاً[4] أوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِين)[5] .

قال يعقوب : إنّ عذْلكُم[6] يبعثُ شقائى ، ويُثير كامِنَ دائى ، ومادُون رؤية يوسف أن تسكن لَوْعتى ، وترقأ دمعتى[7] ، ويوسف — وإن كان أكله الذئب فى زَعْمكم ، واخترمتْهُ شَعُوب[8] فى رأيكم — حىّ يتنفس الهواء ، وتظلّه الخضراء[9] ، علمتُه إحساساً كيفاً فى نفسى ، وشعوراً ينبعثُ فى قلبى ، وفيضاً من الله على علمى ، ولكننى لا أدرى أى وَادٍ سَلك ؟ وأى مذهب ذهب ؟ ذلك الذى يُثير حُزْنى ، ويبعث أشجانى ، وما أحْرَاكم — لو أردتم أن تنضُوا عنى شعار الهم ، وتُزيحوا عنى غَوَاشِىَ الأسى — أنْ تَضْرِبُوا فى الأرض متحسّسين عن يوسف وأخيه ، ممتصمين بالدأب والصبر ، غير يائسين من رَوْح[10] الله ورحمته (إنّهُ لا يَيْئس مِنْ رَوْح الله إلا القَوْمُ الكافِرُون)[11] .

---

(١) تبخع : تهلك . (٢) هجمت : غارت . (٣) دنف الرجل : ثقل من المرض ودنا من الموت. (٤) حرضاً : مرضاً مشفياً على الهلاك . (٥) سورة يوسف آية ٨٥ (٦) عذلكم : لومكم . (٧) رقأ الدموع : جف (٨) شعوب : المنيّة (٩) الخضراء : السماء (١٠) الروح : الرحمة . (١١) سورة يوسف . آيه ٨٧ .

وإخوةُ يوسف يُظاهِرُون أقوالَ أبيهم فى أعماق نفوسهم ، ويُوافِقُونه فيما بينهم وبين سرائرهم ؛ فهم ألقَوْه فى الْجُبِّ ، وهم خلفوه فى الفَلاَة[1] ، وما يمنع أن يكون قد خرج من جُبِّه ، ونجا من فَلاَته ؟ ولكن أين هو ؟ وأى مكان يشتمله ؟ وأى وَادٍ يضمُّه ؟ أرض الله وَسِيعة فأين يبحثون ؟ وبلاده عريضة فأين يتحسسون ؟ إنهم من يوسف على شَفَا الْيَأس ، وخيبة الرجاء ، ولكن هذا بنيامين يعرفون مكانه ، ويعلمون مَرَاحَه ومَغْدَاه ؛ فليذهبوا إلى العزيز ، وليتلطفوا عنده ، ويتوسّلوا إليه ، فلعلهم يرجعون به إلى أبيهم ، فتخفّ بعضُ اللوعة ، ويجد فى لقائه بعض العزاء .

* * *

وهبطوا مصر مرةً ثالثة ، وآمالُهم بين الخيبة والرجاء ، ووقفوا بين يدى العزيز ، ترهَقُهم ذِلّة ، ويحيطهم انكسار : ذِلة العزيز ، وانكسار الكريم .

قالوا : أيها العزيز ، ها قد رجعتْنَا الأيامُ إليك ، وأرادتنا أن نقفَ موقف الضراعة والاستكانة بين يديك ! وللأيام تقلبات، وللدهر نكبات! وقد جئناك ببضاعة مُزْجاة[2] ، إذ الحال رقيق ، والعيش نكِد ، والدهرُ غير مُوَات ؛ فإن شئت تصدّقت بما يقيم الأوَد ، ويُصْلح مُعْوجَّ العُود ، وإن أحسنت إلينا بعد ذلك بتسريح أخينا ، فإنك بذلك تكون قد أرقأتَ له دمعاً[3] ، وخفّفت عن أبيه لواعجَ وأشجاناً !

وإذا كان الله قد بلغ بقِصّةِ يوسف ويعقوب أسمى ما يطمحُ إليه المثل الأعلى من الإيمان بالقضاء ، والصبر على اللأْواء[4] ، فقد آذن يوسف أنْ يُعلِنَ لإخوته عن نفسه ، ويكشف لهم عن حاله ، وأنْ يصفح بكرمه عن زلتهم ، ويسمو عن

(١) الفلاة : الصحراء .
(٢) بضاعة مزجاة : قليلة .
(٣) أرقأت دمعاً : قطعته وجففته .
(٤) اللأواء : الشدة .

إساءتهم ، ليضمّ إلى الرواية فصلا فى الصفح والكرم ، والعفو والغفران .

قال : ألا تذكرون يوماً فى مَيْعة الحداثة[١] وغَرارة الصِّبا ، زين لكم الهوى ووسوَس الشيطان أن تَكيدوا ليوسف وأخيه ، فتُلقُوا بيوسف فى الجبِّ ، وتصنعوا مع أخيه صنوف الكَيْدِ والإيذاء ؟ ثم ألاَ تذكرون يوم أخذ وَاحِدُكم بيده القوية يوسف ، وجذَبه وهو ضعيفٌ من ثيابه ، وأنه قد توسل واستشفع ، وبكى وتوجّع ، فلم تقبلوا منه شفاعة ، ولم تأخذكم فيه رحمة ، بل ألقيتموه فى الجبِّ وحيداً ضعيفاً تعمل فيه الأقدار ؟ !

فتخالجهم الشكُّ فى أمره ، وداخلهم الرَّيْبُ فى حقيقة حاله ، إنه ليذكر أشياء وقعت ، مَنْ أعلمه بها ؟ ويحدّث عن تاريخ ، مَنْ قصَّهُ عليه ؟ أيكونُ بنيامين ؟ ولكن بنيامين وكلّ الناس فى أمر يوسف سواء ، إنه لا يعرف شيئاً عن حقيقة أمره ، ولا حادث إلقائه فى الجبِّ ! ورجعوا بعد الحَدْس والتخمين إلى يوسف يتوسَّمُون علاماتِه ، ويتعرّفونَ شِيَاتِه ، ويتذكَّرُون ما كانوا يعرفونه من ملامحه وشاراتِه ، وما غابوا فى هذا طويلا حتى صاح واحدٌ منهم يقول : « إنك لأنت يوسفُ » !

وما كان أسرع أن أجاب يوسف وأشار إلى بنيامين : نعم (أنَا يُوسف وهٰذا أَخِى قد مَنَّ اللهُ علينا ، إنه مَنْ يَتَّقِ ويَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يضيعُ أَجْرَ المحسنينَ)[٢] .

فامتقعت ألوانُهم ، واضطربت مشاعِرُهم ، وتلجلج الحديثُ بين أشداقهم ، وتمنّوا لو انشق نَفقٌ فى الأرض فابتلعهم ، أو هبط عليهم كوكب فصعقهم ، ويوسف كان أكرم نفساً من أنْ يُطِيل خوفَهم ، وأوسَع صَدْراً من أن يكافئهم بزلتهم ؛ فهم مابرحُوا إخوتَه وبنى أبيه ، وإن تظاهروا[٣] على قَتْله ، والفتك به وإن توافروا على التكيد له ولأخيه .

---

(١) ميعة الحداثة : أولها . (٢) سورة يوسف آية ٩٠ . (٣) تظاهروا : تعاونو .

قال لهم : (لا تَثْرِيبَ[١] عليكمُ اليَوْمَ يَغْفِرِ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين)[٢] .

ونعودُ إلى يعقوب ، وقد امْتُحِن حِقْبَةً من الدهر فتحمّل ، وابْتُلِيَ بما تعجز عن حَمْله الجبالُ فتجمّل[٣] ، وإنّ الله لهذا كتبه فى صحيفة الأنبياء أُولى العَزْمِ الأخيار ، الطاهرين المحتسبين الأبرار ، وأعدّ له الجنةَ جزاء وِفَاقاً ، ومكرمة وثواباً ، وأراد أن يكافئه فى الدنيا ، إطماعاً لمن يصبر مِنْ خَلْقِهِ ، وعزاء لمن يُبتلى من عباده .

ذهب إلى مُصَلاّه يوماً ، فصلّى وذكر الله ، ثم بكى ما شاء الله أن يبكى ، وفجأة هدأت ضلوعُه ، وجفت دموعُه ، ودخل رَوْحٌ[٤] على قلبه ، ماهذا الشعور الغريب والإحساس الوافد ؟ إنه الآن ليشعر بانشراحٍ فى أعماقِ نفسه ، وابتهاج فى قرارة وِجْدَانه ، ونشوة نبتت فى حنايا ضلوعه ، إن هذا الشعور الذى يغمره ، والفيض الذى يَشْمَلُه ، ليُشْبِهُ ما كان فى صدر أيامه الماضية ، وعهوده الذاهبة ، حينما كان يخطِر يوسف بين يديه ، ويرى ابتسامةَ الحياة على شفتيه !

أحسّ هذا يعقوب ؛ فصاح بملء قلبه وجوارحه : (إنى لَأجِدُ رِيحَ[٥] يوسف)[٦] ، انعكس هذا الرِّيح هزّةً فى أعطافى ، وتغريداً فى خواطرى ، ورَوْحاً ورَيْحَاناً فى قلبى .

وما كان يعقوب خاطئاً فى وهمه ، ولا بعيداً فى استرواحه ، فقد فصَلت[٧] العير عن مصر تحمِل القميص ، قميصَ يوسف الذى يحمل البُشْرَى ، ويَرُدّ على يعقوب نعمة البصرَ والحياة .

---

(١) لاتثريب : لالوم . (٢) سورة يوسف الآية ٢٩ . (٣) تجمل : صبر
(٤) الروح : الراحة . (٥) الريح هنا : الراحة (٦) سورة يوسف ، آية ٩٤
فصلت : رحلت .

وقطعت العِيرُ طريقها ، وجاء البشير ، فألقى القميصَ على يعقوب ، فإذا بَصَرُه قد عاد ، ورُشْده قد ثاب ، وقَصُّوا عليه قصتهم ، وحدَّثوه بما كان من أمرهم ، ثم طلبوا إليه المغفرة والرضوان .

قال يعقوب : لستُ أملكُ من أمركم شيئاً ، أو أستطيعُ لكم من عذاب الله دَفْعاً ، ولكنى أستغفرُ لكم ربى وهو الغفورُ الرحيم ، زُمُّوا[1] إبلكم ، وأجْمِعُوا إرادتكم ، وهيَّا بنا إلى ساحة العزيز .

ورأى يوسف أَبَوَيْهِ فى ساحته ، وحولهما أحدَ عشر من إخوته ، والجميعُ يسجدون له معظّمين ، ويقفون بين يديه خاشعين ؛ فرفع يديه إلى السماء — شاكراً أنعُمَه ، ذاكراً فضله — وهو يقول : (رَبِّ قد آتَيْتَنى منَ الْمُلْكِ وعلَّمْتَنى مِنْ تَأويلِ الأحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ والأرْضِ أنت وَلِيِّى فى الدُّنيا والآخِرَة تَوَفَّنِى مُسْلِماً وأَلْحِقْنِى بالصَّالِحِين)[2] .

---

(١) زم البعير : خطمه ، أى أعدوها للسفر .

(٢) سورة يوسف آية ١٠١

شعيب (*)

كان أهل مَدْين يسكنون أرض مَعَان ، من أطراف الشام ، وكانوا يكفُرُون بالله ، ويُشْرِكُون به ؛ إذ عبدوا الأيْكَةَ[1] من دونه ، وصاروا يبخسون الناس أشياءهم ، « وإذا اكْتالُوا[2] على الناس يستَوْفُون ، وإذا كالُوهُم[3] أو وَزَنُوهُمْ يُخسِرُون » .

بعث الله فيهم شُعيباً رسولا ، وآزَره بالمعجزات ، وأيده بالبينات ؛ فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، وأمرهم بالعدل ، وحذّرهم عاقبةَ الظلم ، وذكَّرهم نعمة الله عليهم ؛ إذ كثَّرَهُم بعد قلة ، وأغْناهم بعد فقر ، ثم خوَّفهم نقمةَ الله وعذابه إن لم يتبعوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه .

فاستهزءوا بقوله ، وسخروا منه ، وتهكموا به ، وقالوا : يا شعيب ، أصلاتك تَأْمُرُكَ أن نعبُدَ غير ما كان يعبدُ آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون ، وتنهاك أن نعامل الناس كما نحبّ ونشتهى ؛ فندَعَ ما درجنا عليه ، ونشأنا فيه ، وكثُرَت أموالنا من طريقه !

كيف تنهانا عن دِينٍ أَلِفْنَاهُ ، وشَرْعٍ ورثناه ، وأنت الراجحُ عقلاً ، السديد رَأْياً ، الواسع حلماً ؟!

(*) الأعراف ٨٥ — ٩٣ ، هود ٨٤ — ٩٥ ، الشعراء ١٨٦ — ١٩١ ، العنكبوت ٣٦ — ٣٧ .

(٢) الأيكة : غيضة تنبت الشجر .

(٣) اكتالوا : إذا كان لهم حق بالكيل أو الوزن .

(٤) كالوهم : إذا كان للناس حق عندهم فى مكيل أو موزون .

ولكن شعيباً لم تبدُ منه جفوةٌ أو قسوة ، بل تلطَّف فى جدالهم ، وآثر استمالتهم باللين ، واجتذابهم بالرِّفق ، وذكَّرهم بما بينهُ وبينهم من صلة ؛ فذلك أدعى لقبول النصح ، والانصياع إلى الرأى ، وأدلّ على الرغبة فى الخير والحب للنفع .

ولما أَنِسَ منهم ميلا إليه ، وظنّ أن آذانهم تفتَّحت لسماع قوله ، بيَّنَ لهم أن ظهورَ البينة له ، وكثرة نعم الله عليه تحُولاَن بينه وبين الانسياقِ إلى طريقهم ، والاندفاع فى غيِّهم ، وتمنعانه عن التفريط فى وَحْيِ الله والتهاون فى تكاليفه ، ثم أعلن إليهم أنه قد أُوحِيَ إليه بالهُدَى ، وأُرْسِلَ بالحق ، وأُوتِيَ من الله الرحمة ، وأرشد إلى مالم يهتدوا إليه ، وأنه لن يَنِيَ عن العمل بهذه الدعوة التى اختير لها وأُلقِىَ إليه وحيها ، على أنه لن يُكْرِهَهُمْ على اتّباع دعوته ، ولا يأمرهم بشىء إلا رضيَه لنفسه ، وهو الذى اشتهر بينهم بالحلم ، وعُرِف فيهم بالرّشد ، ثم هو لا يطلب منهم أجراً على هديهم ، ولا جزاء على إرشادِهم ، بل يريدُ إصلاحَ أمرهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

ومَنْ كان هذا شأنُه فهو أحقُّ أن يتّبعوه ، وأَوْلَى أن يقتفوه ، وليس له غرض خاصٌّ من دعوته ، ولا مأرَب من وراء طَلِبَته .

ولكنه أحسّ نفورهم من نصيحته ، ورأى منهم ميلاً إلى مخالفته ، مع أنه لم يُبقِ لهم شبهة ، ولم يترك لهم حجّة ؛ فظن أنهم إنما يأنفُونَ من متابعته ، ويميلون عن دعوته ، بَغْياً وحسداً ، وبُغْضاً وكبراً ؛ فنهاهم أن يحملهم ذلك على الانصراف عنه ، أو تدفع بهم الرغبة فى مجانبته إلى النَّأْىِ عمَّا يدعوهم إليه ، وخوّفهم بأس الله وعذابه ، وبيَّنَ لهم أن اقتراف المعصية وارتكاب الإثم لا يمنعهم أن يؤمنوا بالله ، ويتوبوا إليه ، لينجُوا من العذاب ويتخطاهم العقاب .

ولما أظهر لهم فساد اعتقادهم ، وبيَّنَ لهم عاقبةَ ظلمهم ، وأيَّدَ قوله بالحجة

البالغة والآيات البينة ، لجئوا إلى المراوغة فى القول ومُدافعة الحجة بالشتم . فقالوا له : إننا لم نَفقه[١] كثيراً من قولك ؛ لأنه ليس لكلامك سبيل إلى قلوبنا أو منفذ إلى عقولنا ؛ فلتكُفَّ عن إثارة مَنْ هم فى عزّة ومنعة ، وأنت المستضعَفُ الذليل ، ولم يمنعنا من أذاك إلا مكانُ عشيرتك ، وحرمةُ قبيلتك .

ولكن شعيباً لم يُطأطِىء رَأْسَهُ أمام عزّتهم ، ولم يضعُف أمام قوتهم ، بل هبّ يدفعُ باطلَهُمْ بحقه ، ويمحق زُورهم ببينته ، وتملكَتْهُ العزّةُ بنصرة الله ، وأتاهُ فخراً بمؤازرته ، وأبان لهم أنّ رهطهُ[٢] لَيْسُوا أرْفع قدراً ، ولا أشدّ قوة ، ولا أمنع جانباً من الله الذى منحهم هذه القوة ، وأفاض عليهم تلك العزة ، وقال : هلا تركتمونى رعايةً لحقّ الله ، وحفظتمونى إطاعة له ؟! إن ذلك أولى من حِفْظِى لمكان قومى وعزّة رهطِى .

لم يضعِفْ تهديدُهم قوَّته ، ولم يفُلّ وَعيدُهم من عزمه ، بل دعاهُمْ أن يبذلوا ما يملِكون من قُوّة لإيصالِ الشرّ إليه ، وأعلن إليهم أنه لن يألو جهداً فى سبيل دعوته ، ولن يدّخر وسعاً فى الوصول إلى غايته ؛ فثِقَتُهُ بنصر الله أكيدة ، وعاقبته عنده حميدة ، وهو أعلم بما يعملون ، خبير بما يصنعون .

دَأب شُعَيْب على الدعوة إلى الله ، فوجد من بعض القوم آذاناً صاغية وقلوباً واعية ، وآمن به نَفَرٌ قليل ، فهلعَتْ[٣] نفوسُ القوم خِيفَةَ أن يعظم أمره ، ويشتدّ[٤] ساعدُه ، وينتشر دينُه ، وتكثر جماعتُه ؛ فتوعّدُوه ومَنْ آمن معه أن

---

(١) الفقه : الفهم . (٢) رهط الرجل : قومه وقبيلته .
(٣) الهلع : أفحش الجزع . (٤) يشتد .

يخرجوهم من قريتهم ، إن لم يَبْرَأُوا من دينهم ، ويعودُوا إلى ملَّتهم ؛ لكن شعيباً أنبأهم أنَّ هؤلاء الذين اتبعوه قد استرقَّ الإيمانُ قلوبهم ، وملك عليهم مشاعرَهم ، وخالط نفوسَهم ؛ فلن يعودوا إلى حَمْأَة(١) الرَّذِيلة إلا كارهين ، ولن يرجعوا عن عبادة الله طائعين ، فقد أصبحت نفوسُهم تَعَافُ ارتكابَ المعاصى ، بعد أن نجَّاهُم الله منها ، وتأبى أنْ تَتَرَدَّى(٢) فى مهاوى الضلالة بعد أن أخرجهم الله من مَبَاءَتِها(٣) .

ولما يئس من هدايتهم إلى الحقّ ، وتبيَّنَ إصرارهم على الكفر ، استنصر رَبَّهُ عليهم ، ودعاهُ أن يجزيَهُمْ على كفرهم وجُحُودهم ، وتضَرَّع إليه أن يعجِّلَ لهم ما يستحقون من عذاب ، ولكن القوم عن الحقّ لاهُون ، وعلى الدنيا مقبلون ، وعما خَبَّأَ لهم القدر مِنْصَرِفون ، فرجعوا إلى القوم المؤمنين ، وأعادوا الكرَّة على مَنْ ظنُّوهم مستَضْعَفين ، وخوَّفوهم الخسران إن تركوا الظلم ، وعاملوا الناس بالقِسْط ، وهدَّدوهم بالخراب إن لم يطفِّفُوا(٤) الكيل والميزان ، وحَذَّروهم العُدْم(٥) إن لم يبخَسُوا الناسَ أشياءهم ويَعِيثُوا فى الأرض مُفسدين .

ثم كرُّوا على شعيب بالتكذيب ، ونسبوا إليه الشعْوَذَة والسحر ، وتحدَّوه أن يُسْقِط عليهم كِسَفاً(٦) من السماء ، وأن يُنزِلَ عليهم العذاب إن كان من الصَّادِقين .

استجاب الله دعاءه ، وآزَرَهُ بنَصْرِهِ ، وابتلاهم بالحَرِّ الشديد ، فكان لا يروى ظمأهم ماء ، ولا تمنعهم ظِلاَل ، ولا تَقِيهم الأسراب والمنازل ، ففرُّوا هاربين ، وخرجوا من ديارهم مسرعين ، ولكنهم فرُّوا من قضاء الله وقدره إلى

---

(١) الحمأة : الطين . (٢) تتردى : تسقط .
(٣) المكان الموبوء . (٤) التطفيف : نقص المكيال .
(٥) العدم : الفقر . (٦) كسفاً : قطعاً علوية مهلكة .

قضاء الله وقَدَرِه ، فقد شَامُوا[1] سحابةً ظنّوها من وَهَج الشمس واقية وحسبوها للحرِّ دافعة ؛ فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلّها ، ويستروحوا فَيْئَها ، حتى إذا تكَامَل عَدَدُهم ، وتآلَفَ جمعُهم ، رَمَتْهُم بشَرَرٍ وشُهب ، وجاءتهم صَيْحَة من السَّماء وَأَحَسّوا الأرض تتزلزلُ تحت أقدامهم ، ففزعوا لهول ما رَأَوا ، ولم يكادوا يحسّوْن ما حلَّ بهم حتى أزهقت أرْوَاحُهم ، وهلكت نفوسُهم .

رأى شعيب ما حلّ بقومه ، فأعرض عنهم ، يُثقِله الحزْنُ على ما أصابهم ، ولكنه ذكر كُفرَهم بالله ، وتسفيههم لرأيه ، واستهزاءهم بمن آمَنُوا معه ، ومخالفتهم نصيحته ، فخفّفَ ذلك من وَجْدِه ، وتولّى عنهم (وقالَ : يَا قَوْمِ لقد أبلغتُكُمْ رسالاتِ ربّي ونَصَحْتُ لكُمْ فكَيْفَ آسى على قومٍ كافِرِينَ)[2].

---

(١) شاموا : رأوا .

(٢) سورة الأعراف ، آية ٩٣ .

موسى (*)

ولادة موسى وتربيته

تمادى فرعونُ فى غَيِّه ، وعلاَ فى الأرض ، وأنزلَ الخسْفَ بطائفة من رعاياه هم بَنُو إسرائيل ، إذ عاشوا فى ظلاله عيشةَ البلاء ، واصطبروا على اللأْوَاء[1] ، وبينما هم يضطربون ويَرْزَحُون فى نَكَد من العيش وسوء الحال ، إذ تقدَّمَ الكاهنُ من فرعون وقال له : يُولَدُ مولود فى بنى إسرائيل يذهَبُ مُلكك على يده ، فثارت ثورَتُه ، وسَدِر[2] فى بُهتَانه ، وأمعن فى غَيِّه ، فذبح أبناءهم واستبقى نساءهم ، ولكنَّ قدرَةَ الله تعالى تسامَتْ أن يقفَ أمامها تدبير خائب ، فقدَّر فى قديم أزَله لهؤلاء المستضعفين أن يرثوا مُلْكَ هذا الطاغية الجبَّار على يد طفل يرَبَّى فى بيته ، ولكنه كالورد ينبتُ من ثنايا الشوك ، وكالفجر يدْرُج من مهد الظلام .

مَكَّنَ اللهُ لبنى إسرائيل ، وأوْرَثهُمْ أرضَ مصر والشام ، وأرَى فرعونَ وهامان وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون .

جلست يوكابد[3] بِرُكنٍ مِنْ منزلها ، وقد جاءها المَخَاضُ ، فدعت قابلةَ لتهيىء لها مثل ما يكون فى هذه الحال ، فعالجتها ، فلما وقع موسى على الأرض ، اضطربت نفسها ، ولكن حُبَّهُ تغلغل فى قلبها فحرصت على حياته ، وجدَّت فى البُقْيا عليه ، فلم يتسرَّب خبَرُهُ إلى فرعونَ عدوِّ الأطفال ، واستمرَّ ثلاثة من

(*) القصص ٣ - ٤٣ ، طه ٩ - ١٠١ ، الشعراء ١ - ٦٨ ، الأعراف ١٠٠ - ١٥٦ ، ١٦٠ ، يونس ٧٥ - ٩٢ ، النمل ٧ - ١٤ ، النازعات ١٥ - ٢٦ ، هود - ١٠١ ، إبراهيم ٥ - ٨ ، المؤمنون ٤٥ - ٤٨ ، الإسراء ١٠١ - ١٠٤ .

(١) اللأْواء : الشدة . (٢) سدر : تحير . (٣) يوكابد : أم موسى .

الشهور كذلك ، حتى إذا نشر الملكُ عيونه فى المدينة يتفحّصون الأطفال ألهمَ اللهُ أمَّ موسى أن تهيىء له صندوقاً تضمّهُ فيه ، ثم تُلقى به فى النيل ، وترسل على الشاطىء أُختَه تقصُّ أثرَه ، وتُلِمُّ بخبره ، بعد أن ثبّت فؤادها ، وهدأ رَوْعَها بقول كريم .

سارت أختُ موسى تقصُّ أثرَه ، وما كان أشد هَلَعها حينما حُمِلَ الصندوق إلى فرعون ، ولكن رحمةَ الله قريبٌ منه ، فلم تكد تنظرُهُ امرأة فرعونَ حتى ألقى الله محبته فى قلبها ؛ فطلبت إلى زوجها أن يكونَ ابناً لها وله ، وقد أصبح قلبُ يوكابد فارغاً من الهمّ والإشفاق على وَليدها ، لأنها استودعته الله ، وهى رابطةُ الجأش ، ثابتةُ الإيمان .

وسيقت إليه المراضعُ ، لعله يُقبل على واحدة منهن ، فيروى غُلّته ، ويشبعُ جوْعته ، ولكنه عاف المراضع ؛ فانبرى هامان ، وقال : إن هذه الفتاة تعرفه ، فخذوها حتى تخْبِرَ بحاله ، ولما سئلت الفتاة قالت : إنما أردتُ أن أكون للملك من الناصحين ، فأمرها فرعونُ أن تأتىَ بمن يكفُله ، وأقبل يحمل الطفل باكياً وهو يعلّلهُ حتى أقبلت امرأة ، فاستأنس بها الوليد ، والتقم ثديها من دون النساء جميعاً .

فدهِشَ فرعون وقال لها : من أنتِ ؟ فقد أبَى كلّ ثدى إلا ثديك ؟! فقالت أمُّ موسى : إنى امرأةٌ طيِّبَة الرِّيح ، طيِّبَةُ اللبن ، لا أوتَىْ بصبىّ إلا قَبِلَنى . فدفعه إليها وأجْرَى عليها رِزْقاً ، فرجعت إلى بيتها ... وهكذا كافأها اللهُ ، فقرّت عينها به ، لتعلم أنّ وعد الله حق .

* * *

خروج موسى من مصر

أتمت يوكابد رضاعَ ابنها موسى ، ثم أسلمَتْهُ إلى القصر الفرعونيّ ليكون لهم عدوًّا وحَزَنًا .

ولما بلغ أشُدَّه واستوى ، أوْحى الله إليه بالنبُوَّة ، وآتاهُ العلمَ والحكمة .

اتجهت أنظارُ المستَضْعَفين المغلوبين إلى مُوسى ، ليَحْمِيَهُمْ مما أثقل كاهلهم من الظلم والآلام ، وهؤلاء قَوْمُه ، وهو ذو النفس الكريمة التى أشربت عزَّة الله ، واستنارت بنُوره .

عاهد مُوسى نفسَه على أن يكونَ لهؤُلاء المظلومين نَصِيراً ، وفيما هو يتجه نحو العاصمة الفرعونية ، إذ وجد رجلين يقتتلان ، أحدهما عِبْرِيٌّ من مشايعيه ، والآخر فرعونيّ من أصحاب القوَّةِ والسلطان ، فسأله مظاهِرُه أن يحُولَ بينه وبين اعتداء الفرعَونيّ ، فهمَّ مُوسى فضرب الفِرْعونيّ فكانت القاضية ، ثم ندم على فَعْلَته ، وعدَّها من عمل الشيطان ، واستغفر ربه على ما فرط منه ، فغفر له ربه ؛ إنه غفورٌ رحيم .

ولقد كان الغُفْرَان نعمةً على مُوسى ، وحافزاً لرحمته ، وداعياً لسلامه ، فاستعاذ بالله أن يكون ظهيراً للمجرمين ! ولكن مُوسى تغلّبت عليه بشريّته وانتصرت على حوَاسه طبيعةُ الإنسان ، فلم يُعَلِّق إرادته بإرادة مدبِّر الأمر ، ومصرِّفُ الكائنات ، ولم يَسْتَثنِ مشيئةَ الله ، فوَقع فيما عزم على النجاة من غوَائله ، إذْ أصبح فى المدينة خائفاً يترقب ، فإذا الذى استنصرهُ بالأمس يستصرخُهُ ، فرماهُ مُوسى بالغِواية والضلال ، ولكنه اندفع إلى مُظَاهرته ، فظنَّ أن مُوسى يقصد قتله

---

(١) ظهيراً : مساعداً .

فتقدم إليه مسترحماً قائلا : (يا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تقتُلَني كما قتلْتَ نفساً بالأمس إن تُرِيدُ إلا أن تَكُونَ جبَّاراً فى الأرضِ وما تُرِيدُ أنْ تكونَ مِن الُمصلحين)[١] .

فلم يكد يسمع الفرعونىّ هذا الاتهامَ الصريح — وقد كان قومُه فى حيرة فى أمر قتيل الأمس ، لا يعرفون قاتله — حتى وافام وأخبرم بخبر موسى ؛ فتألب القومُ يبحثون عن موسى ليمزِّقُوه شرّ مُمزّق ، ولكن رحمة الله قريب ، إذ جاء من أقصى المدينة رجلٌ يَسْعَى ، قال : يا موسى إن المَلأ يَأتمِرُونَ بِك ليقتُلوك ؛ ثم نصحه بالخروج من المدينة إلى حيث يشاء ربُّ العالمين .

* * *

موسى ينزل أرض مدين

خرج موسى من المدينة خائفاً يترَقَّبُ ، مُتَّجِهاً إلى أن يصرفَ عنه كَيْدَ الظالمين : سار ثمانى ليال قاصداً بلاد مَدْيَنَ[٢] ولا مُعين له إلا عناية الله ، ولا رفيق يؤنسه إلاّ نور الله ، ولازاد يحمله إلاّ زاد التقوى ، مشى حافياً حتى تساقطت جلودُ قدميه ، جائعاً لتكاد تتراءى خُضْرَة البقل من بَطْنِه هُزَالا وضعفاً .

ولم يكن له عن كل ذلك إلا عزاء واحد ، هو غنيمتهُ بالبعد عن فرعون وقومه ، ونجاتُه بعيداً عن الرقباء والكائدين .

توجّه إلى مدين ، فوجد حَشْداً[٣] من الناس قد تزاحموا على مَوْرِد[٤] ماء ، كلٌ منهم يعتمد على قدرته فى التقدُّم والمسابقة إلى البئر ، ورأى مِنْ دونهم امرأتين تفصلان أغنامهما حتى لا تختلط بأغنام غيرهما فى ضَعْفٍ وذلّة ، إلى أن ينكشف هذا الحَشد ، وينصرف الجمع ، فتتقدما للسُّقْيا .

(١) سورة القصص آية ١٩ .
(٢) مدين : موضع بين الشام والحجاز .
(٣) حشداً : جمعاً .
(٤) المورد : موضع ورود الماء .

ثارت في نفس نبي الله ثورة النَّصَفَة[1] ، وحماية المستضعفين ؛ فتقدم وسألهما : ما خَطْبُكما ؟

قالتا : لا نسقي حتى ينصرفَ الرِّعاء[2] حذراً من مُزاحمة الرجال ، وقد جئنا نسقي اضطراراً ، لأن أبانا شيخٌ كبير لا ينهض ؛ فما تأخر موسى عن نجدة الضعيفتين ، بل سَقى أغنامهما وتَوَلّى إلى الظِّل ، ثم انطلق لسانه يسترحم ربَّ السموات ، ويستدرُّ العطف ؛ لأنه فقير محتاج .

بكَّرت الفتاتان بالرُّجعَى إلى أبيهما الشيخ على غير عادة ؛ فسألهما الخبر ، فأخبرتاه ، وقد استجاب الله استرحامَ موسى . لحنا عليه ، إذ ألهم الشيخ أن يرسل في طلبه إحدى ابنتيه ، فجاءته الفتاة مستحيية متخفِّرة فقالت[3] : (إنَّ أبي يَدْعُوكَ لِيجزِيَكَ أجْرَ ما سقَيْتَ لَنا) .

تَبِع موسى الفتاة إلى بيت أبيها استجابةً للدعوة ، فنزل صَدْراً رحْباً ، وآنس حَرَماً آمناً ؛ ثم قصَّ عليه قصصه ، وأفضى إليه بمكنون سرِّه ، فطمأنه الشَّيخ ، وقال : (لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القومِ الظالمينَ)[3] .

* * *

موسى يصاهر الشيخ[4] ثم يعود إلى وطنه

هدأتْ نفسُ موسى في منزل الشيخ الكريم ، وسكنت إلى صُحبته ، ولا بِدْع فنُور الإيمان يتلألأ في كلا القَلْبَيْنِ ، وفَيْضُ الإخلاص يتفجَّرُ من كلا الرجلين ، وشبيهُ الشيء منجذبٌ إليه .

ولقد كان موسى كريماً فتياً ، أثار في نفس الشيخ وبِنْتَيْه عوامل الإكبار والإعجاب ، لما زانه الله به من طَبْع قويم ، وخلق كريم ، فتحرك في نفس الفتاة

(١) النصفة : العدل . (٢) الرعاء : الرعاة . (٣) سورة القصص آية ٢٥ .

(٤) يرى الحسن البصري ومالك بن أنس أن الشيخ هو شعيب عليه السلام ، ويرى آخرون أنه شعيب آخر وليس بالنبي .

حبُّ الاستظهار بموسى وقوته ، والإبقاء عليه لطهارته وأمانته ، فقالت : (يا أبتِ استأجِرْهُ إنَّ خَيْرَ مَن استأجَرْتَ القَوِيُّ الأَمِينُ)[١] .

أوَليس هو الذى أقلّ الغطاء عن البئر منفرداً مع صعوبة حَمْله ، على ما كان به مِن تَعَب وهُزَال ؟ أوليس هو العَفّ الطاهر الذَّيْل الذى أطرق برأسه حينما بلَّغته رسالةَ أبيها واستدعته إليه ؟ فسار أمامها وسارت خَلْفَه ؛ وفاء لحقوق الطهارة وذِمَام[٢] المكرمات ، وحتى لا تمتد عينُه إليها فيكون من الخائنين .

مرَّ حديثُ الفتاة إلى أذنِ أبيها ، فلم ينتبه غافلا ، ولم يحرِّك ساكناً ، بل كان صدًى يرجِّع ما كان يجيشُ فى صدر الشيخ من أمل ورجاء ؛ أما وقد مزّق التماسُ الفتاةِ حجابَ السكوت ، فقد استقرَّ أبوها فى مجلسه ، ثم انبرى يقول : يا موسى ، إنى لراغب فى أنْ أزوِّجك إحدى ابنتيَّ هاتَيْن على أن تكون عوناً لى وظهيراً أجيراً ترعى الغنم ، وتقوم بنصرتى ومساعَدتى ثمانىَ حِجَج[٣] ، وإن زدتهاَ اثنتين فتلك مِنّةٌ جليلة ، أرجوها منك ، ولا أحتِّمها عليك ، وسأكونُ لك إن شاء الله من الأوفياء المخلصين .

ولقد كان موسى شَرِيداً فى بلاد مَدْيَن ، ووَحِيداً طريداً ، نائياً عن الأهل ، قصيًّا عن الأخلاء ، مستوحشةً نفسه ؛ فلم يكد يسمع دعوة الشيخ حتى سرى أمل الحياةِ فى نفسه مَسْرَى الماء فى العود ، وانطلق لسانه يقول للشيخ : إنى لسعيد بصحبتك أيها السيد الكريم ، قوىٌّ بمناصرتك ، عزيز بمؤازرتك .

طاب مُقام موسى ، واخضرَّ فى حياته عودُ الأمل ؛ فأتمّ أقصى الأجَلَيْنِ ، يكلأ أمورَ الشيخ ، ويدبّر شؤونه برعاية الأمين الناصح الحكيم ، وتمّ الزواجُ بإحدى الفتاتين . ثم وهبه صِهْرُه الكريم أغناماً له خالصة سائغة ، وبعد ذلك

---

(١) سورة القصص آية ٢٦ . (٢) الذمام : الحرمة . (٣) حجج : سنين .

تحرّكت فى صدره نشوة الحنين إلى الوطن ، ونزعت نفسه إليه ، ولجّ به الشوق والهيام :

بلادٌ ألِفْنَاها على كل حالة وقد يُؤْلَفُ الشيء الذى ليس بالحسنْ
وتُسْتعذَبُ الأرضُ التى لا هَوَى بها ولا ماؤُها عذبٌ ، ولكنها وطن

جمع موسى أشتاتَ متاعِه ، وهيأ رَحْله ، واستعدّ ليذهب مع زوجه إلى مصر؛ فودّعا الشيخَ وداعاً حسناً ، ودعا لهما بالتوفيق والسّداد ، ثم سارا نحو الجنوب ، حتى طور سيناء ، وهناك ضلّ موسى الطريق ، فحار فى أمره ، والتوَى عليه قصدُه ، ولكنّ عنايةَ الله لاحظته ، فلم يَخْبُ ضياؤه[1] ، ولم ينطفىء رجاؤه .

وإذا العنايةُ لاحظتك عيونُها نَمْ فالمخاوفُ كلُّهنّ أمان

سار موسى غير بعيد ، فأبصر من الجهة التى تلى الطور ناراً ، فحطّ رحاله ، وأسرع وحده إلى النار بعد أن قال لأهله : (امكثُوا إنى آنستُ[2] ناراً ، لعَلى آتيكُمْ مِنها بخبرٍ ، أوْ جَذْوَةٍ[3] من النارِ لعلّكمْ تَصطَلُون)[4] .

فى شاطىء الوادى الأيمن ، فى البقعة المباركة من الشجرة ، فى تلك الليلة المسفِرة الضاحكة ، بَسِمَ الزمان لنبى الله الكريم ، فنودى : (أنْ يَامُوسَى إنى أنا اللهُ ربُّ العالمين)[5] فكانت بدء نبوّته ، إذ خصه الله بكرامته ، وبعثه برسالته ، وهناك سمع نداء الله الكريم : (وما تِلْكَ بيمينك يا موسى)[6] ؟ فعجزت قدرتُه البشريةُ أن تسموَ إلى سِرّ الإبداع فى السؤال الكريم ، فأجاب كما يجيب غيره من الناس : (هِىَ عَصَاىَ أتوكّأُ عليْهَا وأهُشُّ بها عَلَى غَنمى وَلِىَ فِيهَا مآرِبُ أخرَى)[7] ، ظناً أن المقصودَ أن يذكر خصائص العصا ، ومنافع العصا . . . تسامت قدرة الله ، وتعالى سبحانه علواً كبيراً ، فلم يكن السؤالُ إلا تمهيداً لتبيانٍ ومقدّمة لإعلانٍ !

(١) ينطفىء . (٢) آنست : أبصرت . (٣) الجذوة : الجمرة الملتهبة .
(٤ ، ٥) سورة القصص . (٦ ، ٧) سورة طه .

سأل اللهُ عن حقيقة العصا ؛ حتى إذا رأى موسى بعد ذلك فيها خوارق ، واستبان عندها معجزات ، على أن فى ذلك آياتٍ بينات ، وحُجَجاً صادقات ، خَصه بها رب السموات ، تمييزاً لرسالته وتقوية لدعوته .

فكم طــابت به للحق نفس بحبـــل الله تعتصمُ اعتصاما

أُمِرَ موسى أن يلقى عصاه فألقاها ، فإذا هى حيَّة تسعى ؛ نمَتْ وعظمت حتى غدَت فى جَلادة الثعبان ، وضخامة الجان[1] ، لمحها موسى فخاف وهرب ، فسمع نداء العلىّ العظيم : (لا تخَفْ إنى لا يخَافُ لدَىّ المُرسَلونَ)[2] .

حقّت نبوّة موسى ، واطمأنت نفسه لنداء الله الكريم ، وقرّت عينه بنور الحق الواضح ، فتوَجَّهُ ربُّه بمعجزة أخرى ، إذ أمره فأدخل يده فى جيبه ، فإذا هى بيضاء من غير سُوء .

كانت هاتان المعجزتان لموسى نبى الله الكريم أمراً له ما بعده ، جعلهما الله تثبيتاً لقلبه ، وتمكيناً لرسالته بين فرعون وقومه ، وتهيئة للمناداة بالحق . فرفع صوته عالياً ، وشهر سيفه قاطعاً ، ليمزق به حجبَ الزيغ والضلال .

***

موسى الرســـول

عاش فرعون وأعوانه فى بلاد النيل ، يحكمون القِبْط وبنى إسرائيل ، ويفسدون فى الأرض ظلماً واستكباراً ، ويتخذون من نفوسهم أرباباً ، مصورين من طبيعتهم البشرية الناقصة آلهةً يفرضون على السوقَةِ عبادتها من دون الله ثم هم بعدُ قد أنزلوا الخسفَ ببنى إسرائيل ، وساموهم سوء العذاب ، وأتعبوهم فى العمل ، وأطفئوا أمامهم سُرُجَ الأملِ ، فكانوا تحت أيديهم من سقط المتاع .

(١) الجان : نوع من الحيات . (٢) سورة النمل .

وأوغلوا في شهواتهم ، وانصرفوا عن نور الإيمان ، وانحسرت نواظرهم عن سُبل الهداية ، فحادوا عن الطريق المستقيم .

وقومٌ في الضلالة قد تهاوَوْا ألَيسوا بالرسالةِ يُرحمونا ؟

إذن فلتفِضْ رحمة الله ، ولتتفجر ينابيعُ عدله وكرمه ، وليكن أرحمَ بهؤلاء القساة الجفاةِ من أنفسهم ، فيهيئُ لهم مَدارج النور ، ويفسح أمامهم طريق الهداية ، ويُنيرَ مفاوز[1] الظلمات .

نادى الله موسى : أن لديك برهانان من ربك إلى فرعون ومَلئِه ، ويعزّ الله بها كلمتَك ، ويُعلي حُجَّتك ، فاذهب إلى هؤلاء حتى تخرجهم من الظلمات إلى النور ، وترفعَ عَلماً يخفق في بلاد النيل ، فينبلج نور الرشاد ، ويتوارى غَلَسُ الضلال .

سمع موسى دعوة الله ، وتهيأ لتلبية النداء الكريم ؛ وهوَ وإن يكن ربط الله بالإيمان قلبَه ، ووثق بالبراهين دعوته ؛ فأراه حجتين بهما يتقوّى ويشتد ، ويُساجل ويناضل ، ويعزّز كلمة الله أمام فرعون وقومه — إن يكن له كلُّ ذلك فإنّ لدى موسى ثأراً قديماً لفرعون ، فهم يطلبونه منذ أَمَد ، وهو قد أمعن في الهرب ، وفارق الأهل والوطن ، إنجاءً لنفسه ، وطلباً للسلامة من أقرب الأبواب . وهو كذلك وإنْ جاشت في نفسه نزعةُ الحنين إلى الوطن ، واختلجت في فؤاده عواملُ الشوق والشجَن[2] ، لا يزال يجد أمام الأمل سُدّة[3] ، فيغض الطرف عن هذا المطلب البعيد المنال ، أمّا وقد دعاه الله وهيأه لرسالته ، فقد آن له أن يتقدّم حيث أحجم ، وأن تنبعث آماله حرّة طليقة بعد أن حبسها وحال دونها الخوف والحرمان .

فاضت الضراعةُ من قلب موسى إلى ربه ، فقال : (رَبِّ إني قتلتُ منهمُ

---

(١) المفازة : الموضع المهلك . (٢) الشجن : الحزن . (٣) السدة : باب الدار .

نَفْساً فأخافُ أن يَقْتُلونِ)[1] ، قال قَوْلتهُ ليطمئنَ قلبه ، وليشرف قدرُهُ ، ويعظم جاهه ، فينفحه ربه بقول كريم ، يُنير في قلبه مصابيحَ الرجاء ، ويفسح أمامه مسالك الأمل ، ويُثلج خاطرَه ، ويهدّئ روعه ، ويؤمّنَ نفسه .

أُمِرَ موسى أن يذهبَ إلى فرعون ؛ فتهيّب الموقف ، واستعظم الأمر ، وهو الذي لا يكاد يُبين عن آيات الهدى ، ودلائل الحق ، لأنها فياضة زاخرة ، تمتلئ بها مشاعره ، وتجيش بها خواطره ، وتملك عليه عقله وقلبه ، وهو لا يملك أن يكون قويَّ التعبير ، رصينَ الحجة ، مُفَوَّه المنطق ، سَرِيّ البيان[2] ، لأن شأنه شأنٌ خطير ، وأمره أمر كبير ، فدعا ربه فقال : ربِّ اشرحْ لي صَدْري ، حتى ينفسحَ لتحمّل أعباء هذا الأمر العظيم ، وَيسِّر لي أمري برفع الموانع والصعاب ، واحْلُلْ عُقْدَةً من لساني أكن ناصعَ البيان ، سديد البرهان ، حتى ينفذَ بلاغي إلى نفوسهم ، ويتسربَ إلى قلوبهم ، واجعل لي شريكاً وزيراً من أهلي ، هو هارون أخي ، أشْدُد به أزْرِي ، وَأشرِكه في أمري .

أجابَ الله دعاء نبيه الكريم ، تدعيماً للدعوة ، وتكريماً لرسوله ، وتنبيهاً لشأن الحق ، فألهم هارون — وقد كانَ بمصر — أن يذهبَ إلى حيث يقيم موسى أخوه ، ليشركه في أمره ، ويحمل معه أعباء هذا الأمر الخطير ، فلبى هارون داعي الحق ، وسار فقابل أخاهُ بجانب الطور الأيمن .

إذن قد اطمأن موسى ، وتقوّى ظهره ، وآتاهُ الله سُؤْله .

أوحى الله إلى موسى وأخيه : أن اذهبا إلى فرعون ، فقولا له قَوْلاً ليناً ، أرْفَقُ بنفسه ، وألفتَ لقلبه ، عسى أن تلينَ قسوته ، وتخشعَ سطوَتهُ ، فلا تحمله حماقتهُ على أن يسطوَ عليكما ؛ وَلتَسُدَّا أمامه منافذ التمحّل والاعتذار ؛ وعسى

---

(١) القصص .
(٢) عالياً ممتازاً في بيانه .

أن تكون دعوتكما ليِّنَةً رقيقة ، فلا تفجعه فى سلطته ، ولا تصدمه فى عزته . ومَنْ أولى من رب السماء والأرض بأن يعلِّم الأدب ، ورقة العبارة ، وسموّ الحس ، وحُسن المعاملة ؟ ومَنْ أحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دعا إلى اللهِ وَعَمِلَ صالحاً ؟

أليستْ لفرعونَ على موسى حقوق التربية ؟ فمن حقه عليه ملاينةٌ فى القول ، ورقة فى الأسلوب .

فأوحى الله إليه :

يا موسى : اذهب أنت وأخوك بآياتى إلى فرعون وقَوْمه ، وتدرَّجا معه فى الدعوة ، فقولا : إنا رسُولا ربك ، وادعُوَاه ليخلِّصَ بنى إسرائيل مما هم فيه من ظلم وإيلام .

ذهب موسى وأخوه إلى مصر ، فأتيا فرعون ، فاستهان بهما واستنكر خَطْبَهما[١] ، فقال : حتى أنت يا موسى ! ! (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً[٢] ، وَلبثْتَ فينا مِنْ عُمرِكَ سِنِينَ)[٣] .

فقال موسى : أتَمُنُّ بتربيتى لديك وليداً فتحسبها نعمة ؟ أليس منشؤها ظُلمك واستعبادك لبنى إسرائيل ؟ .

فانطلق فرعون قائلا : وكذلك فعلتَ فَعْلَتك التى فعلت وأنت من الجاحدين بنعمتنا ، ودحض[٣] موسى حُجّته ، وردَّ دعوته ، فقال : بل فعلتُها إذاً وأنا من الضالين ، ولما خِفْتُ بطشكم فررت منكم ، فأصابتنى نعمة اللهِ ورحمته ، فَوَهب لى علماً وحكمة ، وجعلنى من المرسلين .

حينئذ استغلق باب النقاش أمام فرعون ، فعمد[٤] إلى طريق آخر ، واهماً أن

---

(١) أمرهما . (٢) الوليد : الصبى المولود ، والآية من سورة الشعراء
(٣) دفع وأبطل . (٤) عمد إلى الشىء قصد إليه .

به تَصَفَتَهُ ، وفيه سلامته ، فقال : ومارب العالمين ؟! فقال موسى : إن أيقنت حقيقة الأشياء وأدركتَ وجودها وآثارها ، فإلهى ربها ، ربُّ السموات والأرض وما بينهما .

فتميَّز فرعونُ غيظاً ، وراح يُثير سخيمَةَ[1] مَنْ حوله ، ويبعث دهشتهم وعجبهم واستنكارهم ، فقال : ألا تسمعونَ ؟! أسألُهُ عن حقيقة ربه فيذكر لى أفعاله !!

فقال موسى : ربِّى ربكم ورب آبائكم الأولين ، (ربُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ، وما بينهُمَا إن كُنتُم تَعْقِلُونَ)[2] .

فثار فرعون ، واضطربت نفسه ، ولجَّ فى غضبه ، وزاد غيظه ، وعجزت حُجَّته فالجأ إلى حيلة المُحْنَق الموتور ، وعمد إلى قوّته ، وقال : (لئنِ اتَّخَذْتَ إلهاً غيرى لأجْعَلَنَّكَ من المَسْجونينَ)[3] .

لم يُبَالِ مُوسى ، واطمأنَّ لدعوته ، وانبعث لسانه بدفء الأمل ، فقال : (أوَلَوْ جئتُكَ بشىء مُبين) ؟ حجةٍ[4] دامغة ، ومعجزة قاطعة ، تُزيل عنك الريب والشكوك ؟

فقال فرعون : إذن فأت بها إن كنت من الصادقين .

* * *

معجزات موسى

كان موسى قَوِيَّ الظهر مسدَّد الخطا ، يستمدُّ العَوْن والتوفيقَ من الله العلىّ الكبير ، وكان السحر فنّاً ذاع فى بنى مصر أمْرُه ، واشتهر شأنه ، فظهر

(١) غضب . (٢ – ٤) من سورة الشعراء .

منهم الساحر الذى يخلِبُ العقول ، ويسترقّ الفؤاد ، ويلعبُ بالألباب لَعِبَ النكباء[١] بالعود ، برعوا فى هـذا الفن وأتقنوه ؛ فليس يُباريهم سابق ، ولا يبلغ شأوهم لاحق .

ومن هذه الناحية وحدها شاءت إرادة الله أن يُعْجِزَ القَوْم ، وأن يقفهُمْ دهشين ذاهلين ، إذ تُصَوِّب سهامهم إلى نحُورهم ، فلا يستطيعون ردَّها ، ولا هم يُنظَرُون .

تلك حكمةٌ أرادها الله ، فأجرى المعجزة على يد نبيه مُوسى ، تحاكى ذلك النوع الذى برع فيه القَوْم ، حتى يُفرِغوا كل كنانتهم[٢] ، ويستنفدوا كل جهودهم ، فإذا عجزوا فى محطّ سَبقهم ، وغاية براعتهم فهم عن غيره من الأعمال أعجز ، وحينئذ فكلمةُ الله هى العليا ، وكلمتهم هى السفلى ، والله لا يهدى كيد الخائنين .

ألقى موسى عصاه التى أودعها الله القُوّة الخارقة ، فإذا هى ثعبانٌ مبين ! شُدِه[٣] فرعون ، وتملكه مزيج من الكبرياء والحيرة ، ثم قال : هل من غيرها ؟ ظاناً بأنّ ذلك نهاية الشوط ، وأن موسى لابدّ عاجز ، ولكن الرسول أدخل يدهُ فى جيبه ثم نزعها ، فإذا شعاع ينبعث منها يكادُ سَنَا[٤] بَرْقه يأخذُ بالأبصار ويذيعُ وينتشرُ حتى ليكاد يسدّ الأفق .

بعد ذلك ضاقت مسالكُ القَوْم أمام فرعون ، وغَشِيَه هَمٌّ واكتئاب ، ولجّ به حرصُهُ على مُلكه وجَبَرُوته ، وبهرهُ سلطان المعجزة ، فأزلهُ من عَليائه ، وصغّر شأنه فى عين نفسه ، فنسى أنه ربُّهم الأعلى ، وأنه ماعلم لهم من إلهٍ غيرهُ ! ثم عمد إلى التمسح فى أذيال قَوْمه ، ومداهنتهم ، فأشركهم فى الأمر ، وتبادل معهم

---

(١) النكباء : الريح .
(٢) الكنانة : جعبة السهام .
(٣) شده : تحير .
(٤) سنا : ضوء .

المشورة والرأى ، وتقدم لمؤامرتهم ، وتنفيرهم من موسى ، مُلبساً الباطل ثوب الحق ، والخديعة والتدليس ثوب الصراحة والحقيقة ، فقال : يا قوم ، هذان ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، فما ترون ؟ فقال أنصاره وحواشيه : احبسهما وابعثْ رجالك فى المدائن[١] يأتوك بكل ساحرٍ عليم .

صادف هذا الرأى هوًى فى نفس فرعون ، وهو الذى يتعلق بخيوطٍ واهية ، ويستمسك بالأمل الكاذب ، ويستند على أوهنِ أساس ، لعلّ فيه الخلاص والنجاة .

فجدّ فى جمع السَّحَرَةِ من كل مكان ، كلُّ ذلك والهواجس والوساوس تتنازع نفسه ، خوفاً على صَوْلته ، وفرَقاً[٢] على دولته ؛ إذ قال لموسى فى نكران ودَهش : (أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يا موسى)[٣] .

ما بال فرعون اضطرب وجزع ، وتقطعت نفسه وهلع ! أليس هو الإله المتجبر ؟ ! أوليست له قدرة وكرامة ؟ ! إنه أمامَ تلك القوّة الخارقة التى أجراها ربّ الأرباب على يد بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق !

قال فرعون لموسى : (فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وبينكَ مَوْعِداً لاَ نُخْلِفُهُ نَحْنُ ولا أنتَ)[٤] .

قال موسى : موعدكم يوم العيد ، يوم اجتماع الناس وزينتهم ، حتى يشيع الحق ، وينبلجَ انبلاجَ النهار .

جدّ فرعون واجتهد ، وجمع السّحرة ، وأتى بهم فى ذلك الزمان وهذا المكان ، تتمشى فى نفسه بقيةٌ من الأمل ، ورغبة شديدة مُلحّة من الحرص

(١) المدائن : جمع مدينة ، كالمدن .
(٢) فرقاً : خوفاً . (٣) ، (٤) سورة طه .

والسلطة يدفعانه دفعاً إلى مساجلة موسى والقضاء على دعواه ، ولكن هيهات أن يدنس الشمسَ غبارٌ ثائر ، أو يحط من قدر العدالة سلطان جائر :

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنها فلم يَضِرْها وأوهى قرنَهُ الوعلُ[1]

تلفّتَ موسى فوجد حَشْداً هائلاً من السَّحَرَة ، فقال لهم : الويل لكم إن افتريتم الكذب على الله ، فدعوتم معجزاته سحراً ، ولم تصارحوا فرعون بالنور الساطع ، والحق القاطع ، فتظهروا له ما بين سحركم وإعجازى ، وَتُفَرِّقُوا بين باطلكم وحقى ، من احتال منكم ليُبطِلَ حقاً ، أو يُحقَّ باطلا فقد خاب ، وباء بالخسران المُبين .

كان كلامُ موسى نداء الحق رنّ فى آذان الساحرين ، فأفاقهم من غَشْية الضلال ، وأزال عن أفئدتهم حَلك المحال[2] ، وفتق أغشيةَ قلوبهم لتُصِيخ لدعوة الحق ، ولتستبين طريق الرشاد .

ائتمر السحرةُ بأمر فرعون ، لم يتخلفْ واحد منهم ، فإذا بهم آلاف ، مع كل واحد منهم حَبْلٌ وعصا ، مقبلين إقبال رجل واحد ، ومشترين عن سواعدهم ، ليكون ذلك أدعى إلى تسرب الخوف إلى موسى وأخيه ، وبثّ المهابة فى نفوس الرائين .

نادَى فرعون فى قومه ، حاثًّا لهم على الإسراع والبِدَار[3] ليشهدوا ذلك الحفل العظيم ، ساعةَ الضحى من يوم العيد ، يوم يتبارى القِرْنان ، ويتساجل الخصمان .

جاء الناس مدفوعين بالرجاء فى نصرة الساحرين ، لِما رسخ فى نفوسهم من الضلالة ، وران[4] على قلوبهم من الجهالة ، فسلبهم سلامة التقدير ، وصحة التصوير .

---

(١) الوعل : حيوان قوى القرن . (٢) بدر إلى الشىء : أسرع .
(٣) المحال : الكيد والمكر . (٤) ران على قلوبهم : غاب .

أقبل السحرة مُدِلِّينَ بعلمهم ، مزهُوِّين بغرورهم ، وكيف لا يُدِلّون ويُعجَبُونَ وهم فوارسُ الميدان ، وجياد الرهان ، ومناطُ الأمل ، ومحطّ الرجاء ؟

قالوا لفرعون : أَئِنَّا أجرٌ إن غَلَبْنَا ؟ فقال : لكم أجرٌ وقُرْبى ! تنعمون في حِمَاى ، وتسعدون بجوارى ، وتنزلون موارد الرفاغة(١) والترف والنعيم ؛ لأنكم تشدّون أزرى ، وتقوّون ظهرى ؛ فاطمأنّ السّحرة لهذا ، ودارت برءوسهم كئوس الأمل ؛ فأقبلوا مدفوعين ، ثم قالوا : يا موسى ، إمّا أن تُلقِى ، وإمّا أن نكون أوّلَ المُلقين .

فلم يبال موسى سحرهم ، واستخفّ بخَطْبهم ، وأذِنَ لهم بأن يُلقوا حبالهم وعصيَّهم ، حتى يستنفدوا أقصى وسعهم ، ويفرغوا غاية جهدهم ، ثم يُظهرَ الله سلطانه ، فيقذف بالحق على الباطل فيَدْمغه(٢) .

تقدم السّحرة وألقَوْا ما في أيديهم فَخُيِّل لموسى أنها حيَّاتٌ على الأرض تسعى ، ولكنه وَهْمٌ تسلل إلى خلجات نفسه حذراً وخوفاً أن يُؤْخَذَ الناس بهذا الظاهر المموّه ، والباطل المشوّه ؛ فينصرفوا عن دعوته مدبرين ، ولكن حماه الله ورعاه ، فقال : لا تَخَفْ إنك أنت الأعلى ، ولا تحفَلْ(٣) بكثرة هذه الأجرام وعظمها ؛ فإن العُوَيدة التى في يدك أخطرُ شأناً وأعظَمُ أثراً ، فألقِها فإنها بقدرة الله تبتلع ما افتعلوا وزوّرُوا ، وموّهُوا وضللوا ، فما كلُّ ذلك إلا كيد ساحر ، وَلا يُفلِحَ السّاحرُ حيثُ أتى .

هدأت حَصَاةُ موسى ، وألقى عصاه ، فإذا هى تَلْقَف(٤) ما يأفِكون ،

---

(١) الرفاغة : السعة والرغد .

(٢) يدمغه : يمحوه . (٣) حفل بكذا : بالى به .

(٤) لقف الشيء وتلقفه : تناوله بسرعة .

فإذا السحرةُ يلمسون الحقيقة الرائعة ، ويتبينون الرُّشْدَ من الضلال ، والحقَّ من المحال ، فإذا هم يخرُّون ساجدين ، توبةً عما صنعُوا ، وخشوعاً لهيبة الحقّ وإكباراً لذلك الأمر الخطير .

غلت مراجلُ الحقد والحفيظة فى صدر فرعون ، واحتدم غيظهُ لتلك المفاجأة الغريبة التى فجأته ، مستطيرة الشرر ، شديدة الضرر ، على حين كان يرجو من ورائها تقويةً لسلطانه ، وتدعيما لبهتانه ، فإذا هى عاصفةٌ هوجاء تُقوِّض ذلك العرش الذى أسِّسَ على الزور والبهتان .

لم يجد فرعون فى كنانته إلا أن يُشْبِع نَهَم غيظه ، ويستر مرارة خَجَله ، فقال : أتؤمنون له ، وتخضعون لحكمه قبل أن آذن لكم ؟ أليس فى ذلك اتفاق مقرر ، ورأى مدبر ؟

حقاً إنه لأستاذكم ، وكبيركم الذى علمكم السحر ؛ فاتفقتم معه على فعلكم ، أما وقد أقدمتم على ذلك ، وخرجتم على حدود طاعتى ، ونقضتم حبال عهدى ، فلأقَطِّعَنَّ أيْدِيَكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنّكم فى جذوع النخل ، عقاباً لكم ، وتمثيلا بكم ، لأنكم كفرتم بنعمتى ، ونقضتم ميثاقى ، ولتُعَرِّفنكم أيامُ الزمن قوة بأسى ، وشدّة عذابى .

ولكنَّ قوة الإيمان ، وفيض النبوّة ربطا على قلوب هؤلاء المؤمنين ؛ فأزال الله عن قلوبهم غشية الباطل وغمرة البهتان ، ودرجوا قُدُماً نحو الصراط المستقيم ؛ فقالوا لفرعون : ليس فى سبيلك خير ، ولا فى رضاك أجر ، فلن نختارك على ما جاءنا من نور ساطع وحق قاطع ، فأوغلْ فى وعيدك ، وأكثِرْ من تهديدك ، فما أنت إلا غوىٌّ مُضِل مُبين : (إنَّا آمنَّا بربِّنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر واللهُ خَيْرٌ وأبقى)[1] .

* * *

---

(١) من سورة طه .

عناد فرعون

شُدِهَ فرعون لما رأى من سحر موسى — كما يسميه — وانطلق تتنازعه عاطفتان جامحتان : أقواهما الإبقاء على مُلْكه ، ومجاهدة موسى حتى تنجلي غاشية ظلامه ، وتنكشف سحابة غمّته ، فيستتبّ لفرعون المصير ، وكيف لا يناضل عُتلٌّ[١] جبار في سبيل هذه العزة الشامخة والثروة العريضة ؟ إنه لمضطرّ تحت نزعات هذه النفس الكافرة أن يدافع ويجالد حتى يَدْحَر[٢] ذلك الخارجَ على سلطانه ، أصرّ فرعونُ على عناده ، وظاهرهُ الملَا من قومه ، فقالوا : (أتَذَرُ مُوسى وقومَهُ ليفْسِدوا في الأرض ويذرَكَ وآلهتك)[٣]، فتمادَى في بطشه وعُنفوانه ، واستطار شرره وبهتانه ، فقال : إنا سنقتّل أبناءهم ونستحيي[٤] نساءهم . ثم راح ينزل بهم صنوف الظلم وألوان الأذى ؛ فضجُّوا لاجئين إلى موسى ، ليحميَهم من أذى الكافر الجبار ، وقالوا : يا موسى ، لقد أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا . فسكّن الرسول ثورتهم ، وهَدّأ روعهم ، ومَنّاهم الخير والنجاة قائلا لهم : (اسْتَعِينُوا باللهِ واصْبِرُوا إنَّ الأرضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ والعاقبةُ للمُتقين)[٥] .

قال موسى هذا ، واستمرَّ في دعوته يمهّد لقومه سبيل النجاة ، ويتجهُ إلى ربهِ بقلب ثابت ، وإيمان موثّق ، واطمئنان موفور .

أما فرعون فقد خاص إلى ملأ من قومه يأتمرون بموسى ليقتلوه ؛ فذلك أقربُ طريقٍ أمامهم ، وأدنى السُّبُل لبقاء ملكهم ، بعد أن أعيَتْهُم الحِيَل ،

---

(١) عتل : شديد الخصومة كثير النذاد .
(٢) يدحر : يغلب .
(٣) سورة الأعراف .
(٤) نستحيي : نتركهم أحياء .
(٥) سورة الأعراف .

وسُدَّت أمامهم منافذُ الخلاص ، وبينما هم فى أَخْذٍ وَرَدّ ، يقلبون أوجُه الرأى، ويجيلون الفكر فى الإقدام على جريمة القتل ، إذ دفعت المروءة والشجاعة رجلا أنار الله بصيرته ، وكشف له سبيل الرشد والإيمان ، فدافع عن موسى أشدّ الدفاع ، وناضل عنه وجادل ، وبيّنَ لهم سوء أمرهم ، وعاقبة تدبيرهم ، وفنّدَ حُججهم ، وزيّفَ ضلالهم ، وطفق يضرب المثل ، ويتقوى بالحجج .

فقال : يا قوم (أتقتلون رَجُلاً أنْ يَقولَ رَبِّىَ اللهُ وقد جاءَكُم بالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُم ، وإن يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وإن يَكُ صادقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الذى يَعِدُكُم ، إنّ الله لا يهدى مَنْ هو مُسْرِفٌ كَذّابٌ) .

ثم طفق مُؤْمِنُ آل فرعون يذكّرهم ببأس الله وبطشه ، فقال : (ياقَوْمِ إنى أخافُ عليكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأحزابِ[(١)] * مثل دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وعادٍ وثمُودَ والذينَ مِنْ بعدِهم ، وما اللهُ يُريد ظلماً للعبادِ * ويا قَوْمِ إنى أخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التّناد[(٢)]، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِين مالكم من اللهِ مِنْ عاصِم ، ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فما لهُ مِنْ هادٍ * ولقد جاءَكُم يُوسفُ مِنْ قَبْلُ بالبَيِّنَاتِ فما زِلْتُمْ فى شَكٍّ مما جاءَكُم به حتى إذا هَلَكَ قُلْتُمْ لن يَبعثَ الله مِنْ بعدِه رَسُولاً كذلك يُضِلُّ اللهُ مَنْ هو مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)[(٣)] .

ولكن القوم — على الرغم من قوة عارضته — قاوموه وكذّبوه ، ليلجئوه إلى صفّهم ورأيهم ، فقال : (ويا قَوْمِ مالى أدْعُوكُم إلى النّجَاةِ وَتَدْعُونَنى إلى النّارِ * تَدْعُونَنِى لأَكْفُرَ بالله وأُشْرِكَ به ما لَيْسَ لى به عِلْمٌ ، وأنا أدْعُوكُم إلى العَزِيزِ الغَفّار * لاجَرَمَ[(٤)] أنّ ما تَدْعُونَنِى إليْهِ لَيْسَ لهُ دَعْوَةٌ فى الدُّنيا

---

(١) الأحزاب : الأمم السابقة .
(٢) التناد : القيامة .
(٣) الآيات من سورة غافر .
(٤) لا جرم : حقا .

ولا في الآخرة وأنَّ مَرَدَّنا إلى الله وأنَّ المُسرفين هم أصحاب النار * فستذكرون ما أقول لكم وأفوّض أمري إلى الله إنَّ الله بصير بالعباد)[1].

ضاق القوم ذرعاً بهذا الرجل الذى فجأهم برأيه ، وسفّه أحلامهم بهديه ؛ فناوءوه وسفّهوه ، وهمّوا به ليقتلوه ، (فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب) .

استمرَّ موسى فى دعوته ، لا يثنيه وعيد ، ولا يخيفه تهديد ، يدعو فرعون إلى الإيمان بربه ، والرجعى إلى خالق الأرض والسموات ، وأن يطلق معه بنى إسرائيل ، ولكنَّ هذا كان شديداً كلَّ الشدة على ذلك الطاغية الجبار ؛ فاشتطَّ فى غوايته ، وظل فى جهالته ، وجمع أشتات الزائغين من قومه الذين ألِفُوا الذِّلة ، وارتضوا عيشَ الهوان والاستعباد ، جمعهم يريد أن يبهرهم بالقوّة ، ويثبّتهم على الكفر والمذلة ، ونادى فى قومه ، قال : (يا قوم أليس لى مُلكُ مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون * أم أنا خيرٌ من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين * فلولا أُلقى عليه أسورةٌ من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين)[2].

وهؤلاء هم أذناب شرّه ، وعُمُد زيغه وظلمه ، قد أطاعوه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين .

لم يبقَ فى قوس الصبر منزع ، ولا لحجة المبين موقع ، بعد أن عتا فرعون عتوّا كبيراً ، وسدَّ مسالك القول ببهتانه ، وأنكر الشمس فى وضح النهار ، بل إنه قد استمرَّ يذيق بنى إسرائيل أنواع المذلة وصنوف الهوان ؛ فأمر

---

(١) الآيات من سورة غافر .

(٢) الآيات من سورة الزخرف .

الله تعالى موسى أن يُعلن فرعونَ وقومَه بأن الله لا بُدَّ مُذِيقُهم جزاء كفرهم وحبسهم بنى إسرائيل .

فأخذهم اللهُ بنقصٍ فى الأموال والأنفس والثمرات ، فنضب معينُ النيل ، وغاض ماؤه ، وقل غَناؤه ، وقصَّرَ عن إرواء أرضهم ؛ فنقصت ثمراتهم ، وَذَوَى عُودُ خيرهم ، ثم أغرَقهم الطوفانُ من مطر السماء ، فأضرَّ بما بقى من الزرع والضرع ، ثم زحف عليهم جرادٌ أكل الثمار والأزهار ، واستولى عليهم القُمَّل ، فأقضَّ مضاجعهم ، وأقلق رقادهم ، وابتُلوا بالضفادع ، فنغَّصت عيشهم ، واحتشد جمعها فى طعامهم وشرابهم وبين ملابسهم ، وسُلِّطَ عليهم الرُّعَافُ من آنافهم ثم محق الله أموالهم وأهلكها جزاء خطيئاتهم وكُفرِهم : (ولمَّا وَقَعَ عَلَيهم الرِّجْز[١] قالوا يا مُوسَى ادْعُ لنا رَبَّكَ بما عَهِدَ عِندَكَ لئن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لكَ ولنرسِلَنَّ مَعَكَ بنى إسرائيل)[٢] .

كشف اللهُ عنهم هذا البلاء ، ليهد لهم سبيلَ الخلاص مما نزل بهم ، وليقَوِّيَ بحكمته الحجة والدليل عليهم ، ولكنهم نكثوا عهد الله فكانوا من الخائنين .

* * *

خروج بنى إسرائيل من مصر

أفصحَ النهار لذى عينين ، فتبين بنو إسرائيل الغىَّ من الرَّشاد ، وانحازوا لرسول الله الكريم ، يلتمسون لديه الرَّحمة والهداية ، وهم الذين ضُرِبَتْ عليهم الذِّلةُ والمسكنةُ ، وَسِيمُوا سوء العذاب ، فعاشوا عِيشة البلاء ، واصطبروا عَلَى اللأْوَاء[٣] .

(١) الرجز : العذاب . (٢) سورة الأعراف . (٣) اللأواء : الشدة .

وكيف لا تتفتح بصائرهم ، ولا تنفجر ينابيع إيمانهم ، وقد لمسوا آية الحق ناصعةً مشرقة ، فقرّت بها عُيونهم ، واطمأنت إلى مهادِها جنوبُهم ، فلم يَحفلوا بوَعِيد فرعون ، ولم يأبَهُوا لزمجرته وتهديده ، والتمسوا الفِرَار من أرض مصر ، طلباً للسلامة ، وبُعْداً عن القوم الظالمين !

سار بهم موسى أول الليل إلى الأرض المقدَّسة ، وقد سهَّل الله إليها طريقهم فساروا حَثِيثاً ، يدفعهم الخوف ، ويعصمهم الإيمان ، حتى قطعوا رقعة اليابسة المصرية ، وإذا بهم أمام بحر لُجِّيّ يقف سداً منيعاً دون غايتهم ، وحائلا دون أمنيتهم ، فساوَرَهم القلقُ ، واستولى عليهم الجزعُ ، وتوزّع نفوسَهم الرَّوْعُ والفَزَع . .

أليسوا هم المطلوبون لفرعَوْن وجنوده ؟ ! وهو الذى يجدُّ فى السير ، ويمعن فى الطلب حتى ليوشك أن يقترب منهم ، لأنهم — على زعمه — عبيد آبقونَ ، وأتباعٌ مارقون ، وكان قد جَيَّشَ جيشه ، وحشد خيله وَرَجله[1] ، وسار وراء موسى ومَنْ تبعه حتى صار منهم قابَ[2] قوسين أو أدنى ؟ !

هاج بنو إسرائيل ، وتقطعَتْ نفوسهم هَمًّا وحسرة ، أليس الموتُ قد كاد يُدْرِكهم ، وحبائلُ فرعَوْن قد اقتربت لتقنصهم ؟ هنا سُمِعَ صوتٌ يَجْأَرُ كما تنبعث الهَيْمَةُ[3] الصاخبة وسط المفازة المترامية ، فيه عُتْبٌ ، وفيه لوم ، وفيه استنجاد ، وفيه يأس ، وكان صاحبُ الصوت يُوشَع بن نون ، من قوم موسى .

قال : يا كليمَ الله ، أين تدبيرُك ؟ ها قد دهمتنا غوائلُ القَدَر ، فالبحر أمامنا والعدوّ وراءنا ، وليس لنا من الموت محيص ولا مفر .

---

(١) الرجل : المشاة .
(٢) قاب : قدر .
(٣) الهيمة : صوت مفزع .

فقال موسى : لقد أُمِرْتُ بالبحر ، ولعلى أُومَرُ الآن بما أصنع .

فسَرَتْ في نفوس القوم سارية من الأمل ، ولكنه لايلبث أن يمدّ شعاعه ، حتى تعاقبه عواصفُ اليأس والقنوط ، ويشيع في نفوسهم ثورة يحبسها ما تبقى في قلوبهم من رجاء ، وما يعللهم به نبيُّهم من فرج ورخاء ؛ إذن فليستسلموا لقضاء الله ، والله لا بدّ راحمهم وعاصمهم من فَتْك الظالمين .

أوحى الله إلى موسى : أنِ اضْرِبْ بعَصَاكَ البَحْرَ ، فضربه ، فانجابت دياجير[1] الظلام . . . وانحسَرَت طاغيات اليأس ، وإذا اثنا عشر طريقاً لاثنى عشر سِبْطاً[2] ، لكل سِبْطٍ طريق ، وإذا الشمسُ والريح يهيِّئهما الله ، فتجفُّ هذه الأرض ، وتمهَّدُ تلك السُّبل ، وإذا القوم يسيرون آمنين في رعاية الله الكبير المتعال ، وإذا بهم يؤمِّن رسولهم ؛ إذ يقول : (فاضْرِبْ لهم طَرِيقاً في البَحْرِ يَبَساً . لا تخافُ دَرَكاً ولا تخشَى)[3] .

انسابَ الأسباط يُهرَعون إلى برِّ الأمان والسلام ، وقد قام الماء على جانبي كل طريق كالطَّوْدِ[4] العظيم ، حتى عَبروا سالمين .

استشرف القومُ بعيونهم ، فأبصروا فرعونَ وجنودَه يتأهَّبون ليسلكوا في البحر مسالكَ بني إسرائيل التي عبروا منها ، حتى يَلحَقوا بهم ، فينزلوا بهم أشد العذاب ، وعاد القلق والاضطراب ، بعد أن ظللتهم سحابة من الأمن ، وتملكهم الخوف والإشفاق ، خَشْيَةَ أن يمتد إليهم عُدْوان فرعون ، بعد أن يجوز البحر من حيث جازوه .

اتجهت القلوب ، وتطلعت الأنظار نحو موسى حتى يكشفَ ربُّه عنهم هذا

---

(١) ذهبت الظلمات .
(٢) السبط : الفريق من اليهود .
(٣) سورة طه .
(٤) الطود : الجبل .

البلاء المحدق ، الذى يكاد يدهمهم من حيث لا يشعرون ، حينئذ همّ موسى ليدعوَ البحر فيرجع إلى حاله ، حتى يحول بينهم وبين فرعون ، وليكون حاجزاً يحجز عنهم ذلك البطش الذى يلاحقهم فى كل مكان وزمان .

لم يكد عزمُ موسى يختلج فى فؤاده حتى أوحى الله إليه : أن اتركِ البحر ساكناً على حاله ، فلا تضربه بعصاك فيعود إلى حاله ، لأن الله لا يريد أن يجعل البحر حائلا بينك وبينهم ، فيرجعوا إلى ديارهم سالمين ، بل سبقت كلمة الله فى هؤلاء ، فغرّتهم المسالك التى سلكها بنو إسرائيل ومشوْا فيها ، فانطبق عليهم الماء فكانوا من المغرقين .

تلفت فرعون وجنوده ، فإذا سُبُل البحر ممهدة أمامهم فيها يسيرون ومنها إلى بنى إسرائيل يصلون ، فانتفخت أوداجهم ، وأعماهم غرورهم ، وتاهوا فى ضلال الصلف والإعجاب ، فقال فرعون لجنوده : انظروا إلى البحر كيف انفلق طوْعاً لأمرى ، وانصياعاً لإرادتى ، حتى أدرك هؤلاء الخارجين ! !

وكأنها كانت معجزة لفرعون فى نظر أصحابه الضالّين ، فتقوّوْا بقوّته ، واطمأنوا لنصرته ، ثم اندفعوا إلى مسالك البحر ، وقد لجت بهم العجلة ، طلباً لبنى إسرائيل ، ولم يكادوا يصلون إلى عرضه[1] حتى انطبق عليهم ، فأغرقهم أجمعين ، فصاروا مثلاً للآخرين .

نسىَ فرعون علياءه ومجده ، وأدرك الحقيقة التى طالما خفيتْ عليه ، وأبصر فإذا هو عبدٌ كليل الرأى ، حقير الشأن ، لا حوْل له ولا قوّة ، فانجابت عنه تلك السحابة القاتمة المظلمة ، وتسرّب إلى قلبه شعاع من الحق المبين .

---

(١) عرض البحر : وسطه ومعظمه .

وقد بَهرَت فما تخفى عَلَى أَحَدٍ   إلا عَلَى أحد لا يعرِفُ القمَرَا

فى هذا الوقت العصيب آمن فرْعَون ، فقال : (آمنتُ أنه لا إله إلاّ الذى آمنَتْ به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين[1] .

لم يقبَل الله مِحَالَ هذا الطاغية الجبار الذى أهلك الحرث والنسل ، بل جازاه عَلَى شرِّ أعماله وبئسَ المصير .

انطبق البحرُ ، فَسُمِع صَوْت انطباقه صاخباً شديداً ، فسأل بنو إسرائيل موسى : ماهذه الضوضاء ؟ فقال لهم : إن الله قد أهلك فرعَوْن ومن معه مغرقين فعاوَدَتهم غريزة تأصّلت فى نفوسهم ، وباطل تمكّن من قلوبهم ، ووَهمٌ تَسلط عَلَى عقولهم ، فقالوا : يا موسى ، إن فرعَوْن لا يمُوت ! ! ألم تر كيف كان يلبث كذا من الأيام وكذا من الشهور ، لا يحتاج إلى شىء مما يحتاج إليه بنو الإنسان ؟ !

قالوا هذا ، ويغشى على أفئدتهم وَهمٌ باطل ، ولكن فليختلقوا القدرة والحَوْل والإمكان والطَّوْل لفرعَوْن وليُمعنوا فى دعاويهم الزائفة الكاسدة ؛ فهذه قدرة الله ، وذلك حَوْلُ اللهِ .

أمَرَ الله فألقَى البحر جُثة فرعَوْن عَلَى ساحله حتى لا يكون فى مواراة البحر إياها سبيل من سبل التقول لفرعَوْن ؛ فربما قالوا : إنه يعيش فى عالم آخر . وربما افتروا وربما كذبوا ، فليخرس الله ألسنتهم وليُكتم أنفاسهم ، ولينبذ البحْرُ هذا الجسد المحطم وذلك السلطان المهدّم .

نظر بنو إسرائيل دهشين ذاهلين مصرع هؤلاء الجبابرة العاتين ، إذ أغرق

---

(١) سورة يونس

الله فرعون وجنوده ، ونجّى فِرْعَوْن ببدنه ، ليكون آية لمن خَلْفَه آية ناطقة على تلك القدرة المعجزة ، وذلك الإنعام الذى تفضل به رب العالمين .

* * *

مواعدة موسى

استقرّت عصا التسيار بموسى ومن معه ، فأقاموا حيث واتاه المقام ، ومن ثمّ احتاجُوا إلى منهاج يسيرون عليه ، وشرع يركنون إليه ، فسأل مُوسى ربه كتاباً به يهتدون ، وإلى حكمه يرجعون ، فيه من الأمر ما يأتُونَ ، ومن النهى ما يَذَرُون ، حتى لاتتردّى بهم أيام الزمان ، ولا يخبطوا فى أمور المعاش والمَعاد خَبْطَ عَشْوَاء .

أمر الله موسى أن يتطهر ، وأن يصوم ثلاثين يوماً ، ثم يأتى إلى طور سيناء حتى يكلمه ربه ، فيتلقى أمره فى كتاب يكون لهم المرجعَ والمآب .

اختار موسى من قومه سبعين رجُلا ، ثم ذهب لميقات[1] رَبِّه ، ولكنه تعجَّل فسبقهم إلى الطُّور ، فوصل بعد ثلاثين ليلة ، وقد تأخَّرَ عنه المختارون من قَوْمه ، حينئذ سُئلَ عن الأمْرِ الذى بعثه على الإسراع والعجلة ، فقال : هم أولاَء عَلَى أَثَرِى ، وعجلْتُ إليكَ رَبِّ لِترْضَى . فَأُمِرَ أن يُتِمّ ميقات ربه أربعين ليلة .

وكان موسى قد ترك قومه ، واستخلف عليهم أخاه هارون وزيراً ، يقوم على شؤونهم ، ويُصْلح أمورهم ، ويَرْعَى أحوالهم ، حتى يعود إليهم يحمل الأمانة الغالية ، ويسعد بذلك الشرف الموعُود .

---

(١) الميقات : الوقت المضروب للفعل ، والميقات أيضاً : الموضع .

سار موسى إلى طور سيناء ، فكلمه ربُّه وناجاه ، وقرَّبه وأدناه ، حتى سَرَت فى نفسه رَوْعَة وهِزَّة ، أَجَّجَت فى فؤاده نار الشوق ، وألهبت أُوَار[1] الهيام واللهفة ، فقال : رَبِّ أرنى أنظر إليك ، وَلِمَ لا يختلج فى فؤاد موسى خاطرٌ يدفعه إلى أن يطلب رؤية ربه ، وقد نعمَ بتلقى رسالته ، وسَعِدَ بالقرب من رعايته ، ونال مالم يَنَلْه قبله أحد من العالمين ، أليس المـأرَبُ شريفاً ، والقصد كريماً ؟!

وموسى نفسه هو الرسول الذى طالبه قومه ، فقالوا : أرنا الله جَهْرَةً ؛ فلماذا لا يسألُ ربّه ذلك ليرى بنفسه أمْرَ الله فى ذلك المطلب المرغوب ، وليكونَ حُكم الله حجةً قاطعة لهؤلاء الرَّاجين المُلْحِفين ؟[2]

قال ربُّه : (لن ترانى ، ولكن انظرْ إلى الجبل ؛ فإن استقر مكانه فسوف ترانى) تلفَّتَ موسى فإذا الجبل قد دُكَّ ، وغارَ فى الأرض وساخ ، فارتاع لهَوْل ذلك الخطب الجلل والأمْر العظيم ، فخر صَعِقاً ، فلطف الله به وشمله برحمته ، فأفاق من صَعقته ، وقام يسبِّح الله الكبير المتعال .

أخذ مُوسى الألواح ، وفيها ما يحتاج إليه بنو إسرائيل ، مَوْعظةً وتفصيلا لكل شىء ، فقال : يا رب لقد أكْرمتنى بكرامة لم تُكْرِمْ بها أحداً قبلى . فقال : (يامُوسى ، إنى اصْطَفَيْتكَ على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيك وكُنْ من الشاكرين) .

وانتظر بنو إسرائيل أن يوافيهم مُوسى بعد ثلاثين يوماً من بدء غيبته ، ولكنه - على غير علم منه - طال غيابُهُ حتى صار أربعين يوماً ، فأجالوا الرأى بينهم وقالوا : إن مُوسى أخلفنا وعده ، ونقض عهده ، وتركنا فى جَهل

---

(١) الأوار : الحرقة . (٢) الإلحاف : الإلحاح .

مقيم وليل بهيم[1] ، وما أجدرنا بمن ينير لنا المسالك ، ويُرْشِدنا إلى سَواء السبيل ! !

عندئذ تحركت فى نفس السَّامِرِىِّ نزوَةُ الشرِّ والفساد ، فاغتنمها فرصةً ، وقال لهم : عليكم أن تتخذوا لكم إلهاً ، فليس موسى براجع إليكم ، لأنه خرج ينشد إلهكم فضلَّ الطريق ، فأبطأ عليكم وأخلف الميعاد ! !

قال الشيطان قوله هذا بعد أن استشفَّ مافى نفوس القوم من خَوَر وانحلال . أليسوا هم الذين مالت قبلُ نفوسهم إلى الكفر ، وقد مَرُّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فقالوا : يا مُوسى ، اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ؟ !

اغتنم السامرىُّ هذه الجهالة الجهلاء ، وتلك الضلالة العمياء ، وأخذَ حُلِيًّا ، ثم احتفر حفرة ، وقذفها فيها ، ثم أوقد ناراً ، وصنع منها عجلا جسداً له خُوار ، فأصبح فتنةً بين القوم ، أظهرت منهم الكافر ، وأبانت عَمَّنْ قوى إيمانه واستَيقن ، ومن ضعف إيمانه ونافق .

فُتِنَ بنو إسرائيل بهذا العجل وعبدوه ، فتقطعت نفس هارونَ أسًى وحزناً وقال لهم : (يا قوْمِ إنما فُتِنْتم بهِ وإنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمٰنُ فاتّبِعونى وَأطِيعُوا أمرى ، قالوا : لَنْ نَبْرَحَ عليهِ عاكِفِينَ حتى يَرْجِعَ إلينا مُوسى)[2] .

فأقام هارون مع البقيَّة الثابتين على وفائهم ، المتمسكين بإيمانهم ، وخشى أن يحارب الضالين الخارجين ، حذراً من التحزب ، وخوفاً من الفتنة والثورة .

استشعر موسى من ربه هذا الأمر ، إذ قال : ياموسى ، (إنا قد فتنّا قومك من بعدك وأضلّهُمُ السامرىُّ) . فلما أتمّ ميقات ربّه ، وسار نحو قومه ، وسمع على بُعْدٍ لغطاً وضجيجاً ، أدرك سِرَّ الأمر ، وحقيقة الحال ، حيثُ همْ حول العجل

---

(١) ليل بهيم : شديد الظلام .   (٢) سورة طه .

يرقصون ويطربون ، فتملكته نوبة من الغيظ والثورة ، فألقى ما بيده من الألواح ، ثم دَلَفَ[1] نحو هارون ، وأخذ برأسه يجرُّه إليه قائلا : ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألاّ تتبع طريقي فيهم ، فتردَّ شاردهم وتحارب مُفسدهم ، حتى تنطفىء هذه النار المتأجِّجة بالبغى والكفران ؟!

فتساقطت نفسُ هارون همًّا وحسرة ، وأقبل على أخيه يستَلينُه ويسترحمه ، ويهدِّىء حدة نفسه وثورة غضبه ، وقال : يابن أمَّ لاتأخذْ بلِحْيَتى ولابرأسى ، فإن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ، فلا تُشْمِتْ بى الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . لقد خشيتُ أيها الأخ الكريم إن حارَبْتُهمْ أن تقول فرَّقْتَ بَيْنَ بنى إسرائيل ولم ترقبْ قولى .

عند ذلك سكت عن موسى الغضب ، وأخذ يعالج حالهم بحسن الرأى والحزم فالتفت إلى منبع الفتنة ، ورأس البدعة ، وداعية الضلالة ، وقال : ما خطبكَ يا سامرىّ ؟ فقال السامرىّ : (بَصُرْتُ بما لم يُبْصِرُوا بهِ ، فَقَبَضْتُ قبْضَةَ من أثر الرَّسُولِ فنبَذْتُهَا ، وكذلِكَ سَوَّلت لى نَفْسى)[2] .

ثم أقبل موسى على قومه ، فقال : يا قوم ، ألم يَعِدْكُمْ ربكم وعداً حسناً ، أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يَحِلّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ؟ قالوا : ما أخلفنا مَوْعِدَكَ بمَلْكِنَا[3] ، ولكنا حُمِّلنا أوزاراً من زينة القوم ، فصَوَّرها لنا السامرىّ ، وأخرج لنا عجلا جسداً له خُوار ، فأضلنا عن الطريق المستقيم .

ثم ندمُوا على سَقْطتهم ، واستغفروا ربهم ، فقالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنكونَنّ من الخاسرين ، فقال لهم موسى : إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل

---

(١) دلف : قرب . (٢) سورة طه .
(٣) ملكنا : اختيارنا .

قالوا : فأيّ شيء نصنع ؟ فقال لهم : توبوا إلى بارئكم ، فسألوه أن يبينَ لهم طريق التوبة وسبيل المغفرة .

فقال موسى : عليكم بقتل أنفُسكم ، اكسِرُوا حدتها ، واكبتوا شهوتها ، وطهروها من الشر والإثم ، وجرِّدُوها عن كل مشتهى مرغوب ، وأقصوها عن كل مَرْجُوّ مطلوب ، حتى يَصغرَ شأن النفس الآثمة ، ويهونَ خَطبُهَا ، ويحقر أمرها ، فروّضُوا أرواحهم ، وهذبوا نفوسهم ، وأقبلوا على نبيهم ، فتابَ الله عليهم إنه هو التوابُ الرّحيم .

أما السامريُّ الذى أشاع تلك الضلالة المنكرة ، فإنّ الله عاقَبَهُ فى دنياه بأن أمر بنى إسرائيل ألا يخالطوه ، ولا يَقرَبوه ، فصار وحشيًّا ، لا يَألَفُ ، ولا يُؤلفُ ، ولا يدنو من الناس ، ولا يمسُّ أحداً منهم ، وإنّ له لموعداً لن يخلفه يوم القيامة ، يوم يساقُ إلى النار آثماً ، ليعذّب بما جنت يداه ، وبئسَ مصير الظالمين .

وأمّا عِجْلُه فقد أحرقه موسى وألقاهُ فى اليمّ ، وبذلك انجابَتْ غَيَابةُ هذه الجريمة الشنعاء .

التيـــه

لم يكن على عهد بنى إسرائيل قومٌ حباهم الله الخير ، وأفاض عليهم النعمة ، وآثرهم بالبركات مثل هؤلاء الأقوام ، نجّاهم الله من آل فرعون بعد أن ساموهم العذاب دهراً ! ثم عاد فأهلك فرعون على أيديهم ، وبين أسماعهم وأبصارهم ، ثم جعلهم بعد ذلك أحراراً ، بعد أن كانوا عبيداً أذلاء ، وجعل فيهم عدداً من الأنبياء يرشدونهم وقد كانوا ضُلّالا جهلاء ، وفجر لهم الصخر ، وأنزل عليهم المَنّ والسَّلْوَى ، وآتاهم مالم يؤتِ أحداً من العالمين .

وإتماماً لنعمة الله عليهم ، ورغبةً منه — سبحانه — فى الإحسان إليهم ، أوحى إلى موسى أن يقودهم إلى الأرض المقدسة من بلاد الشام ، وهى أرضُ الميعاد ، التى وَعَد الله إبراهيم الخليل أن يجعلها ملكا للصالحين من ذُرِّيته والقائمين على شريعته :

ولكن بنى إسرائيل كانوا — بما تَعَاوَرَ(١) عليهم من ظلم الفراعنة ، وترادف عليهم من جَوْر الحكام — قد جُدِعَتْ أنوفهم ، وَذَلّتْ جباههم على خُنوع وأعطوا القيادة على خُضوع ، حتى هان عليهم الهوان ، وحُبِّب إليهم الضعف والاستسلام .

من يَهُنْ يَسْهُل الهوانُ عليه ما لجُرْحٍ بميِّتٍ إيلامُ

فلم يكادوا يسمعون كلمة الغَزْوِ ، أو يكلّفون دخول «أريحاء» ليخرجوا منها الحيثّيين والكنعانيين ، ويتخذوها وطناً كثير الخيرات ، وافر البركات ، حتى قالوا لموسى — جُبناً وضعفاً ، واستخذاء واستسلاماً — : (إنّ فيها قوماً جبارين

---

(١) تعاور : تتابع .

وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حتى يَخْرُجُوا مِنْهَا ، فإن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُون)[١] .
وكأنهم طمعوا أنْ يخرج القوم منها بما ألِفوا من المعجزات ، وخوارق العادات ، ثم يدخلوا موفورين لم يُكلَمْ أحد منهم فى سبيل الله بكَلْمٍ[٢] ، ولم يُصَب بجرح ، شأن الضعيف العاجز والخائر الجبان !

ولكنَّ رجلين كانا ممَّنْ طبعهم الله على الإيمان ، وفطر نفوسهم على الطاعة والإذعان ، لم يَخطِيا فى حَبْل أقوَامهم[٣] ، ولم يجريا فى الحديث على غِرَارهم ؛ فتوجَّها إلى قومهم ناصحين ، وقاما فيهم مرشدين : (ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ البَابَ ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوه فَإِنكُمْ غَالِبُونَ ، وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين)[١] .
ولكنهم عادوا إلى حديثِ جُبْنهم ، وإعلان خوفهم ، وزادوا على ذلك القِحة والتمرّد ، والغباء والتبلد ، وقالوا لموسى قولا يُذهب صبر الحليم ، ويثير وَجِيع الجرح الأليم ، قالوا : (يَا مُوسى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أبداً ما دَامُوا فِيهَا ، فَاذْهَبْ أنتَ وربكَ فقاتلا إنَّا هَاهُنَا قَاعِدُون)[١] .

وعند ذلك تلفّتَ مُوسى فلم يجد مَنْ يثق بمعرفته ، ويعتمد على نصرته ، إلا أخاه هارون ، وهما وحيدان ، فى أضعف جند ، وأنكدِ أتباع ، وأمامهما عدوٌّ قوى المرَاس ، كثير الجنود ، فتوجه إلى الله قائلا : (رَبِّ إِنِّى لا أَمْلكُ إلا نفسى وأَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنَا وبين القَوْمِ الفَاسِقِين)[١] .

فأوحى اللهُ إليه : أن دَعْهم يتيهون فى هذه البيداء ، يضربُونَ فى مجاهلها ، ويخبطون فى نواحيها أربعين عاماً ، حتى يَفْنَى كبراؤهم ، ويهلك رؤساؤهم ، ويظهر بعدهم جيلٌ عزيزُ الجانب مَنيعُ الساحة ، وحينئذ يعودون إلى الغَزْوِ ، ويركبون مَتن الجهاد .

---

(١) الآيات من سورة المائدة .
(٢) الكلم : الجرح .
(٣) لم يشتركا فى رأيهم .

البقـــرة(*)

تقدم بالشيخ تتابعُ الأيام ، وأحسَّ بدنوِّ الأجل ، وكان عَبْداً صالحاً لا تفتنُه زخارفُ الحياة عن الثقة والرجاء فى الله ، ولم يُلْهِه التكاثر فى المال والبنين ، بل كان لا يملك سوى بقرة يأتى بها إلى الغَيْضَة(1) ، ثم يتوجه إلى بارئه بقلب خالص ، ونفس ثابتة ، فيقول : اللهم إنى استودعتكها لابنى حتى يكبر ، وما زال الرجل يترقرق فى صدره هـذا الأمل القوىّ بنور الله حتى مات وبقيت البقرة لليتيم ، وهى عرَضٌ من العرُوض لا تغنى شيئاً ، إلا أن رحمة الله أبقى وأعزّ .

واستمرَّ اليتيم يرعى البقرة ، يحدوه شُعَاع من الأمل ورثه من الصالحات الباقيات لأبيه .

وقد كان من وجوه بنى إسرائيل شَيْخ مُوسِر مدَّ الله فى أسباب دنياه ، وبسطَ له نعمة الغنى ، ورزقه ابناً وحيداً تنحدرُ إليه بعد موت أبيه كلُّ هذه الثروة الواسعة ، ولكن بنى عمومته نَفِسُوا(2) عليه هذا المال ؛ إذ لا يجدون من قليل ولا كثير ، فتألَّبُوا عليه فقتلوه ، ثم طالبوا قوماً آخرين بدمه ، فهبَّتْ عاصفة هوجاء ، وثارت ريح نَكْبَاء ، فلم يجد القوم ملجأ أمامهم إلا باب موسى عليه السلام ، يتحاكمون إليه ، ويلتمسون عنده إيضاح الخفاء .

سأل موسى ربه ؛ فأمرهم أن يذبحوا بقرة ، ويضربوه بلسانها فيحيا ، فيخبر بقاتله ، فضلّت أحلامهم(3) ، وعَزَبَت عن عقولهم قوةُ الله وقدرته ، وظنوا أن موسى يهزأ بهم ، ويسفّه أحلامهم ؛ فراجعوه ، فقال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين .

(*) سورة البقرة ٦٧ — ٧٣ .

(1) الأرض الخضراء .

(2) نفس عليه : حسده .

(3) عقولهم .

ولو أنهم ذبحوا أىّ بقرةٍ من يوم أن أمرهم رسولهم لكانت كافيةً ، ولكنهم تمادوا فى إلحافهم ولجاجهم ، فشدّد الله عليهم ، وجعل البقرة مسوّمة بعلامات خفى عليهم أمرها ، فتاهوا فى بيداء اللجاج .

ولقد كان هذا أمرا خارقا ، وحقيقة تقصُر عن صدقها عقولهم ، فسألوا ضالين : ما هذه البقرة ؟ أكما عهدنا هذا الجنس من الحيوان ، أم هى خلق آخر تفرّد بمزية ، واختص بإعجاز ؟ فأوضح الله سبيلهم ، وبيّنَ أنها بقرة لا مُسِنَّة ولا فتيَّة ، بل هى عوان[1] بين ذلك ، فليفعلوا ما يؤمرون .

ولكنهم — وهم من البشر — قالوا : ادع لنا ربك يُبَيِّن لنا ما لونها ؟ قال : إنه يقول : إنها بقرة صفراء فاقعٌ لونها ، تَسرُّ الناظرين ، فازدادت حَيْرَتهم ، وضلت عقولهم ، فلم تستطع أن تسموَ إلى هذا الإلهام الإلهى العجيب وكأنهم لم يَعُوا شيئاً ، فكرّرُوا سؤالهم الأوّلَ معتذرين بأن البقر تشابه عليهم وهم يرجون بمشيئة الله الهُدَى والرّشاد ، فأجيبوا بأنها بقرة غير مُعَدّةٍ لِسَقْىٍ ولا لحرث ، سلمت من العيوب ، ولا شيةَ فيها[2] .

فاهتدوا إليها بعد لأى عند ذلك اليتيم الذى بارك الله فى بقرته ، فاشتروها منه بمال وافر ، فذبحوها بعد حيرة طويلة ، وتردد كثير .

* * *

(١) عوان : وسط .

(٢) لا شية فيها: خالصة الصفرة .

موسى والخضر(*)

وقف موسى عليه السلام خطيباً فى بنى إسرائيل ، مذكرا لهم بأيام الله بعبارات تُثير الأسى وتبعث الشئون[1] ، ففاضت العيون ، ورقت القلوب .

ولما انتهى من قوله تعلق بأهدابه رجل ، وقال : أىْ رسولَ الله ، هل فى الأرض مَنْ هو أعْلَمُ منك ؟ قال : لا . ألَيْسَ هو كبير أنبياء بنى إسرائيل وقاهر فرعون ؟ أوليس هو صاحب اليد والعصا ، بعصاه انفلق البحر ؟ أليس الله قد شرّفه بالتّوْراة ، وكلمه جَهْرَة وعِياناً ، فأىُّ غاية أبعد من هذه الغاية ؟ وأى شرف أسمى من هذا الشرف ؟

ولكن الله أوحىَ إليه أن العلم أعظم من أن يحويَه رجل ، أو ينفرد به رسول ، وأن فى الأرض من خَصَّهُ الله بعلم أوْفر من علمه ، ونصيب من الإلهام أوفر من نصيبه ، قال : يا رب ، أين مكانه لَعَلِّى ألقاه ، فأصيب قَبَساً من علمه ، أو فيضاً من إلهامه ويقينه ؟ قال : تلقاه بمَجْمَع البحرين . قال : اجعل لى علما[2] يدلّنى عليه ، وآية ترشدنى إليه ، قال : آية ذلك أن تأخذ حوتاً فى مِكْتَل[3] ، فحيث فقدت الحوت فقد وجدت الرجل .

فأخذ موسى للأمر عُدَّته ، واصطحب فتاه ، وحمّله المِكْتل ، ووضع الحوت فيه كما أوحى إليه ربه ، وظل سائرا وقِبْلَتُه الرجل ، وأخذ على نفسه عهدا أنه سيظل مجدًّا فى السير ، مُمعناً فى الطلب ، حتى يبلغ هذا المكان ، ولو مضت عليه الأيام ، أو تعاقبت السنون ، ثم آذن الفتى أن يخبره إذا فقد الحوت .

(*) سورة الكهف ٦٠ — ٨٢ .
(١) الشئون : الدموع .
(٢) علماً : علامة .
(٣) مكتل : ما يعرف بـ « القطف » .

ولما بلغا مَجْمَع البحرين ، فى المكان الذى أراد الله أن يلتقى فيه نبىّ بنى إسرائيل بعبده الصالح ، أخذتْ موسى سِنَةٌ فنام ، وفى أثناء نومه هَضَبت[١] السماء ، فابْتَلّ الحوت وانتفض ، وسرت إليه الحياة ، ثم قفز إلى الماء .

واستيقظ موسى — عليه السلام — ونادى فتاهُ : هَيَّا نواصل السير والسُّرَى[٢] ، وأنسى الشيطانُ الفتى ما كان من أمر الحوت ، وتابعا السير إلى أن أدركهما الأيْنُ[٣] وأحسَّا الجوع ، فقال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نَصبا .

ولما هَمّ أن يأخذ الغداء من المِكْتل تذكَّر ما كان من أمر الحوت وذهابه فى الماء ، فقال : أرأيتَ إذْ أوَينا إلى الصخرة ، وحين غَشاك النعاس ، فإن الحوت قد اتخذ سبيله إلى الماء ، ونسيتُ أن أذكرك ، وما أنسانى إلا الشيطان .

وحينئذ لاَحَتْ لموسى شارةُ الظفر ، ووجد ريح الرجل ، فقال : ذلك ما كنا نبغيه ونَنْشُده ، هَيَّا بنا نعود إلى هذا المكان فإننا سنصيب الغاية ، ورجعا يَقُوفَان الأثر[٤] ويتعرفان الطريق .

ولما وصلا إلى حيث فقدا الحوت وجدا رجلا نحيل الجسم ، غائر العينين ، عليه دلائل من النبوة ، وفى وجهه فيضٌ من السماحة والتقوى ، قد سُجِّىَ بثوبه ، وجعل طَرَفه تحت رجليه ، وطَرَفه الآخر تحت رأسه ، فسلّم عليه موسى فكشف عن وجهه ، وقال : هل بأرضى من سلام؟ من أنت ؟ قال : أنا موسى! قال : موسى نبىُّ بنى إسرائيل ؟ قال : نعم ، ومن أعلمك بهذا ؟ قال : الذى بعثك إلىّ . فعلم موسى أنه ضالّتُه التى ينشدها ، وبُغْيَتُه التى جهد فى سبيلها ؛

---

(١) هضبت السماء : أمطرت .
(٢) السرى : السير ليلا .
(٣) الأين : التعب .
(٤) يقوفان الأثر : يتبعانه

فخاطف فى القول ، وتجمّل بأحسن ماوهبه الله من أدب الحديث وفضل التواضع
وقال : هل تأذن أيها العبد الصالح لرجل جاهد فى سبيل لقائك ، ولقىَ العناء
حتى أصاب موضعك ، أن تفيضَ عليه من علمك ، وأن تقبسه شيئاً من هديك،
على أن أتبعك ، وأسيرَ فى ظلّك ، وألتزم أمرك ونهيك ! ؟

قال له الخضر : إنّكَ لن تستطيع معى صبراً ، ولو أنك صحبتّنى فإنك سترى
ظواهر عجيبة وأموراً غريبة ، وسترى أموراً منكَرَة فى ظاهرها وإن كانت
حقاً فى باطنها ، ولكنك بما ركّب الله فى البشر من إلفِ القيل والقال والجنوح
إلى البحث والجدال ، سوف لا تسكت عن الاعتراض ، ولا تتـــورع عن
الامتعاض ، وكيف تصبر على ما يخرج عن مألوفك ، ويتجاوز معروفك ؟[١]
فقال له موسى ، وكان حريصاً على العلم ، توّاقاً إلى المعرفة : (ستَجِدُنى إنْ
شاءَ الله صابراً ولا أعْصِى لك أمْرا) .

قال الخضر : إن صَحِبْتَنى آخذُ عليك عهدا وشرطاً ، أن تأخذ عُدّتك
من الحزم والصبر ، ونصيبك من الجَلَد وضبط النفس ؛ فلا تَبْتَدِرْنى بسؤال ،
ولا تُثر أمامى أىّ اعتراض ، حتى ينقضى الشرط وتنتهى الرحلة ، وإنى بعدها
سآتى على ما فى نفسك ، وأشفى ما بصدرك .

فقبل موسى الشرط ، وقيد نفسه بذلك العهد ، وسارَا على الساحل ، حتى
لحا سفينة فى البحر ، فطلبا من أهلها حملهما إلى حيث يذهبون . ولما قرءوا
السماحة فى وجههما ، ورأوا بريق النبوّة يلمع فى عيونهما ، حملوهما من غير
نَوْل[٢] ، وبالَغُوا فى إكرامهما ، والحفاوة بهما .
وبينما هما فى السفينة ، وعلى حين غَفْلَةٍ من أهلها ، أخذ الخضر لوحَيْنِ من

---

(١) ما تعرفه . (٢) نول : أجرة .

خشب السفينة فخلعهما ، فهال موسى — وهو الرسول الكريم الذى أُرْسِلَ لهداية الناس وردّ عادية الظلم عنهم — أن يُقابل صنيعهم بالإساءة ، وجميلهم بالنكران ، وخشىَ أن يصيبهم غرَق أو هلاك ، فنسى عهده وشرطه ، وصاح أتعمِد إلى قوم أكرموا وفادتنا ، وأحسنوا لقاءنا ، فتخرق سفينتهم وتحاول إغراقهم ؟ ! (لقدْ جئت شيئاً إمْراً)[1] .

فالتفت الخضر إليه ، وما زاد على أن ذكّره بشرطه ، وما قدّره من قبل أنه سوف لا يصبر على سؤال ، ولا يسكت على مراء ، وقال : (ألمْ أقُلْ إنكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ معى صَبْراً) ؟ وحينئذ أدرك موسى ما وقع فيه من خطأ ، وما تورّط فيه من نسيان ؛ فاعتذر إليه واستغفره من نسيانه ، وقال . لا تؤاخذنى بما نَسِيت ، ولا تحرمنى من شرفَ الصحبة ، وفضل المرافقة ، وسأكون بعد الآن كما شرطت .

وغادرا السفينة ، وتابعا السير ، فوجدا غلاماً وضيئاً يلعب مع لِداته وأقرانه ، فأخذه الخضر بعيداً ثم أضجعه وقتله ! ففزع موسى من هذا القتل ، وكَبُرَ عنده ذلك الإثم ؛ اذ رأى غلاماً يافعاً ، قد يكون وحيد أهله ، ورجاء والديه ، يُقتَل فى غير قَوَد[2] ، ويُسفك دمه من غير اثم ، على يد ربّانىّ كريم ، وإمام من أئمة الدين ! فتحللَ من عهده ، وأطلق نفسه من ميثاقه ، وقال . ما هذا المنكر الذى تأتيه ، والإثمُ الذى ترتكبه ؟ (أقتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لقدْ جِئْت شيئاً نُكْراً)[3] .

فالتفت إليه الخضر ، ولم يزد على أن ذكّره بعهده ، وما كان من شرطه ،

---

(١) شيئاً إمراً : عظيماً .
(٢) قود : ثأر .
(٣) النكر : المنكر .

وما قدّره مما سيكون من سؤاله عما لا يعرف ، وامتعاضه مما لا يألف ، قائلا : (ألَمْ أقُلْ لك إنك لَنْ تستطيعَ مَعى صبراً) ؟ !

وهنا استحيا موسى ، وأدرك أنه قد أثقَلَ على هذا العبد الصالح ، وكان خليقاً به أن يُدَرع بالصبر ، وَيُمْسِك لسانه عن الجَدل ، حتى يُفْصِح له بَعدُ عما خَفِيَ من أمره ، وما تشابه عليه من علمه ، وخشيَ إن تمادى أن يقع منه على مَوْجدة أو كراهية ، فاتخذ لنفسه شرطاً : ألا يعجّل بسؤال بعد الآن ، وإلا فإن رفيقهُ فى حلّ من مفارقته ، وقَطْع صحبته ، وقال : (إنْ سَألتُكَ عن شئٍ بعدها فلا تُصاحِبنى قَدْ بلغت من لَدُنّى عُذْراً) .

وانطلقا على هذا الشرط حتى أدركهما الطَّوَى[1] ، ونال منهما النَّصَبُ والكلال ، وصادفا قرية فى طريقهما ، فدخلاها طمعاً فى زادٍ يعينهما على السير ، وَيُمْسِكهما على الجوع ، ولكنّ أهلها — بما كانوا عليه من لؤم النحيزة[2] وكزَازةِ النفس — أبَوْا أن يَضَيّفوهما ، وردوهما رَدًّا غير جميل ، فلم يجدا عندهما مأوى ولا طعاماً ، وخرجا جائعين ساخطين .

وقبل أن يجاوزا القرْية وجدا جداراً يتداعَى للسقوط ، فأقامه الخضر ، وأصلح من شأنه ، فقال موسى : عجباً ! أتجازِى هؤلاء القوم اللؤماء الذين أساءوا اللقاء ، بهذا الإحسان ؟ ! لو شئت لاتخذت على عملك هذا أجْراً نسدُّ به حاجتنا ونحفظ به على الحياة أنفسنا !

قال الخضر ، وقد آمن بأن موسى سوف لا يستطيع بعد الآن صبراً : (هذا فِراقُ بينى وبينك ، سأُنَبِّئُكَ بتأويلِ مالم تستطعْ عليه صَبراً) .

أمّا السفينة فكانت لمساكين يَعْملون فى البحْر ، فيصيبون منها رزقاً ،

---

(١) الطوى : الجوع .   (٢) النحيزة : الأصل .

يعينهم على الكسب ، ويقطعون به مفازة الحياة ، ولكن مَلِكاً ظالماً كان يتبع كل سفينة صالحة ، يأخذها من أهلها عَنْوَةً ، وَيَسْتَوْلِي عليها غَصْباً ؛ فأردت أن أعيبَها ، رفقاً بهم ورحمة لهم ، حتى إذا شهدها مَلِكُهُم تركها لعَيْبِها، فهذا عمل إن كان ظاهره الفسادُ ففي باطنه الرحمة ، وإن كُنْتَ قد حسبتَهُ نُكْراً فإنما هو حِفْظٌ للمساكين وإبقاء على حياة هؤلاء البائسين .

وأما الغلامُ فكان وَقَاحاً مُبَغَّضاً من الناس ، وكان أبَوَاه مؤمنين ، وبما فطر الله الآباء على حب الأبناء ، والدفاع عنهم بالحق وبالباطل ، خشيت أن يحملهما هذا على التعصب له والميل إلى طريقته ، فيتيها إلى الطغيان والكفر ؛ فقتلتهُ حفظاً لدينهما ، ورجاء من الله أن يرزقهما خيراً منه زكاةً وأقرب رُحْماً.

وأما الجدار فقد علمتُ من الله أن تحته كنزاً ليتيمين صغيرين ، تحدَّرا من رجل صالح كريم ؛ فأردت أن أحميَ هذا الجدار ، حتى يشتد أزرُهما ، وَيَقْوَى على الحياة أمرهما ؛ فيستخرجا كنزهما مالاً حلالاً طيباً لهما .

وما فعلتُ هذا بعلمي ولا برأيي ، ولكنه وَحْيٌ من الله وَهَدْيٌ منه : (ذَلِكَ تَأْوِيلُ مالم تَسْطِع[1] عَلَيْهِ صَبْراً) .

(١) تسطع : تستطع .

قارون [1]

كان من قوم موسى وعشيرته الأقربين ، يَمُتُّ إليه بسبب ، وتصل بينهما رَحِم ، وقد آتاه الله بسطةً في العيش ، وَسَعَةً في الرِّزق ، وكثرةً في الأموال، فاجتمعت له أسبابُ السعادة ، وفاز من الدنيا بنصيب لا يظفر به إلا قليل .

كان قارونُ ذا حَظٍّ عظيم ، فقد فاضت خزائنه بالأموال ، واكتظت صناديقه بها ، حتى ضاق الحَفَظَة ذَرْعاً بمفاتيحها ، وأثقلهم حملُها ، وناء العُصْبَةُ أُولو القوَّة بها .

وكان يعيشُ بين قومه عيشةَ البَذَخ والترف ، فكان يلبس الملابسَ الفاخرة ولا يخرج على قومه إلا في زينته ، ويسكُن القصور ، ويصطفي لنفسه الخدمَ ، ويستكْثِرُ من العبيد والحشم ، ويستمتع من الحياة بما يشبع نَهَمَهُ ، ويروى ظمأه ، ويريد أن يصلَ إلى الغاية في النعيم ، إن كانت للنعيم غاية .

والمالُ منذ الأزل ، زينةُ الدنيا وبهجتُها ، وأساسُ الحياة وقوامها ، ومن استَحْوَذ عليه طغى وتكَبَّر ، واغترَّ وتجبَّرَ ، وظن أن أحداً لن يقْدِرَ عليه ، وخُيِّل إليه أن الناس جميعاً من طينة غير طينته ، أو أنهم ما خُلِقوا إلا مُسَخَّرين له ، فإذا تكلم طأطؤا رءوسهم عند سماع صوته ، وإذا أشار كانوا عند إشارته وإذا نادى استبقوا لتلبية ندائه ، وكانوا خلصاءله ، أو يجب أن يكونوا كذلك وإلا فالويلُ لمن تُحَدِّثه نفسه بالعصيان ، والحرمانُ لمن يقعُد عن نُصْرَته ، أو يتوانى عن تحقيق أمانيه .

---

(١) سورة القصص ٧٦ – ٨٣ .

لن يكون قارون بِدْعاً في الحياة ، وإنما هو كغيره من الناس ، يسير سيرتهم ويترسم طريقهم ، فبغى على قومه ، وفرض سلطانه عليهم ، وسامهم بطشه وجبروته .

وليتَ هؤلاء الأغنياء يخففون من غُلَوائهم ، ويعرفون الحياة على وجهها الصحيح ، ويتبيّنون منها الطريق الواضح ، إذاً لعرفوا أن المال وحده لا يُخضعُ الرقابَ ، ولا يستذلُّ العِباد ، وإنما الناسُ عبيدُ الإحسان ، يستطيعون أن يجعلوهم طوعَ بنانهم إذا أفاضوا عليهم من خيرهم ، وأطعموهم شيئاً من طعامهم .

لعلّهم بذلك يستميلون القلوب ، ويدفعون الكثيرَ من الشرّ ، ويجلبون لأنفسهم الخير ، ويجمعون الناسَ على محبّتهم ، والالتفاف حولهم ، ولعلهم بذلك أيضاً يدركون رضا الله ، فيكافئهم بثوابه ، ويجزيهم بجنته ، فينالوا الحسْنَيَيْنِ : حسن الأحدوثةِ في الدنيا ، وحسن الجزاء في الآخرة .

ولكنها القلوب يعميها المال ، والبصائرُ يذهب بها الزهوُ والغرور ، فلا ترى إلا جماعات المرائين ، ولا تسمعُ إلا كلمات المنافقين ، ولا تحسّ نقمةَ المحروم ، ولا لوعة المظلوم .

* * *

رأى القوم أن قارونَ سادِرٌ(١) في طغيانه وَبغْيِه ، لا همَّ له إلا أن يستكثر من المال وإنْ تضوَّر غيره جوعاً ، وأنْ يكتسي من اللباس ما يَزِينُ به وإنْ رأى العُرْيَ فاشياً ، هذا مع غرور واستئثار ، وبَطَرٍ(٢) واستكبار .

---

(١) سادر : مستمر .　　　(٢) البطر : كفران النعمة .

لمَّا رأوا منهُ ذلك نقموا عليه طريقه ، وحاولوا أن يُثيرُوا فيه روح الخير ، وأن ينبِّهوهُ على ما غاب عنه ، ونصحوهُ ألا يُغويه المالُ أو يُضِلّه ، أو يحول بينه وبين الإحسان إلى قومه ، وإقالةِ عثْرَةِ المحتاجين ، ومسح دموع البائسين ، فبذلك يكسبُ الحمدَ في الدنيا ، وينالُ الثوابَ في الآخرة ، وهذا خيرٌ من المال وأبقى .

وقالوا : إنا لا نريد أن تنفضَ يدك من الدنيا وزينتها ، وتتجافى عن مَبَاهجها وتنأى بنفسك عن الاستمتاع بها ، فذلك مالا نريده ونأباهُ ، وإنما نرى لك رأياً فيه خيرٌ لنا ولك ، هو أنك تقصد إلى الطيب من الرزق ، والحلالِ من المتاع ، فارشف من مَنْهَله ، وخُذ فيه كما تشاء .

على أن لا يشغلك ذلك عن الفقراء ، ولا ينْسيك المحتاجين ، فأحْسِنْ إليهم كما أحسن الله إليك ، ليحفظَ عليك نعمتك ، ويزيد في مالك ، ويُضْفي عليك خيره وبركته .

على أن المالَ ظِلٌ زائل ، وَوَدِيعةٌ مستردَّةٌ ، فلا تفرح بما أُوتيت ، ولا تغترّ به ، واتخذه وسيلةً لقضاء مَآربك في الدُّنيا ، وسبيلاً إلى سعادتك في الآخرة ، وما حَملنا على إسداء النُّصْح إليك إلاّ حُبُّنا لك ، ورَغبتُنَا أن يُبقى الله فضله سابغاً عليك ، وخوفُنَا أن يَسْلبَ الله مالك ، أو يحرمك جَنّتَه .

وأنى للطاغية أن تتفتَّح آذانه للنصيحة تُلقى إليه ؟ ! ومَنْ للمستكبر ينال النصح من نفسه ويَمَسّ شغَاف قلبه ؟ ؟

إن قارونَ قد أُشْرِب قلبه حبّ المال ، وزاده الغنى عُلُوًّا واستكْباراً ، فليس لمثل هذا الكلام سبيل إلى نفسه .. فمن هؤلاء الذين يشيرون عليه فيأتمر ؟ ! وتتطاولُ أعناقهم إلى نُصْحه فينتصح ؟ !

إنهم لا شك قد استباحُوا حماه ، ووضعوا أصابعهم فيما لا يعنيهم من أمره بل إن هذا من أموره الخاصة ! !

لذلك كان جافياً في رَدِّه إذ قال : لستُ بحاجة إلى نصحكم ، فأنا أرجحكم عقلاً ، وَأسَدُّكم رأياً ، وما أوتيتُ هذا المال إلا لأنى به أجْدَرُ وأحقّ ؛ فاحتفظوا بهذه النصيحة لأنفسكم ، وقَوِّموا بها أموركم ، أما أنا فخير منكم مقاماً وأكثر عِرفاناً .

وأراد أن يزيد فى إيلامهم ، فخرج على قومه فى زينته ، يُدِلُّ بما أعطاهُ الله من خير وفير ، ومال كثير .

ورآه المستضعفون من قومه يَرْفل فى الثياب الجميلة ، ويركب المراكب المطَهَّمَة ، وحوله الخدم يَحُفُّونَ به ، فأحدقت به العيونُ ، واستشرفَ الناسُ لرؤيته ، وحزّ فى نفوسهم أن يَرَوْهُ فى هذا النعيم ، وهم فى ضنك وبُؤْس مُقيم وتحدَّثَ بعضهم إلى بعض يقولونَ : يا ليتَ لنا مثلَ ما أوتىَ قارون ، إنه لذو حظ عظيم .

ولما كانت النصيحةُ مع مثله لا تُجْدِى ، والنَّسَب لا يكفى عنده سبباً لعطف القلوب ، ومنظرُ البؤس لا يستميلُ النفوس ، والفقر لا يستجيب إلى دعائه مجيب ، فليسلّ سيف القانون لينفذَ إلى تلك الحجب الكثيفة ، فيهتك ظلماتِها ، ويزيل ما تراكم عليها ، فتنبعث للخير ، وتميل للإحسان .

ليعلنْ إليه موسى فى شدة وإصرار أن يؤدِّى زكاةَ ماله ، وأن يحْسِن إلى الفقراء ، ففى ماله حقٌّ معلوم للسَّائل والمحروم .

ولكن قارونَ قد طبَع اللهُ على قلبه ، وَرَانَ[١] عليه شُحُّه ، فلم يُصْغِ إلى

---

(١) ران : ثبت وغطى .

دعوة موسى ، بل هزئ به وسخر ، ورمّاه بالبُهتان ، وردّ حديثه فى عنف وسخرية ، فقال: قد احتملنا منك ما احتملنا ، فقد جئتنا بدين جديد ، فجاريناك فيه ، وأمرتنا بكذا وكذا فاستمعنا لأمرك ، فأطمعك ذلك فينا ، وجرّأك علينا ، فلم يبق إلا المالُ تسلبه ، والثروة تريد أن تستحوذَ عليها ، لقد أسلمنا لك القلوبَ وأخضعنا لك الرقاب ، ولكن هيهات أن نسلم لك من القلب سُوَيدائه، ومن الطرف سَوَاده ، إنك بهذا قد دلّتَ على كذبك ، وكشفتَ ما حاولت ستره من أمرك ، إنك لساحر كذاب ! !

وحاوَر قارون وداوَرَ ، وأصرّ موسى وقاوم ، فهذا أمرُ الله لا يحتملُ الجدل ولا المساوَمَة ، وخضع قارون بعد لأيٍ وعلى مضض !

ورجع إلى بيته يحسب ما ينالُ الفقراء من ماله ، فهاله ما وجد ، وأفزعه ما رأى ، فرجع إليه داؤه ، وتملكه شحه ، وأراد أن يمسك المال حتى لا يرى نفوساً بائسة يدخل إليها النعيم والسرور ، واحتال للأمر فأذاع ذائعة السوء ، فقال : إن موسى إنما يلبس ثوب الرياء ، ليكون له من ذلك عرَضُ الدنيا وزينة الحياة ، ولو فتشنا عن مكنُون سِرّه ، وما يختلج فى ضميره لوجدناه أبعد الناس من الدين وأقصاهم عن الله .

وحاول بالمال أن يَفتن الناس[١] ويصرفهم عن موسى ، ويزلزل عقيدتَهم ، ولكن الله كشف ما أضمر ، وأظهر ما أخفى ، وخرج موسى من هذه التجربة أصفى نفساً ، وأعلى مقاماً .

---

(٤) تذكر كتب التاريخ والتفسير أنه أغرى امرأة لتنسب إلى موسى الفاحشة ، وفعلت ، ولكنها اعترفت أخيراً أمام حفل جامع بأن قارون هو الذى دفعها إلى ذلك وأن موسى برىء مما رمته به .

ولما يئس موسى من صلاحه دعا الله أن يُنزل به عذابه ، ويُخلص الناس من فتنته وإغوائه .

فاستجاب الله لدعائه ، وخسف به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة يُنصرُونه مِنْ دُونِ اللهِ وما كانَ مِنَ المُنتَصرِين .

وابتلعته الأرض ، وساخت فيها أمواله وقصوره ، فكان عِبْرَةً لقوم موسى والمستضعفين من أتباعه ، ولما رأى القوم ما حلّ بقارون رجعوا إلى أنفسهم نادمين على ما كان منهم ، وحمدوا الله على أنهم لم يكونوا مثله ، وقالوا : (لولاَ أَنْ مَنَّ اللهُ علينا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الكافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا للذينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا في الأرضِ وَلاَ فَسَاداً وَالعَاقِبَةُ لِلمُتَّقِين)[1] .

---

(١) سورة القصص .

طالوت (*)

كان التابوتُ نعمةً من نِعَم الله على بنى إسرائيل – ونعمُهُ كانت عليهم سابغةً وآلاؤه متلاحقة – وكان لهذا التابوت عندهم شأنٌ عجيب ، ونبأ ظريف ، كانوا إذا اشتبكوا مع أعدائهم فى قتال ، أو التقَوْا بهم فى ساحة نِزَال ، يحملونه بين أيديهم ، ويقدِّمونه فى صفوفهم ، فينشُر فى قلوبهم سكينةً واطمئناناً ويبعثُ فى أعدائهم هَلَعاً ورعباً ، لسِرّ عجيب فيه ، ومزايا خصه الله بها .

ولكنهم لما انحرفوا عن شريعتهم ، وغيروا ما بأنفسهم ، سلَّطَ الله عليهم الفلسطينيين فغلبوهم على أمرهم ، وأخرجوهم من ديارهم ، وحالوا بينهم وبين أبنائهم ، وأخيراً أخذوا التابوت منهم ، فانفصمت عُرْوَتهم ، وتصدَّعَت وحدتهم ، ثم استكانوا إلى ذُلّ ، وأغمضوا جُفونهم على هَوَان .

وظلوا على ذلك حِقْبَةً من الدهر ، حتى كان نَبِيُّهم صمويلُ ، ففزع إليه نفر منهم أرادوا أن يتجافَوْا بنفوسهم عن مَطارح الهوان ، وينزعوا بها عن معرَّة الامتهان ، وطلبوا إليه أن يختار لهم ملكا يتألّفُونَ تحت رايته ، ويجمعون أمرهم تحت زعامته ، لعلهم به يغلبون العدوّ ، ويكتب الله لهم النصر .

فقال لهم — وقد كان سَبَرَ أحوالهم ، وعجَمَ عيدانهم ، وعرفَ موضع الضعفِ فيهم — : إنى أتوقع تخاذُلَكُمْ إذا كُتب عليكم القتال ، وتواكلكم حينما يدعوكم داعِي الجهاد .

قالوا : كيف نَتَخاذل ونتواكل ، وقد أُخْرِجْنا من ديارنا ، وحِيلَ بيننا

(*) سورة البقرة ٢٤٦ – ٢٥١ . (١) اختبر وعرف .

وبين أبنائِنا ؟! وأىّ حالٍ أسوَأُ مما نحن فيه ؟! وأىّ ذلّ أشدُّ مما ابتُلينا به ؟!

قال صمويل: دَعُونى أستخير الله فى أمركم ، وأستوحِيه فى شأنكم .

واستخار الله فيمن يصلح لِمُلكهم ، ويقوم على قيادتهم ، فأوحى الله إليه: إنى قد اخترتُ عليهم طالوتَ ملكاً . قال صمويل : يا ربِّ ؛ إن طالوت رجل لم أعرفهُ بعدُ ، ولم أره من قبل ؛ فأوحَى إليه : إنى مرْسِله إليك ، وسوف لا ترى عسراً فى لقائه ، ولا جُهْداً فى تعرّف ملامحه ، فوَلِّه المُلكَ ، وسَلِّمه رايةَ الجهاد .

* * *

وكان طالوتُ رجُلا بادناً[١] فارعاً[٢] ، وافىَ التّقْطيع[٣] ، شديدَ الأسْرِ[٤] ، له عينان يلمح الناظر إليه أن وراءهما قلباً ذكياً ، وَجَناناً فتيّاً ، ولكنه لم يكُ رجلا بعيدَ الصيت ، أو معروفَ الذكر ، كانَ يقيم مع أبيه فى قرية من قرى الوادى ، يرعى له الماشية ، ويُفلحُ الأرض ، ويُصْلح الزرع .

وفيما هو فى شأنه فى الحقل مع أبيه ، ضلّتْ منها الأُتُن[٥] ، فخرج مع غلامه ينشدانها فى شِعاب[٦] الوادى ، وبين أوْدِية الجبال ، وظلا أياماً يُغذّان[٧] السّير بين غَوْر الأرض ونجْدِها[٨] ، حتى وَرِمَت منهما الأقدام ، وأكلّهما السُّرَى .

(١) البادن : الجسيم . (٢) الفارع : الطويل المرتفع .
(٣) وافى التقطيع ، ضخم القد والقامة . (٤) شديد الأسر : قوى البنية .
(٥) الأتن : جمع أتانة ، وهى الأنثى من الحمير .
(٦) الشعبة : ما انشعب من الوادى وعدل عنه إلى غيره ، وجمعه شعاب .
(٧) يسرعان .
(٨) الغور : ما انخفض من الأرض . والنجد : ما ارتفع منها .

فقال طالوتُ لغلامه : هَيَّا بنا نعود أدْرَاجنا ، فإنى أَحْزِر[1] أنَّ أبى قد كثرت بلابلهُ ، وتشعبَت هواجسه ، وأخشى أن يَشْتغل بنا عن الأُتُن .

قال الغلام : إنا الآن قد وصلنا إلى أرض «صوف» موطن صمويل ، وهو - فيما أَعْلَمُ - نبىٌّ يأتيه الوحى ، وتهبط عليه الملائكة ، هَلُمَّ إليه نستوضحه شأنَ الأُتن لعلنا نَسْتضىء برأيه ، أو نهتدى بوحيه ، فارتاح طالوت لهذا الخاطر ، وتجدّد عنده الأمل ، وشامَ[2] بارقَ النجاح .

والتقيا فى طريقهما إلى صمويل فتياتٍ خرجْنَ يستقين الماء ، فطلبا إليهن أن يرشدنهما إلى صمويل نبىّ الله الكريم ، أين يقيم ؟ وكيف يلقيانه ؟ فقلنَ لهما : إن الشّعب ينتظره فوق هذا الجبل ، وهو يوشك الآن أن يجىء ، وبينما هما فى الحديث معهن إذ طلع عليهما صمويل يفوح منه أرَجُ[3] النبُوَّة ، وتحدّث معارِفه[4] عن نبىّ كريم ورسول أمين ، والتقَتْ عيناً طالوت بصمويل ، فتعارفت أرواحهما ، واتصلت نفوسهما ، ووقع فى قلبِ صمويل أن هذا طالوت الذى أوْحَى اللهُ إليه بتمليكه ، وآذنه[5] بأنه يحمل أعباء الزعامة والسلطان .

قال طالوت : إننى جئتك يا نبىّ الله مستوضحاً مسترشداً ، إنّ لأبى أتُناً ضلّتْ فى شِعَاب هذا الوادى ، وقد خرجتُ فى إثرها مع هذا الغلام نتعرّفُ الطريقَ وَنَقْفُو[6] الأثر ، فما ظفرنا بعد ثلاث إلاّ بالخيبة ، وما عدنا إلا بكَوَاذِب الآمال ، وقد جئناكَ لعلّ فيضاً من علمك يهدينا إليها ، أو يدلنا عليها !

قال صمويل : أما الأُتُن فهى فى طريقها إلى أبيك ، فلا تربِط قلبك بها ،

---

(١) أحذر : أقدر .
(٢) شام : عرف .
(٣) أرج : رائحة .
(٤) المعارف : ما يظهر من الوجه .
(٥) آذنه : أعلمه .
(٦) قفا الأثر وقافه : تبعه .

ولا تعلق حبال ذهنك فيها ، ولكننى أدعوك لأمر أجلّ خطراً ، وأعظم مقداراً ، إن الله قد اختارك على بنى إسرائيل ملكا ، تجمع كلمتهم ، وتحزم أمورَهم ، وتخلِّصُهم من أعدائهم ، وسيكتب الله لك — إن شاء — النصر ، ولأعدائك الكَبْتَ والخذلان .

قال له طالوت : ما أنا والمُلك والرياسة ، والزعامة والسلطان ! ؟ أنا من أبناء بنيامين أخمل الأسباط ذكراً ، وأقلهم مالا ، فكيف أصير إلى الملك ، أو أمسك بحبال السلطان ؟ !

قال صمويل : إن هذه إرادةُ اللهِ وَوَحْيُه ، وأمْرُه وكلمته ؛ فاشكر له هذه النعمة ، وأجمع رَأْيك عَلَى الجهاد .

وَأمسكَ طالوتَ من يده ، وَوَقف به على القوم يقول : إن الله قد بعث لكم طالوت هذا ملكا له حقُّ الرياسة والسلطان ، وعليكم الطاعة والإذعان ؛ فأجمعوا أموركم ، واستَعِدُّوا للقاء عدوكم .

ولكن ما كان أشدّ ذهولهم ، عندما أخبرهم صمويل أن المُلك فيهم سيصير إلى طالوت ، وهو مَنْ رَأَوْه خمولَ ذِكْر ، وقلةَ مال ، وسوء حال ، ثم نظر بعضهم إلى بعض ، ولَوَوْا أخادِعَهم[1] ، وزمُّوا بأنوفهم ، وقالوا : كيف يكونُ له المُلكُ علينا ، وهو فى النسب غير عريق ، وفى المحتد غير كريم ؟ لا هُوَ من أبناء لاوى[2] فرع النبوة وسَرْحَة[3] الرسالة ، ولا هو من غصن يهوذا معدن

---

(١) الأخدع : عرق فى المحجمين ، وهو شعبة من الوريد .

(٢) كان الأنبياء فى بنى إسرائيل من « لاوى » والملوك من « يهوذا » اختصا بهذا من سائر الأسباط .

(٣) السرحة فى الأصل : الشجرة العظيمة .

الملك وأصحاب الرياسة ؟ ثم كيف تولّى علينا رجلا فقيراً ، فارغ اليد ، لا يجد مالاً يُدَبِّرُ به الملك ، أو يحفظ به حَوزة السلطان ، وما منا إلا صاحبُ ثروة وجاه ، وذو سطوة ونفوذاً !

قال صمويل :

إن زعامةَ الجيش ورياسة الملكِ لا يحتاجان إلى نسب أو نَشَب ، وما يُجْدِى النسب لقَدْم[1] أَخْرقَ ، لا يعرف من تصريف الأمور شيئاً ؟ ! وما غَناء المال لمتخاف الذهن ، سقيم الفهم ، لا يملك فى سياسة الجيوش حَوْلا ولا طَوْلا ؟ ! ولكن هذا طالوت ، فضّله الله عليكم ، لما فيه من الكفاية والقدرة ، وما رزقه من مواهِب الزعامة والرياسة ، وأنتم ترونه رجلا بسط الله فى جسمه ، وَسَوّى فى خَلْقه ، صُلْب العضَل ، متين العَصَب ، عريضَ الألواح ، وذلك أَجْلَبُ للمهابة ، وَأنسبُ للرياسة .

ألاَ ترون لو أن الله مَلّكَ عليكم رجلا قميئاً[2] ، مُنسرِقُ[3] القوة ، مُنْحَل العزيمة ، فإنه لا بُدَّ أن تقتحمَه عيونكم ، وتزدَريه جنودكم ، ثم إنّ الله رزقهُ استعداداً فطرياً ، وميلا للحروبِ غريزيًّا ، وأحْكَم من عقله ، وَأرْهَفَ ذِهْنَه ، حُوّلٌ قُلّبٌ ، رَحْب الذراع ، طويلُ الباع ، بصير بالحروب ، خبير بمواطن الكفاح .

وفوق ما منحه الله من الصفات المحمُودة فإنه قد اختاره لكم وملّكهُ عليكم وهو أعْلَمَ بالمصالح وَأعرَفُ بالعواقب ، ثم هو ـ جل شأنه ـ مالكُ الملكِ ، يؤتيه من يشاء ، ويَصْرِفه عمن يشاء .

---

(١) القدم : الغبى .
(٢) القمىء : الصغير الذليل .
(٣) منسرق القوة : ضعيف .

وما كان يليقُ بكم – وقد اختار الله لكم – أن تكون لكم الخِيَرَة من أمرِكم ، أو النُّفرَة من جانبكم .

قالوا : أمَّا إذا قضى الله بشيء ، أو صدر عنه أمرٌ أو نهى، فلا مُعَقِّبَ لحكمه ، ولا مَعْدِل عن أمره ، ولكن هات لنا آية نعرف بها أمْرَهُ ، ونعلم قضاءه .

قال : إن الله قد علم لجاجكم وعنادكم ، وقيلَكم وقالكم ، فجعل لكم علامة وآية ، أن تخرجُوا إلى ظاهر المدينة فتروا التَّابوتَ[1] – الذى ذَلَلتم بعد ذهابه ولقيتم الخسْفَ والهوانَ بَعْدَ ضياعِه – قادماً إليكم ، وفيهِ سَكينة لكم ، تحمِلهُ الملائكة ، وفى ذلك آية لكم إن كنتم مؤمنين .

وخرجُوا كما واعدهم ، فوجدوا التابوت ، ونزلت عليهم السكينة ، وصحَّتْ عِنْدَهم العلامة ، فبايَعوا طالوت ، وَأقَرُّوا له بالملك والسلطان .

* * *

واضطلع طالوتُ بالملك ، وأحسن قيادة الجنود ، وأظهر حَزْماً وعَزْماً ، وفطنَة وذَكاء . قال : يا قوم ، لا ينتظِمنَّ فى جيشى إلا من كان خالياً من الهواجس ، فارغاً من الصوارف ، فلا يدخل من كان قد شرع فى بناء لم يُتِمَّهُ ، أو خطبَ عروساً لم يَبْنِ[2] بها ، أو له تجارة وعقله مشغولٌ بها .

وتمَّ له ما أراد ، واستوى أمامَه جيش متلاحم النسج ، قوى القلب ، قوى

---

(١) التابوت : الصندوق الذى يحرز فيه المتاع ، وقيل : لم تختلف لغة قريش والأنصار فى شىء من القرآن إلا فى التابوت ، فلغة قريش بالتاء ، ولغة الأنصار بالهاء .
(٢) لم يبن بها : لم يدخل بها .

الجناحين ، ولكنه أراد أن يتحوَّط لنفسه ، بعد ما بدا له منهم الشكُّ في أمره ، والجدَل حول تمليكه ، فأراد أن يختبرهم مخافة أن يخذُلوه ساعةَ اشتباك القنا[١] وخَفْق البُنُود[٢] ، أو يفروا حين الزحف وتقابل الأقران ، فقال : إنكم ستبلغون نهراً ، فمن كان صابراً محتسباً ، فلا ينهلُ إلا بمقدار ما يبرد كبده ، ويبُلُّ ريقه ، هذا الذي أحسبه مني ، وتسكُن إليه نفسي ، أما من نهلَ وعلَّ[٣] فقد جاوز الأمر وركب مَتن الخلاف[٤] .

وكان ما خافه طالوت ، فقد شربوا منه إلا قليلا منهم ، هم الصابرون المؤمنون ، المخلصون ، المجاهِدُون ، وأصبح الجَيش أوزاعاً من ضعفاء العزيمة وخائريها ، ومن صادق النية وكاذبيها ، ولكنَّه ادَّرَع بالمخلصين ، وصابَرَ المترددين ، وخرج بالجمع يلقى العدو ، ويجاهد في الله .

ولما خرجوا إلى الساحة واستشرفوا للقتال ، لحوا من أعدائهم رجالا أشداء ما فيهم إلا ابنُ كريهة[٥] وخوَّاض غمرات ، يفضلونهم أُهْبَة ، ويفوقونهم عدَّة وجالوت بُهمَتُهم[٦] ، وكبش كتيبتهم[٧] يصول بينهم ويجول .

وانقسم أصحاب طالوت شُعْبَتين : شعبة منهم خار عُودهم ، وانخلع فؤادهم ، وتخاذلت قوتهم وقالوا : (لاطاقةَ لنَا اليومَ بجَالُوتَ وَجُنُودِهِ) . وشعبة منهم

---

(١) القنا : الرماح . (٢) البنود : الأعلام .

(٣) النهل : الشربة الأولى ، والعلل : الشربة الثانية .

(٤) لعل الحكمة في ذلك أنه خشي لو أباح لهم الهجوم على النهر بعد عطش شديد وقع أكثرهم في النهر وأفرطوا في الشرب فخارت قواهم ، وجبنوا عن لقاء عدوهم .

(٥) الكريهة : الحرب .

(٦) البهمة : الشجاع الذي يستبهم على أقرانه مأتاه .

(٧) كبش الكتيبة : قائد الجيش .

ظلت صابرة صامدة ، هم الذين عمرَ قلبهم الإيمان ، وَأشربوا فى قلوبهم حبّ الله واستعدُّوا الموت ، ولم تزعجهم كثرة أعدائهم ، ولم تردعْهُم قلة عددهم ، بل قالوا لطالوت : امض لشأنك ، وسِرْ فى سبيلك ، وإنا إن شاء الله لا نُخْذَل من قِلَّةٍ ، ولا نغلب على أمرنا من ضعف ، و (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَليلةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بإذْنِ اللهِ وَاللهُ معَ الصابرينَ) .

وخرجوا وَعَتَادُهم الصبر ، وزادُهم الإيمان ، وتوَجَّهوا إلى الله ، طالبين منه أن يُفرغ عليهم صبراً ، ويُسْبِغ عليهم نصراً ، فإنهم ما خرجوا إلا جهاداً فى سبيله وابتغاء لمرضاته .

ولما التقى الجمعان ، وَحَمِيَ الوَطيس[1] برز جالوتُ يدعو للمناجزة والمبارزة ، فخاف الباقون بطشه ، وهابوا صَوْلته ، وَوَقفوا حوله بين متقاعِس ومُحْجِم ، أو منخذل ومتراجع .

* * *

كان يقيم فى بيت لحم[2] رجل تقدَّمَت به السنون ، وأحنت صَمَدَته[3] الأيام ، يعيش سعيداً فى نفسه ، آمناً فى سِرْبه ، وَادِعاً مع بنيه .

ولما وَقعت الحرب ، واسْتَنْفَرَ طالوتُ بنى إسرائيل للجهاد ، انتخب ذلك الرجل من كبار أبنائه ، وقال : خذو عُدَّتكم وسلاحكم ، وظاهروا إخوانكم وَأدُّوا فى الجهاد نصيبكم . . ثم قال لأصغر أبنائه : أمَّا أنتَ فنصيبك فى الجهادِ أن تحمل الطعامَ لإخوتك ، وأن تكون سفيراً بينى وبينهم ، وَتُنْفِر لى كل

(١) حمى الوطيس : اشتد الحرب ، والوطيس فى الأصل : التنور .

(٢) بيت لحم : بلد قريب من بيت المقدس ، وفيه ولد عيسى عليه السلام .

(٣) الصمدة فى الأصل : القنا المستوية تنبت كذلك ، والمراد بها هنا القامة .

يوم عن أحوالهم ، أمّا ساحة الحرب فحذَار أن تقرَبها ، أو تخوض غمارها ، أو تصلَى بنارها ، فإنك لست من رجالها ولا فتيانها ، ودعْها لمن زَبَنَهَا[1] وَزَبَنَتْه ، وعرفها وعرفته .

كان ذلك الغلام داود عليه السلام ، وكان مع حداثة سنه ، ولدونة عودِه وَضيء الطلعة ، أبلغ الغرَّة ، متسعِّر الذكاء ، متوقد مابين الجوانح .

سار مع إخوته ، وما وصل إلى ساحة القتال حتى وجد رجلا راعه أنه عملاق طاغية يتحدّى ، ولكنّ الأقران تتحاماه ، والشجعان تخشاهُ ، فسأل عن هذا الذى يقف متحدِّياً متغطرساً ؟ ! وما بال هؤلاء القوم يَنكصون ويتراجعون ؟ فقيل له : هذا جالوت رئيس الأعداء وزعيمُهم ، وما برزَ إليه شخصٌ إلا رَدَّهُ جريحاً ، أو أرْدَاه قتيلا ، والقلوب قد هَلِعت لهيبته ، واضطربت من بأسه وشدته ، وقد جعل طالوت جزاءً لمن يقتُله ويقى المؤمنين كيده وشره ، أن يزوجه إحدى بناته ، ويولِّيه المُلك من بعده ، فثارت الحفيظة فى نفس داود ، وهاجت الحمية فى قلبه ، وكبر عليه أن يرى عملاقاً كافراً يتحدّى ويصول ويجول ويذهب ويجىء ، ولا يلقى إلا رِعْدِيداً ، مخلوع الفؤاد .

خفّ إلى طالوت ، وطلب إليه أن يأذن له فى منازلة جالوت ، لعل مصرعه يكون بيديه . فاستصغر طالوت شأنه ، وخشىَ أن يخرج هذا الحدث للقائه ، فتناله ضربة تَطِيح بها رَأْسه ، وتذهَبُ فيها نفسه ، وهو لا يزال فتى أغرّ فى مَيْعَةِ الحداثة ، وَرَبيع الأيام ، وطلب إليه أن يترك الأمر لمن عساهُ أن يكونَ أكْبَرَ سناً ، وأقوى جسماً ، وَأَمْضى عزماً ، وأجْمع قلباً .

قال داود : لا يخدَعَنّك ما تَراهُ من صغر سنى ، وَقَمَاءَةِ[2] جسمى ، عن

---

(١) الزبن : الدفع .

(٢) صغر حجمه .

حرارة الإيمان التى تجيش فى صدرى ، ونار الحنق التى تلتهب فى قلبى ، ولقد هجم بالأمس القريب أسدٌ على غنم لأبى فعدوت وراءه حتى أصبته فقتلته ، وصادفنى مرة دبٌّ فاتك فنازلته ثم أرديته ، والعبرة بقوة النفس لا بكبر السن ، وبمضاء العزم لا بضخامة الجسم .

ورأى طالوت الصدقَ فى لهجته ، والحزم والعزم فى نيته ، فقال له : دونكَ وما تريد ، والله كالئُكَ وحافظك ، وهاديك ومبصّرك ، ثم ألبسه ثيابه ، وقلده سيفه ، وتوّجه خُوذة[1] فوق رأسه ، ولكن داود لم يكن قد لبس الدرع ، ولاعالج السيف ، فنَاء بما حَمل ، وثقل عليه ما اشتمل ، فخلع كلّ ذلك ، واحتمل عصاهُ ، واحتقب مِقلاعه[2] ، واصطحب أحجاراً مُلساً ، وتهيأ للخروج .

قال طالوت : كيف القتال بالحبل والمقلاع ، وهذا مقام السيف والنشاب[3]؟ قال داود : إن الله الذى حمانى من أنياب الدُّب ومخالب السبع سيمنعُ عنى — بلا شك — ما يريد لى هذا الطاغية من كيد أو نكال .

وخرج وهو من مضاء عزمه فى أمنَع حِرْز ، ومن صدق إيمانه فى أقوى حِصْن ، والقلوب نحوه تهفو ، والعيون إليه ترنو .

وَرَأى جالوتُ قِرْنه[4] غلاماً حديث السن ، صغير الجسم ، لا يحمل سيفاً ولا يتنكّبُ قوساً ، فهزئ به ، واحتقر شأنه ، وقال : ماهذه العصا التى تحملها أ كلباً تُطَارده ، أم غلاماً مثلك تناجزه ؟! أين سيفك وترسك ؟ وأين سلاحك وعُدّتك ؟ يخيّل إلىّ أنك كرهتَ حياتك ، وسئمت عيشك ، مع أنك لا تزال حديثَ السنّ ، ولم تحتملُ بعدُ تكاليفَ العيش ، ولا نَصَب الحياة ! تعالَ ،

---

(١) الخوذة : المغفر ، غطاء يق الرأس فى الحروب .

(٢) جعله حوله كالحقيبة . (٣) النشاب : النبل .

(٤) القرن : المكافئ فى الشجاعة .

ادنُ مني ؛ فإنهُ بعد لحظةٍ ستسيل نفسك ، وتُطْوى صحيفة عمرك ، وأُقدمك لحماً طرياً لوحوش البرية ، وَطيور السماء .

قال داود : لك دِرْعُك وترسك ، وسَيفك ونَشّابك ، أمَّا أنا فإنى أتيتك باسم الله ، إله بنى إسرائيل الذين أذللتهم وأخْضَعتهم ، وسترى عما قريب ، أهو السيف الذى يصرع وَيَقتل ، أمْ هى إرادة الله وقوته ؟

وَمَدَّ يده إلى كتفه ، وَأخْرج الحجر ، وَوَضَعه فى المقلاع ، وَسَدَّده نحو جالوت ، فإذا هو مشجوج الرأس ، سائل الدَّم ، مُثْخن الجراح ، ثم قفاهُ بحجر وحجر ، حتى خَرَّ صريعاً لليدين وللفم .

وارتفعت راية النصر ، وانكسرت بعد جالوت شوكة العدو وَوَلّوْا منهزمين يتبعهم المؤمنونَ ضَرْباً وطعناً وتقتيلا ، وثأرُوا لأنفسهم ، واستردوا عزهم الداهب ومجدهم التليد .

بين داود وطالوت(*)

انعقد لداودَ النصر ، وتم له الظَّفَر ، فأتلفَتْ على محبته القلوب وتأكَّدت له أَوَاصِرُ الإخلاص ، وأصبح بين عشية وضحاها حديثَ القوم، وموضعَ الإشارة ومحور الحديث .

أمَّا طالوت فقد وَفى بشرطه ، وبرَّ بوعده ، وصدق فى يمينه ، فزوَّجه ابنته ، وَأحَلَّهُ بين نفسه وقلبه ، وأضحى موضع نصحه وَعَيْبَةَ(١) سِرِّه ، وجمعتْ بينهما أَوَاصِرُ نسب ، وَألَّفت بينهما غايةٌ من جهاد ، فتهيأ لداودَ بذلك فتح مبين وفوز كبير ، وذلك فضلُ اللهِ يؤتيه من يشاء ، وَاللهُ ذو الفضل العظيم .

ولكن القلوبَ مهما تكُن صافيةً لا يُؤْمَن على الدَّهْر كَدَرُها ، والنفوس وإن كانت مَنْخُولةً نقيَّة قلَّ أن يبقى على الأيام نقاؤها ، فقد أصبح داود يوماً فإذا طالوتُ عابسُ الوجه ، لاوى العِذَار(٢)، مقطّبُ ما بين العينين ، ابتسامُه تكلف وقولُه تحفظ ، وحديثه ينمُّ عن حقدٍ وافد ، وضغن جديد ! فماذا غيَّرَ من قلبه ، ورنَّقَ(٣) من صفو مودته ؟ وما عسى الواشى أن يكون قد بلغ عنده ، ألم يكن داود — ولا يزال — سيفاً سلهُ الله حديداً قاطعاً ، مجاهداً لا يكلّ ، غازياً لا يملّ ، مظفَّراً فى الحرب ، ميمون النقيبة(٤) فى ساح القتال ؟ ألم يجعل من نفسه وعافيته دِرْعاً لطالوتَ يدفع عنه البلاء ، ويصدّ عنه كيد الأعداء ؟ أليس هو صهره وراعى ابنته ، ومن يوم أن بنى بها لا يزال بينهما محضُ الود ، وخالص الوفاء ؟ فما عسى أن يكون قد غيَّر قلبك يا طالوت ؟ !

(*) سورة البقرة : ٢٥١ .

(١) عيبة سره : موضع سره .

(٢) العذار : جانبا اللحية.

(٣) رنق : عكر .

(٤) ميمون النقيبة : مباركاً .

قال داود : لعله خاطرٌ متردد ، ووَهْم عارض ، ومِزَاج مُعتكِر ، لا يلبث أن يصفوَ ويلين .

وضمه مع زوجه «مكيال[1]» ليلٌ ساج[2]، وشملهما سكونٌ شامل، فقال لها وهو يهمس بصوته ، ويتحفظ في حديثه : يا مكيال ، لا أدري أمخطئ أنا فيما رأيتُ أمْ مُصِيب ؟ وصادق فيما حَزَرت أم غير صادق ؟ لقد رأيتُ أباكِ عابِسَ الوجه ، ضائق الصدر ، تحدِّث نظراته عن غيظ كامن ، وتَشِي معارفه عن شيء جديد ، فهل عندك شيء مما رأيتُ ؟

قالت مكيال ، وقد أرْسَلَتْهَا آهَةً حبيسة ، وذَرَفتها دمعة سخينة : لستُ أكتمك يا داود شيئاً أعلمه ، وأصونُ عنك أمراً تجهله ، إن أبي منذ رأى القومَ من بني إسرائيل يُكِنُّون لك في نفوسهم محبة وإجلالا ، ويُغْضُون عيونهم[3] في حضْرتك مهابة وإعظاماً ، ومُذْ رأى كلمتَك بينهم تعلو ، وخطَرَك فيهم يسمو ، ومذ رآك تنتقل من ظفر إلى ظفر ، وبجيشك النصر يتبعه النصر ، خشي على مُلكه من نفوذك ، وخاف على نفسه من سلطانك ، والمُلْكُ — كما تعلم يا داود — مَرْعًى خصيب ، وحِمًى عظيم ، يدافع عنه صاحبه بنفسه وسلاحه ، وقلبه وجَنَانه ، وصاحبه أبداً يشكُّ في بطانته ، ويشفق عليه حتى من صفوته وخلصائه ، فهو لذلك يأخذ بالظن ، ويتهم بالحدس ، ويعاقب لمجرد الإشفاق .

وأبي — وإن كان مؤمناً خالص الإيمان عالماً وافر العلم — مَلِكٌ تنتابهُ سَوْرَة الملوك ، وسلطان تختلج في صدره هواجس السلاطين . وقد علمتُ أخيراً — وإن لم أكن أجزمُ بصحة ما علمت — أنه يفكر في التخلص منك والقضاء على سلطانك ، والقصّ من جناحك . . والرأي عندي أن تأخذَ بالحزم نفسك ،

---

(١) اسم زوجته : وهي بنت طالوت .
(٢) شامل الظلام .
(٣) يخفضون رموشهم مهابة وخشية .

وتتحوّط لحياتك ، فإن كان ما توقعتُه حقًّا ظفرت بالسلامة ، وإن كان بعيداً لم يضرك الحزم شيئاً .

قال داود — وقد أشجاه ما سمع — : ما أنا إلا جنديّ مقاتل تحت راية السلطان ، ومؤمن أدافع عن بَيْضَة الإيمان ، ولعل ما دخلَ على طالوت كان من وَسْوَسة الشيطان ، أو تَسْويل[1] النفس الأمَّارة بالسوء ، وربما أخزى شيطانه وقهرَ هوَاه ، ثم أغمض أجفانه على نوم هادىء ، كأنه لم يعرف من دخيلة نفس طالوت شيئاً .

* * *

واستيقظ داود يوماً على دعوة طالوت ، ومَثُل أمامَهُ ، فقال له : يا داود إنّ بي اليوم همًّا ناصباً ، وأمراً حازماً ، قد بلغني اليوم عن كنعان أنهم عادوا فجمعوا جموعهم ، وألّفوا أحزابهم ، فاستحصد[2] أمرهم ، وأصبح متوقعاً شرّهم ، وليس لي عون إلا بك ، وليس لهذا الأمر سواك ، فخذ سيفك ، واختر مَنْ ترى من جندك ، واذهب إليهم ، وإياك أن تعود إلا منصوراً ، يَرْعف[3] سيفك بدماء أعدائك ، أو مقتولا محمولا على أعناق رجالك .

وحَسِب طالوت أنه كُفِيَ أمر داود ، ولكن داود على الرغم مما عرَف من أمر صاحبه ، واختلاط إرادة الشر بإرادة الخير في دعوته ، أطاع طالوت وذهب إلى الكنعانيين ، مقاتلا بسيفه ، مُرخصاً حياته ، لا يُبالي أوقعَ على الموتِ أو وقع الموتُ عليه ، ولا يعبأ أيخرجُ من الحرب سليما مُعافى ، أم تفلتُ الحياة من بين جنبيه ، وكتب الله له النصر ، وعاد إلى طالوت مظفراً منصوراً .

---

(١) تزيين .
(٢) استحصد أمره : قوى .
(٣) يرعف : يسيل .

فما زاد ذلك طالوتُ إلا ضغناً ، وما أكسبهُ عنده إلا حَنَقاً وكرهاً ، فأضمر له القتل ، وبيّتَ النكال ، وعلمت زوج داود بما أضمرَ أبوها ، وما يُرَادُ بزوجها ، فذهبت إليه لهيفة حزينة ، وحدثته بلفظ خاطف ، وقلب واجف : أن انجُ بنفسك ، واهرُب بحياتك ، وإلا أكسَبْتَنِي حسرة بموتك ، وضاعفتَ هَمِّي بمصرعك . .

فما وجدَ داود بُدًّا من الهروب ، وركوب مَتن الاغتراب ، واتخذ الليل جملاً ، وهربَ طريدَ الحسدِ ، طريد الحِقْدِ ، عامرَ القلب بالإيمان ، عظيم الثقة بالله . . وانتهى إلى مَفَازَة أوى إليها ، وألْقَى بهُمُومِه فيها ، وفزع إليه إخوتُه وعلم بمكانِه مُرِيدوهُ من بنى إسرائيل ، فَهُرِعُوا إليه جماعات ، وانثالوا عليه زَرَافات .

أمّا طالوت فقد ضعُف أمرُه فى قومه ، وكثر الخارجونَ عليه والهاربون من جنده ، وخاف العاقبة ، فأعمل السيف ، وعاقب بالظن ، وأخذ البرىء بذنب المسىء ، والمؤمن بذنب العاصى ، ثم آذى العلماء ، و اضطهد القُرّاء[1] ، وأبقى الرعب فى قلوب الجنود ، واستوى له بذلك جيش محاط بالقوة ، عليه سياج من بطش وَجَبَرُوت .

ولكن داود لا يزال حيًّا ينافسه فى ملكه ، ويتحدّاهُ فى قومه ، ولا يأمنه على نفسه ، وقد كشف له صحيفة ضِغْنه ، وَرَاش له سهام مكْره ، فلا بد أنه مُضْطغِن عليه ، مُرِيدٌ الشرَّ له ، إذن فلينهض إلى حربه ، وليتهيأ لقتاله ، مهما يقف فى سبيله من عقبات .

وخرج داود من مفازته ، يتحسس أمر طالوت ، فإذا هو قد انتهى إلى واد

---

(١) القراء : طائفة من علماء بنى إسرائيل .

ومعه ثُلّة(١) من شيعته وجنده ، وقد رقدوا لما أصابهم من جهد وما أدركهم من أيْنِ(٢) السير ، فمشى داود وئيداً حتى استلّ رمح طالوت من بين جنبيه وعاد ، ونهض طالوتُ يتفقد رُمحَهُ ، ويبحثُ عمّن أخذهُ ، وبينما هو حائر مضطربٌ وافاهُ رسولُ داود يقول : هذا رُمحُك ، وقد مكّن الله لداود من رَأْسك ، ولكنهُ كانَ أعزّ نفساً ، وأكرَمَ قلباً ، وَأدْنى إلى اللهِ إيماناً .

ونالت كلماتُ رسولِ داود من نفسه ، ولمست مكانَ الإحساس من قلبه ، فأخذتهُ عَبرة من الأسى ، ونالتهُ حُرْقَةٌ من الندم ، ورجع باكياً مستعبراً ، نادماً على أنه قد غدر بداود ، وما كان أهْلاً للغدر ، وقتل العلماء والقرّاء ، وما استحقوا القتل ؛ فما يفعل غداً بين يدى جبار السموات ؟!

فرجعَ أدْرَاجَه ، ثم هامَ على وجهه ، ومضى فى الفَلَوَات(٣) يُعلن الندامة ، وينشد من الله التوبة ، حتى وَافاهُ الحِمام(٤).

أمّا بنو إسرائيل فقد هُرِعُوا جميعاً إلى داود مبايعين ، وشدّ الله ملكه ، وآتاهُ الحكمة وفَصْل الخطاب .

---

(١) الثلة : الجماعة من الناس . (٢) الأين : الإعياء والتعب .
(٣) الفلوات : الصحارى . (٤) الحمام : الموت .

داود

فتنـــة داود(*)

نشأ داود عليه السلام فارساً شجاعاً ، وباسلا يقوم على أخطر الأمور ، ويحل المعضلات ، فهو فتى هيأته ظروفه لمبارزة أقوى العتاة ، وهو - بعون ربه - قد انتصر عليه ، فأصاب من البطولة ما خلدته صفحات تاريخه الناصع النقى .

ثم هو فى طيات عمره كان صانعاً من أمهر الصناع ، يصنع من الحديد لباساً للحرب (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ)[1] .

ألآن الله له الحديد ، وهيأ له القوة القادرة ، لكى يذيب الحديد ويعمل منه دروعاً من حلقاته لا تنال منها شفرات السيوف ، ولا طعنات الرماح .

وقد كان نبى الله داود فوق فروسيته ، وقوته ، وبراعته - عابداً كثير التسبيح ، يردد تسبيحه ، فيهرع الناس إلى سماعه ينعمون بأشجى صوت ، وأجمل ترتيل .

وهو من بعد قد سار على منواله ، فكان يتبع نظامه الذى شرعه لنفسه منذ حين من الدهر ، قد قسم الدهر أرباعا : واحداً لنفسه ، وآخر لعبادة ربه ، وثالثاً للفصل والقضاء بين الناس ، والرابع لبنى قومه يعظهم ويرشدهم إلى سواء السبيل .

(*) سورة ص الآيات ٢١ - ٢٦ .

وداود كذلك ملك ونبيّ ، أقام على منازله الحرّاس والجند ، وهو لا يغيّر أنظمته تلك ولا يحيد عنها ما تتابع المَلَوَان ، وأشرق النيّران ، بل هو يسلك الطريق الذى يسوّى بين تلك القسمة العادلة ، وهذا الحساب الحكيم .

* * *

رجلان لهما كل ما للرجال من خِلْقَةٍ وصفات ، إلا أنهما يختلفان عن رجال بنى إسرائيل قوم داود ؛ فأولئك تعوّدوا أنظمة مَلِكهم فأطاعوها راضين مختارين ، وذانِ خرَقا سياج العُرْف ، وخرجا على المتّبع المألوف ؛ فتقدما إلى الجند طالبين أن يَدْخلا على داود ، وذلك فى غير وقت القضاء ومقابلة الناس ، فليس للحراس إلا أن يذودوهما ، وأن يمنعوهما عن ذلك الحَمَى المنيع ، حتى يحين الوقت الذى يباح فيه لأمثالهما أن يتقدّما بين يدى نبى الله الكريم .

وما كان للحراس أن يدركوا هذه القدرة الخارقة المعجزة ؛ فليس هذان إلا مَلَكين فى صورة الناس ، وهما سيَصِلان حتماً إلى داود ، وسيكون لهما شأن لديه مشهود ، وسينفذان إليه بتلك الحكمة الصادقة ، والحجة القاطعة ، وسيكون من أمرهما عبرة ناجعة لنبى الله داود .

تسور الملكان المحراب ، ودخلا على داود ؛ ففزع منهما ، وقد رآهما بين يديه جالسين بغير إذن ولا شفيع ، فقالا : (لا تخَفْ ، خَصمان بَغى بَعْضُنَا عَلَى بَعْض فاحْكُمْ بَيْنَنَا بالحقِّ وَلا تُشْطِطْ[1] وَاهْدِنَا إلى سواء الصِّرَاط)[2] .

وجد داود نفسه أمام أمر واقع ، فتهيّأ لهما ، واستعدّ للحكم بينهما ، واستمع

---

(١) الشطط : لا تجاوز حد العدل .   (٢) سورة ص .

لجدالها ، فإذا أحدهما يقول : إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجةً ، ولى نعجة واحدة ، ولكن أخى امتدّت به أطماعه ، فلم يقهر نفسه ، ولم يُغالب هواه ، بل قال : أعطنيها ، فلما ناقشته غلبنى نقاشُه ، وأفحمنى حجاجه وجداله ، لأنه أفصحُ منى لساناً ، وأقوى حجةً وبياناً .

تلفّتَ داود إلى الرجل الآخر ، فاستوضحهُ الأمر ، وسألهُ رأيه فيما يقول خصمه .

فقال : إن لى تسعا وتسعين نعجة ، وله نعجةٌ واحدة ، فأردت أن آخذها منه حتى تكمل نعاجى مائة .

فقال داود : أوَأخُوكَ يكره ذلك ؟ !

قال : نعم !

فاستشاط داود غيظاً ، ورماه شذَراً وقال : (لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إلى نِعَاجِهِ ، وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ إلاَّ الذِينَ آمَنُوا ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ)[1] .

***

انصرف المَلَكان ، ثم أخذ داود بعد ذلك يفكر فى هذا الحدث العظيم الذى تمثل أمامه ، أخذ يفكر فى هذا التسَوُّر المفاجىء ، والمباغتة التى لم يكن يفكر فيها فأدرك بفطرته السليمة الحكيمة أن ذلك دَرس من الله ، وعِبْرَة له ، ليراجع نفسه ، ويغير موقفه من تأجيل قضايا الناس ،

---

(١) سورة ص .

فلا يتركهم على ضجر وانتظار ، وألاّ ينصرف إلى العزلة عَنْهُم ، إذ أنّ العدل بينهم ، والفصل فى قضائهم أَوْلَى وأحَقّ .

(وظن دَاوَدُ أنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً ، وأنَابَ ، يا دَاوُد إنا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأرْضِ فَاحْكُمْ بينَ الناسِ بِالْحَقِّ ولا تَتبع الهَوَى فيضلّكَ عن سَبيلِ اللهِ)[1] .

وما كان يدورُ بخلد نبى الله داود ، أنه بعمله مقدمٌ على ما يستوجب اللوم والعتاب ، ولـكن الله حاسبه فألزمه الحجة على عُلُوّ كعبه ، وعظم منزلته ، حتى يوقن الناس أن الله لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وأنه يؤاخذ النـاس جميعاً بأعمالهم ، سواء فى ذلك عامتهم وأنبيـاؤهم ، فلا يدع مؤاخذة نبى لنبوته ، ولا يَغفل عن حقّ مظلوم أقعـده ضَعفه عن بسط ظلامته .

(١) سورة ص

أصحاب السبت(*)

كان من تعاليم نبيّ الله الكريم موسى أن ينقطعَ قومُه بنو إسرائيل عن أعمالهم يوماً فى كل أسبوع ، فلا يركنون إلى مزاولة عملٍ مّا تشغلهم به دنياهم، بل يفزعون فيه إلى عبادة ربهم ، ويَعْكِفُون على حمده ، وتعدادِ نعمه وآلائه، حتى تطهر قلوبهم بذكر الله ، والذكرى تنفع المؤمنين .

كان يومُ الجمعة هو اليومَ الذى أُمِرُوا أن يعبدوا الله فيه ، ولكنهم رغبوا أن يكون يومُ عبادتهم يومَ السبت الذى انتهى فيه خلقُ السموات والأرض، ولما اختاروه قبِل الله اختيارهم ؛ فكان موسى عليه السلام يَزَعُهم ويعظهم، وَيُقْبِل إليهم فيه مذكراً مرشداً .

مرّت الأيام وبنو إسرائيل على عادتهم يقدسون يوم السبت ، ويُفرِدُونه لطاعةٍ يتقرّبون بها ، أو لعبادةٍ يسبحون الله فيها ، وتكاثرت أعقابهم ، وتوالت أيامُهم ، وهم على هذا مقيمون ، وعلى تلك السُّنة دائبون .

وفى قرية من قراهم على شاطىء البحر الأحمر ، يُقَالُ لها (أيلَة) كان يسكن قوم من سلالة بنى إسرائيل فى زمن داود عليه السلام[1]، وكان عليهم أن يلتزموا سُنة آبائهم وأجدادهم ، فيسيروا على عبادة الله فى يوم السبت ، فكانوا لا يزاولون فيه عملا من أعمالِ دنياهم ، من صيدٍ أو متاجرة أو صناعة .

وكان على ساحل البحر بجانب (أيلَة) حجرَان أبيضان ، تخرج الحِيتان إليهما ليلة السبت ويومه ؛ إذ قد أمنت أن تُصَاد ، فهى تأنس فى هذا الزمن وتأمن ،

(*) الأعراف : ١٦٤ – ١٦٦ .　　(١) تفسير الكشاف : ١ – ٣٥٥ .

فتتكاثر وتتزاحم ، والقومُ حينئذ لا تمتدّ أيديهم إلى ترويع هذه الحيتان بصيد لأنهم مشغولون بتسبيح خالقهم ، محرَّمٌ عليهم أن يفزّعوا صيداً ، أو يمارسوا فى الدنيا عملا ، وإذا جاءت ليلة الأحد تسرّبت الحيتان إلى البحر ، فانبعثت إلى باطنه ؛ فتعذّر على القوم أن يصطادوها فى أيام هى حِلّ لهم .

تحرّكت دواعى الطمع ، وثارت عوامل الجشع فى نفوس الفُسّاق من أهل هذه القرية ، فغفلوا عن تعاليم أنبيائهم ، ونَسُوا حظّاً مما ذُكِروا به ؛ فتشاوروا فيما بينهم وتبادلوا زمام الرأى ، وقالوا : مابالنا نترك هذه الحيتان فى يوم تكثر فيه وتزيد ، وتتزاحم متسابقة إلينا ، ونأتى إلى صيدها فى أيام تُحجم عنا وتُدْبِر ، فلا سبيل إليها إلا بمشقة وجهاد ؟ إننا بذلك لحائدون عن طريق الصواب !!

لا رَأى إلا أن نُقبِل على هذا الصيد فى يوم السبت ، فنأخذ منه ما نشاء ، ونصل فيه إلى ما نبغى ونريد .

أقبلوا على الصيد ، فاصطادوا كثيراً بلا تعب ولا عناء ، ثم صنعوا به ماشاءوا وما اشتهوا من مطبوخ ومشوىّ ، وأقبلوا يُشبعون نَهَمَهم ويملئون بطونهم .

علم المتّقون منهم بما فعل هؤلاء الفساق المستهترون ؛ فخرجوا إليهم ووعظوهم وحذّروهم ؛ فما زادهم ذلك إلا استهتاراً وإمعاناً فى غَيِّهم ، وانسياقاً فى ضلالهم ، فثارت ثائرة المؤمنين ، وحاصروا القرية بسلاحهم يمنعون هؤلاء المارقين من دخولها ، لأنهم خارجون عن طاعة الله آثمون فاسقون .

اشتدّ ذلك على الفساق ، وشق عليهم أن يمتنعوا عن الصيد فى يوم السبت ، مع كثرة الحيتان فيه ، دون غيره من الأيام ، فقالوا للمؤمنين منهم : إن القرية لنا ولكم ، ولا حق لكم فى دفعنا عنها ، والانفراد بها دوننا ، ولا أحد يلزمنا بتركها لكم ، إنها مَوْطِنُنا وموئلنا ومحط رزقنا ، ولا سبيل إلى تركها ، ولا مفر لنا إلى غيرها ، فإن صممتم على رأيكم ، ولم تحيدوا عن عزمكم فلنتقاسم القرية ، ولنبْنِ حيطاناً بيننا وبينكم ، حتى يعيش كل منا على مايشتهى وكما يريد.

ارتضى المؤمنون أن يقاسموهم القرية ، وأن يقيموا سدًّا يحجب عنهم هؤلاء المارقين .

انفردت كل طائفة ، وشغل الفسّاقُ بلهوهم وصيدهم ، وحفروا نهيرات تصل البحر بقريتهم ، فإذا كانت ليلةُ السبت سارت الحيتان فيها إلى أبواب دورهم ، فإذا غربت شمسُ السبت وهمّت الحيتان بالرجوع حجزوها بسدود أقاموها تعترض مجرى النهيرات ، فلا تملك الحيتان أن تتسرب إلى البحر .

ولكن المؤمنين لم يغفلوا عن زجرهم وتخويفهم عذاب الله ، فلما طال النصح، لم يزدهم إلا تمادياً وعتواً (قالتْ أُمّةٌ مِنهمْ لِمَ تَعِظُونَ قوْماً الله مُهلِكهُمْ أو مُعذبهُمْ عذاباً شَدِيداً ؟ !)[١] .

فتركوهم في غيِّهم يعمهونَ ، وانصرفوا عن وعظهم لأنهم لا يتعظون .

استمر الفساق في لهوهم ، وسدروا في غُلَوائهم، وكثرت أموالهم ، وتغالوا في فسوقهم وعصيانهم ، حتى ضاق بهم نبي الله داود ، فاتجه إلى ربه يستنصر به ، ويطلب اللعنة لهم ، فأجاب الله سؤله ، وحقق أمله ، فزُلزلت قريتهم زلزالا عظيما ، ففزع المؤمنون من ذلك وخرجوا من بيوتهم ، (فلمَّا نَسُوا ماذكِّرُوا به أنجَيْنا الذينَ يَنهونَ عنِ السوء وأخذنا الذينَ ظلَموا بعذَابٍ بَئِيسٍ[٢] بما كانُوا يَفسقُونَ)[٣] .

---

(١) الأعراف : ١٦٤ . (٢) بئيس : شديد . (٣) الأعراف : ١٦٥ .

سليمان

سليمان و بلقيس(*)

اتجهت همةُ نبيّ الله سليمان إلى بناء بيت المقدس بالشام ، تسهيلا لأسباب العبادة ، وقرباناً إلى الله ؛ فنشط حتى أقامه عاليَ الأركان ، شامخَ البنيان ، ولما تم له ذلك اطمأن قلبُه ، وسكنت نفسه ، ثم نزعت إلى أن يؤدّى فريضة الله ، فلا بد له إذَنْ أن يتهيأ للحج فى حشد عظيم .

يَمّم النبيُّ شطرَ الحرم ، فوافاه ، وأقام به ما شاء ، حتى إذا وفى نذره شدّ رَحله وفارقه ، ثم جد به السير نحو أرض اليمن ؛ فدخل أرض صنعاء ، وأخذ يتفقد الماء ، ويتفقد منافذه ، ويسبر أغواره ، فأعياه البحث ، واستعصى علية المنال .

لذلك خفّ سليمان ، فتفقد الطير باحثاً عن الهدهد ليدلّهُ على الماء ، فوجده من الغائبين ؛ فأقسم لَيُعَذِّبَنّه أو ليذبحنّه ، إلا أن يأتى بحجة واضحة ، يمهد بها لعذْرِه ، ويزيل ما يخالج النفس فى أمره ، ولكن الهدهد غاب غيبة قصيرة ،وعاد يخفض رأسه وذنبه متواضعاً لِسَيِّدِه،وتقدم إليه ينزع من نفسه ماعسى أن يكون قد ألم بها من غضب عليه ، أو كَيد إليه ، تقدم الطائر فقال : لقد اطلعت على ما لم يمتد إليه علمك ، ولم تصل إلى الإحاطة به أسبابُ قوتك وملكك ، وكشفت سراً ندّ عنك[1] أمره ، واختفى خبره .

(*) الأنعام ٨٤ ، الأنبياء ٨١ و ٨٢ ، سبأ ١٢ - ١٤ ، النمل ١٥ - ٤٤ ، البقرة ١٠٣ ، سورة ص ٣٠-٤٠ .

(١) ند عنك : بعد وغاب .

فخفّض هذا الحديث المشوق ما كان من حـــدة سليمان ، وبعث إلى نفسه كثيراً من التلهف والاستعجال ذلك الحديث المستحسن الجذاب ، فاستحثّ الهُدْهُدَ أن يأتى بخبره ، وأن يُدْلى بحجته وعُذْره .

فقال الهدهد : وجدت فى أرضِ سبأ امرأة تملكهم ، وقد أُوتيَتْ من كل شىء ولها عرش عظيم ، إلا أن الشيطان قد استبطنهم [١] ، وخالط منهم اللحم والدم ، والمسامعَ والأطراف ، فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون ؛ وجدتُها وقومها يسجدون للشمس من دُونِ الله ، فهالنى أمرها وروّعنى شأنها ، وما كان أجدرهم ، وأولى بهم — وهم أولو القوة والجد — أن يسجدوا لله الذى يعلم ما تُكنُّ الجوانح ؛ لا إله إلا هو رب العرش العظيم ! !

دُهِش سليمان لهذا الأمر العجيب ، وقد رأى ألا يفجع الهدهد فى خبره ، وألا يردّ عليه قوله ، بل قال له : سننظر فى نَبئِك ، ونتحقق أمرَ صدقك من كذبك ، وإذا كان الأمر كما وصفتَ ، والحق كما صورتَ ، فهـــذا كتابى ، اذهَب به فألْقِه إليهم ، ثم تنحّ إلى مكان تنتظر رأيهم ، وترتقب جوابهم .

حمل الهدهدُ الكتاب ، ثم سار إلى بلقيس ، فألفاها بقصرها فى مَأرِب [٢] ، فطرح الكتاب أمامها ، فتلقَّفَته وقرأته ، فإذا فيه : (إِنَّهُ مِنْ سُلَيمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ : أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ) .

فجمعت الملكةُ وزراءها وأمراءها ، وأكابرَ دولتها إلى مشورتها ، لتطيِّب نفوسهم ، لاعتدادها بهم وَرُكُونها إليهم ، ولكى تعتصم بحكمهم ،

---

(١) صار لهم كبطانة الثوب .
(٢) مكان باليمن .

وتستظهر برأيهم ، فقالوا : نحن أبناء حَرْبٍ وَجِلاد ، لا أهْل رأى وسداد ، وقد تركنا أمورنا لتدبيرك وشؤوننا لتفكيرك ؛ فانظرى ماذا تأمرين ، نكن طَوْعَ بنانك وَرَهْن كلامك .

لحت الملكةُ فى كلام رجالها ميلا إلى الحرب والمدافعة ، فزيّفَتْ كلامَهم، وخطأت رأيهم ، وأبانت لهم أن الصلح خير ، وأن الأجدر بذوى العقول الصائبة أن يبدءوا بالتى هى خيرلهم وأحسن ، فقالت : إن الملوك إذا غلبوا قرية ودخلوها عَنوة[1] خَرَّبُوها ، فأبادوا حضارتها ، وجعلوا أعزتها أذلة ، وتحكموا فى الرِّقاب ، واشتطوا فى الاستبداد ؛ ذلك دأبهم ما تعاقبت الأيام ، وتوالت الأزمان ، وإنى مُرْسِلَةٌ إلى سليمانَ بهدية ، فيها من كل غال وثمين ، ونفيس وكريم ، أصَانِعُه بها على مُلكى ، وأتبين بها سبيله ، وأتعرف منها نهجَه .

ثم جمعت هدية بعثت بها مع رجال من كرام القوم . فانتقل الرسل بالهدايا، وأقبل الهدهد إلى سليمان يبثُّه الخبر ؛ فاتخذ سليمان للأمر عُدَّتَه ، وقدم لما بعده أُهْبَتَه ، لذلك أمر الجن فزينوا له بناء عجيباً ، وصرحاً مشيداً ، يهزُّ الأفئدة ، ويبهر الأعين ، ويدهش القلوب .

فلما دنا القوم نظروا فَبُهتوا ، وأقبل عليهم سليمان بوجه طَلْق ، يرحب بقدومهم ويتهلل للقائهم ، ثم بدأ يستشف غرَضهم ، ويتعرف رأيهم ، فقال : ما وراءكم ؟ فتقدَّموا بما حملوا من هدايا ونفائس ، يبتغون بها رضا وقبولا من النبيّ الكريم .

فعَفَّ سليمان وَتَلَطَّف ، وقال للرسول : ارجع إليهم بهديتهم ؛ فإنَّ الله أعطانى الرزقَ السخيّ ، وَالعَيْشَ الرضيّ ، وَمَدَّ لى أسباب النبوَّة وَالْمُلك ،

---

(١) غلبة وقهراً .

وآتانى مالم يؤتِ أحداً من العالمين ، وكيف يرضى مثلى أن يُمَدّ بمال يُصَانَع به، أو كيف يلهيه عن نشر دعوته ملء الأرض ذهباً ! ؟ إنكم قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، فأنتم بهديتكم تفرحون ، ازجع أيها الرسول إليهم، فلنأتينّهُم بجنود لا قِبَل لهم بها ، ولا قدرة على احتمالها ، ولنخرجنّهم من سبإ أَذِلّة ، ذَاهِباً عنهم العزّ والمُلك والسلطان .

ذهب الرسلُ فأخبروا بلقيس بما رأوا وما سمعوا ؛ فقالت : ليس لنا بُدّ من السمع والطاعة ، ولنبادر إلى إجابته ، ونسارع لقبول دعوته .

فلما سمع سليمانُ بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن سُخّر له من الجان : أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مُسْلمين ؟ قال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن ينقضىَ مجلسُ حكمك ، فتقوم من مقامك ، وإنى لذو قوة على إحضاره ، وأمينٌ على ما فيه . قال الذى أوتى العلم والحكمة : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طَرْفُكَ[1] .

أراد سليمان عرش بلقيس أن يكون عنده فكان ، فقال : هذا من فضل ربى علىّ ، وتلك نعمةٌ مِنْ نِعَمِهِ إلىّ ، ليبلُوَنى[2] أأشكر أم أكفر ؟ وَمَنْ حسنت النعمة لديه ، وصادفت من قلبه مكاناً طَهُرَتْ حواشيه ، وسكنت نوازيه ، فشكر ربه فإنما يشكر لنفسه ، لأن مرجع الشكر إليه . وأما مَنْ كفر بنعمة ربه ، وَخَبُثَت سريرة نفسه فإنما هو من الذين خسروا الدنيا والآخرة ، والله غنى عن العالمين . ثم قال سليمان لجنوده : نَكّرُوا[3] لها عرشها، وَغَيّرُوا رُوَاءه لننظر : أتهتدى إليه أم تكون من الذين لا يهتدون ؟

---

(١) الطرف : العين .
(٢) ليبلونى : ليختبرنى .
(٣) نكره : غيره إلى مجهول .

فلما جاءت قيل : أهكذا عَرْشُك ؟ فاستبعدت أن يكون ذلك عَرْشَها ، وقد خَلَّفَتهُ بأرض سبأ ، ولكنها رأت معالمه ، وتبينت آياته ومحاسنه ، فَدُهِشَتْ لذلك الأمر الغريب ، وقالت : كأنَّه هو ، ووقفت مشتَّتة الفكر ، حائرة القلب ، والهة الفؤاد .

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج أبيض ، ثم دعا ملكة سبأ إليه ، فلما رأته حَسِبَتْهُ لُجَّةً ، فكشفت عن ساقيها ، قال : إنه صرح ممرَّد[1] من قوارير . فانكشف حجابُ الغفلة عنها ، وقالت : ربِّ إني ظلمْت حيناً عن عبادتك ، وضلات بعض الزمن عن رحمتك ، فظلمت نفسي ، وحجبتها عن نورك ، والآن قد أسلمت مع سليمان ، خالصةً لك ، متوجهة إلى طاعتك ، وأنت أرحم الراحمين .

* * *

(١) ممرد : مطول أو مملس .

حكمة سليمان(*)

هذا داود عليه السلام قد استوى مَلِكاً على عرش بنى إسرائيل يحكم فيما شَجَر بينهم ، ويصَرِّف أمورهم ، ويرعى وحدتهم ومعاشهم ، وهم يغدون إليه يقصون قصصهم ، ويبسطون خصومتهم ، ويُدْلون بحججهم ، وهو يفصلُ فى كل ذلك بالعدل والقِسْطاس .

وهذا ابنه سليمان لَمَّا يَكْتمل ، فهو فى الحادية عشرة من عمره ، ولكن أباه قد أصبح شيخاً هِمًّا[1]، أوشكت شَعُوب أن تخترم أجله[2]، فهو دائبُ التفكير فى أمر قومه ، مهتم بمن تكون له الولاية من بعده ، يرى أبناءه من حوله ، وسليمان — وإن كان صبياً — إلا أنه يفضلهم علما وحكمة ، قد نضجت شمائله ، واكتملت بوادِره ، يصَرِّفُ الأمور تصريف الناقد الحازم ، البصير النظّار[3] .

جرت سُنَّةُ داود على أن يُحْضِرَ خصومتَه ابنَهُ سليمان ، حتى تزداد قوته ، ويَسْتَحصِفَ[4] رأيه ، فكان سليمان ملازماً لأبيه فى مجلسه ، حتى يكون له من آرائه فيما بعد نور يمشى به ، ودستور يسير عليه فى مشكلات الملك ودقائق التدبير .

وفى مجلس من مجالس القضاء جلس النبىُّ الملكُ داود ، وجلس بجانبه ابنه سليمان ، فأتى خصمان ، قال أحدهما : إن زرعاً له قد آتى ثمره ، ودنت قطوفه ، وصار بهجة الناظر ، وعتاد الزارع ، انتشرت فيه غنم خصمه ، ولم يردّها رادّ ،

(*) سورة الأنبياء آية ٧٨ وما بعدها .

(١) الهم : الضعيف . (٢) شعوب : الموت .

(٣) النظار : الممعن النظر فى الأمور . (٤) استحصف رأيه : استحكم .

يُحكم وثاقها راعٍ ؛ بل سامَتْ ، وانسابت فى الزرع ليلا ، فأهلكته وأبادته حتى صار أثراً بعد عين .

قال صاحب الزرع ما قال ، ولم يدفعهُ صاحبُ الغنم بحجة ولا دليل ، فلزمته الخصومةُ ، وَحقّتْ عليه كلمة القضاء .

حكم داود بالغنم لصاحب الزرع يأخذها خالصة له كِفاء زرعهِ ، وجزاء إهمال أصحابها الذين تركوها فَنَفَشَتْ[1] فى الزرع بالليل ، ولكن الصبى سليمان ـ وقد آتاهُ الله علما وحكمة ، وَأوقفهُ على دقيقات هذه الخصومة ، وَجَلّة بالرأى فيها تهيئةً منه ليتولى ذلك الملك العريض ـ انبرى فى مجلسهِ ، وفك عقال صمته، وانفلتت إلى القوم حجته ، فقال : غير هذا أرْفق ، ودون هذا أوفق .

فدهش القوم لجراءةِ الغلام ، وانتظروا صامتينَ ما وَراءه ، فقال : تُدْفَعُ الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وَأشْعارها ، وتسلم الأرض إلى أصحاب الغنم يقومُون على زراعتها ، حتى تعودَ كما كانت ، ثم يترادّان، فيأخذ كلٌّ ما كان تحت يمينهِ ، وبذلك لا يكون هناك غُنمٌ ولا غرْم ، فهذا أقربُ إلى العدل وَأصحُّ فى الحكم ، وَأوْلى فى القضاء .

كان هذا مبدأ لظهور أمر النبى سليمان ، الذى كان خير خلفٍ لأبيه .

* * *

(١) نفشت الغنم : رعيت ليلا بلا راع

سليمان على عرش أبيه(*)

داود يهيىء ابنه سليمان ليكون خليفةً من بعده مع ما هو عليه من حداثة السنِّ وَغَضَاضة الإهاب[1] ، ولعله قد أخذ بأُبْهة العَرش وازدهى بعزته ، فخالط قلبه الفخر ، وامتدَّ أمله إلى التعلق بغرض من أغراض الحياة ، وذلك — وإن يكن غَرْزِيًّا فى بنى الناس — إلا أنه كثير على مَنْ مُنح هبة النبوَّة ، واصطفاهُ الله لهداية العالمين . وهذا ابنٌ آخر لداود : هُو أَبْشَالُوم قوى عتيد ، قد استوى ساقه ، وَعَرَكَ تجارب الدهر ، وَعرف دخائل الأمور ، ومع ذلك فهو مُقْصِىٌ عن المُلْكِ ، مُبْعَد عن الخلافة والسلطان .

وذلك تدبير لا يُرْضى أبشالوم ، ولا يطمئن إليه ، فهو لذلك سيشقُّ عصا الطاعة خارجاً عن أبيه وَأخيه ، وَسَيكافحُ ويناضل فى سبيل هذا الملك ، مهما يكلفه ذلك من عزيز .

استمرَّ أبشالوم رَدحاً من الزمن يتقرب إلى قومه بنى إسرائيل ، وَيغمرهم بعطفه ، وَيَقضى بينهم ، ويصلح أمورهم ويجمع شملهم حَوله ، انتظاراً لأمر يدبره وعمل يَبيِّته ، حَتى لقد غالى فى أمره ، فكان يقفُ بباب أبيه الملك يصدّ عنه كل صاحِب حاجة ليقضيها له بنفسه ، ليكون له على إسرائيل مِنَّة ويد ، ليعرفهم أنه صاحِب حَوْل وطَول ، حَتى يكونوا إليه نازعين ، ولرأيه خاضعين .

بعد أن أعدَّ أبشالوم عُدته ، ودَبَّر مكيدتَهُ ، واطمأن إلى أنه قد استرَقَّ قلوب بنى إسرائيل ، واستولى على زمامهم — بعد ذلك استأذن أباه داود فى أن يخرج إلى «جدون»[2] ليُوفى بنذرٍ هُناك ؛ ثم أرسل جواسيسه فى أسباط

(*) سورة ص . ٣١ وما بعدها   (١) غضاضة الإهاب : طراوة الجلد .

(٢) جدون : بلد .

بنى إسرائيل قائلا : إذا سمعتم بُوقاً ينذر بجمعكم فانفروا إلىّ وأعلنوا المُلك لى فذلك خير لكم ، وَأَوْفى لحقوقكم ، وأمكن لسلطانكم .

ثار الشعب واشتدت الفتنة ، وتزايد الصّخَب ، وهَبّت على أورشليم ريح هَوْجاء توشكُ أن تأتى على الأخضر واليابس .

علم داود بالخبر ، فكان شديداً عليه ، إلا أنه ربط جأشه ، وملك نفسهُ ، ثم قال لمن حوله : هيا بنا نهرب ، لأنه ليس لنا نجاة من بطش أبشالوم ، ثم عبر هو ورجاله وأهل بيته نهر الأردن ، وصعد داود إلى جبل الزيتون باكياً حافياً ، هو والذين معه .

وكان نفَرٌ قد شمتوا بداود ، فتألبوا عليه يسبُّونه ، ويؤْلِمُونهُ بقوارس الكلم ، فهمّ بهم خلصاؤه إلا أنه منعهم فى ألم وحسرة قائلا : إذا كان ابنى يطلبنى فما أحرى غيره بذلك !

ثم تقدّم داود إلى الله فى ضراعة وذلة : أن ينجيه مما حاق به ، وأن يكشف عنه البلاء المحيط .

دخل أبشالوم بعد مخرج أبيه إلى أورشليم وامتلك نواصى الأمور .

ثم أرسل داود قواده ، وأوصاهم أن يعالجوا الأمر بالروية والحكمة ،وأن يحقنوا دم ابنه أبشالوم ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل ، إلا أن القدر قددبر غير ما اشتهى الوالد الرحيم ، فقد دخل القواد إلى أبشالوم ولم يروا إلا قَتلَه ، فسكنت الفتنة ، واستراح الناسُ .

ورجع المُلكُ إلى داود ومن بعد لابنه سليمان .

قرّ سليمان فى ملكه ، ووَهَبه ربه ملكا عريضا . وجاها وسيما ، وَسخر له الريح تجرى بأمره ، وتسير بمشيئته ورأيه ، وعلّمه منطق الطير ، فكان يتفاهم بأصواتها ، وينتفع بمواهبها ، ويطمئن إلى إخبارها .

وأسال الله له عيناً مُضطهرة ، تقذف النحاس من باطن الأرض ، فيقبل عليه صنّاع من الجن للانتفاع به في شتى أعمال الإصلاح والتعمير ، ومِن الجن مَنْ يعملُ له ما يشاء من محاريبَ وتماثيل وجفانٍ كالجوابي[1] وقدور راسياتٍ .

* * *

وَرِثَ سليمانُ داود في نبوّته وملكه ، وآتاه الله مُلكا لاينبغي لأحد من بعده ، وعلّمه منطق الطير ، وسخر له الشياطين ، وأطلق بأمره الريح ، فكان يعرف تخاطُبَ الطير بلغاتها ، ويعبّر للناس عن مقاصدها وإرادتها .

ولقد ركب نبيّ الله الملكُ يوماً في حَشْد عظيم من الإنس والجن والطير ، حتى نزل أرض عَسقلان ، فأتى على وادى النمل ، فبَصُرَت به — على بُعْدٍ — نملةٌ من النِّمَال ، فارتاعت لذلك الحشد ، وخافت على قومها أن تدوسهم جنودُ سليمان فتحطمَهم ، فأهابت بهم : أن اخلوا مساكِنَكُمْ حتى لا تَذْهبوا ضَحِيَّةَ سليمان وجنوده وهم لا يشعرون .

سمع سليمان قولها ، وعرف مرادها فى ندائها ، فتبسم ضاحكا لقولها ، سروراً بما ألهمه الله من قوة يدرك بها هذا المنطق العجيب ، وإعجاباً بما تجلّى فى قول النملة من شعور وإدراك ، لأنها أيقنَتْ أنه نبى ، والأنبياء لا يؤذون خلق الله إلا إذا كانوا لا يشعرون .

طلب نبيُّ الله من ربه أن يقيّضَه لشكره على ما أنعم عليه من عطية ، وما خصه به من مزية ، وأن ييسر له سبيل الأعمال الصالحات ، فيهيء له من أمره رَشَداً ، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين .

---

(١) الجوابى : الحياض الكبار .

قضاء الله فى بنى إسرائيل(*)

استَشْرَى(١) الفساد فى بنى إسرائيل ، وتهافتوا فى حَمأةِ الضلال ، وفشا بينهم العِصْيان ، واضطرب حبل الأمان ، ولم تعد للرحمة مكان فى نفوسهم ، ولا لهيبة الأنبياء نصيبٌ من قلوبهم ، أما أحبارُهم وقُرَّاؤهم فقد أنكروا حَق الله ، وأما ولاتُهم فقد كذبوا الرسل ، ونَبَذُوا وراءَ ظُهُورهم الكتاب ، كتاب الله ! فاستحقوا من الله أن يُذِيقَهم العذاب ، وأن يوقعَ عليهم شديدَ العقاب ، ولكنه - سبحانه وتعالى - أعْدَلُ من أن يأخذ قوماً بالعذاب قبل أن يُرْسل إليهم النذير ، أو يعاقبَ طغاةً ظالمين قبل أن يبيِّنَ لهم وجه الطريق .

وكان « أرمياء » نبيًّا من أنبيائهم ، ورجلا من صميم بيوتهم ، فوقف بينهم يصيح بكلمة الحق ، ويَصدع(٢) بأمر الله : أى قومى وأبناء عشيرتى ، لقد طال فسادكم وعمَّ داؤُكمُ ، وسخِط عليكم ربكم ، هذا كتاب الله وراءكم قد نبذتموه ، وذلك حَقُّه فيكم قد جَحَدتموه ، وقد علمتم نِعَمَهُ عليكم سابغة ، وأبْرَادَ خَيْرِه فوقكُم ضافية ، وآلاءه عليكم ظاهرة وباطنة ، قد مكن لكم فى أرضه ، وأنزلكم إلى حِمَى بيته ، وفَضَّلكم على العالمين .

لقد كان لكم بالأمس القريب عظة - وفى رحمته بكم عبرة ، هذا سنحاريب(٣) نزح إليكم من بابل فى عَسفه وبطشه ، وفى جنده وحزبه ، وفى قوته وصبره ،

(*) سورة المائدة : ٧٤ - ٧٦ ، وآل عمران : ١٣١ .

(١) استشرى : استطار .

(٢) يقال صدع بالأمر : أصاب موضعه ، وجاهر به .

(٣) سنحاريب : كان ملك بابل ، أراد أن يغزو بنى إسرائيل ، ولكن الله أرسل إلى جيشه الطاعون فأباده .

حاول أن يغزوَكُمْ فى عُقر دارِكُمْ ، وأن يتغلغل فى صميم بلادكم ، ولو خُلى بينه وبين ما يريد لأفنَى عددكم ، وأذهب جَمْعكم ، لكن الله رحمكم بنبيكم شعيا[1] ، فوقف إلى الله داعياً مُتحنِّنا ، وإليه راغباً مُتطلِّبا : أن يصرف عنكم السوء ، ويدفَع الأذى ، ويَرُدَّ ما يراد بكم من كيد ، فاستجاب الله دعوته ، وتقبّل كلمته ، ورجع عدوكم مذموماً مدحُوراً ، يتعثر فى ثوب الخِزْى ، ويتسربلُ سِرْبال الهوان ، بعد أن هلك جندُه ، ودبّت إليهم الأمراض وتخوّنتهم[2] الأسقام .

وماذا كان جزاء شَعيا فيكم ، وماذا كان مقامه فى نفوسكم ؟ لو كان فى قوم غيركم يَرْعَوْن الجميل، ويحفظون يد الكريم ـ لظل دهرَه بينهم مرعِيّ الجانب، مسموع الكلام ، ولكن يا حسرةً عليكم ، ويا بؤساً لصنيعكم ! لقد أهَنْتُموه وخذلتموه ، ثم قتلتموه وذبحتموه ، فأرَقْتُمْ منه دماً زَكِيًّا ، وأهنتم كريماً أبيًّا !! وصعدت روحُه إلى الله طاهرةً مقدّسة ، مبرورة مكرمة ، تشكو إلى الله الجَوْر والطغيان ، وتبرأ إليه من العقوق والكفران .

ثم مازلتم أنتم هؤلاء : تظاهرون بالإثم ، وتواصَوْن بالعدوان ، ولا تتناهون عن منكر تفعلون ، كأن التوراةَ لم تُهَذِّب من نفوسكم ، وكأن الرسل تنادى فى غير دياركم !!

اسمعوها كلمةً صادقة ، وتلقوه إنذاراً حاسماً : لقد أوحى الله إلىّ أن أدعوكم إلى الحق وأنذركم العذاب والعقاب : لئن لم تُفيقوا من سَكْرَتِكُمْ ، وتزجُرُوا غرابَ جهلكم ، وترجعوا إلى كتابكم تَستمْسِكون بعُرْوَته ، وتحتكمون إلى آياته، وتعودوا قوماً صالحين ، ليبعثن عليكم عبيداً أشداء ، وجنوداً أقوياء ، بأسهم

---

(١) شعيا بن آموص ، كان نبياً من أنبياء بنى إسرائيل .

(٢) تخونتهم : أضعفتهم .

شديد ، وعزمهم حديد : لا تسكن الرحمةُ نفوسَهم ، ولا تعرف الرأفة سبيلَها إلى قلوبهم ، يأخذون بناصيتكم ، ويُرغمون أنوفكم ، ثم يجوسُون هذه الديار ؛ فإذا تلك القصور التى تَنعَمون فى ظلالها قد استحالت خرابا يَبابا ، وإذا تلك الآطام[1] المتراصة أصبحت شعابا[2] ، وحدائقكم التى تَرونها ذات بَهجة تُضحى عرِّيسات[3] أسُود ، وحقولُكم تلك التى تجنون ثمارها تمسى مرابض نمور وفهود ، والمعابد التى خَلَقَها الله رَوْحا لقلوبكم ، ومثابة لنفوسكم ، ليَنتَهِكُنَّ حرماتها وليستبيحنّ عرَصاتِها . . وهكذا تُصبحون حرما مستباحا ، وكلأً مباحا وأنتم بعد ذلك بين أسير وقتيل .

وقد نصحتُ لكم ما وسعنى النصح . وأفصحت لكم ما استطعت الإفصاح ، وأنتم بعد ذلك مُفوِّضون فى الطريق التى تسلكون ، وفى النهج الذى تنتهجون .

قال كبيرهم : أهذا الذى جَمَعْتَ إليه حشدنا ، ودعوت إليه لفيفنا ؟ لقد كذبتَ على الله وأعظمت الفرْية عليه ! أ كان لله الذى اختارنا من بين خَلقه ، واصطفانا لتلقى كتابه ــ أن يُذهب مُلْكنا على يد كفار لا يعبدون إلا النار ، ولا تعنو جباههم إلا للأوثان ! إنَّما ترجمُ بالغيب ، وتعظنى بالمنكر ، وتضرب فى أودَية الوهم والضلال .

قال أرميا : يا هؤلاء ؛ إنما يُرسلهم الله عليكم معذبين ، ويرميكم بهم معاقبين ؛ كما يرسل الطاعون الجارف ، أو السيل العارم ، وما الفرق بين أن تصيبكم دوَيْهيَة تقطع دابركم أو يظهر عليكم ملك كافر يُذلُّ ناصيتَكم ، ويمزق أوصالكم ؛ وشهد الله أنى نصحتكم وما غشَشْتُكم ، فانظروا لأنفسكم ،

---

(١) الآطام : الحصون .   (٢) الشعب : الطريق .

(٣) العريسة : بيت الأسد .

وتخيَّرُوا لأبدانكم . قالوا جادَلْتَنا فأكثرتَ الجدال ، وكأنك رأيت رُقعة الحلم وسيعة فأغريت بالكلام ، وطائر الصدر[1] ساكناً فبلغت فى اللام ، ومانرى لك إلا أن تغَلّ يداك وتصفّد رجلاك ، وتُرْمَى فى سجن عميق ، أو تنفى إلى مكان سحيق . وطلع الصباح وإذا بأرميا مُلْقى فى سجنه، مُصَفَّداً مغلولا !

وتلفّتوا إلى الشرق يوماً ،فإذا بالغبار يَعلو حتى يبلغ عنانَ السماء[2] ، وينعقد حتى يحجبَ الضياء ويتكاثف حتى يملأ الأرض حُلوكةً وظلاماً ؛ ثم ينقشع هذا الغبار ، ويفتضح عن أشْوسَ[3] مقدام ،يقود جيشاً كقِطيع الغمام مافيهم إلا أحَمْس[4] جميع الفؤاد .

كان هذا بختنصر زحف عليهم من بابِل ، يربد بهم الشرَّ ، ويقصِدُ لهم الهلاك ، وهو نِقمَةَ الله أرسلها ، وغضْبَتُه رَمى بها ، فمن الذى يستطيع صده ؟ ومن الذى يقدر أن يقف جيشه ؟ وتساءلوا: أهذا الذى خوّفنا به أرميا ؟إن كان هو فقد حلّت الداهية ووقعت الكارثة .

ولم يمهلهم بختنصر حتى يتمُّوا حَدْسهم ، ويعرفوا ماوراء زَعمِهم ؛ بل انقضْ على المدينة وحشاً كاسراً ، مخرّباً هدّاماً ، جريئاً مقْداماً ؛ لم يصادف منزلا إلا قوّضه ، ولاصَرْحا إلا هدمه ، ولاطريقاً إلا أخفى رُسومَه ، ولاقصراً إلى محا أعلامه .

وبيت المقدس انتهك حُرُماته ، وأسقط شُرُفاته ، وعطل العبادة فى جنباته. أما القوم فقد حاطهُم قتلا وذبحاً ، وأسراً وسبياً ، ثم فرّقهم فى الأرض بَدَدا ، وترك ديارهم خرابا يبابا .

---

(١) طائر الصدر : كناية عن الهدوء   (٢) عنان السماء : ما اعترض من أقطارها .
(٣) الأشوس : الجرىء .   (٤) حمس : شديد فى القتال .

كأن لم يكن بين الحَجُون إلى الصفا أنيس ولم يَسْمر بمكة سامر[1]

ومرت أعوام ، وتصرمت أجيال ، واشتعبت بختنصر شَعُوب[2] ، وقُطِعت أسبابه من الحياة ، وتولى عرش بابل ملك خافِضُ الجناح ، سهلُ المقَادة ، لدْن[3] العُود ، ورأى القومَ من بنى إسرائيل يرْسفون فى أصفاد الذل ، ويَغدون ويروحون تحت نِير[4] الهوان ، فسأل : ما خطبهم ؟ وما أسباب هوانهم ؟ قالوا : إنهم أسلاف يعقوب ، وأحفاد داود ، وكانوا يُقيمون فى الشام وبلادهم مَشفُوهة[5] الموارد ، عَذْبة المناهل ، وإن أباك قد أذل أبِيّهم ، وأرغم حَمِيَّهم ، وفرّقهم فى البلاد طرائق ، وشرّدهم فى الآفاق حزائق[6] ، وضرب عليهم ما تراه من ذُلّ وهوان .

فوجدت هذه الكلمات منه قلباً رحيماً ، وصادفت عنده طبعاً كريماً ، فنادى فيهم : أن اجْمَعُوا شملَكم ، ولموا شعَاتكم ، وضموا نَشْرَكم[7] ، وثوبوا إلى بلادكم ، وعودوا إلى ما كنتم فيه من شمل جميع ، ونسج متلاحم .

ورجعوا إلى بلادهم ، وردّ الله الكَرّةَ عليهم ، وأمَدّهم بالأموال والبنين ، وأخْصَب لهم الزرع ، ونما الضرع ، واطردت لهم أسباب السعادة والوئام .

وكان من حقهم أن يَعْتبروا بما كان ، وأن يقابلوا النعمة بالشكران ، ولكن أنى للنفوس التى طُبِعت على الشر أن تستَرْوح الخير ، وتميل إلى الصلاح ؟

---

(١) الحجون والصفا : جبلان بمكة ، والمعنى : كأن هذه الأماكن لم يعمرها ساكن .
(٢) شعوب : الموت . (٣) لدن : طرى .
(٤) النير (فى الأصل) : الخشبة المعلقة فى عنق الثورين .
(٥) ماء مشفوه : كثرت عليه الأيدى .
(٦) الحزائق : جمع حزيقة ، وهى الجماعة .
(٧) النشر : القوم المتفرقون لا يجمعهم رئيس .

وأنى لسلائل القوم الذين تمالئوا على يوسف ، وآذوا موسى من بَعْدِه ، أن تأنس نفوسهم إلى الاطمئنان ، أو تنسى العـدوان ؛ فإنهم ما عتموا أن رجعوا أدراجهم إلى الشر ، وأخذوا يَحطِبون فى حبال الظلم والبغى ، حتى إذا قام فيهم زكريا ويحيى نبيين رحيمين ، ورسولين كريمين ، سفكوا دمهما ، كأنَّ بنفوسهم عَطشاً إلى الدماء ، وكأن وَتْراً[1] بينهم وبين الأنبياء ، وعادوا إلى الشر والعدوان ، وعاد الله بهم إلى المكر والانتقام ، وسلط عليهم جُودَرْز ، كما سلط على مَنْ قبلهم بختنصّر ، وأعاد الكرّةَ عليهم من ذهاب ملكهم ، وتخريب معابدهم ، وهكذا مُزقوا كلّ ممزق ، وتفرّقوا تحت كل كوكب ، وضرب الله عليهم أبَد الدهر الذِّلةَ والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله : (ذلكَ بأنهُمْ كانُوا يَكْفرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلونَ الأنبياء بِغَيْرِ حق ، ذَلكَ بمَا عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُون)[2] .

---

(١) الوتر : الثأر .   (٢) سورة البقرة ٦١ .

عـــزير (*)

دخل حديقته فإذا هي مخضَرَّة العود ، وارفةُ الظلال ، دانية القطوف ، تصْدحُ فيها البلابل ، وتُطَرِّب الأطيار ، فقضى ساعته متمليّاً[1] بما فيها من جَلال ، مستمتعاً بما تحتويه من شِيات[2] الجمال ، ثم ملأ سَلة من العنب ، وأخرى من التين ، واصطحب مقداراً من الخبز ، وامتطى حمارَه ، وأخذ طريقه إلى المنزل .

وبينما هو يفكر في سرّ الكون ، وعظمة الوجود ، ضلّ به السير ، واضطرب أمامه الطريق ، واشتبهت معالمُ الجهات ، وإذا هو في قرية خَرِبة تُحدث عن قوم فرقتهم عُدَواء الدار[3] ، واحتَبَلَتْهُم حبول المنايا : رُسومٌ دارسة ، وأطلال عافية ، وعظام نَخِرَة ، وأجساد بالية .

فنزل عن حماره ، وألقى بالسلّتين إلى جواره ، وربط الحمار ، وأسند ظهره إلى جدار حتى يجمع نفسه ، ويسترجع قُوَّته وفكْرَه ، ثم طاب له المكان ، واستراح إلى النسيم ، وأطلق العنان لعقله يفكر في هذه الأموات وكيف تنشر ، وتلك الأجساد وأنّى تبعث ، بعد أن أصبحت أَدِيماً للأرض ، وتراباً يجود عليها كل أسحم[4] هطال ، ثم استحال هذا التفكير إلى سهوم ووجوم ، ثم أغمضَت عيناه ، وتخاذلت ركبتاه ، ودخل في نوم مشتمل ، وكأنه لحق بمن في القبور .

ومرت مائة عام مُجرّمات[5] ، وهَرِمت أطفال ، وفنيت أعمار ، وامّحت

(*) سورة البقرة : ١٥٩ ، سورة التوبة : ٣٠ .

(١) متمليا : متمتعا . (٢) شيات : علامات . (٣) عدواء الدار : بعدها .

(٤) أسحم : سحاب (٥) مجرمات : كاملات .

شعوب ، وتقوضت صروح ، وعزير مُلقى فى مكانه جسداً بلا روح ! وعظامه ممزقة الأوصال ، مهشّمة المفاصل ، حتى أذن الله أن يفصل فى قضية حار الناس فى أمرها ، واستعجم عليهم طريقها ، واختلفوا فى تقريرها بحكم يلمسونه بأيديهم ، أو يقع تحت حسهم وأبصارهم ، فجمع عظامه ، وسوّى خلقه ، ونفخ فيه من روحه ، فإذا هو قائم مكتمل الخلق ، شديد البَضْعة[1] ، وإذا هو عُزير يقوم كأنه منتبهٌ من نومه ، يبحث عن حماره ، ويفتّش عن طعامه وشرابه !

وجاء المَلَكُ يسأله : أتظن كم لبثت فى رَقْدَتك يا عزير ؟ قال — ولم يُرَوِّ ولم يفكر — لبثتُ يوماً أو بعض يوم ! قال : بل لبثت مائة عام تسكن هذه الأجداث ويجودك الطّل[2] ، وتهضب[3] عليك السماء ، وتمر عليك السافيات الذاريات[4] ، ومع هذه السنين الطويلة والأزمات المتعاقبة ، فإن طعامك مازال سليما ، وشرابك لم يتغيّر ، ولكن انظر إلى حمارك تراه مُفرّق العظام ، مُتَفَصّى[5] الأعصاب ، والله — جل شأنه — سيُريك هذه العظام ، كيف ينشرها ويحييها ، ويبعث الحياة فيها لتطمئن نفسك بالبعث ، ويزداد إيمانك بيوم الميعاد ، وليجعلك آية للناس تخرجهم من حنادس[6] الشك ، وتوضح لهم ما استعجم عليهم من مذاهب الإيمان .

وتلفت عزير ؛ فإذا حماره بأشراطه[7] وسماته ، قائم على أربع ، تجرى فيه شرايين الحياة ! فقال : (أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) .

وأخذ حماره ، وشرع يتعرف الطريق إلى بيته ، وقد تبدلت المعالم ، وتحولت المنازل ، وبدأ يسترجع ماضيه كأنه يتذكر فى حُلم بعيد ... حتى انتهى إلى منزله ،

---

(١) البضعة : القطعة من اللحم .
(٢) الطل : المطر الخفيف .
(٣) تهضب : تمطر .
(٤) السافيات الذاريات : الرياح .
(٥) المتفصى : المنفصل .
(٦) الحنادس : الظلمات .
(٧) بأشراطه : بعلاماته .

فإذا عجوز ذَوَى عودُها ، ووهَن عمودها ، ولكنها لا تزال باقية على تناسخ المَلَوَيْن[1] ، وتعاقب الجديدين ، وقد عَشِيَ بصرها ، كانت هذه أمَتَهُ التى خلّفها فى ربيع حياتها ، وريِّق[2] شبابها .

سألها : أهذا منزل عُزير ؟ قالت : نعم ، هذا منزل عزير ، وخنقتها العَبرة ، ثم جادت عيناها بدمع هَتُون ، وقالت : لقد ذهب عُزير ، ونسيه النـاسُ ، وما رأيت من حقبة بعيدة مَنْ ذَكَر عُزيراً إلا الآن !

قال : أنا عُزير أماتنى الله مائة عام ، وها قد بعثنى إلى الوجود ، وردَّنى إلى الحياة ؛ فاضطرب أمْرُ العجوز ، وأنكرتْ عليه باديَ الرأى دَعْوَاه ، ثم قالت : إن عُزيراً كان رجلا صالحاً ، مستجاب الدعوة ، ما تطلَّبَ أمراً إلا تَقَبَّلَ منه الله ، ولا تشفّع له فى مريض إلاّ شفاهُ ، فادعُ الله أن يُصحَّ جسمى ، ويرد بصرى . فدعا الله ، فإذا هى ذات بصر حَديد ، ووجه وضىء ! فقبّلت يديه ورجليه ، ثم ذهبت من ساعتها إلى القوم من بنى إسرائيل ، وفيهم أبناؤه وأحفاده ، منهم من بلغ الثمانين ، ومنهم من أخذ بعُنق الخمسين ، وفيهم أترابه ، وقد بَرَى الدهر عظامهم ، وأبلى أبراد شبابهم ، وردَّهم[3] على حافرتهم . وصاحت : إنَّ عُزيراً الذى فقدتموه منذ مائة عام قد رَدَّه الله رجلا غَضَّ الإهاب ، يَخْطِر فى مطارف الشباب .

وطلع عليهمُ عزير رجلا وافر المُنة ، مستوى الخلق ، شديد الأسر[4] ؛ فأنكروا صِفَته ، وأعظموا فِرْيَتَهُ ، ولكنهم أرادوا أن يفتنوه[5] بالرأى ،

---

(١) الملوان : الليل والنهار وكذلك الجديدان . (٢) ريق الشباب : أوله .
(٣) ردهم على حافرتهم ، يقال : رجع على حافرته ، أى فى الطريق الذى جاء منه أى رده بعد القوة إلى الضعف . (٤) الأسر : الخلق . (٥) يفتنوه : يمتحنوه .

ويمتحنوه بالبرهان ، قال أحد أبنائه : إن لأبى شامةً فى كتفه كان يتميز بها ، ويُعرف بصفتها . وكشفوا عن كتفه ، فإذا العلامة كما عرفها أبناؤه ، وكما سمع عنها أحفاده ، ولكنهم أرادوا أن تطمئن قلوبهم ، وتستيقن نفوسهم ، وتمّحى خيوط الشك من بين جوانحهم ، فقال كبير منهم : لقد حُدِّثنا أنه منذ زحف بختنصّر على بيت المقدس ، ومن وقت أن أحرق التوراة ، لم يكن على الأرض مَنْ يحفظ التوراة إلا قليل ، ومنهم عُزير ؛ فإن كنت عزيراً فاتْلُ علينا ما كنت تحفظه منها ، فقرأها لهم لم يترك آية ، ولم يحرف جزءا ، ولم يَخْرِم لفظاً .

عند ذلك صافحوه مصدقين ، وأقبلوا عليه مباركين ، ولكنهم – لشقوتهم – ما ازدادوا إيماناً ، بل ازدادوا كفراً ، وقالوا : (عُزَيْرٌ ابْنُ الله) .

صراع بين الحق والباطل(*)

أخَوَان من بنى إسرائيل تحدَّرا عن رجل واحد ، وأرضعتهما أم واحدة ، ولكنهما تباينا فى طبعهما كما تتباين النَّبْتَة والنبتة وأصلهما واحد ، والزهرة والزهرة وكمهما متشابه ؛ فيهوذا نشأ مؤمناً بربه ، عارفاً بمقدار نفسه ، عفيفاً كريماً ، وقوراً ، حليماً ، أعرض عن الدنيا وخُدَعها ، وغضَّ طرفه عن متاعها وزخرفها ، وقُطْرُوس نشأ كافراً جاحداً ، شحيحاً بخيلا ، كزَّ اليدين ، غليظ الكبد ، جافى الطبع .

وجمَعهُمَا أبوهما على ثروة ضافية ، ونعمة وافية ، حتى إذا عَلِقهُ حِمَامه ، وطُوِيت من الحياة أيامه ، اقتسما المال والعَقَار ، وذهب كل منهما فى إنفاقه مذهباً يُوَائم طبعه ، وينسجم مع نحيزته وهواه .

أما يهوذا فقد توجه إلى الله قائلا : يارب ، إنى سأخرج مالى فى مَرْضَاتك ، وسأبذله فى طاعتك ، شكراً لنعمائك ، وطمعاً فى جنتك . . . وانطلقت كفاه بالإنفاق ؛ فأعطى العافى(1) ، وفكَّ العانى(2) ، وحمل الكَلَّ(3) ، وبذل المعروف وأعان على نوائب الدهر ، حتى رَقَّتْ حَاشِيَة حاله ، ونفِدَ ماله أو كاد ، ولكن ظلَّ دهره هادىء الضمير ، مُرْتَاح الفؤاد ، قانعاً بالكفاف ، راضياً بقليل الزَّاد .

أمَّا قطروس فإنه ما كاد يتسلم ماله ، حتى احتواه ، ووضع دونه المفاتيح

(*) سورة الكهف ، آية ٣٣ وما بعدها .

(1) العافى : القاصد والسائل .   (2) العانى : الأسير .

(3) الكل : اليتيم ، والثقيل لا خير فيه .

والأغلاق ، ثم حَرَم السائل ، وجَبَه القاصد ، وأصمَّ أذُنَيْه عن أنّةِ الفقير ، وأغمضَ عَيْنَيْه عن رؤية المسكين ؛ ثم ارتَفَقَ حائطين[1] أنفقَ عليهما عُمره ، وأراق فيهما ماء شبابه ؛ أنبتهما كَرماً فأورقا وأثمرا ، وامتدَّ عَرْشُهُما ، وأورق ظلهما ، ثم اتخذ بينهما طريقاً عَبَّدها ومهدها ، وأجرى بينهما الماء ، وحاطَهُما بالنخيل ، فكان رائيهما يحسب أن جنة الخلد قد نزلت إلى الأرض فى أبهى حُلَلِهَا وأنفس حُلاَهَا ؛ ربعٌ خصيب ، وثمر قريب ، وورق نَضِر ، وماءٌ خَصِر[2] وزهر ينفَح ، وَوُرْق تصدح ، حتى أصبحتا نزهة السمع ، وفتنة البصر .

ثم بسط الله فى رزقه ، وزاد فى ماله ، وبارك فى ثمره ، ورزقه بنين وأولاداً ، زادوا فى مظاهر نِعْمته ، ورفاهية عيشته .

وتلك النعمَة التى ظلَّ يمرح فى أبرادها ، ويتقلب على جَنَبَاتها كان خليقاً به أن يتدبرَ صانِعها ومُجْريها ، ومانحها ومُعْطيها ، فيؤمن ويشكر ، ويُذْعِنُ ويَحْمد ، ولكن فريقاً من الناس تُطْغيهم النِّعْمة ، ويغشِّى على بصائرهم النَّعيم ، ويظلون سادِرِين[3] فى غُلَوَائهم ممنعين فى إغفالهم ، حتى يَقْرَعهم الدهرُ بنابه ، فإذا الغشاوَة ترتفعُ ، والحجبُ تتمزَّق .

وكذلك كان قطروس ، وما ازداد على نعمَة الله إلا كفْرَاناً . وما أثمرت منه إلا طغياناً .

مرَّ عليه أخوهُ فى خُلْقَانه[4] المرقّعة . وأسْماله البالية ؛ فاقتحمَهُ بِعَيْنِه وازدراه فى نفسه . ونالَ منه بقارس قوله :

---

(١) ارتفق : اتفع ، والحائط : البستان . (٢) خصر : بارد .
(٣) السادر : الذى لا يهتم ولا يبالى ما صنع ، والغلواء : شرة الشباب .
(٤) خلقان : جمع خلق ، وهو الثوب البالى .

أين مالك ونَشَبُك ؟ أين فضتك وذَهَبك ؟ لشتَّان ما بيني وبينك ! أنتَ رقيق الحال ، ممزَّق السِّرْبال ، فاقد الأعوان ، قليل الإخوان ، وأما أنا فكما تراني ، في بُلَهْنِيَة عَيْش ، وخَفْض أيام ، ولي مالٌ وبنون ، وخَدَم وأعوان . تعالَ ادخل إلى جنَّتي ، ترَ الكروم المهدَّلة[1] ، والأعواد المخضرَّة ، والمياهَ المتفجرَة ، والظلَّ الوارفِ ، والغُصْن العاطفِ ، والثمر الداني القطوف ، ثم انظر إلى هذه الثمار ، إنها ترْبُو في كل عام ، وتنتج وافراً في كل أوان ، هو خير دائم ما أظنه يَنْفَدُ ، وثوبٌ من النِّعمة ما أراهُ يَبْلَى .

أمَّا السَّاعَةُ التي تَرْجُف دائماً بقيامها ، والبعْثُ الذي ما برِحْتَ تلهجُ بوقوعه وضرورة حُصوله ، فما أحْسبه قولاً مَفْهوماً ، أو سائغاً معقولا ، على أنني لو جريتُ في عِنَان فكرك ، وخضَعْتُ لمفهوم قولك ، فإنني لا بدَّ واجدٌ عند الله خيراً من هذه الجنة ، وأكرمَ من هذه الثمار ، ألاَ تراهُ قد آثرني في دُنْيَاي بالخير ؟ ! فما يمنعُ عندهُ أن يؤثرني في آخرتي بما هو أكرم عندَهُ ، وأحسن لديه ؟ !

قال يهوذا : إنك لتكْفُر بالله ، إذ تنكر عليه أن يبعَثك ، أو يُحْيِيَك بعد موتك فيُحَاسبك ، أفمن خَلَقَ الإنسان من سُلالةٍ من طين ، ثم جعَلهُ نُطفة في قرار مكين ، ثمَّ أحَال النطفَةَ علقةً ، ثمَّ صَيَّرَ العَلقة مُضْغَةً ، ثمَّ جَعَلَ المضغة عظاماً ، ثم كسا العِظَام لحماً ، ثم أصبح بعد ذلك إنساناً عجيب الأسرار ، أفمن مرَّت به أدوارُ حياته على هذا النحو ، يُعْجِزُ خالقهُ أن يبعثه من مرقده ، أو ينشره بعدَ موته ؟ !

لا ، بل إن ذلك أهونُ عليه ، وأقربُ لديه ، ولكن على قلبك غلاف ،

---

(١) المهدلة : المدلاة .

وفى سَمْعك وَقر[1]، وعلى عقلك حجاب ، فاشتبه عليكَ الأمْرُ ، وَنَدَّ عليك الصواب .

ثم تُعَيِّرُنى بالفقر ، وتكاثرنى بالمال[2]، وأنا فى فقرى أغنى منك فى غناك، فليست الثروة بما تُحْرِزُ من مال ، أو تحويه من مستَغلات وعقار ، مما تشغل به دائماً ، ويتعَلق به أملك ، بل الثروة إنما تقدَّر بقدر ما تزهد فيه من حاج ، أو تستغنى عنه من متاع وزخرف ، وأن تلك الجواهر التى تَفْخَرُ بها وتكاثرنى على حِسَابها ، لا تَعْدُو أن تكون فى نظرى حصى يتألق ، أو آلاً[3] يلمع ، وذلك البستانُ المونقُ المعْجب ، لا يجاوزُ فى تقديرى عُشْباً يطلعُ فى الأرض ينمو ويترعرع ، ثم ييبسُ ويصبحُ هشيماً[4] تذروهُ الرياحُ ، وذلك النفرُ الذين تَعْتَدُّ بهم ليسوا إلا أعواناً لك على الشرِّ ، يُطْغونك ويفْتِنُونك ، أمَّا أنا فحسبى بالله نصيراً ووكيلا .

والنعمَةُ كل النِّعْمة عندى أن أجد الكفاف حاضراً ، والصحة فارهة ، وأن أكون آمناً فى سربى ، خارجاً من سلطان ما بينى وبين الناس ، ولأنْ أجوع يوماً فأدعو الله ، وأشبع يوماً فأحمدهُ وأشكره ، خير لى من هذا المال الذى قد يُبْطِرنى ويطغينى ، كما أبطرك وأطغاك ، وعسى ربى — كفاء لما صبرتُ على قضائه ، وما أنفقتُ من مالى على فقرائه — أن يكون قد أعَدَّ لى جنة خيراً من جَنَّتِك ، ونعيماً مُقيماً خيراً من نَعِيمِكَ .

أمَّا جنتاك هاتانِ فقد لا تأمن عليهما عوادىَ العَوَاصِفَ ، أو تقَلُّبَ

---

(١) الوقر : الثقل فى الأذن .
(٢) تكاثرنى : تريد أن تغلبنى بكثرة المال .
(٣) الآل : السراب .
(٤) الهشيم : اليابس المتكسر من النبات .

الأنواء[١]، فإذا الأوراق جافة ، والكُرُوم كعَصْف[٢] على الأرض مأكول، وهذا الماء النَّمِيرُ الذى يجرى سلسلا بينهما ، فيبعث الحياة ، وينشرُ المَوات ، قد يغور فى أعماق الأرض فتتطلبه بكل حيلة ، وتحتال لاستنباطه بكل سبيل ، فإذا هو أعَزُّ عليك من بيض الأنوق[٣] .

وفرغ « يهوذا » من قوله ، ثم ترك أخاهُ يُعْجَبُ ببستانه ، ويمرحُ بين أزهاره ونَواره .

وأصبح « قطروس » يوماً ، وذهب كعادته إلى جَنَّتَيْهِ يستروح — كما اعتاد — النسيم ، ويتفَيّأ ظلال الكروم ، فما راعه إلا أن رآهما أطلالا بالية ، ورسوماً عافية ، ونبتاً مصوَّحاً[٤]، وعرُوشاً محطَّمة ، وأعواداً ملقاة .

جَفَّ حلقه ، وغَصَّ بريقه ، وتساقطت خوافيه وقوادمه ، ثم ذلَّتْ أخادِعه[٥]، ولانَ بعد جماحه ، ودانَ بعد طماحه ، وأخذ يقلب كفيه حسرة على ما أنفقَ ، ويقول : (يا لَيْتنى لم أُشْرِك برَبِّى أَحَداً) .

---

(١) النوء : سقوط نجم فى المغرب وطلوع آخر من المشرق يقابله من ساعته فى كل ثلاثة عشر يوماً ، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها

(٢) العصف : الورق الجاف .

(٣) الأنوق : طائر يخفى بيضه فلا يكاد يظفر به أحد .

(٤) مصوحاً : يابساً . (٥) ذلت أخادعه : استكان .

أصحاب الجنة(*)

تنفس الصباح ، وهبّت نسائمه هيّنة ناعمة ، وأقبل الشيخ[1] وئيد الخطو ، مبهور[2] النفس ، أحنت ظهره السنون ، وألانَ قَنَاتَهُ الإصباحُ والإمساء ، ولم يكد حاجب الشمس يبدو حتى كانَ يَدُقُّ بِعَصَاهُ باب حديقته فى ضَرَوان[3] .

وكانت حديقةُ الشيخ جَنَّة دانيَة القُطوف ، فوّاحَة الزهر ، قد رقت حَوَاشيها ، وتأنّقَ واشيها ، وجرى الماء فى جداولها عذباً سلسالاً ، وتنقل النسيم بين خمائلها بليلاً دانياً ، وعَلَى بساطها نَشر الرّبيع حُلله ومطارفه ، وحاكَ أزهاره وأنواره ، وفيما وراء ذلك أشجار موقرة بالثمار ، وبقلٌ ، وأعنابٌ ، وزرعٌ ، ونخيل ، صِنْوَانٌ وغير صِنْوَان ، فغدت مُتْعَةَ الناظر ، ونزهة الخاطر ، واتخذها النَّاسُ مثابة وأمناً ، لهم تحت أشجارها ظلٌّ ومَقِيل ، وبين أفيائها سَمَرٌ وحديث .

ودار الشيخ فى جنباتها ، وتنقل بين زوايها وأنماطها ، تنشقَ من شذا الأزاهير ، وامتلأت عينُه بدانى الثمار وأصغت أذناه إلى تغريد البلابل ، وتطريب الأطيار ، ثم ذهب إلى مُصَلاّهُ فسجد شاكراً لله أنعمه ، راغباً إليه أن يجنِّبَه طغيانَ الغنى ، وأن يُثْنيه عن فتنَة الدنيا ووسوسة الشيطان .

وتلك كانت عادةُ الشيخ يُصْبَح[4] كل نَهَار ، ثم يتعاقب الجديدان[5] ، وتتوالى عشيّات وأصائل ، حتى يرى الجنة قد آتت أكلها ، وآذن حصادُها ، فيدعو البستانى وأعوانه ، ويُعْملونَ المناجل ، ويقطفون الثمار ، ثم يَفِدُ إليه

(*) سورة القلم : ١٧ — ٢٣

(١) ذكر ابن كثير أنه من بنى إسرائيل

(٢) البهر : تتابع النفس

(٣) من قرى اليمن

(٤) مصبح النهار : صباح النهار .

جماعاتُ الفقراء على ما عوّدهم من كل عام ، فيعطيهم نصيبهم وافراً ، هذا يملأ مِكْتَله ، وذاك يحمل فى ثيابه ، ولهم بعد ذلك ما أخطأه المنجل ، وما تركه الحاصد ، وما تناثر بين الأشجار رزقاً حلالا طيباً ، وجرى على هذا فى كل عام.

لم يُطق أبناء الشيخ صبراً : أن رأوا مال أبيهم موزعاً بين الفقراء ، وبستانه مستباحاً للمساكين ، وأنهم والعافين والسائلين سواء ، بل ربما كان هؤلاء أحسن منهم حالا ، وأكثر بالجنة استمتاعاً .

قال قائل منهم : إنك يا أبى بما تنفق على الفقراء وتعطى ، وما تخصهم به من بَذْل ورفْد ، فَتَبْخَسُنا حقنا ، وتضيق علينا فى رزقنا .

وقال غيره : وإنك يا أبت لو مَضَيْتَ فى شأنك هذا فإنك سوف لا تُبْقى مالا ولا نَشَباً ، وسوف لا تخلف ضَرْعاً ولا ثمراً ، وسنغدو بعدك فقراء نمدّ الأيدى ونتكفف الناس .

وهمّ ثالث بالكلام ، فأشار إليه بالصمت ، وأدار عينيه فى وجوه الجميع وقال : ما أراكم إلا خاطئين فى الوهم والتقدير ، ما هذا المالُ الذى تريدون أن تتحكموا فيه وتستأثروا به ؟ ليس المال مالى أو مالكم ، وهذا البستان ليس فى حَوْزتى أو حَوْزتكم ، إنما هو مالُ الله مَكّننى فيه وآمننى عليه ، على أن أنفقه فى أكْرَم وجوهه ، وأنفعها لخلقه ؛ فللفقراء والمساكين حَقُّهُم ، ولأبناء السبيل والعافين نصيبُهم ، وللطيور والبهائم طعامُها ، وما فَضَلَ بعد ذلك فهو لى ولكم ، ذلك ما فعلتهُ وعوّدته الفقراء وأنفذت فيه حكم الله ، والمال بهذا يَزْكو[1] ، وعلى هذا النحو من الإنفاق يزيد ، وتلك خطة درجتُ عليها شاباً طريراً[2] ، والتزمتها رجلا كَهْلاً ؛ فكيف بى أن أتركها اليوم شيخاً هِمًّا فانياً ؟

---

(١) يزكو : يزيد . (٢) يقال : طر شاربه ، أى أنبت .

على رِسْلِكم[1]، فها أنتم أولاء ترون شَعْرِى قد اشتهب، وجسمى قد نحل، وعودى قد ذَوَى، والأسقام قد أخذت سبيلها إلىّ، ولن ألبث إلا قليلا حتى ألقى الله، وإنكم سترثون البستان والمال والنَّعم والشاء، وأنتم بين خطتين، إن أنفقتم فإن الله وَعَدَ مُنْفِقاً خلفاً، وإن بخلتم فإن الله أنذر مُمْسِكاً تَلَفاً، وله فيكم أمر هو بالغه.

ولم يمكث الشيخ طويلا حتى أَزْمَته العلة، وألحّ عليه السقم، ثم لفظَ آخر أنفاسه، وفرغ من شؤون الناس والحياة.

ومضت الأيام سراعاً، وتهيأت الحديقة للجَنْى، ودنت أثمارُها للقطوف، واستشرف الفقراء لنصيبهم فى الثمر، دأبهم فى كل عام.

واجتمع الأبناء يديرون الرأى، ويُعِدُّون شأنهم للحصيد؛ قال قائلهم: لم يَعُد بعد اليوم فى البستان حق لسائل أو فقير، ولم تصبح الخمائل مأوًى لقاصد أو ابن سبيل، ولكل نصيبُه يثمّره إذا شاء، ويخزن منه مايشاء، إننا لو فعلنا ذلك فإن شأننا سيعلو، ومالنا سيزيد.

قال أوسطهم — وكان أقرب إلى أبيه نحيزة[2] وَجِبِلة، وأدنى إلى الخير واصطناع الجميل —: إنكم تقدمون على أمر تظنونه خيراً لكم، ولكنه يحوى الشر فى طياته، وتحسبونه نفعاً لكم، لكنه سيقضى على بستانكم من جُذُوره، إنكم لو حرمتم الفقراء، وعطلتم حق المساكين، لا تأمنون منهم شرًّا واعتداء، ويوشك ـ لو فعلتم ـ أن يعلنوها ثَوْرَة وَعُدْوَاناً؛ امنحوهم حقهم، واذهبوا مَذْهَب أبيكم فى إرضائهم، وما فضل بعد ذلك فإن الله ينمّيه، ويبارك فيه.

ولكنهم صاحوا فى وجهه: لا تقترح شيئاً لا تملك، وكُفّ عن نصائحك ولن تجد منا إلا آذاناً صماء!

---

(١) على رسلكم: على مهلكم. (٢) النحيزة: الطبع، وكذلك: الجبلة.

قال : أما إذا رأيتم ألا تسمعوا قولى ، أو ترغبوا فى نُصْحى، فعليكم بالصلاة فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وقد تردكم إلى الحق ، وتعطف قلوبكم على الفقراء ، ولكنهم ما استمعوا ولا أجابوا .

وبيَّتوا أمرهم عشاء أن يقوموا فى عَمَاية[1] الصبح ، وقبل أن ينبلج عمودُ النهار ويفارق النوم مضاجعَ الفقراء ، ويعمدوا إلى الحديقة يقطفون ثمارَها ويوزعون فيما بينهم أنصباءهم منها ، و (أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[2] مُصْبِحِين. ولا يَسْتَثْنُون) .

وعلم الله سوء نيتهم ، ودخيلة نفوسهم ، وما انعقد عليه رأيهم من حِرْمان المسكين ، وأكل نصيب السائل والمحروم ، فأرسل إلى جَنتهم طائفاً[3] قلع نَبْتها وأسقط ثمرها ، وجفف أوراقها وأعوادها .

وطلع عليهم النهار وهم على أسوار الحديقة يتساءلون : أهذه جَنَّتنا ، وقد تركناها بالأمس مَورِقةَ الشجر ، جارية الماء ، فَوَّاحة الزهر ، دانية القطوف ؟ ما نظن أن هذه حديقتنا ، وإننا لضالون .

قال أوسطهم : بل هى جنتكم حُرِمتم منها قبل أن يحرم الفقير ، وجُوزيتم بأسوأ ما يجزى لِحَزٌ شحيح ؟ (أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لولاَ تُسَبِّحُونَ . قالوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنا ظالمينَ . فأقبلَ بعضُهُمْ عَلَى بعضٍ يَتَلاوَمُونَ . قالوا يا وَيلنَا إنا كُنا طاغِينَ . عسى ربنا أن يُبْدِلنا خَيْراً منها ، إنا إلى رَبنَا رَاغِبُون) .

ولكن مَضى قدر ، وبقى أسف ، وليذوقوا عاقبة كيدهم (كذلك العذاب ولَعَذابُ الآخرة أكبرُ لو كانوا يعلمون) .

---

(١) عماية الصبح : أوله . (٢) ليصرمنها : ليقطعنها . (٣) الطائف: البلاء

أيوب (*)

تشقق الحديث بين ملائكة الله عن الخلق وعبادتهم ومعصيتهم أو طاعتهم قال قائل منهم : ما على الأرض اليوم خير من أيوب ، إنه مؤمن قانت، ساجد عابد ، بسط الله فى رزقه ، وَأَنْسَأَ[1] فى أجله ، وفى ماله حق معلوم للسائل والمحروم وأيامه عبادة لربه ، وشكر لنعمائه ، وعبادتُه حجة على الأغنياء والمُتْرَفين من خَلْقه ؛ فكلهم ظاهرَ قوله ، وصَدّق دعواه .

سمع إبليسُ قَالَتهُمْ ، ولم يكن محجوباً عنهم ، أو بعيداً عن ساحتهم، فساءه أن يكون رجل فى الأرض يعبدُ الله كما يعبده أيوب ، وهَمّهُ فى الأرض إغْوَاء للصالح وإفسادٌ للمؤمن ، ووسوسة للطائع ، المُذْعِن ، فخفّ إليه يغويه أو يُضِله فوجده امرأً يَمْرَح فى مطارف النعمة ، ويجول فى حقول الثراء ، ولكنه لم يُبْطِره الغنى ، ولم يغوه المال ، فهو أبداً لاهجٌ بذكر ربه ، برٌّ بأهله حَدِبٌ عاطف على عبيده وخدمه ، يُطعم الجائع ، ويكسو العارى ، ويفك العانى[2] ، ويبسط وجهه للعافى[3] ، ثم هو يردُّ الظالم ، ويعلم الجاهل وينشر العلم والمعرفة بين الناس.

فحاوَل أن يقترب من قلبه ، أو يوسوس إليه وراء أذنه ، وأن يُزَيّن له الدنيا ومجاليها ، وأن يزهده فى العبادة وما فيها ، ولكنه وجد أذناً صَمّاء عن الخنا ، وقلباً أغلف عن الهوى ؛ وَجَدهُ من عباد الله المخلصين ، الذين ليس له عليهم سلطان ، فكره ما رأى ، وحزَ به ما لقى من أيوب ، ثم رجع إلى الله ،

(*) ص ٤١ — ٤٤ م الأنبياء ٨٣ و ٨٤ ، الأنعام ٨٤ .

(١) انسأ : أخر . (٢) العانى : الأسير . (٣) العافى : طالب العطاء

ووقف منه الموقف الذى كان يقفه منه قبل أن يطرده من رحمته ، ويقصيه عن سُدَّته ، وقال : يا رب ، عَبْدُك أيوب الذى يعبدك ويقدِّسُك ، ويهتف قلبهُ بذكرك ، ويلهج لسانه بتسبيحك ، ما يعبدك تطوعاً من نفسه ، ولا نافلة من عنده ، إنما يعبدك ثمناً لما منحتَهُ من مال وبنين ، وما أسبغته عليه من ثروة وعقار ، وطمعاً فى أن تبقى له ماله ، وتحفظ له دنياهُ : ألوف من الغنم والإبل ، ومئات من الأتن والبقر ، وعديد من الفدادين[1] والعبيد ، وبنون وبنات ، وأرض عريضة ، وحقول خصيبة ! !

أليست هذه النعم جديرةً بأن تعينه على شكرك ، وأن تحمله على عبادتك؟! خشية أن يمسها الزوال أو يصيبها الفناء ! ! فعبادته مشوبة بالرغبة والرهبة مُشربة بالخوف والطمع . . انزع عنه هذه النعمة ، وجرِّدهُ من هذا الثراء ؛ فإنك تراهُ وقد خَرِس لسانه عن ذكرك ، وأعرض عن طاعتك .

قال الله تعالى : إن أيوبَ عبد مؤمن خالص الإيمان ، لا يعبدنى إلا لما يراه من حق العبادة ، ولا يذكرنى إلا لما يعرفه من حق الذكر ، ذكر وعبادة مجردان عن حب الدنيا ، بريئان من المطامع والأغراض .

ولكن ، ليكون أيوب قبساً وهاجاً فى الإيمان ، ومثلا عالياً فى الصبر واليقين : قد أبحتك ماله وعقاره ، اجمع لها جنودك وأعوانك وشيعتك وحزبك وافعلوا بهما ما تريدون ، ثم انظروا إلى ما تنتهون .

فنكص إبليس على أعقابه ؛ وراح يجمع الشياطين من شيعته وأوليائه . وأوحى إليهم أن الله قد رخَّص له فى مال أيوب . يذهب به ويفنيه . وأنه يطمع

---

(١) الفدادين : جمع فدان ، والفدان : الثور أو الثوران يقرنان للحرث بينهما .

فى أوليائه أن يصنع كل منهم فى الإهلاك نصيبه ، ليعود أيوب مجرداً من ماله ثم يرجع بعد ذلك سليباً من إيمانه .

فانطلقت الشياطين ، وفعلت أفاعيلها ، حتى أتت على الغنم والإبل ، والأتن والعبيد ، والناطق والصامت ، والأخضر واليابس ، وأصبح بعدها أيوب فارغ اليدين ، صفر الراحتين .

أما إبليسُ فتمثّل لأيوب رجلا همًّا[1] حكيما مجرّباً ، وقال له : إن النار قد أتتْ على ثروتك من قواعدها ، وقد هلك الزرعُ والضرع ، وذهب المال والنّشَب[2] ، ووقف الناسُ أمام هذا واجمين مبهوتين ، من قائل يقول : إن أيوب ما كان إلا فى غرور من عبادته ، وضلال من زكاته وصلاته . وآخر يقول : لو أن الله استطاع دفعَ شر وَجَلْب خير لكان أيوب أولى بذلك وأجدر . ومن آخر يقول : إن الله لم يفعل ما أراد إلا ليشمت به عدوّه ، أو يَفجَع فيه صديقه .

وظن بما ألقاه من خَبَر فاجع ، ونبأ مروّع ، أنه سيزحزح من إيمانه ، أو يُفسد من جنانه ، ولكن أيوب كان أقوى إيماناً وأشدّ إذعاناً ، وأعمرَ بالتقوى قلباً ، وأحكم ما يكون رأياً ولُباً . قال : عارية لله استردها ، ووديعة كانت عندى فأخذها ، نَعِمنَا بها دهراً ؛ فالحمد لله على ما أنعم ، وَسَلَبنَا إياها اليوم ، فله الحمد مُعطياً وسالباً ، راضياً وساخطاً ، نافعاً وضارًّا ، هو مالك الملك ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزعُ الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، وَيُذِلُّ من يشاء ، ثم خرّ لله ساجداً وترك إبليس خَزْيان ينظر !

ولكن إبليس رجع إلى الله يحاول أن يحوك للشر ثوباً جديداً ، وَيَنْسجَ

---

(١) الهم : الشيخ الفانى . (٢) المدخر :

للإغواء رداء قشيباً ، وقال : يا رب ، إنّ أيوب وإن كان لم يقابل النعمة إلا بالحمد ، والمصيبة إلا بالصبر ، فليس ذلك إلا اعتداداً بمن يعتز بهم من أولاد ، وإنه يطمع أن يشتد بهم ظهرُه ، ويشتدّ عضده ، فيَرَدّ إليه ما ذهب من ماله ، ويرجع ما فقد من ثروته وعقاره ، وإن سلّطتنى على أولاده أفعل بهم ما يَكْرَهُ ، فأنا موقن أن أيوب سيصيرُ أشدّ ما يكون كفراً وجحوداً ، وأعظم ما أرجو منه جهلا وعِناداً ، فلا أشدّ من فتنة الولد ، ولا أحْفَظ للنفس من الفجيعة فيهم .

فأجاب الله قائلا : لقد سلطتك على ولده ، ولكنك سوف لا تُنْقِصُ ذرّة من إيمانه ، أو تَذْهب بقطرة من صبره وعزمه .

انصرفَ إبليس ، ودعا إليه شيعَته ، وحزبه ، وذهبوا إلى حيث يقيم وَلَدُ أيوب فى قصر مشيد ، بين نعمة ضافية ، وَبِلَهْنِيَةٍ من العيش سابغة ، فزلزل قصرَهم ، حتى تصدّع بنيانه ، ووقعتْ حيطانه ، وأصيبوا جميعهم ، وفنوا عن آخرهم .

ولما بلغ إبليس ما أراد ، ذهب إلى أيوب متمثلا فى رجل يَنعاهم ، وقال له : لو رأيتَ أولادك اليوم قتلى مُضرّجين ، هذا مجروح ، وذاك مشدوخ ، لعلمت أن الله لم يكافئك بعبادتك ، ولم يَرْعك حق رعايتك .

فاستعبر وبكى ، ولكنه قال : الله أعطى ، والله أخذ ، فله الحمد مُعطياً وسالباً ، ساخطاً وراضياً ، نافعاً وضارًا ، ثم خرّ لله ساجداً ، وترك إبليس يكاد يتميّز من الغيظ ، ويتمزّع من الحَنَق .

ثم رجع إبليس إلى الله يقول : يا رب ، لقد ذهب المال عن أيوب ، وَفَنِيَ الولد ، ولكنه لا يزال فى عافية من بَدَنه ، وصحة من جسمه ، وإنه ليعبدُك أملا

فى أن يعودَ المال ويُرَدَّ الولد ، ولكن سَلِّطنى على جسمه ، ورخِّص لى فى أن أنالَ من عافيته ، وأنا زعيم أنه لو مَسَّه الداء ، وأنهكه السقم ، وأدْنَفَهُ المرض أن يُهمل عِبادتك ، ويخلع ثَوْب طاعتك ، ويشغل بأسقامه عن ذكرك .

فأراد الله أن يجعل من أيوب عبداً مؤمناً ، صابراً شاكراً ، تكون قصته عِبْرَةً للصابرين ، وعزاء للمكروبين ، وَسَلْوَى للمرضى والمجروحين ، وليكون أيوب على الدهر المعلّمَ الأول للصبر ، والمثل العالى فى الإيمان ، وليرفع فى الدنيا ذِكْرَه ، ويُعلى فى الآخرة مقامه — فقال لإبليس : لقد سلطتك على جسده ، ولكن حذار أن تقترب من رُوحه ولسانه ، وعقْله وجنانه ، فإن فيها سرّ إيمانه ومظهر دينه وعرفانه .

فذهب إبليس فى كيده ، ونفخَ فى أيوب ، فاستحال سقيماً مريضاً ، مُدْنفاً عليلا ، ولكنه ازداد إيماناً ، وما ادّرع إلا صبراً وحَزْماً ، وكلما ألحّ عليه الداء ، وتخوّنه[1] السقم ازداد شكرُه وإذعانه ، وتقوّى إيمانه ويقينُه .

* * *

ومرّت الأيام ، وتحدرت الأعوام ، وأيوب لايزال على شكاته ، حتى هزل جسمُه ، وذهب لحمُه ، وأصبح منقوفَ[2] الوجه ، شاحب اللون ، لا يَقَرُّ على فِرَاشه من الألم ؛ ففرّ عنه الصديق ، وجانَبَهُ الرفيق ، ورغبت عنه شيعتُه ومَنْ حوله ، إلا زوجه الرءوم العطوف ؛ فإنها تحنّنت عليه ما وسع قلبها الحنان ، وعنيت به ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، ورفت عليه بجناحيها ، وبسطت له

---

(١) تخونه السقم : أصابه . (٢) منقوف الوجه : ضامره .

أكناف قلبها ، وما شكت إلا هموماً تُساورها من آلامه ، ومخاوف تحذرُها على حياته ، ولكنها ظلت أيام مرضه حامدة راضية ، مؤمنة محتسبة .

أما إبليس فقد أعياه أمر أيوب ، وشق عليه ما رآه من إيمانه ويقينه ، وأهمه ما صادف من الإخفاق ؛ فجمع أعوانه مرة أخرى ، وشكا إليهم ما امتنع عليه من أيوب ، وما يستلئم به من إيمان وصبر ، بعد أن سُلِّطَ على ماله وولده ، فلم يزدد إلا إيماناً وشكراً ، وبعد أن سُلط على جسده فما فتر لسانه عن ذكر الله ، وما تزعزع قلبُه عن الإيمان بالله .

فقالوا له : أين مكرُك وحيلتُك ، وتلطفك فى الوسوسة ، وحسن تأتيك فى الإغواء ؟ بطل كل ذلك فى أيوب ؟

فقال أحدهم : لقد أخرجتَ آدم أبا البشر من الجنة ، فمن أين أتيته ؟ قال : أتيته من قبل امرأته ، فقال : فشأنك فى أيوب من جهة امرأته ، قال : أصبتم الرأى ، ولم تجاوزُوا الحق .

وانطلق إلى امرأته ، وهى فى بعض شأنها مع أيوب ، وتمثل لها رجلا ، وقال : أين زوجك ؟ قالت : هو هذا ، عميداً وقيذاً[1] ، يتضوّر من الحمى ، ويتقلب مما ألحّ عليه من الداء ، لا هو ميت فينعى ، ولا هو حى فيرجى .

فلما سمع قولها طمع فى إغوائها ؛ فأخذ يذكّرها بما كان لزوجها فى صدْر شبابه ، وغضاضة إهابه من صحة وعافية ، ونعمة ضافية ؛ فأعادتْ لها الذكرى الأشجانَ ، وأثارت لديها كوامنَ الأحزان ، ثم أخذ يدركها الضجر ، وينساب إلى قلبها اليأس .

وذهبت إلى أيوب ، وقالت : حتى متى يعذبك ربك ؟ أين المال ؟ أين العيال ؟ أين الصديق ؟ أين الرفيق ؟ أين شبابك الذاهب ؟ وعزك القديم ؟

---

(١) عميداً : ضنيفاً ، وقيذاً : مشرفاً على الموت .

قال : لقد سوّل لكِ الشيطانُ أمراً ؟ أتراكِ تبكين على عزّ فات ، وولد مات؟ فقالت : هلا دعوت الله أن يكشفَ حزنك ، ويُزيحَ بلواك ؟ قال : كم مكثت فى الرخاء ؟ قالت : ثمانين . قال : كم لبثتُ فى البلاء ؟ قالت : سبع سنين .

قال : أستحى أن أطلب من الله رَفْع بلائى ، وماقضيت فيه مدة رخائى !! ولكن يخيل لى أنه قد بدأ يضعف إيمانكِ ، ويضيق بقضاء الله قلبُك ، ولئن برئتُ وأتتنى القوّة لأضربنكِ مائة سوط ، وحرام بعدَ اليوم أن آكل من يديك طعاماً أو شراباً ، أو أكلفك أمراً أو عناء ؛ فاعزبى عنى ، حتى يقضىَ الله أمراً كان مفعولا .

* * *

ولما رأى أيوب أنه قد أصبح وحيداً فريداً ، وقد اشتدت آلامه ، وتضاعفت أسقامه ، فزع إلى الله ، لا مُتسخطاً ولا متبرماً ، بل داعياً متحنناً ، وقال : يا ربّ ، إنى مَسّنى الضرّ وأنت أرْحَمُ الراحمين . وإلى هذه الساعة كان أيوب قد بلغ غاية الإيمان ، وصمد لوسوسة الشيطان ، وَادّرَع بصبر عجيب ، واحتمل همّا تنوء به الجبال ، وبلغ ما أراد الله له : من أن يكون مثلا عالياً للصبر ، ورسولا من رسل الإيمانَ ؛ فاستجاب الله دعاءه ، وأصاخ لشكواه ، وأوحى إليه : أن اركُضْ برجلك ينفجر لك نبع الماء ، فاشرب منه واغتسل به، تعد إليك صحتك ، وَتَرُدّ إليك قوّتك . فما شرب واغتسل حتى اندملت قروحُه ، وبرئت جروحه ، وَصَحّ جسمه ، وصلح بدنه ، وَنَسَل[1] عنه المرض، وعاد أكمل ما يُرى صحةً وعافيةً .

---

(١) نسل عنه المرض : ذهب عنه .

وكانت زوجه قد رقّ قلبها له ، وحدبتْ عليه ، ولم تطاوعها نفسها الكريمة أن تتركه وشأنه ، وقد لزمته من أول مرضه ، وكانت من قبل قد شاركته فى نَعْمَائِه ، فرجعت إليه تعاود إصلاح شأنه ، والقيام بأمره ، فرأت عجباً ، رأت شابًّا مكتمل الشباب ، غضّ الإهاب ، مكتنز اللحم ، وافر المُنّة والقوّة ؛ فأنكرته بادىء الرأى، ولكنها ماعرفته حتى عانقته، وحمدت الله على ما رَدّ إليه من صحة وعافية ، وهو أوفى ما يكون إيماناً ويقيناً .

ثم أوحى الله إليه أن خُذْ حُزْمَةً من القشّ ، واضرب بها زوجك ضَرْباً خفيفاً رقيقاً ، رُخصةً لك فى يمينك ، ورحمة بهذه المخلصة المؤمنة التى احتملتْكَ فى مرضك وشاركتك فى آلامك ، وجازاه الله على صبره فردّ عليه ماله ، ورزقه ولداً أضعاف ولده ، إذ كان أيوب مثالَ العبد المؤمن الأوّاب[1].

---

(١) أواب : مقبل بنفسه على الله تعالى .

يونس (*)

فى نينوى ، وتحت ظِلاَل الأصنام ، وبين حَنَادِس الجهل والشرك ، أشعل يونسُ قبَس الإيمان ، وحمل عَلَم التوحيد ، وأهاب بقومه الجاهلين : أن ارْبَئُوا بعقولكم عن عبادة الأصنام ، وكرّموا جباهكم أن تسجد لهذه الأوثان ، وتبصروا فى أنفسكم ، وَأنعِمُوا النظر فيما حولكم وما يحيط بكم ، تجدوا أن وراء هذا الكون البديع إلهاً كبيراً ، فَرْداً صَمَداً ، جديراً بأن يختصَّ بالعبادة ، وَيُقصدَ وحده بالتقديس ، أرسلنى هدايةً لكم ، ورحمة بكم ، لأدلكم عليه ، وأرشِدكم إليه ؛ إذ كان الجهل قد رانَ على قلوبكم فلم تتبصَّر ، وَغَشى على بصائركم فلم تتدبَّر .

فَدُهِش القوم أن سمعوا قولا لم يألفوه ، وحديثاً عن إله لم يعرفوه ، وَكَبُرَ عليهم أن يروا واحداً كان منهم نخرج عليهم ، ورجلا من عامتهم ينصب نفسه رسولا إليهم ، وهادياً لهم .

قالوا : ما هذا القول الذى تهذِر به ، والبهتان الذى تدعو إليه ؟ هذه آلهة عبدها آباؤنا من قبل ، ونعبدُها نحن اليوم ، وما الذى حدث فى الكون أو ظهر من الأحداث ، حتى نترك هذا الدين الذى نعتقده ، ونستريح إلى دين أبْدَعْتَه واخترَعْتَه ، وجئت تدعو إليه ، وتجاهد فيه ؟

قال : ياقوم ، ارفعوا عن عيونكم غشاوة التقليد ، ومزّقوا عن عقولكم نسيج الأوهام ، وفكّرُوا شيئاً ، وتدبروا قليلا ، أهذه الأوثان التى تتوجهون إليها فى صَباحكم ومسائكم ، وتعتمدون عليها فى قضاء حاجاتكم أو دَفع الشرّ عنكم ،

(*) الصافات ١٣٩–١٥٨ ، الأنبياء ٧٨ و ٨٨ ، الأنعام ٨٧،٦٦ ، يونس ٩٨ .

تجلب لكم نفعاً ، أو تستطيع أن تدفع عنكم شرًّا ؟ أهى قادرة على أن تخلُقَ شيئاً ، أو تحيى ميتاً ، أو تشفى مريضاً ، أو تردّ ضالا ؟ أهى تستطيع دفع الشر لو أردته بها ، أو تقيم نفسها لو حطمتُها وهشّمْتُها ؟

ثم ما لكم تُعرضون عن هذا الدين الذى أدعوكم إليه ؟ وهو يأمركم بما فيه صلاح أمُورِكُم ، واستقامةُ أحوالكم ، وتقويمُ جماعتكم ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويُبغِّضكم فى الظلم ، ويحبِّبُ إليكم العدل والسلام ، وينشر فيما بينكم الأمان والاطمئنان ، ثم هو يحثّكم على العطف على المسكين ، والحدَب على الفقير ، وإطعام الجائع ، وفَكّ العانى مما فيه صلاح الحال ، واستقامة الأعمال .

فما ظفر منهم إلا بجواب الجاهلين ، وما جادلوه إلا بسفسطة المتعنّتين ، قالوا : ما أنت إلا بشر مثلنا ، وواحد منا ، ولا سبيل إلى نفوسنا أن تَسِيرَ فى هَدْيك ، أو تذعن لدعوتك ، فكفكف من غرْبك ، وَأَقْصِرْ من قولك ، ودون ما ترجو غاياتٌ بعيدة ، وحُجز قائمة .

قال : لقد دعوتكم بالموادة واللين ، وجادلتكم بالتى هى أحسن ، فإذا كانت دعوتى تصل إلى قرارة نفوسكم ، كان الخير الذى أرجوه ، والإيمان الذى أبتغيه ، وإلا فإنى أنذرُكم عذاباً واقعاً ، وبلاء نازلا ، وهلاكاً قريباً ترون طلائعه ، وتتقدم إليكم دلائله .

قالوا : يا يونس ، ما نحن بمتجيبين لدعوتك ، ولا خائفين من وعيدك ؛ فأتنا بما تَعِدُنا إن كنت من الصادقين .

ولم يُطِق يونس صبراً ، بل ضاق بهم ذرعاً ، وقطع الرجاء فيهم قبل مُطاولتهم ومدّ الحبل لهم ، فرحل عنهم مغاضباً لهم ، يائساً من إيمانهم ، نافضا الكفّ منهم

إذ دعاهم فلم يؤمنوا ، وبصّرهم فلم يتدبروا ، وجادلهم فلم يستمعوا ، وحسب أن الدعوةَ مقصورة على ما فعل ، وظن أنه يكفى لإبلاغها ما كان .

ولعله لو كان قد أطال مدته ، واستمر فى نشر دعوته ، لوجد فيهم مَنْ يؤمن ويستجيب ، ولوجد فيهم من يستغفر ويُنيب ، ولكنه رَحل ليلقى من الله قضاءً ويتلقى جزاء :

ولم يكد يَبْعُد يونس قليلا عن نينوى ، حتى وَافَتْ أهْلَها نُذُر العذاب ، واقتربت منهم طلائع الهلاك ، اغْبَرَّ الجـــوُّ حَوْلهم ، ثم تغيرت ألوانهم ، وتشيَّأت[1] وجوهُهم ، فداخلهم القَلَق ، وساورهم الخوف ، وعلموا أن دعوة يونس حق ، وإنذارَه صدق ، وأن العذاب لابُدَّ بهم واقع ، وأنه سيصيبهم ما كانوا قد سمعوه عن عاد وثمود وقوم نوح .

ولكنه وقع فى نفوسهم أن يلجئوا إلى إله يونس فيؤمنوا ، ويتوبوا إليه ويستغفروا ، فخرجوا إلى شِعاف[2] الجبال ، وبطون الصحراء ، شاكرين ، متضرعين باكين متوسلين ، وفرّقوا بين الأمهات وأطفالها ، والإبل وفُصلانها ، والبقر وأولادها ، والغنم وحملانها ، ثم أعْوَل الجميع ، فصاحت الأمهات ، ورَغت[3] الإبلُ ، وخارت البقر ، وثغت[4] الغنم ، وكانت ساعةً بسط الله عليهم بعدها جَناح رحمته ، ورفع عنهم سحائب نِقْمَتُه ، وتقبَّل منهم التوبة والإنابة ، إذ كانوا مخلصين فى توبتهم ، صادقين فى إيمانهم ، ورد عنهم العقاب وحَبس العذاب ، ورجعوا إلى دورهم آمنين مؤمنين ، وودّوا لو يعود إليهم يونس ، ليعيش بينهم رسولا ونبياً ومعلماً وإماماً .

---

(١) تشيأت : تشوهت . (٢) شعاف : جمع شعفه ؛ وهى رأس الجبل .
(٣) الرغاء : صوت الإبل . (٤) الثغاء : صوت الغنم

ولكنه — وقد فارقهم ، وترك ديارهم — أخذ يضرب فى الأرض ويُغِذ[1] فى السير ، حتى انتهى إلى البحر ، وهناك وجد جماعة يعبُرُون ، فسألهم أن يصحبوه معهم ، ويحملوه فى سفينتهم ؛ فقبلوه على ارتياح ، وأنزلوه بينهم منزلا كريماً ، ومقاماً عزيزاً ؛ إذ كان يظهر فى وجهه الكرمُ والسماح ، وتتحدث غرّته عن تقوى وصلاح ، ولكنهم ما ابتعدوا عن الشاطىء ، وجاوزوا البر ، حتى هاجت الأمواج ، واصطلحت على السفينة الأعاصير ، وتوقّع الراكبون سوء المصير ؛ فزاغت الأبصار ، وانخلعت القلوب ، ورجفت القوائمُ ، ولم يجدوا طريقاً لنجاتهم إلا أن يتخففوا ، فاشتَوَرُوا ما يصنعون ، ثم اتفقوا على الاقتراع ، فساهم[2] الجميع ، ووقع السّهم على يونس ، ولكنهم ضَنوا به على البحر ، تكريماً لشأنه ، وعِرْفاناً بمكانه ، فعادوا للمساهمة ، وعاد السهم على يونس ، فضنوا به أيضاً ، وعادوا للمساهمة فعاد السهم عليه !

فعلم يونس أن من وراء ذلك سِرًّا ، وأن لله فى ذلك تدبيراً ، وأدرك خطيئته ، وما كان من تركه لقومه قبل أن يُؤْذَن له فى الهجرة ، أو يستخير اللهَ فى الرحيل ، فألقى بنفسه فى اليَمّ ، وأسلم نفسه للأمواج ، يتقلب بين طيّاتها ، ويتخبّط فى ظلماتها .

وأوحى الله إلى الحوت أن يبتلعه ، وأن يَطْوِيَهُ فى بطنه ، ولكن على ألّا يأكل لحمه ، ولا يهشم عظمه ، فما هو إلا نبى كريم ، تأوّل[3] فلم يُصبْ ، وعَجِل ثم ندم ، وأنه وديعة عنده ، يؤديها حينما يأذن له الله .

وقبع يونس فى بطن الحوت ، والحوت يشق الأمواجَ ، ويهوى إلى الأعماق فى ظلمات متضاعفة ، وحنادس متعاقبة ، فضاق صَدْره ، واعتلج هَمّه ، وفزع

---

(١) يغذ فى السير : يسرع .
(٢) ساهموا : اقترعوا .
(٣) تاول : أتى بتفسير وظن .

إلى الله غياث الملهوف ، وملجإ المكروب ، وواسع الرحمة ، وقابل التوبة ، وغافر الذنب : (فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) .

فاستجابَ الله الدعاء ، وأوحى إلى الحوت فى الماء : ألقِ بضيفك فى العَرَاء ؛ فقد أوفى على الغاية ، ونال ما قُدِّرَ له من جزاء ، فألقاه على الشاطىء سقيما هزيلا ، مُدْنَفاً عليلا ، وتلقته رحمة الله فأنبتت عليه شجرة من يَقْطِين[1] ، طعِم بثمرها ، واستظلّ بورقها ، ودَبّتْ إليه العافية ، وظهرت فيه تباشير الحياة .

ولما استوى على سوقه ، ورجع إلى سابق عهده ، أوحى الله إليه : أن ارجع إلى بلدك ، وموطن أسرتك وعشيرتك ، فإنهم آمنوا فنفعهم الإيمان ، ونبذوا الأصنام والأوثان ، وإنهم الآن يتحسسون مكانك ، ويترقبون مجيئك .

وعاد يونس إلى قريته ، وما راعه إلا أنه خلّفهم وليس فيهم إلا من هو عاكف على الأصنام . وعاد إليهم وما فيهم إلا ألسنة تلهج بذكر الرحمن .

---

(١) اليقطين : نبات لا ساق له .

زكريا ويحيى (*)

تقدمت بزكريا السنون ، وهو الآن مشتهب[1] الرأس ، واهن العظم معوج القناة ، لا يستطيع من المشي إلا بمقدار أن يذهب إلى الهيكل يتعهد شؤونه ويلقى مواعيظه ، ثم يتنسك ويتأله[2] ، ويعود في أعقاب يومه يقضي ظلام الليل في بيت يحوي زوجه وهي عجوز مثله ، قد اشتعل الرأس منها شيباً ، ولا يستطيع من العمل إلا بمقدار أن يذهب إلى حانوته ساعة من نهار ، فإن أصاب بعض مال مسح دمعة البائس ، وقضى حاجة السائل ، ثم رجع إلى داره فارغاً إلا من فضل الله ، صامتاً إلا عن ذكر الله.

ولكنه حتى هذه السنة التي أشرف فيها على التسعين ، لم يرزق طفلا ، ولم يثمر ولداً ، يتخذه سبباً يربطه بالحياة ، ويصل بينه وبين الوجود ، فكان يدخل البيت حزيناً ، كاسف البال ، قليل الرجاء . . . ثم هو عما قريب يطوي صحيفة أيامه ، ويمضي إلى حمامه ، فمن الذي يقوم على وراثة حكمته ، والاضطلاع بأمانته ؟ وهؤلاء مواليه وبنو عمه أشرار ، لا بد لهم من وازع ، وسوائم مطلقة يعوزهم الراعي الرادع ، ولو خلوا ونفوسهم فإنهم يمحون الشريعة ، وينشرون الفساد ، ويغيرون معالم الكتاب .

ظلت هذه الخواطر تحز في نفسه ، وتضطرب بين لفائف صدره ، ولكنه كان صابراً متحملا متجملا ، إلا من زفرات كان يلفظها كلما جن عليه الليل ، وأنات كان يصعدها كلما احتواه الظلام .

(*) مريم : ٢ - ٥ .

(١) الشهبة في الألوان : البياض الغالب على السواد .

(٢) يتأله : يتعبد .

ذلك قضاء الله فمن أجدر من النبي من أن يتلقاه بالارتياح ؟ وتلك حكمته ، فمن أحق من زكريا بأن يقابلها بما تستحقه من الإذعان ، فلعل من وراء ذلك حكمة لا يعلمها ، ولعل الله يؤجل ذلك لغاية هو يجهلها ، وله الحمد على ما أنعم ومنا الصبر على ما أراد .

ويذهب زكريا إلى الهيكل يوماً كعادته ، ويُصَلّي ويتنسك ، ويعبد ، ويتهجد ثم يدخل على مريم محرابها فإذا هي غارقة في تفكيرها ، ذاهبة في صلاتها ، ثم يرى أمامها شيئاً يذهله ، ويثير سؤاله ؛ فهذه فاكهة أمامها ، عجباً ! تلك فاكهة الصيف ولكننا نحن في الشتاء ، ثم من أين دخلت إليها ، إنها من يوم أن تنازع سَدَنَةُ بيت المقدس في شأنها ؛ وفاز سهمه بكفالتها ، لازالت حبيسة في محرابها ، محجوبة عن أترابها ، حتى إن أمها من يوم أن أودعتها الهيكل وفاء بنذرها وتقرباً إلى ربها ، لم تَسْعَ يوماً إلى لقائها ، فمن أين لها هـــذا الرزق العجيب ! وكيف اتفق لها هذا الأمر الغريب ؟!

ليسألنها ويَسْتَكْنِه أمرها ، فقال : يا مريم ، أنّى لك هذا ؟! قالت : هو من عند الله ، يُصبح الصباح ، فأرى رزقي حاضراً ، ويمسى المساء فأرى رزقي حاضراً ، على أنني ما سعيت لهذا الرزق ، ولا سألت الله ذلك الخير ، ولكنه يأتيني عفواً ، وأجده أمامي سهلا ، ومالك تُدْهَش وتعجب ، ومالك تؤخذ وتُشْده ! أليس الله يرزق من يشاء بغير حساب ؟

عند ذلك أدرك زكريا حال جديدة ، ودخل في تأمل عميق ، فلقد أثارت في نفسه هذه الفتاة الكريمة ، وتلك الربّانية[1] المقربة الحنين إلى الوَلد ، والرغبة في البنين ! حقاً إنه قد وهَنَ منه العظم ، ورقّ الجلد ، وبلغ به الكِبَرُ ،

---

(١) الربانية : المتألهة العارفة بالله .

ولم يَعُد فيه للولد مطامح ، وامرأته العجوز العاقر ليس فى نفسها للنسل رجاء ، ولكن أليس الله — الذى اختص مريم بالكرامة ، وحباها النعمة ، ورزقها الفاكهة الغريبة ، تأتيها كل يوم فى غير أوانها — بقادر على أن يرزقه ولداً ، وإن كانت امرأته عاقراً ، وإن كان قد أصبح شيخاً فانياً ، ليدعُ الله ، فما هو بيائس من استجابة دعواه !

وبسط زكريا يديه متوسلا ، وهمس بصوته داعياً : (رَبِّ لا تَذَرْنى فَرْداً وَأَنْتَ خَيرُ الوارثين) . وزكريا كان أكرمَ على الله من أن يَرُدَّ دعوته ، وأعز عليه من أن يخيب رجاءه ، فإنه ما مكث طويلا حتى نادته الملائكة — وهو قائم يصلى فى المحراب : يا زكريا ، إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسمُهُ يحيى لم يَجْعَلْ لهُ مِنْ قَبلُ سَمِيًّا .

وسمع زكريا النداء ، فشُده[1] وعَجبَ ، وحاشاه أن يكون غافلا عن قدرة الله ، أو يائساً من استجابة دعواه ، ولكن أدركه ما يدرك المؤمِّل وجد رجاءه والسائل العافى وجد حاجته ، ثم عاد فسأل الله : كيف يرزقه طفلاً ، وقد أصبح شيخاً فانياً ، وامرأته عجوز عاقر ، كما سأل إبراهيم ربه من قبله : كيف يحيى الله الموتى ؟ وكيف يُبعث الناس يوم النشور ؟ وما كانا بسؤالهما جاحدَيْنَ ، ولكن ليزداد قلبهما اطمئناناً .

وقالت الملائكة : أليس الله — الذى خلقك من قبل ولم تكُ شيئاً — بقادر على أن يرزقك الولد ، وإن كنتَ فى أعقاب أيامك ، وأطراف حياتك ؟

سأل زكريا ربَّه أن يجعل له علامة تتقدّم هذه العناية ، وتدل على وقوعها ،

---

(١) شده : بالبناء للمجهول : دهش .

فأجابه الله : إنّ آيتك أن تَعجِز عن خطاب الناس بَحَصَر يعترى لسانك ثلاثة أيام وإن أردت الكلام فلا تستطيعه إلا إشارة أو رمزاً .

ورزقه الله على الكبر يحيى : غلاماً زكياً ، فأحكم الله عقله ا واستنبأهُ صبياً ثم عشقَ العبادة حتى أصبح مَنهوك الجسم ، نحيل الظل ، مُتَضَمِّر[1] الوجه ، معروق العظام[2] ، واشتهر بالعلم حتى أحصى مسائلَ التوراة واستجلى غوامضها وأحاط بأصولها وفروعها ، وأضحى فيصل أحكامها ، وقاضى معقولها، وعُرِف بين الناس أنه جرىء فى الحق ؛ شديد على الباطل ، لا يخشى فى الله لومة لائم ، ولا صَوْلة عاتٍ ظالم .

نقلوا إليه يوماً أن هيرودوس حاكم فلسطين ، قد هوى هيروديا بنتَ أخيه، إذ كانت بين عينيه بارعة الشكل ، فتّانة المحاسن ، جميلة التكوين ، وأنه قد عزم على زواجها ، والدخول بها ، وظاهرته على ذلك أمها ، وَذَوو قرباها ، فأعلن يحيى أن ذاك زواج باطل لا تقرّه شَرِيعة ، وتأباه روحُ الكتاب ، وقال : إنى لا أعترف به ، وأجهر باستنكاره .

وشاع رأيُهُ فى المدينة ، وفى القصور ، وفى الخدور ، وفى أماكن اللهو، وفى مواطن العبادة ، وبلغ هيروديا ماجهر به يحيى ، وما اشتهر به بين الناس ، فسخطت عليه فى نفسها ، وأضمرت الحسيكة[3] ، وأبطنت الغلّ ، ثم استحال غيظها إلى حزن وكمد ، وهم وأسى ، وخافت أن تذهب هذه المَقالةُ برجائها المعسول ، وربما صرفت عمّها عن الزواج ، ولكنها عزمت على أن تستعينَ بحسنها وجمالها

---

(١) يقال : تضمر وجهه : إذا انضمت جلدته هزالا .
(٢) من قولهم : عرق العظم ، إذا أكل ما عليه من اللحم .
(٣) الحسيكة : العداوة .

فلعل جمالها يُنيلها غرضها ، ويحقق غايتها ، فتجملت ما استطاعت أن تتجمّل ، وعُنيت بزينتها ما قدّر لها أن تمنى ، ودخلت على عمها قسيمةً وسيمَة ، حسنة الشارة ، جميلة الهيئة ، فاقتُنِصَ بحبائل فتنتها ، واختُلب بعذوبة منطقها ، ثم سألها أى أمنية تتمنين ؟ قولى فأنا رَهْنٌ لإشارتك ، قيدٌ بكلمتك !

قالت : إن رضى الملك فلست أبغى إلا رأسَ يحيى بن زكريا ، ذلك الذى سَمَّع بالملك وبى فى كل مكان ، وغمزه فى كل ناد ، إن رضى الملك بذلكَ فإنى قريرة العين ، هادئة البال ، منقوعة الغليل .

فأجاب لداعى الهوى ، وأصاخ لكلمة الجمال ، وأصمّ عن نداء الضمير وهُتاف الوجْدان ، وما هى إلا ساعات حتى كان رأسُ يحيى بين يديها ، فشفت غلها ، وأطفأت وَقدَة غيظها ، ولكنها استنزلت لعنة الله عليها وعلى بنى إسرائيل .

مريم (*)

لم تُرْزَقْ أمُّها بولد ، لأنها كانت عاقراً ، وطالما تمنَّته ، لتمتع نفسها بمرآه ، وتقرّ عيناً بطلعته ، وكلما رأت طائراً يُطْعم فَرْخَه ، أو سيدة تحمل طفلها ، اشتدت رغبتها فيه ، وأحَسَّت زيادة الميل إليه ، وقد عانت فى ذلك مثل ماتُعَانى المرأة حينما تجِد نفسها قد حرمت الطفل الذى هو سلوتها فى وحشتها ، وسميرها فى وحدتها ، والذى تبسِم به حياتها ، وتهون به مصاعبها وأوْصَابها[1] .

وأقضّ ذلك مَضْجَعها ، وودَّت لو بذلت أغلى ما تملك ، ثم تنظر فترى ولدها يَرْنُو إليها بنظره ، ويقبل عليها بوجهه ، فتُفرغ عليه حنانها ، وتغمره بعطفها ، وتبذل له من نفسها ما يريح جسمه ، وينمى جسده ، ويسمو بروحه ، حتى يَشِبّ فيصير مِلء سمع الأرض وبصرها .

وقد تكون أمضت الأيام ، بل السنين ، ترقب تحقق هذا الرجاء ، وتنتظر نوال هذه الأمنيَّة ، وقاست فيها المتاعب ، وذاقت مرارة اليَأس ، وقد تكون أيضاً غبطت الشجرة المثمرة ، والمرأة الولود .

وأنا أراها فى ذلك قد لبَّت نداء جبلّتها ، وطاوعت غريزتها ، فأحلى أمانى المرأة أن تجد ولدها بجانبها ، وترى طفلها بمرأى منها ، حتى لقد نرى ذلك فى البنات الصغيرات ؛ فهنّ يدلّلن العرائس ، ويُنَاغِين الدُّمى .

التجأت إلى ربّ السموات والأرض ، وتوسلت إليه فى خضوع وخشوع ،

(*) سورة آل عمران : ٣٣ – ٤٧ ، سورة النساء : ١٥٦ ، مريم : ١٦ – ٢٤ ، الأنبياء : ٩١ ، التحريم : ٢١ . (١) الأوصاب : الأمراض .

ونذرت إن أنالها أمنيتها ، وحقق رجاءها ، ورزقها ولداً ، تتصدق به على بيت المقدس ، فيكون خادماً له ، وسادِناً[1] فيه . وأخذت العهد على نفسها ألا تستخدمه فى شىء ، أو تشغله بأمر ، بل هو لخدمة البيت محرراً ، ولسدانته مُخلصاً .

أليس ذلك دليلا على أنها لا تبغى الخلَفَ إلا لإشباع رغبتها ، واستقرار نفسها ؟ فهى لا تريده ليكون عائلا لها ، أو عَضُداً تشدّ به أزرها ، بل ترجوه وتأمله ، حتى إذا تحقق الرجاء ، واستجيب الدعاء ، وهبته لله ، وحرّرته لخدمة بيته ، ويكفيها أنها ولدت ليطمئن قلبها ، ويشيع السرور فى فؤادها .

أجاب الله دعاءها ، وآتاها سُؤْلها فشعرت بالجنين يتحرك بين أحشائها ، فاخضرّ عودها ، وأشرقت الدنيا فى عينيها ، وفارقها عبوسها ، وافترّ ثغرها ، وأصبحت مَرِحة مُقبلة على الحياة بصدر منشرح ، تجلس إلى زوجها تحدثه عما يجول بنفسها ، وما تقدره لولدها ، وهو يستمع إليها مبتهجاً ، ويُصْغِى إلى شهىّ حديثها مغتبطاً ، وغمرتها نشوة من السرور ، أنستهما ما قاسيا فى الحياة من ألم، ومسحت ما فاضت به عيونهما من شئون[2] .

وبينما هى سابحة فى أحلامها وآمالها ، تُعِدّ للمولود عدته ، وترجو الحياة من أجله ، قلب لها الدهر ظَهْرَ المِجَنّ ، فبدلها بسرورها حزناً ، وغير فرحها تَرَحاً ، إذ مات زوجها عمران ، فاشتدّ حزنها عليه ، وفاضت دموعها غزيرة لفقده ، وقد كانت تتمنى لو أبقاه الله ، حتى يَنْعَم برؤية فَلْذَةِ كبده ، ويتملى بقرّة عينه ، ويقطف جناةَ بذره ، ولكن قضاء الله حُمّ ، ولا رادّ لقضائه .

صارت وحيدة مَهِيضةَ الجناح عابسة الوجه ، وكلما تقدمت بها الأيام اختلط

---

(١) السادن : خادم بيت الأصنام . (٢) الشئون : الدموع .

حزنُها بأملها ، وأحست آلامها تكثر ، ورأت صَرْحَ آمالها ينهار ، ولكن رجاء فى الله عمرَ به قلبها ، وشعاعاً من الأمل فيما تحمل بين جنبيها ، كانا يخففان ما بها من لوعة وأسى ، ويسَرِّيان عنها ما كانت تجد من حزن ووحشة .

* * *

هُيِّء لها مثل ما يهيأ للنساء عند الوضع ، وَوَضَعت ، وإذا المولود أنثى ، ولما عرفت ذلك تحسرت على ما كان من خيبة رجائها ، وعكس تقديرها ، وتحزنت[1] إلى ربها ، إذ كانت ترجو أن تلد ذكراً تهَبَهُ لبيت المقدس ، وتقفه على خدمته تقرباً إلى الله ، وشكراً على نعمته .

ولكن المولود أنثى ، والبناتُ لا يصلحن لذلك ، فغشيتها سحابة من الحزن ، وغمرتها موجة من اليأس ، ثم سمتها مريم[2] ، وطلبت إلى الله أن يعصمها بعنايته ، وأن يكلأها برعايته ، وأن يجعل فعلها مطابقاً لاسمها ، وأن يُعيذها[3] وذريتها من الشيطان الرجيم .

ألا ترى الآن قلباً محطماً ، ونفساً سحقها الحزن ، وامرأة توالت عليها المحن حتى لتكاد تَضيق بها ، عاشت جُلَّ أيامها ، وزهرة حياتها كئيبة كاسفة البال ، لأنها لم ترزق الولد ، فلما انفرج كربها ، وانقشعت غمتها ، وسمع الله دعاءها ، واستشعرت الجنين فى أحشائها ، عدَا عليها الدهر ، فاختطفت المنيَّةُ زوجها ، وقد كانت تتمنى أن يهبَ لها الله ولداً ، لتجعله مخلصاً لخدمته ، فولدت أنثى ، فزاد حزنها ، واشتد كربها !

---

(١) يقال : فلان يقرأ بالتحزين : إذا أرق صوته .

(٢) مريم : معناها العابدة . (٣) يعيذها : يحصنها .

ولكنها انطوت على همّها ، والتجأت إلى ربها ؛ فرحم الله ضعفها ، واستجاب دعاءها ، وقبِل هبتها ، وأتم نعمته عليها ، بأن رضى أن تكون ابنتها وفاء للنذر ، وأخبرها بأنه أعلمُ بما وضعت ، وبقدر ما وُهبت .

حينئذ سُرِّى عنها ، وعلمت أنّ الله قد اختصها بإكرامه ، وأفردها بنعمته ، فلفّتها فى خِرْقة ، وحملتها إلى بيت المقدس ، وقدمتها إلى الأحبار ، ودفعتها إليهم قائلة : دونكم هذه البنت فإنى قد نذرتها لخدمة البيت وتركتها وانصرفت .

لنترك هذه الأم التى فقدت بالأمس زَوْجها ، وأودعت اليوم فلذة كبدها بين يدى سَدَنة البيت وخدمه ، ولنتصورها استسلمت لقضاء الله ، ورضيت بما قدّره لها ، واطمأن قلبها لقبول بنتها بقبول حسن ، وإيثارها بهذه المكرمة دون غيرها من نساء العالمين .

ولنتخيل أيضاً أنها قد دفعها الحنوُّ ، وحرّكتها عوامل الشفقة على بنتها ، فذهبت إلى بيت المقدس ، تستفسر — من بُعْد — عن حالها ، وتتعرف خبرها ، حتى إذا اطمأنت عليها قفلت راجعة ، تحمد الله على أن تَقبلَ قُرْبانها ، وأسبغ نعمته عليها .

ولنَتَتَبّع الآن حال هذه البنت التى حلّتْ ضيفاً على أهل هذا البيت المقدس ؛ فخفُّوا إليها سِراعاً ، وتنازعوا فى كفالتها ، كل يريد أن يكون المدبر لشئونها ، والقائم على تربيتها ؛ لأنها بنت إمامهم ، وسليلة صاحب قربانهم .

وكان أشدهم حَدباً عليها ، وأكثرهم رغبة فى كفالتها زكريا ، فقال لهم : أنا زوج خالتها ؛ فأعطونى إياها ، وخصُّونى بالعناية بأمرها ؛ فأنا أقربكم رحما إليها ، وأوثقكم صلة بها .

اشتد النزاع ، وكثرَ الجدال ، وطالَ الحوار ، واسترسل كلٌ يدلى بحجته ، ويبين فضله على غيره ، ويطلب فى إلحاح وعنف أن يستأثر بها ، ويختص بكفالتها ، ولم تجتمع كلمتهم على تسليمها لأحد ؛ لأن كلا منهم كان يرجو الزُّلفى[1] إلى ربه .

وقد كان زكريا يرى نفسه أحق بهذا الفضل ، وأولى من غيره بذلك الشأن ، وبعد ما لمسوا استحالة اتفاقهم ، وأحسوا افتراق شملهم ، أعلنوا أنهم لن يخضعوا لرأيه ، أو يؤثروه على أنفسهم ، حتى يقترعوا عليها ؛ فرضى زكريا بذلك حَكَماً بينه وبينهم ، وانطلقوا جميعاً إلى نهر ، فألقَوْا فيه أقلامهم[2] ، فارتفع قلم زكريا فوق الماء ، ورسبت أقلامهم ؛ فانصاعوا لرأيه ، وخضعوا لإرادته ، وسلموها إليه ، فتكفلها ، وصار وليَّها ، والقائم بتربيتها .

أراد زكريا أن يمهد سبيل الراحة لتلك التى ألقَى الله إليه مقاليد أمورها ، ودفعه حب الاستئثار إلى أن ينأى بها عن الناس ، ويُبْعدها عن ضوضائهم ، ويخص نفسه بخدمتها ، ويحرِّم على غيره الدخول إليها ؛ فبنى لها غرفة عالية فى بيت المقدس ، لا سبيل إليها إلا بالصعود فى سُلّم .

وكان دائماً يتفقد شؤونها ، ويتردد عليها فى محرابها ، ليطمئن على حالها ، ويمهد لها سبيل عيشها .

ولا ريب أنه كان قرير النفس بكفالتها ، وأنه لذلك عُنِيَ براحتها ، وتوفير أسباب السعادة ، واستمر على ذلك حتى رأى يوماً شيئاً عجب له ، بل شُدِه وتحيَّرَ فى أمره .

---

(١) الزلفى : القربى والمنزلة .

(٢) الأقلام : سهام الاقتراع .

ذلك أنه لما دخل عليها زكريا المحراب[1] وجد عندها رِزْقاً ، وَعَهْدُه بها ألا يدخل إليها أحد ، أو يطرُق باب حجرتها طارق ، ولم يحمل هو إليها مثل هذا الرزق ، أو يَعْلم شخصاً قد أدخله عليها ، وكثر تفكيره فى الأمر ، ومال إلى الوقوف على سره .

لم يستطع تعليلَ ذلك ؛ فحاولَ الوقوف على ذلك السرّ العجيب ، وطرق لذلك أبواباً عدّة فلم يوفق ، وأشكل عليه الأمر والتوَى ، فدخل إليها ، وقال : يا مريم ، أنّى لكِ هذا الذى لا يشبِه أرزاق الدنيا ، وهو آت فى غير حينه ، والأبواب مغلقة عليك ، ولا سبيل للدخول إليك ؟

فقالت : إنه من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

هنالك عظُم تقديره لها ، واشتد حدبُه عليها ، وعلم أن الله قد اختصَّها بمنزلة دونها منازلُ الناس ، وأنه قد اصطفاها على نساء العالمين .

وقد أثارت فى نفسه تلك المكرمات التى أجراها الله على يدها ، كامنَ الرغبة فى أن يهب الله له ولداً من صلبه .

وليس من شك فى أنه الآن قد جاوزالسن التى يُرْزق فيها الرجال بالأولاد، وأن زوجته قد يئستِ من ذلك ، ولم يَعُدْ لها أمل فيه ، ولكن رحمة الله واسعة ، وقدرته لا يعجزها شىء فى السموات ولا فى الأرض ، وهو يعلم ذلك ويعرفه . لذلك اتجه إلى فاطِر السمواتِ والأرض ، وناداه نداءً خفيًّا ، وتمنى أن يُسْبِغ عليه هذه النعمة ، وأن يحقِّق له تلك الرغبة ، وقال : (رَبِّ إنى وَهَنَ العَظْمُ مِنِّى وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ، ولم أكُنْ بدعائكَ رَبِّ شقيًّا ، وإنى

---

(١) المحراب : المصلى .

خِفْتُ المَوَالِيَ[1] مِنْ وَرَائِي وكانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً ، فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)[2] .

فاستجاب الله دعاءه ، وآتاه سؤله ، وقال : (يازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا) .

نمت مريم وترعرعت ، وشبّت واستدّ ساعدها[3]، وعمر قلبها بالتقوى والصلاح ، ومكثت بالبيت تعبد الله الذى يرسل إليها رزقها رغداً ، وأخلصت فى القيام بسدانة البيت وخدمته حتى صارت مَضْرب الأمثال .

---

(١) كان مواليه عصبته إخوته وبنو عمه : شرار بنى إسرائيل ، فخافهم على الدين أن يغيروا ويبدلوا وألا يحسنوا الخلافة على أمته ، فطلب عقبا من صلبه صالحاً يقتدى به فى إحياء الدين « الكشاف ٢ / ٢ » .

(٢) استد : اشتد وقوى .

عيسى (*)

عيسى الوليـــد

فى يوم مّا اعتكفت مريم كعادتها ، تصلى لله وتعبده ، فاضطربت نفسها فجأة ، وداخلتها رَهْبة لم تعهدها من قبل ، وظهر أمامها ملكٌ من السماء ، وقد تمثل لها بشراً سويّا ، لتأنس به ، ولا تنفر منه ، فحاولت الهروب ، واستعاذت بالله إذ ظنته معتدياً أثيما ، وفاجراً زنيما(1) ، وهى التقيةُ المؤمنة ، العفيفة الطاهرة ولكنه أعاد إليها طمأنينتها ، وسكّن رَوْعَها ، ثم أخذ يتحدث إليها قائلا : (إنّمَا أنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأهَبَ لكِ غُلاماً زَكِيّاً(2)) .

فغشيتها سحابة من الحزن ، وطافت بها موجةٌ من الأسى ، ولكن هَوْل الموقف وشدّته لم يعقدا لسانها ، بل استجمعت شارد قُوَّتها ، وخرجت من صمتها وأجابته قائلة : (أنَّى يَكُونُ لِي غلامٌ ولم يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ولم أكُ بَغِيًّا) .

(قالَ : كَذَلِكِ قال رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ولِنَجْعَلَهُ آيَةً للناسِ وَرَحْمةً مِنَّا وكان أمراً مَقْضِيّاً) . ثم مضى واختفى .

جلست حائرة تفكر فيما سمعته ، وأوجست فى نفسها خيفة ، ولاشك أنها تخيلت ما سيقوله الناس عن عذراء تحمل وتلد من غير أن يكون لها بَعل(3) ، وأنها

(*) مريم ١٦ إلى ٢٤ ، البقرة ٨٧ ، آل عمران ٤٥ – ٦٠ ، النساء : ١٥٩ إلى ١٧١ ، ١٧٢ إلى ١٧٢ ، المائدة ١٧ و ٤٦ و ٧٢ و ٧٥ ، التوبة ٣٠ و ٣١ ، المؤمنون ٥٠ ، الزخرف ٥٧ إلى ٦٥ ، الصف ٦ و ١٤ ، المائدة ١٠٩ إلى ١٢٠ ، الحديد ٢٦ و ٢٧ ، التوبة ١٢١ .

(1) الزنيم : اللئيم المعروف بلؤمه أو شره .

(2) زكياً : صالحاً .   (3) بعل : زوج .

قد أفزعتها هذه الأفكار ، وصيّرتها قلقة مضطربة ؛ إذ بدت تفطن إلى الريبة التى سوف تخامر قلوب الناس ، والشكوك التى ستخالج نفوسهم ، فأصبحت تحبُّ العُزْلة ، وتميل إلى الانفراد ، واستحوذ عليها الحزن ، وغلب عليها الخوف وصارت دائمة التفكير فى ذلك الشر الرهيب الذى أُغلِق عليه داخل أحشائها.

مرت أشهر ، وهى تقاسى الآلام النفسية المبرّحة ، وتتعاورها الأحزان وتنتابها الوساوس ، وتمضى أكثر أوقاتها منفردة كئيبة ، لا يَهْنأ لها عيش ، ولا يطيب لها طعام ولا شراب ، وكثيراً ما كانت تُرَى شاردةَ الفكر ، موزّعة النفس ، لا تصغى إلى حديث ، ولا تغنى بأس .

حلّت تلك الفتاةُ المثقلة بالهموم فى « الناصرة » ، منبتها ومسقط رأسها ، وأقامت فى بيت ريفى ، خلا من كل بهجة ورُواء ، وقد تكون اتخذت هذا البيت جُنّة تستتر فيه عن أعين الناس ، وتختفى به عن أنظار الرقباء . وأظنها كانت تنأى عن الاختلاط بقومها ، والاتصال بعشيرتها متظاهرة بالتعب والإعياء ، خوفاً من أن يُفضّ مكنون سرها ، ويُكْشف مستور أمرها ، فتلوك الألسنة اسمها ، ويتحدث الناس فى شأنها ، وكلما تقدمت بها الأيام زاد همُّها ، وكثر حزنها ، فسيظهر ما تحرص الآن على أن تخفيه ، ويشيع ما تحاول أن تستره !

رُحماك يارب! ما هذا الذى يخبئه لها القدر ، وما تكنّه لها الليالى ؟ إنها من أسرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، لم يكن أبوها امرأ سوء[1] ، وما كانت أمها بغيًا ، فكيف تلوك الألسنة الحديث فى عِرْضها ؟ وبماذا تدافع عن نفسها تلك التهمة التى ستُرْمى بها ؟ حقاً إنه أمر ترتعد له الفرائص ، ويشيب من هَوْله

(١) سوء : شر .

الولدان ، أيزعمون أنها فقدت أثمن ما تحرص عليه الفتاة ، ويقولون: إنها أودت بكرامة أهلها ، ووسمت أسرتها بما يثلم شرفها ، وينزلها من عليائها ، ويلصق بالرغام[1] أنفها !!؟ إن ذلك لعظيم ، كل ذلك كان أوسيكون مع أنها لم ترتكب إثماً ، ولم تقترف ذنباً ، وهى براء[2] من كل ما يجول بنفوسهم ، وأبعد ماتكون عما يمر بخواطرهم .

وهل تستطيع ، وهى فى هذا الحرج والضيق ، إلا أن تستسلم لقضاء الله ، وتنتظر ما يأتى به القدر ، وتكنه الأيام ؟

وليس من شك فى أن ما درجت عليه من عبادة الله وتقواه خفف عنها بعض ما كانت تعانيه ، وجعلها تترقب لضيقها فرجاً ، ولنفسها الفزعة سكوناً وأمناً أو لم ينبئها الملك أنها ستلد من يكلم الناس فى المهد ؟ ! أليس ذلك كافياً لرد كيد الناس ، وأوضح برهان على براءتها وطهرها ؟

قد كان ذلك سلوتها ، وأملها الذى تتعلق به ، وترجو الخلاص من طريقه .

اقتربت ساعةُ الوضع ، وأحست ألم المخاض[3] ، وخرجت من القرية فأجاءها[4] المخاضُ إلى جذع نخلة يابسة ، وهى وحيدة منفردة بلا يد شفيقة تسددها وتساعدها ، وتخفف آلامها وتعالجها ، هناك قاست تلك الأم العذراء آلام الوضع ، وفى الفضاء الواسع ولدت الطفل .

آلمتها تلك الوحدة ، وحز فى نفسها رؤية تلك الثمرة ، فنظرت إلى الطفل فى حسرة واكتئاب ، وجعلت تتمنى لوضمها القبر ، وفارقت هذا العالم قبل أن تصير أمًّا من غير أن تتزوج ، فقالت : (يا ليتنى مِتُّ قبلَ هذا وكنتُ نَسْياً منسياً)

---

(١) الرغام : التراب . (٢) براء : بريئة . (٣) المخاض : وجع الولادة .
(٤) فأجاءها : فألجأها .

هى الآن لا تدرى ماذا تفعل ؛ سُقِط فى يدها ، وتحيَّرت فى أمرها ، واشتدّ حزنها ، وغلى مِرْجل غيظها ، وجلست حانقة ساخطة ، ولكنها ما لبثت أن سمعت صوتاً يَرِنُّ صَدَاه فى أذنها ، فبدّد مخاوفها ، وكفكف دموعها ، وناداها من تحتها : (أَلَّا تحزَنِى قدْ جَعلَ رَبُّكِ تحتَكِ سَرِيّاً)[1] ، يجرى ماؤه فى تلك البقعة الجرداء ، (وَهُزِّى إليك بِجِذْعِ النخلة تساقِط[2] عَليكِ رُطَباً جَنِيّاً) فكُلى منه ليعيد إليك بعض ما فقدت من قوة ، واشربى وقَرِّى عينا، واطمئنى قلباً ، بما ترين من قدرة الله التى اخضرَّ بها جِذْعُ النخلة اليابسة ، وطِيبى نفساً حباك الله من جَرَيان الماء فى تلك البقعة المقفرة .

قد كانت تلك المعجزة — بلاشك — أقوى دليل على براءتها ، وأسطعَ برهان على طُهْرِها ، وقد كانت آية بينةً تردُّ بها قذفَ القاذفين ، وعيب العائبين ، ولكنها إنما تدفع التهمة ، وتقيم بها الحجة على من يحاجُّونها فى هذا المكان الذى أجاءها المخاضُ إليه وهى تريدُ الجواب الذى تجيب به لُوَّامها ، والزارين[3] عليها ، والمعيِّرين لها ، وهم الذين سيستقبلونها فى القرية ، ويسلُقونها بألسنة حِداد ؛ لذلك لم تتبدد مخاوفها ، ولم تنقشع سحابَةُ حزنها .

وكأن ذلك المولود الصغير ، قد أطلعَهُ الله على سبب حيرتها ، وكشف له عن دخيلة نفسها ، فكفاها الكلام بما يبرئها ، وأخذ على نفسه الجواب عما يوجَّه إليها ، فقال : (فإمَّا تَرِينَّ منَ البشرِ أحَداً فقولى إنى نذَرْتُ للرحمن صَوماً فلن أُكلِّمَ اليومَ إنسِيّاً) .

---

(١) السرى : الجدول .
(٢) تساقط : تسقط .
(٣) الزارين : العائبين .

اطمأنتْ نفسها ، وعاد إليها ما عزَب[1] من لُبِّها ، واستجمعت قوتها ، ورجعت إلى القرية ، وأتت به قومها تحمله ، وسرعان ما شاع أمرها ، وعُرِفَ خبرها ، فسرحوا فى عرضها ، وتحدثوا فى طهرها ، وأخذ بعضهم يوجه اللوم إليها ، ويشتد فى تأنيبها وتقريعها ، ويُذكِّرها بشرف أسرتها ، وكرم مَحتِدها[2] ، فقالوا : (يامَرْيمُ لقدْ جِئتِ شيْئاً فرِيّاً[3] ، يا أُختَ هارُونَ ما كانَ أبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً) .

لم تنفرج شفتاها ، وعَقدَ الحياء لسانها ، والتزمت الصمت ، وأبت الكلام ، وقالت : إنى نذرتُ للرحمنِ صَوْماً ، فلن أتكلم بكلمة أو أردّ سؤالا . وإن أردتم الوقوف على جَليَّة الأمرفها هو ذا — وأشارت إلى الغلام — أن كلِّموه ! فعجبوا من أمرها ، وسخروا من إشارتها ، وقالوا : (كيف نُكلم مَن كان فى المَهْدِ صبِيّاً) ؟

ولكن الله أنطق لسان ذلك الصغير ، وأطلق الصوت من تلك اللهاة التى لما يكتمل تكوينها بعد ، وحرّك تلك الشفاه التى لمّا تهتدِ إلى موضع الأنداء ! موجِّها إليهم الخطاب فى وضوح وبيان ، ولكنه لم يتحدث إليهم فيما وجَّهُوه إلى أمه من لَوْم ، أو يجادلهم فى تهمتهم التى ألصقوها بتلك البارّة الطاهرة ، بل قال : (إنى عَبْدُ الله آتانِىَ الكتابَ وَجَعَلَنى نَبيا . وجَعَلَنى مُبارَكاً أينما كُنت وأوْصانى بالصَّلاةِ والزكاةِ مادُمْتُ حَيّاً . وبَرّاً بوالدتى ولَمْ يَجعلنى جَباراً شقَيا . والسلام عَلَىَّ يَوْمَ وِلِدْتُ ويومَ أمُوتُ ويَوْمَ أبعثُ حَيّاً) .

أتُراه بعد هذا فى حاجة إلى دليل يَمْحَق باطلهم ، أو برهان يبيِّن كذبَهُم !

---

(١) عزب : بعد وغاب . (٢) محتدها : أصلها . (٣) فريا : جديدا منكرا .

ألم ينطقه الله بالحكمة ، ويُعِدّه للنبوة ، وهو لم يزل فى المهد صبياً ، وفى حِجْر أمه طفلا ؟ قد كان هذا آية على براءتها ، ومعجزة دالّة على طهرها ؛ إذ القدرة التى أنطقته بالحكمة فى هذه السنّ لا تعجِز عن خلق مثله من غير أب ، فبكلمةٍ منه خُلِق ، فليكفّوا إذاً عن لومهم ، وليتجنبوا الخوض فى عِرْضها ، وإشعال الفتنة حولها .

ولا تظن إلا أن هذا الصوت قد بَهَرهم ، وتلك الآية أخرست ألسنتهم ، هذه الحكمة من طفل فى مَهْدِه قد ذاع أمرها فى القرية ، وانتشر خبرها فى هذه الحِلّة[1] ، وصارت حديث الناس فى دورهم ، ومجال القول فى أنديتهم ، فأكبروا من شأن هذا الوليد ، وبدلوا بظنهم السيء يقيناً ببراءتها ، وعلموا أن هذا الصبى ليس كصِبْية القرية ، بل سيكون له شأنٌ خطير ، وخطب جليل .

وليس لك أن تتصور أن هذا هو ما اعتقده الناس جميعاً ! فمحال أن تجتمع كلمتهم على شيء ، بل إنى لأرَى بعضهم قد ظنه حديثَ خرافة ، أوحسبه شيئاً لبتدعه أهلها ، رغبة منهم فى إظهار براءتها وستر فعلتها ، وحبًّا فى قطع ألسنة السوء التى طار شُواظها يُلهبهم ويؤذيهم ، ولا شك أن هؤلاء الذين لم تقرَع أسماعَهم الحجة ، ولم يمح شكّهم البرهانُ الواضح كانوا قِلةً ، وكانوا من الجهالة بحيث لا ينصاعون للحق ، ولا تبدد وساوسهم الحجة البالغة ، والآية البينة ، فلم تستسغ عقولُهم أن الله الذى يُمْسك السموات والأرض أن تزُولا ، وبيده ملكوتهما — قادر على أن يخلق إنساناً بكلمة منه — وأن ربهم الذى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون يستطيع أن يخالف المنهج الذى ألفوه ، والطريق الذى اعتادوه

---

(١) حلة القوم : البيوت .

وخَلْقٌ هذا شأنهم أجدرُ بأن تنبذهم نَبْذَ النواة ، وأولى ألا تقيم لكلامهم وَزْناً ، ولا لرأيهم قدراً ، ولعل حِقداً نَشِب[1] في صدورهم ، وغِلاً تمكن من نفوسهم ، فأعمى أبصارهم ، وطبع على قلوبهم ، لذلك تراها لم تحتفل[2] بتلك الفئة الظالمة ولم تَعْنَ بتلك الجماعة المكابرة ، وأقامت في القرية تُعنى بطفلها وتُرَبى وليدها ، قريرةَ النفس ، منشرحة الصدر ، لأنها تعلم أن الله سوف يكلؤه برعايته ، ويحفظه بعنايته ، حتى يؤدى رسالته .

* * *

نبـــوة عيسى(*)

نشأ عيسى كما ينشأ كثير من الأطفال ، وَشَبّ كما يَشِبّ جلُّ البنين ، إلا أنه قد ظهرت بوادرُ فضله ، وبدت مظاهر نبوته ؛ فهو إذ يلعب مع لِدَاته ؛ ويلهو مع أقرانه ، ينبّئهم بما يأكلون وما يدّخرونه في بيوتهم ، وهو إذ يذهب إلى معلم القرية ، ويجلس إليه ، لا يَنْهَجُ منهج غيره ، ولا يسلك سبيل أنداده ، بل تراه يستمع إلى حديثه في جدّ واهتمام ، وَيُصْغى إلى درسه في شوق ولهفة ، ثم هو لا يعلّمُهُ شيئاً إلا بدَرَهُ[3] إليه ، وسأله عنه ، فلا تغيب عنه شَارِدَةٌ ، ولا تنبو عن ذهنه مسألة .

ثم يرحل إلى بيت المقدس مع أمه ، ولم تَعْدُ[4] سنُّه الثانية عشرة من عمره ، فلا يَبْهَرُهُ ما يرى من جماعات مختلفة ، وألوان من الناس متباينة ، ولا يفتنه عليه بصرُه من مشاهد رائعة ، ومظاهر خلّابة ساحرة ، ولم تُلهه تلك المدنية

(١) نشب : علق .

(٢) لم تحتفل : لم تبال وتهتم .

(*) آل عمران ٤٩ — ٥١ .

(٣) بدر إليه : استبق إليه .

(٤) لم تعد : لم تجاوز .

بزيفها ، أو يَزِغْ بصره من زخرفها ، وهو فى هذه السن التى هى فى مجرى العادة لا توحى إلا بالعَبَث ، ولا تدفع إلا إلى اللهو ، ولكنه يُغضى عن كل ذلكَ ، ويلقى بنفسه فى ميدان العلم ، يستقى من مَوْرِدِه ، ويرتوى من مَنْهَله ، ويلزمُ حلقة الدرس ، يصغى لمن اتخذوا لأنفسهم سَمْتَ العلماء ، وهم يُزَخْرِفون للناس أحاديثهم .

ولما اندمج فى جماعتهم واحتوته حَلْقتهم ، أنصت إلى حديث الكهنة كما ينصت الناس ، واستمع إلى آرائهم كما يستمعون ، فَوَجَد القوم يؤمنون بكل قول ، ويصدّقون كل حديث ، وهم جميعاً يُنصِتُون كأنّ على رءوسهم الطير ؛ فلم يلبث أن انبرى من بينهم متسائلاً ، وانتضى سيفَ الحقّ مقاتلاً ، فنقمَ بعض الناس جرأتهُ ، وأنكروا عليه مسألتهُ ، وضاق العلماء به ذرْعاً ، وأوسعوه تأنيباً ؛ إذ لم يعهدوا — قبلَهُ — أن يجترئ أحد على جِدَالهم ، أو يُقدِم سامع على البحث فى قولهم .

ولكنه لم يعبأ بما كالوا له ، ولم يصرفه ما قابلوه به ، بل استمر يُمْطِرهم بأسئلته ، ويسد المسالك أمامهم بمحاجّتِه .

وأنساهُ ذلك طعامه ، وألهاه عن شرابه ، وانتظرت أمُّهُ أوْبَتَهُ[1] ولكنه لم يرجع ، فبحثت عنه فى كل مكان تظنه يهواه ، وفتّشت عنه فى كل مجال تحسبه يروده ، ولكنها عادت يائسة من لقائه ، ورجعت غير آملة فى العثور عليه.

ولما أعياها البحث ظنته قد رجع مع بعض أقاربه ، أو سافر به بعض أهل بلده ؛ فعادت إلى قريتها ، وهى تحسبُ أنه قد سبقها إليها ، وسألت عنه فلم تجده ، وحاولت أن تقفَ على خبره وتتسمّع نبأه ، ولكنها لم تجد صدًى لصوتها

---

(١) أوبته : رجوعه .

ولا أثراً لندائِها ، فقفلت راجعة إلى بيت المقدس تعيد الكرّة فى سؤالها ، وتطلب المزيد عن بحثها .

ولم تترك فى هذه المرة مكاناً إلّا دخلته ، أو باباً إلا ولجته ، وبينما هى مجدّة فى بحثها ، وقعت عليه عيناها وقد اندمج فى زُمْرَة العلماء ، وزج بنفسه فى لجة الباحثين ، وهو يكثرُ معهمُ الحوار ، ويتطاول عليهم فى الجدال ، فَدُهِشَتْ لِمَا رأت ، وأزعجها ما شاهدتْ ، ودعته إليها وساءلته عمّا ألهاهُ عنها ، وأنّبَتهُ لفعلتِهِ ، وعنفته لغيابه ، ولامته على أنه أتعبها فى البحث عنه،وأضناها فى السؤال عن مكانه ، فأجابها بأنه قد استَهْوَتْه مناقشة الحكماء ، ومناقلة العلماء ... ثم سارَ معَ أمه ، ورجعَ إلى النّاصرة[1] .

ولما بلغ الثلاثين من عمره هبط عليه الرُّوح الأمين ، فكان ذلك بدء الرسالة وفاتحة النبوّة ، ثم تَلَقى من ربه الكتاب الذى جاء مصدِّقاً لما بين يديه من التوراة ؛ فأخذ يؤذِّن فى الناس برسالتِهِ ، ويدعوهم إلى متابعته ، ويسعى فى أن يرد اليهود عن زيغهم ، ويصدّهُمْ عن ضلالهم ، فقد انحرفوا عن الطريق القويمة وحرّفوا شريعة موسى السمحة ، وجعلوا همهُمْ جَمْعَ المال ، فصاروا يُحَرِّضون الفقراء والمحتاجين على أن يقدموا للهيكل ما استطاعوا من نذور ، ويؤثروه بما ملكت أيمانهم من هِبَات ، ليسيل النُّضار[2] ، إلى جيوبهم ، ويتدفق الذهب فى خزائنهم ؛ وإن كان مَنْ يُحَرِّضونهم فى أمَسِّ الحاجة إلى المال ، يعولون به آباءهم ، ويربون منه أبناءهم ، ويُمْسِكون بِهِ رمَقَهم[3] ، ويسترون به أجسامهم .

---

(١) الناصرة : البلدة التى نشأ بها . (٢) النضار : الذهب .

(٣) رمقهم : حياتهم .

وكان من اليهود طائفة أنكرُوا القيامة ، واستبعدوا الحشر ، وكذبوا بالحساب والعقاب . وطائفة غيرهم ألهتهم الحياةُ الدنيا ، وانغمسوا في ملاذّها ، وأقبلوا على شهواتها ، يستترون بها ، ويتسترون عن أعين الناس وهم يقترفونها يُرَاءون الناس ليوقعوهم في مخالبهم ويبتزّوا أموالهم .

هذه كانت الحال عندما بزغ نجم عيسى ، وأشرقت شمسه ، وبعثه اللهُ ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، فلم يترك سبيلاً لهدايتهم إلا سلكه ، ولا باباً إلا طرقه يحاول أن ينتشلهم من هذه الوهدة ، ويخلصهم من تلك الحَمأة .

وشعرَ رجالُ الدين بالتيار يجرفهم ، وأحسوا بالخطر يدهمُهم ؛ فها هو ذا عيسى ينكر عليهم انغماسهم في الشهوات ، وتهالُكهم على اللذات ، وتسابقهم إلى جمع المال ، ثم هو يفضح أسرارهم ، وينشر بين الناس مخازيهم ، فأجمعوا أمرهم بينهم على مناوأته أينما حلّ ، وتكذيبه حيثما ذهب .

ولكنه لم يُبالِ جمعهم ، ولم تَثْنِه مناوأتهم ؛ بل صمدَ في سبيل الحق ، وثبت لدعوة الصدق ، وسار متنقلاً بين القرى يُزَيِّفُ آراءهم ، ويفنّدُ أقوالهم فطالبوه بما يؤيد رسالته ، ويثبتُ دعوته ، ويدلهم على نُبُوّته ، فأيدَهُ الله بالمعجزة الباهرة وآزره بالآية البينة ، فصار يخْلُقُ من الطِّينِ كهيئة الطير ، فينفخُ فيه فيكونُ طيراً بإذن الله ، ويبرىء الأَكْمَهَ[1] والأبْرَصَ ، ويُحْيِي الموتى بإذن الله[2] .

ولا شك أن ذلك أمر لا يستطيع أحد أن يعالجه ، ولا يقدر بَشر أن يأتي به إلا بتأييد من الله ، ونَصْرٍ من عنده ، ولكنهم مع تمام حُجّته ، ووضوح آيته ، تمادوا في طغيانهم ، وثبتوا على ضلالهم ، وقال الذين كفروا منهم : إن هذا إلا سحرٌ مبين ! !

---

(١) الأكمه : الذى ولد أعمى .   (٢) آل عمران ٤٩ .

ثم وَجَدت دعوته آذاناً صاغية ، وقلوباً واعية عند كثير ممن لم تفتنهم زخارف الدنيا ، ولم تمتد أعيُنُهم إلى متاعها ، ودفعته الحميَّة لدينه إلى أن ينقضّ على رجال الدين فى جُحْرِهم ، ويقتحم عليهم حِصنهم ، فرحل إلى بيت المقدس، واختار يوم عيدهم ، ووقت اجتماعهم ، وعرض دعوته على الوافدين من شتى القرَى ، والنازحين من مختلف المدن ؛ فالتف الناس حوله ، وتفَتّحت قلوبُهُم لحديثه ، وكثر أنصاره ، وانتشر أتباعه .

فأثار ذلك حفيظةَ[1] الكهنة ، وحرّك كامن غيظهم ، ودفعهم إلى التفكير فيما يريحهم منه ، ويكفيهم شره ؛ ولكنهم لم يستطيعوا أن يمسّوه بأذى ، أو ينالُوهُ بضرر ، فقد وعد الله بحفظه ، وأيده بنصرِهِ ، (وَمَكَرُوا ومَكَرَ اللهُ ، واللهُ خَيْرُ المـاكِرِينَ) .

* * *

المـــائدة[*]

خرج عيسى يَجُوبُ البلاد ، ويجول فى القرى ، يدعو إلى دين الله ، ويؤذن فى الناس برسالته ، ويحاولُ أن يقوِّض صُرُوحَ الظلم ، ويطمسَ معالم الشرك ، ومعه الحواريُّون[2] ، يَشُدُّون أزرهُ ، ويشتدّ بهم عضده ، ويقاسمونه سروره ويخففون عنه أحزانه ، ويحتملون معه وعثاء السفر ، وشَظَف العيش ، ويحولون بينه وبين أعين الرقباء الذين يتبعون ظله أينما سار ، ويطاردونه حيثما حلّ فقد كان عيسى من أسرة قل أعوانُهَا ، وعزّ نُصراؤها ، وخَمَدَت جذوة العصبية

---

(١) الحفيظة : الغضب .   (*) المـائدة ١١٢ — ١١٥ .
(٢) الحواريون : خلصاء عيسى وأنصاره .

فيها ، وللعصبية أثرها في دفع المعتدين ، ورد كيد الظالمين ، ألم يقل قوم شُعَيب لنبيهم : (ما نفقَهُ كثيراً مما تقولُ ، وإنّا لنرَاكَ فينا ضَعيفاً ، ولولا رَهْطك لرَجَمْناكَ وما أنتَ علينا بِعَزِيز)[1].

أقاموا بقرية ، وارتحلوا إلى أخرى ، وتلبثوا بثالثة ، وحَطّوا رحالهم بغيرها ، وهكذا حتى أدّت بهم خاتمة المطاف يوماً إلى مَفازة ، مترامية الأطراف ، وقد أجدبت أرضها ، وأقفرت جنباتها ، وهناك طَوَوا[2] من الجوع ، وجفت منهم الحلوق ، ووهنت قوتهم ، وفترت عزيمتهم ، واشتد بهم الكلالُ والإعياء ، فنزلوا على غير ماء وطعام ، وجلسوا يتبادلون الحديث في شئونهم ، ويقلّبونَ وجوهَ الرأي في أمرِهِمْ ، عَلّهُمْ يهتدون إلى خير الطرق لبثِّ دعوتهم ، ومغالبة الصِّعابِ التي تعترضهم ، والنجاة من الأعداء الذين يترصدونَهُمْ .

وكان عيسى — عليه السلام — يُحيي آمالَهُمْ ، ويشحذ عزيمتهم ، ويُخَفِف آلامهم ، ويواسي المكتئب منهم ، ثم لا يفتأُ يُبَيِّنُ لَهُمْ ما استغلق عليهم فهمهُ ، ويوضح ما انبَهَمَ أمامهم أمره .

وهؤلاء الحواريُّون — وإن كانوا قد شَهِدُوا برسالته وآمنوا بنبوته ، واجتمعوا تحتَ رايته ، واستماتوا في سبيل نُصرتِهِ — لايزالون في حاجة إلى أن يزدادوا يقيناً إلى يقينهم ، وإيماناً إلى إيمانهم .

وجاشَتْ تلك الرغبة في نفوسهم ، فلم يلبثوا أن كشفوا لعيسى عما اختلجَ في صدورهم ، فقالوا : يا عيسى ، هل يستطيعُ ربك أنْ يُنزّلَ علينا مائدةً مِنَ السماء ؟!

لم يكن ذلك شكاً في قدرة الله ، أو طعناً في نبوّة عيسى ، فحاشاهم أن يكونوا من الشاكّينَ في قدرة اللهِ ، أو المرتابين فيها ؛ بعد أن آمنوا بالله

---

(١) سورة هود ٩١ .   (٢) طووا : خلت بطونهم .

ورسوله ؛ وقالوا لعيسى : آمنا واشهدْ بأنا مسلمون ، أسلمنا لك قيادتنا ، وألقينا إليك مقاليدنا .

وقوم هذا شأنهم لا يسلك الشك سبيلا إلى نفوسهم ، وإنما سألوا تلك الآية — كما سأل إبراهيم ربّه من قبل ، إذ قال :(ربّ أرنى كيف تُحْيِى الموتى قال : أوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قال : بَلَى ، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قلبى)(١) .

قال لهم عيسى ، وقد عجب من أمرهم : وخاف عاقبةَ سؤالهم : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، واحذروا أن تقترحوا أمثال هذه المعجزات ، لئلا تكون فتنة لكم ، وسبباً فى فساد أمركم ، أولم تَرَوْا ما تطمئن به نفوسكم ، ويزيل كل شك تحسونه فى قلوبكم ؟ !

إن ذلك قد ينبىء عن عناد ومكابرة ؛ فما لكم تقترفون هذا الإثم ، وترتكبون ذلكم الجرم ، وتطلبون تلكم المعجزة بعد أن رأيتم ما أجرى الله على يدىّ ، من إبْرَاء الأكْمَهِ(٢) والأبرص ، ثم ما شاهدتم من إحياء الموتى بإذن الله ؟ فهل انتابكم الشك ، ودَاخلكم الرّيب ، وتسرّب إلى نفوسكم الظن ، بعد أن رأيتم من الآيات ما يُحِقّ كل باطل ، وَيَمْحُو كل شك ؟ ! يا قوم دعوا هذا اللجاج ، واتركوا تلك الوساوسَ إن كنتم مؤمنين .

هدّءوا من روعه ، وسكّنوا من جأشه ، وأبانوا له عن حقيقة الأمر وجَليته فقالوا : قد كنا صادقين فى إيماننا ، مخلصين فى إسلامنا ، ولسنا منكرين لآياتك أو شاكين فى رسالتك ، ومازلنا مُقرين بنبوّتك ، مؤمنين بدعوتك ، ومادفعنا إلى انتهاج هذه الطريق ، وحملنا على اختيار تلك الآية ، واقتراح هذه المعجزة

---

(١) البقرة : ٢٦٠ . (٢) الأكمه : الذى ولد أعمى .

إلا أن لها فضلا ومزية ؛ فنحن نريد أن نأكل منها[1] ، ألم ترنا وقد خوَتْ منا البطون ، وأصبحنا لا نجد ما يمسك رمقنا ، ويخفف من سغَبنا[2] ؟!

على أننا قد علمنا قدرةَ الله بالدليل ، وشاهدنا آثاره بالبرهان ،وعرفنا آياته بقراءة صُحُف الكَوْن ، فآمنا به ،وصدّقنا برسالته ؛ فإذا جئتنا بتلك المعجزة اطمأنت قلوبنا ، وازداد يقيننا ، وثبت إيماننا .

ولتَعلم أننا على يقين من أنّ معجزاتك تشفى أمراضَ القلوب ، وتستأصل بذورَ الشك ، وقد سبق أن أيدت لنا نبوتك ، وعلمنا بها صِدق دعوتك ، فلن ترى منا شكا ، ولن تجد انتقاضاً ، وإنما سألنا هذه الآية ليزداد الدليل وضوحاً ، والقلب اطمئناناً ، وَالجَنانُ ثبوتاً .

حنانيك ! فإننا نعلم أنك قد صدقتنا ، واستمددت وَحْيَك من ربنا،وأن الله مؤيدك بنصره ، مُسْبغ عليك نعمته ، ولكن معجزاتكَ السابقة كانت أرضية، وهذه الآية التى نطلبها سماوية ؛ سنرى بها أعظم مما رأينا وأعجبَ مما شاهدنا ، فإذا أتيتَ بها كنا لها مُذعِنين ، وبخبرها شاهدين ؛ فيكثر تابعوك ، ويزداد المؤمنون بك .

ولما رأى عيسى منهم إصراراً على طلبها وإلحافاً[3] فى سؤالها ، وعلم أنهم لا يَقصِدُونَ إلى عَنَت ، ولا يدفعهم إليها شَكٌ أو عِناد ، وتبين له صحة قصدهم وصواب غرضهم ، دعا الله تعالى فقال : اللهم يا مالك الملك ، ومدبّر السمٰوات والأرض ، ومتولى شؤون خلقك،ومسيِّر أمور عبادك : (أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً

---

(١) قال بعض المفسرين : إنهم كانوا صائمين ، ولذلك قالوا : نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا بأن الله قبل صيامنا .

(٢) السغب : الجوع . (٣) إلحافاً : إصراراً .

مِنَ السماء تَكونُ لنا عِيداً ، لأوَّلنا وَآخِرِنا وَآيَةً مِنكَ وَارْزُقنا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازقينَ) .

أجاب الله دعاءه ، وسمع ضَرَاعته ، فقال : إني مُنَزِّلها عليكم ؛ ليزدادوا إيماناً بك وثقة بنبوّتك ، ولكن ليعلموا أن هذه الآية تُلزمُهم الحجة ، وتُوحِي إليهم بالبرهان الذى لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه ؛ فمن يكفر بَعدُ منهم فإنى أُعَذِّبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين .

أنزل الله عليهم مائدة من السماء ، فاضت بالرزق السابغ ، والخير الوافر ، إنجازاً لوعده ، وتأييداً لنبيّه ، واستجابةً لدعوته ، وخشىَ عيسى الفتنة إذ رآها ؛ فدعا الله أن يجعلها رحمة لهم ، ونعمة عليهم ؛ وسأل ربه أن يهديهم إلى الإيمان الثابت والطريق القويم . ثم قال لهم : ها هى ذى المائدة قد أنزلها الله عليكم ، فكلوا مما سألتم ، واشكرُوا له ، يزدكم من فضله .

طعِمُوا منها ما شاءوا ، وقرّت بذلك أعينُهم ، وقَوِىَ إيمانهم ، ثم تحدث الناس بتلك المعجزة الباهرة ، والآية البينة ، فآمنَ خلقٌ كثيرٌ ، وازداد المؤمنون يقيناً فى الإيمان وثباتاً عليه .

* * *

النهـــاية(١)

كان عيسى جادًّا فى رسالته ، غير مُتَوَانٍ فى دعوته ، ينكر على اليهود ما دَرجوا عليه من النظم التى درّت علَيهم الأموال الطائلة ، وجعلتهم فى بَسْطة من العيش وَسَعَة ، ويعيب عليهم أن تستعبدهم دولةُ الألفاظ ، وتأسِرُهم ظواهر

---

(١) آل عمران ٥٥ ، النساء ١٥٧ — ١٥٨

الشريعة ، وَيَنْعى عليهم أن يطمِسُوا معالم الدين ، ويبعدوا عن صراطه السوى وَيُبَيِّن لهم أنَّ ماهم عليـــه لا يُوَائم روحَ دينهم ، ولا يوافق ما يدعو إليه ربهم .

ولم يَثْنه عن مُنَاوَأَتِهم ما أعلنوا من حرُوب ، وما أَلَّبوا من جموع ، وما بَثّوا من عيون .

حتى إذا قهرت البيناتُ ألبابهم ، وبهرت الآياتُ بصائرهم ، وخَصم[1] نورُ الحقْ حجتهم ، لم تجد عقولهم سبيلا إلى دفع حقه ، أو طريقاً إلى مغالبته وصدّه ، ولـكنهم مع ذلك كذَّبُوه بأفواههم وبألسنتهم ، بغياً وعداوة ، وحسداً ولجاجة ، يخافون أن تبيد دولتهم ، وتميد عروشهم ، وتُطْوَى صحيفة سلطانهم .

وكثرَ مع ذلك أتباعه وأنصاره ، وإن كانوا من طبقاتٍ دُنيا ، وأخلاط جاهلة .

حاول اليهود أن يخفّفُوا من أثر دعوته ، أو يُمَوّهوا على الناس أمره ؛ فلم يستطيعوا ؛ فقد كان كالفلك الدائر ، والنَّجْم السائر ، يُدَوِّى صوته بالدعوة إلى الله فى كل مكان ، وينْقِمَ على اليهود حيثما حلّ .

بل كان يجهِّل أحلامهم ، ويفنِّد مذاهِبَهم ، حتى غضبوا عليه ، وضاقوا ذرعاً به ؛ فصوّروه لرجال السياسة مُوَءَلِّباً للجموع ، مثيراً للفتن ، متطلعاً للملك ، لينضمّ هؤلاء تحت لوائهم فى معاداته ، وذلك شفاء لنفوسهم ، وتحقيقٌ لآمالهم .

وعيسى على كل حال وحيدٌ فريدٌ ؛ ليست له عصبية تحميه ، ولا قبيلة تؤازره وتنصره ، ولـكنه لا يحفل بغضب هؤلاء ، ولا يرهب عَنَت أولئك ؛ فقد تـكفل الله بحفظه ، ورعاه بقدرته ، وطهّرَه من الـكافرين بدعوته ، وعصمه من الجاحدين برسالته ، ووعده أن يُحْبط مَـكْرَهم ، ويردّ كيدهم فى نحرهم .

---

(١) خصمه : غلبه .

هالَ اليهودَ ما رأوْا من تألبِ النـــاس عليهم ، وانصرافهم عنهم ، وَخَيَّلت لهم نفوسُهم أن عيسى قد تستطير بسببه الفتنةُ ، وتكاد تشبُّ من بين أنصاره الثورة ، مع أنه قد جاء مصدّقاً لما بَيْنَ يديهِ منَ التوراة ، ولكن أين هم منها ، وقد بدّلوا نعمة الله كفراً ، وأحلوا قومهم دارَ البوَار؟! واستبدلوا بدين الله ما يُنَمِّى ثروتهم ، ويغدق الخير عليهم ، وَيُبْقى السلطان فى أيديهم ، وزمام الشعْبِ فى حوْزتهم ؟

ولما يَئسوا من مُقاومته ، وعجزوا عن صدّ تيار دعوته — وقد كاد يجرفهم ويمحو أثرهم — بثوا العيُونَ والأرصادَ له فى كل طريق ، ينفثُون سموم الدسائس ، وَيحيكُونَ لهُ خيوطَ العِدَاء ، ويذيعونَ أنهُ ســاحر ، وأنّ ما يُظهر من معجزات ، وما يَدّعى من آيات إنما يمليه عليه الشيطانُ ، وأنه لا يَنحو نحوهم ، ولا يقتفى أثرهم ، فلا يَكفّ عن أعمالِ الدنيا فى يوم السبت ، وهو يومُ عيدهم وعبادتهم ، ثم رَمَوْهُ بالبعدِ عن دينهم ، والكفرِ بنبيهم ، والمرُوق من عقائدهم .

ولكنّ ذلك لم يَخفِت من صوته ، ولم يَثنـــه عن عزمه ؛ بل دَأبَ فى دعوته ، واستمرّ يُؤَذِّن برسالته ، وهم يَخَالُون كل كلمة سَهْماً ؛ ويحسون لكل همسة وقعاً . فلا كتِ الألسنةُ الحديثَ فى شأنهم ، وابتدأت الجماعات تنفضُّ من حولهم ؛ وخاف هؤلاء أن يَنضَب مَعِينُ ثروتهم ، وتنقطع موارد أرزاقهم ؛ فقلّبُوا وجوه الرأى ، ثم أجمعوا أمرهم بينهم على أن يبيدوا أصلَ الداء ، ويستأصِلوا شأفته ، ويَبيّتُوا له الشر ، ودبروا القتل ، حتى لا يتألّبَ الناس عليهم ، وينتقضوا على سلطانهم .

وما كان أجهَلَهُمْ بدين الله ، وأبعدَهُم عن صراطه، حين هموا بقتل نبىّ يؤمن بكتابهم ، ويقر دينهم ، وهو لم يجترم جُرْماً إلا دَعْوَتهُم إلى التزام حدود الله ،

ونَبْذ المآثم والذنوب ، ولم يقترف إثماً إلا أنه رغب فى أن يردّهم إلى حقيقة الدين ، ودعاهم إلى حسن القيام به ، وحثّهم على الإخلاص له .

عقدوا العزم على قتله ، ولكنْ أنى لهم ذلك ، وهم لا يعرفون مكانه ، ولو أنهم بحثوا عنه بأنفسهم لأعياهم البحث ، بل لرجعوا بالحسرة وباءوا بالخيبة، إذن فليلجئُوا إلى الوعود الكاذبة ، والأمانى المعسولة ، يبذلونها لمن يأتيهم به ، وليركنُوا إلى العيون يبثونها حوله ، وإلى الأموال يغدِقونها على من يَدُلهم عليه ، وأخيراً إلى الوالى يثيرون غضَبه ، ويوهمونه أنّ فى دعوة عيسى زوالا لملك قيصر ، وتقويضا لسلطانه .

واجتمع رجالُ الدين فى بيت المقدس يجيلون الرأى فى أمر عيسى ، لعلهم يهتدون إلى مكانه ، فيثأروا لأنفسهم منه ، ويشفوا غلهم ، ويدركوا وِترهم .
وبينما هم فى اجتماعهم — وقد ضاقت بهم السُّبل ، وتملّكهم الحزن واليأس، وحاروا فى أمرهم ، وخافوا أن تضمحلّ دولتهم وتزول عروشهم ، وينصرف الناس عنهم — وبينما هم فى هذا الحزن الشامل ، وذلك اليأس القاتل ، دَلفَ إلى الحارس[1] رَجلٌ من أتباعه ، يقدم رِجْلا ويؤخر أخرى ، وأسر إليه فى خوف وحذَر ، أن لديْه أمراً يريد أن يُفضى به إلى المجتمعين .

ولما دخل عليهم أقبلوا عليه يستنبئونه عن حاجته ، ويسألونه عن سبب مَقْدَمِه ، فأفضى إليهم بما سكّن اضطرابهم ، وأذهب خوفهم، وأدخل السكينة إلى قلوبهم ، وحدثهم أنه إنما أهمّه خروج عيسى عن دينهم ، وأقضّ مضجعه إنكاره نظمهم ، وأقذَى عينيه أن يرى الناسَ يلتفون حوله ، ويؤيدون دعوته ثم أبدى — فى حذر واضطراب — رغبتَه فى أن يدلهم عليه ، ويعرّفهم بمكانه

(١) هو يهوذا الأسخريوطى .

ليريحهم من مصـــدر كمدهم ، فيصفو عيشهم بعد كدره ، ويستقر حالهم بعد قلقها .

وما كاد يُتم كلامَه حتى تنفّسوا الصعداء ، وطفَحت وجوههم بالبشر ، وأقبلوا عليه يمنّونه الأماني ، ويبسطون له واسعَ الآمـــال ؛ فاطمأنّ إلى حديثهم ، وطابت نفسُه بمعسول كلامهم ، ولعلّه كان كذلك يشفي غلاً نَشب في صدره ، أو حقداً عَلِق في قلبه .

ذهبوا به إلى الوالي ، فقص عليه القَصص ، وخبّره بمكنون أمر عيسى ، فابتعث مع ذلك الشيخ جنداً يأتون بعيسى ، ليقضوا فيه أمرهم، وينفذوا حكمهم.

وكان عيسى حينذاك قد عَلِم ما يُخفي القوم ، وما بيتوا له من شر ، وانتهى إليه ما أجمعوا أمرهم عليه ، وعرف أن عُيونَ الكهنة تَترَصّدُهُ ، ورجال السلطان يجدّون في البحث عنه ، فأخذ ينتقل من مكان إلى مكان ، يختفي حينا ويظهر آناً ، وهو لا يَني عن بثّ دعوته ، ولا يقصر في إعلان رسالته ، ولا يفتأ يحضّ على التمسك بحبل الله ، ويدعو إلى البعد عن المنكرات والآثام ، وتلاميذه لا يفارقون ظله ، ولا ينأون عنه

وآوى معهم يوما إلى بستان يسكنون إليه ليلتهم ، وظنوا أنهم بمنجاة عن العيون ، ولن يهتدي إلى مكانهم الباحثون ؛ ولكنهم كانوا واهمين ؛ إذ لم يكد يُجِنّهم الليل ، ويسترهم الظلام ، حتى تَهَدى الباحثون إلى مكنه ، وعثروا عليه في مخبئه ، فأصبح عيسى وتلاميذه بين أيديهم .

ولما رأى التلاميذ ما كاد يَحيقُ بهم وبصاحبهم تركوا نصرته، وانفضّوا من حوله ، وولوا هاربين .

أما عيسى فما كان الله ليسلمه إلى أعدائه، وهو يجاهد في سبيل إعلاء دينه ، وقد أيده بالمعجزات ، وآزره بالبينات ، ووعده بنصره على أعدائه ، ونجاته من كيد الكائدين .

وفى هذه الساعة الرهيبة الفاصلة ، تجلت قدرةُ الله ، وامتدت إليه يد العناية ، فأخفاه الله عن أعين الناظرين ، ووقع تحت بصرهم رجل شديد الشبه به ، وما لبثوا أن حسِبوه هو فانقضُّوا عليه ، وأخذوا بتلابيبه ؛ فتملكته الدهشة ، وعقد لسانه الخوف ، فلم يستطع الدفاع عن نفسه ، ولا الإعلان عن حقيقة أمره ؛ بل استسلم خائفا مذعوراً ، ولا غرْوَ فالجماعات وقت انفعالها واضطرابها ، لا تتحرّى ولا تستكنه الأمور ، بل سبيلُها التسرع والاندفاع ، والاكتفاء بما يشبه الدليل والبرهان ، بلا روية ولا إمعان .

ذلكم الرجل هو يهوذا الذى دلّهم عليه ، فردّ الله كيده فى نحره ، وجازاه على خيانته ومكره .

فاستاقوه إلى ساحةٍ صُلبَ فيها بين الصخب والضجيج ، والفرح والتهليل ، وهم يزعُمون أنهم قتلوا عيسى ، (وَمَا قتلوهُ وَمَا صلبُوهَ ، ولكن شُبِّهَ لهُمْ ، وإنّ الذينَ اختلفُوا فيه لفى شكٍ منهُ ، ما لهُمْ بِهِ من عِلْم إلا اتِّبَاعَ الظنِّ وَمَا قتلُوهُ يقينا ، بَلْ رفعَهُ اللهُ إليهِ ، وكانَ اللهُ عَزِيزاً حكِيما)[1] .

---

(١) النساء : ١٥٧ و ١٥٨ .

ذو القرنين (*)

فصلَ ذو القرنين إلى المغرب غازياً فاتحاً ، محارباً مجاهداً ، لا يصادف في طريقه حَزْناً[1] إلا سَلَكه ، ولا عالياً إلا ظهره ، ولا عدُوًّا إلا كسَرَ سلاحه ، وقصَّ جناحه ، لا يُبَالى في الجهاد الحرّ ولا القرّ ، ولا السهل ولا الوعر ، إذ كان اللهُ قد مكَّن له في أرضه ، ورزقه الطاعة والانقياد في جنده ، وآتاهُ من كل شيء يحتاج إليه في توطيده ملكه سَبَباً ، ومنحه في القتال حظًّا سعيداً وفتحاً مبيناً .

وما زال في طريقه يسير ويَسرى ، حتى إذا انتهى إلى عين اختلط ماؤها وطينُها ، فتراءى له أنّ الشمسَ تغرب فيها ، وتختفى وراءها ، وظن أنه ليس وراء هذه العين مكان للغزو ، ولا سبيل للجهاد ، ولكنه رأى عندها قوماً هاله كفرهم ، وكبُرَ عليهم ظلمُهم وطغيانهم ، إذ كانوا قد عثَوْا في الأرض ، وأكثروا الفساد ، وسفكوا الدماء ، استجابةً للشيطان ، وجرياً وراء نوازع النفوس ، فاستخار اللهَ في أمرهم ، وما يصنع بهم ، فخيره الله بين سبيلين يختار إحداهما ، ويسلك ما يريد منهما : إما أن يذيقَهم القتل ويوقع بهم النكال ، جزاء كفرهم وطغيانهم ، وإما أن يُمهلهم ويدعوهم ، ولعلَّ منهم مَنْ يهتدى ، أو يرتدع ويرعوى . فاختار ذو القرنين الإمهال على القتل ، والحسنى على الإثخان[2] ، ثم قال : (أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً ، وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى ، وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً)

(*) سورة الكهف ٧٣ — ٩٨ .

(١) الحزن — بالفتح : المرتفع من الأرض .

(٢) يقال : أثخن فلان في الأرض قتلا ، إذا أكثر .

وأقام فيهم مدّة ، ضربَ على يد الظالم ، ونصر المظلوم ، وأخذ بيد الضعيف ، وأقام عمود العدل ، ونشر لواء الإصلاح .

ثم بَدَا له أن يَثنى عِنان عَزمه إلى الشرق ، فسار غازياً مجاهداً ، منصوراً موفّقاً ، حَسَنَ الطالع مظفّراً ، حتى انتهى فى سيره إلى غاية العمران فى الأرض ، وهناك وجد أقواماً تطلُع الشمسُ عليهم ، ولكن ليس لهم بيوت تسترهم ، أو أشجارٌ تُظِلهم ، ولعلهم كانوا على حال من الفوضى ، ونصيب من الجهل . . فبسط على بلادهم لواء حُكمِه ، وأضاء عليهم بنور علمه ورأيه ، وخلفهم إلى الشمال غازياً مجاهداً ، مظفّراً منصوراً ، حتى انتهى إلى بلاد بين جبلين ، يسكنها أقوام لا تكاد تُعْرَفُ لغاتهم ، أو يفهم فى الحديث مرماهم ، ولكنهم قد جاوَرُوا يأجوج ومَأجوج ، وهم قوم فى الأرض مُفسدون ، وأوزاع من الخلق ضالون مضلون .

وما أن رأوا ذا القرنين مَلِكا قوى البأس ، شديدَ المِراس ، واسع السلطان ، كثيرَ الأعوان ، حتى فَزِعوا إليه أن يقيم سدًّا بينهم وبين جيرانهم ، يفصل بلادهم ، ويحول دون عُدوانهم ، إذ كان يأجوجُ ومأجوجُ قوماً قد رُكِبَ الشرُّ فى نفوسهم جِبِلّةً ، وامتزج الفساد بين جوانبهم خِلْقَةً ، السيف لا يمكنه أن يَرْدَعهم ، والنصح محال أن ينفَعهم ، وشرطوا على أنفسهم نَوْلا يدفعونه إليه ، وأموالا يضعونها بين يديه .

ولكنّ ذا القرنين — بما طبعه الله على الخير ، وما فطره على الصلاح ، وما أعطاه الله من كنوز الأرض وخيراتها — أجابهم إلى سؤالهم ، وردّ عطاءهم ، وقال لهم : (مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ) . ثمّ طَلَبَ إليهم أن يُعينوهُ على ما يفعل ، ويساعِدُوه على ما يصنَع ، فحشَدُوا له الحديدَ والنحاسَ ، والخشب

والفَحْمِ ، فوضع بين الجبلين قِطَعَ الحديد ، وحاطَهَا بالفحم والخشب ، ثم أوقد النار ، وأفرغ عليه ذائب النحاس ، واستوى كلُّ ذلك بين الجبلين سَدًّا مَنيعاً قائماً ، ما استطاعت يأجوج ومأجوج أن تَظْهَرَه[1] لملاَسَتِه ، أو تَنقُبه لمتانته ، وأراح الله منهمْ شعباً كان يشكُو مِنْ أذاهم ، ويألَمُ من عُدْوَانهم .

أما ذُو القَرْنين فإنه لما رأى السدَّ مَنيعاً حصيناً هتف مِنْ قَرَارَة نفسه قائلا : (هذا[2] رَحْمَةٌ من رَبى ، فإذا جاء وَعْدُ رَبى جَعَلَهُ دَكَّاء[3] ، وكانَ وَعْدُ رَبى حَقًّا) .

(١) تظهره : تعلو عليه .
(٢) سورة الكهف ، آية ٩٨ .
(٣) الدكاء : الأرض المستوية .

أصحاب الكهف (*)

خرج أهلُ « أفْسُوس »[1] في يوم عِيدهم ، يحتفلون بأوثانهم ، ويتقرَّبونَ لأصنامهم ، ولكن شاباً من أشرافهم ، وأكرم بيوتهم ، لم تطمئنَّ نفسُه إلى ما رأى ، ولم يسترِحْ عقلهُ إلى الآلهة التي يعبدون ، فشكَّ وارتاب ، واضطرب تفكيره ، وتحيَّرَ . ثم انسلَّ من بين جموعهم ، وخرج مختَفياً من صفوفهم ، حتى انتهى إلى شجرةٍ جلس إليها ، ساهماً[2] مُطْرِقاً ، مُرْتاباً متحيراً .

وما لبثَ أن تهادَى[3] إليه آخر ، ممَّنْ ذهب مَذْهَبه في شكه وحيرته ، واضطرابه وارتيابه ، وممن أشبهه في شرَفِ عُنصره ، وكرم نِجارِه[4] ، ثم آخر وآخر ، حتى انتهى عددهم إلى سبعة ، وما أسرع ما تعارَفَتْ أرواحُهم ، وتعانقت آراؤهم ، وألَّفَتْ بينهم فكرةٌ واحدة ، وإن لم يكُن بينهما نسبٌ جامع ، أو رَحِم ماسَّة . وأعلنوا لأنفسهم شكَّهم وارتيابهم ، وإنكارهم لآلهة أقوامهم ، ثم جالوا في رحاب الكون ببصائرهم النافذة ، وفِطَرهم السليمة ، حتى ضاءت نفوسُهم بنور التوحيد ، وهُدُوا إلى مُنشيء الخلق وسِرّ الوجود ، واستراحوا إلى هذا الدين واطمأنُّوا إليه ، واتفقوا على أن يكْتُمُوه بين جوانحهم ، ويستروه في أعماق نفوسهم ، إذ كان الملك وثنياً مُمْعِناً في الوثنية ، مشركاً ظَهِيراً[5] للمشركين .

وظل كل واحد يخوض فيما يخوضُ فيه القوم ، ويضطربُ فيما يضطرب فيه

(*) سورة الكهف ٩ - ٢٦ .

(١) أفسوس - بضم الهمزة وسكون الفاء ، والسينان مهملتان والواو ساكنة - : بلد بثغور طرسوس ، يقال : إنه بلد أصحاب الكهف .

(٢) ساهما : عابسا . (٣) تهادى إليه آخر : أقدم إليه متمايلا في مشيته .

(٤) النجار : الأصل . (٥) الظهير : المعين .

الناس ، حتى إذا ما خلا بنفسه ، واجتمع مع قلبه ، اتجه إلى الله عابداً مُصَلياً ، ومنزِّهاً ومقدِّساً ، حتى إذا كانت إحدى ليالى اجتماعهم ، وانتظام عقدهم ، قال أحدهم فى صوت خفيض وحَذَرٍ مريب : لقد سمعت يا رفاقُ بالأمس خبراً لو صَدَق رَاويه — ولا إخَاله[1] إلاصادقاً — فإن فيه إفسادَ دِيننا أو ذهاب حياتنا سمعت أن الملك قد علم بأمرنا ، وافتضح عنده عقيدتُنا ودِيننا ، فثار ثائره ، وهاج هائجه ، وتوعّدَنا شرًّا إن لم نَصْبَأ[2] عن هذا الدين الذى أشْرِبَتْهُ نفوسنا ، وانسجَمَ مع عقولنا وتفكيرنا ، وإنه يوشك أن يطلَعَ علينا الغدُ فإذا جميعنا فى حَضْرَته ، وبين وَعْدِه ووعيده ، وسيفِهِ ونِطْعِهِ[3] ، فتدبرُوا أمركم واحزمُوا رأيكم .

قال الثانى : هذا خَبَرٌ كنتُ سمِعْتُهُ به من قبل فحسبتهُ من إرجاف[4] المُرْجِفين وتأويل الجاهلين ، ولكن يظهرُ أنه استفاض وذَاعَ ، حتى دل على صدقهِ ، أو إمكان وقوعه ! وما أرى إلا أن نثبّتَ على ديننا ، ونصمد لاضطهاد رُوَّادُ بنا ؛ ومحال أن نرجع إلى هذه التماثيل التى يعبدونها ، بعد أن عرفنا فسادَها وبُطْلانها ؛ ولسنا براجمين عن عبادة الله ، ومع مطلع شمس كلِّ يوم دليل على وجوده ، وفى كل سَبْحة من سبحات التفكير شاهدٌ على عظمته .

وصدقت الإشاعات ، وصحّتِ الأخبار ، وانتظم جمعهم أمامَ الملك ؛ بعد أن انتُزِعُوا من منازلهم وأُخِذُوا من بين أهليهم .

قال لهم : لقد حاولتم سترَ أمر فلم تفلحوا ، وجاهدتم فى كتمان دين ولكنكم لم تنجحوا ؛ وقد انتهى إلىّ عُجَرُكم[5] وبُجَرُكم ، وخُبْرُكم وخَبَرَكم ، ووصل إلىّ

---

(١) ما إخاله : ما أظنه .   (٢) نصبأ : نرجع عنه .

(٣) النطع : الجلد يوضع عليه القتيل .

(٤) الإرجاف : اختلاق الأقوال الكاذبة .

(٥) عجركم وبجركم : ما أبديتم وما أخفيتم .

أنكم صَبَأْتم عن دين الملك والرعيَّة ، إلى دين لا أدرى كيف هبط عليكم ، أو وصل عِلْمُهُ إليكم ، وقد كان يَهُونُ علىَّ أن أتركَكم تَهيمون في دينكم ، وأن أُلقِى حبلكم على غارِبكم[1] ؛ لولا أنى علمتُ أنكم من أشراف قومكم ، ومن أوساط عشائركم ، وتوشك العامة -لو عَلِمَتْ بأمركم - أن تَرِدَ شريعتكم[2] وتدخل دينكم ، وَتَتَقَبَّل[3] طريقتكم ، وفى ذلك ما فيه من إفساد الملك ، وانتقاضِ حَبْل الأمان .

ولستُ بمُعَجِّلٍ لكم العذابَ ، أو مُوقِع عليكم العقاب ، حتى تفكِّرُوا فيما أنتم مُقْدِمون عليه ، فإما رجوعٌ إلى مِلَّتنا وإذعانٌ لما فيه الناس ، وإمّا أن يرى الرائى فإذا أمامه رُءوسٌ مُلْقاة ، وأشلاء ممزَّقة ، ودماء منكم تَسِيل.

وربط اللهُ على قلوبهم ، وأيَّدَهم فى إيمانهم ، فقالوا : أيها الملك : إنَّ هذا الدينَ لم ندخل فيه مقلِّدِين ، ولم نَعْتَنِقْهُ مُكْرَهين ، ولم نَسِرْ فيه جاهلين ، دعتنا إليه الفِطْرَةُ فلبينا ، وأضاء لنا العقلُ وفى ضَوْئه سِرْنا ؛ هو الله الأحد ، لن نَدْعُو من دونِهِ إلهاً . أما قومنا هؤلاء فقد عبدُوا أصنامَهُمْ جاهلِينَ مُقَلِّدِين ؛ لم يأتوا عليها بسلطان ؛ ولم يَدُلُّوا عليها ببرهان ؛ هذا ما انتهى إليه عِلْمُنا ورأينا ، فاقْضِ ما أنتَ قاضٍ .

قال الملك : اذهبوا اليومَ على أن تأتونى فى الغدِ أنظرُ فى أمركم ، وأفْصِلُ فى قضيتكم .

---

(١) الغارب : ما بين السنام إلى العنق . وقولهم : حبلك على غاربك : أى اذهب حيث شئت .

(٢) أصل الشريعة : المكان الذى يشرب منه الوارد إلى الماء ، وهى بمعنى الدين .

(٣) تتقبل طريقتكم : تتبعها .

وخلصوا إلى أنفسهم يتشاورون فيما يفعلون ، ويُجيلون قِدَاحَ الرأى كيفَ يصنعونَ ! قال واحد منهم : أما وقد عَرَفَ الملكُ أمرنا فلا مُقَامَ لنا بين وَعْدِهِ وَوَعِيدِه ، وأطماعه وتهديده ، ولْنَفِر بدينِنا إلى ذلك الكهفِ من الجبل فإنه قد يكون على ظَلَامه وضيقه أفسح صدراً ، وأطيبَ مكاناً من هذه الأرض الوسيعة التى لا نستطيعُ أن نعبُدَ الله فيها كما نريد ، وَأَنْ نَجْهَرَ بدينِنا كما نعتقد ، ولا قَرَار فى مكان نُرَادُ[1] فيه على دين لا نطمئن إليه ، ولا كرامةَ فى وطنٍ نُقْهر فيه على رأى لا نعتقده .

وأصبَحُوا جميعاً يحملون زادَهُمْ ، مُفَارقين أوطانهم ، مهاجرين بدينهم ولحِقهم كلبٌ فى الطريق ، فسارَ فى إثرهم ، وتَمَلَّقَ بهم ، فلم يَرَوْا بأساً فى أن يرافقهم يَصْحَبُهم أو يحرسهمْ .

وما زالوا فى سيرهم حتى انتهَوْا إلى الكهف ، وهناك وجدوا ثماراً فأكلوا وماء فشربوا ؛ ثم اضطجعوا قليلا ليُبْرِدُوا أقدامهم ، ويُعيدوا ما ذهبَ من عافيتهم فى أثناء سيرهم ، ولكنهم ما عَتَمُوا[2] أن أحَسُّوا إغفاءةً خفيفة ، داعَبَتْ جفونهم ، ثم أسلمت رءوسهم إلى الأرض فى نوم عميق .

* * *

وتعاقَبَ ليل إثر نهار ، ومضى عامٌ وراء عام ، والفِتْيَةُ راقدونَ ، والنومُ مضروبٌ على آذانهم ، والكَرَى[3] معقودٌ بأجفانهم ، لا تزعجهم زمجرةُ الرياح ، ولا يوقظُهم قَصْفُ الرعود ، تطلعُ الشمس فتنفذ إلى الكهفِ من كُوَّته[4] ،

---

(١) أرداه على الشيء : حمله وأجبره عليه .
(٢) ما عتموا : ما لبثوا .
(٣) الكرى : النعاس .
(٤) الكوة : الثقب .

فتمنحه الضوء والحرارة ، ولكن أشعتها لا تصلُ إليهم ؛ وتغرُب فتميل وتبتعد، تحقيقاً لما أراد اللهُ من حفظ أجسادهم وبقاء جُثثهم ، ولو اطلع مُطّلعٌ عليهم لرآهم يتقلبون مرةً ذات اليمين وأخرى ذات الشمال ، وقد تغيرت حالهم ، يبعثون الرعب فيمن يراهم ، والهولَ فيمن يطلع عليهم .

ودخلت سنةُ تسع وثلاثمائة منذ نومهم، انتبهوا بعدها ، ولا يكادون يمسكون نفوسهم من الجوع ، أو يجمعون أعضاءهم من التعب ، ظانّين أنّ الزمنَ لم يمض بهم ، وأن عجلةَ التاريخ واقفة عند كهفهم .

قال واحد منهمْ يسأل : يُخَيلُ إليّ أنّ ساعاتٍ طويلةً رقدناها ، فما تظُنون يا رفاق ؟

وقال الثانى : ربما نكون قد لبثنا يوماً ، فإنّ هذا الجوعَ الذى نُحسُّه ، والنصب الذى نشعرُ به لَيُؤذِن بما أظنّ .

وقال الثالث : نحن رقدنا فى الصباح ، وهذه الشمسُ لم تَطْفُل[1] ؛ فما أظن إلا أننا قد لبثنا بعضاً من يوم .

وقال الرابع : دعُونا من تساؤلكم ؛ فاللهُ أعلمُ بما لبثتم ، ولكننى أحسُّ الجوعَ شديداً ، كأنى لم أطعم منذ ليال ، فليذهب واحدٌ منكم إلى المدينة ، يلتمس لنا طعاماً . . . وليكُنْ حَذِراً لبيباً ، فَطِناً أريبا[2] ، حتى لا يعرفهُ أحد ، ولا يفطن[3] إليه إنسان ، إنهُمْ لو ظَهَرُوا علينا ، وعرفُوا مكاننا يقتلوننا أو يَفتِنُوننا فى ديننا .

فخرج إلى المدينة واحد منهم يلتمسُ الطعام وهو خائف حذر ؛ ودخل أفسوس ، وما راعهُ إلا تغيير فى معالمها ، وانقلاب فى مبانيها ، هذه خرائب

(١) لم تطفل : لم تدن للغروب . (٢) الأريب : العاقل .
(٣) الفطنة كالفهم .

أضحت قصوراً ، وتلك قصورٌ أمست خرائبَ وأطلالا ، وتلك وجوهٌ لم يعرفها ، وصُوَرٌ لم يألفها :

أمّا الديارُ فإنهـــا كديارهم   وأرى رِجالَ الحيِّ غيرَ رِجاله

وتحيرت نظراتُه ، وكثرت لفتاتُه ، وظهر الاضطراب فى مشيته ، والوجوم فى حَيْرته ، وألحَ عليه الاضطرابُ ، وتتابع الوُجوم ، حتى لفت الناسَ إليه .

قال له أحدهم : أغريب أنت عن هذا البلد ؟ وفيمَ تتأمّل ؟ وعَمّ تبحث ؟ قال : لست غريباً ، ولكننى أبحثُ عن طعام أشتريه ، فلا أرى مكان بَيعه ، وأخذ الرجل بيده حتى انتهى به إلى صاحب طعام ، وأخرج صاحبُ الكهف دَرَاهِمَه ، ونقَدَها[1] التاجر ، وما راع التاجر إلا أن رأى نقوداً ضُربت من نحو أكثر من ثلاثمائة عام، فحسب أنه عَثَر على كنز ، وأنّ من وراء دراهمه دراهم كثيرةً ، وأموالا عظيمة ، فاجتمع الناسُ من حوله ، ودَلَفُوا[2] إليه من كل مكان .

فقال : يا قوم ، ليس الأمر كما زعمتم ، وليست هذه النقود كما توهمتم ، وإنما هى دراهم قد وقعت لى فى بعض معاملتى مع الناس بالأمس ، وأنا أشترى بها طعامى اليوم ، فما يدعوكم إلى الدهشة ؟ وما يدفعكم للافتراء علىّ بما تظنون ؟ ! ثم هَمّ بالعودة ، خشية أن يفتضِحَ أمرُه ، أو تظهر حقيقة حاله ، ولكنهم عادوا فرَفقُوا به ، وتلطفوا معه فى القول ، وحاوروه فى الحديث ، وما كان أشدّ ذهولهم حينما علموا أنه أحدُ الفِتْيَةُ الأشراف ، الذين هرَبُوا من تسع وثلثمائة سنةٍ من مَلِكهم الجائر الكافر ، وأنهم هم الذين — فيما سمعوا — تطلّبَهُم الملك فلم يظفَرْ بهم ، ونَشدهم[3] فلم يَهْتَدِ إليهم ، وما كان أشد خوف الرجل

---

(١) نقده الدراهم : أعطاه إياها .   (٢) دلفوا إليه : مشوا ودنوا منه .
(٣) نشدهم : طلبهم وبحث عنهم .

حينما علم أنهم فَطِنُوا لأمره ، وعرفوا قصته ، نخاف على نفسه وإخوانه ، وهمّ بالهروب .

قال أحدهم : لا تُرِع[1] يا هذا ، إن الملك الذى تخافُه قد مات من نحو ثلاثمائة عام ، وإن الملك الذى يحكم الآن مؤمِنٌ بالله كما تؤمنون ، وأما أنتَ فأين بقيةُ صَحْبِك؟

فأدرك الرجل حقيقة حاله ، وعرف تلك الفَجْوَة من التاريخ التى تفصلُ بينه وبين الناس ، فهو الآن لا يَعْدُو أن يكون شبَحاً يمشى ، أو ظلاً يتحرك، ثم قال لمن يحدثه ، دَعُونى أذهبْ إلى صحبى فى الكهف ، أُحدِّثهم عن شأنى وشأنهم ، فربما يكونُ قد طال انتظارُهم واشتدَّ قلقهم .

وسمع الملكُ بأمرهم ، نخف[2] إلى لقائهم ، وسعَى إلى كهفهم ، فرأى فيهم قوماً أحياء تُشرِق بالحياة وجوهُهم ، وتجرى الدماء فى عروقهم ، فصافَحهم وعانقهم ، ودعاهم إلى قَصْره ، والإقامة فى داره ، فقالوا : وما نَبْغِى بالحياة ، وقد ماتَ الحفيدُ والولد ، وعَفَتِ الدارُ والسَّكَن ، وانقطع ما بيننا وبين الحياةِ من أسباب ؟ ثم توجَّهُوا إلى الله طالبين أن يختارهم لجِوَارِه ، وأن يشملهم برحمته ، وما هو إلا ارتدادُ الطرْف حتى وقعوا أجساداً لا حياة فيها .

أما القومُ فقالوا : لعلَّ الله أعْثَرنا عليهم ، لنعلمَ أنَّ وعْدَ الله حق،والبعث صدق ، والساعة آتية لا ريبَ فيها ، ثم تنازعوا أمرهم بينهم ، (فقالوا[3] : ٱبنُوا عليهم بُنْيَاناً رَبُّهم أعْلمُ بِهِمْ ، قال الذين غَلَبُوا عَلَى أمرِهم لَنَتَّخِذَنَّ عليهم مَسْجِداً) .

---

(١) لا ترع : لا تخف . (٢) خف : أسرع . (٣) سورة الكهف ، آية ٢١ .

أصحاب الأخدود (*)

صنعاء[1] قد لفحتها الشمس بسهامها المحماة، ومسّتها الصحراء بأوارها[2] المتسعر، ولهذا أقفرت شوارعها، وسكنت حركتها، وخلت من الناس، إلا رجلا ظهر فجأة من الشمال، وكأنه قادم من الصحراء، وقد جاوز الأرباض[3] والحدود، واتخذ سبيله[4] نحو قصر الملك ذى نُوَاس.

كان كلُّ ما فيه يبعثُ على الشكّ والارتياب: وجهٌ يعلوه الوُجوم، وعينان تختلجُ فيهما الحيرة، وخطواتٌ مضطربة غير مطمئنة، وكأن بين جنبيه سرًّا يريد أن يُفضِيَ به، أو أمراً جليلا قدم من أجله، إلا أنّ حارس القصر لم يدَعْه يستمر فى اضطرابه، بل سأله ما قدومُه فى هذه الساعة التى ألزم فيها الحرّ الناس الدُّور، وسكن فيها الإنسانُ والحيوان، والطيرُ والنبات؟

قال الرجل: أتيت فى أمر جليل الخَطَر[5]، عظيم المقدار، أكاشفُ به ذا نواس.

قال الحارس: إن المَلك فى شُغل عن لقائك، ولقاء غيرك من الطُّرّاق والوافدين، وإنْ يكن انتهى من قتْل ذى الشّناتر، وتوطيد الملكِ فى صنعاء وإرجاع اليهودية فى اليمن إلى ما كانت عليه فى عَهْد تُبّع؛ إلا أنه يُعِدّ العدّة، ويهيء الرحلة لغزوةٍ بعيدة فى الأرض، تنتظم[6] الشرقَ والغرْب، والسهل

(*) سورة البروج.

(1) صنعاء مدينة باليمن.

(2) أوار الشمس: حرها.

(3) الربض: سور المدينة وجمعه أرباض.

(4) السبيل: الطريق.

(5) الخطر: القدر.

(6) تنتظم: تعم.

والجبل ، وقد أقسم يميناً غليظة ألاّ يَقَرّ له جنبٌ على وِساد ، ولا يغمض له جفنٌ على نوم هادىء ، حتى يرى اليهوديةَ ديناً شاملا ، وحكم التوراة فى الأرض نافذاً ، وهو حينما تضَيّفُ[1] الشمس للغروب ، وحينما تخفّ وطأة الحر — يخرج إلى هذه الحديقة من القصر ، ويجمع إليه الأذْوَاء والأقيال[2] ، والأشرافَ والقوّاد ، الذين تألّفهم لطاعته ، وأرادهم على دِينه ، فيُشاوِرهم فى الأمر ، ويهيئون جميعاً سُبُل الغَزْوِ والجهاد .

قال الرجل : إننى لم أبعُد شيئاً عما فيه الملك ، وإنى ما قدمتُ عليه إلا فى أمر له صِلةٌ بهذا الدين الذى يَسُلّ سيفَه فى سبيله ، ويريد أن يحمل الناسَ على اتباعه ، ولو أنك حدّثتَه بما قدمتُ له فإننى لا أرتابُ[3] فى أنه سيدعونى إليه ولاشك فى أنه سيهتَمُّ لهذا الشأن ، وسيكون منه مَوْضِعَ تفكير وتدبير .

ثم أوى إلى زاويةٍ من زوايا القصر ، ريثما تخفّ وطأة الحرّ ، وينزل الملك ليأخذَ مع مَنْ يجىء إليه فيما يهمّهم من شؤون .

* * *

وخرَج ذو نُواس من مَخْدَعه ، وأخذ سبيله إلى مكانه من حديقته ، واجتمعت حوله حاشيتُه ، وقبل أن يخوضوا فى الحديث جاء الحاجبُ يقول : إن رجلا قدم اليوم من نَجْرَان[4] للقاء الملكِ ، وإنه — فيما يزعم — يريد أن يُفضِىَ إلى الملكِ بأمرِ دينٍ جديد ، يُخشى منه على اليهودية .

قال ذو نُواس : دين جديد ! علىّ بالرجل من فَوْرك ، وجاء الرجل فقال : أيها الملك المتوّج ! نَعِم مساؤك، ودام لك سلطانُكَ ، وَلْيَهْنِكَ الظَفرُ بأعدائك ، وليهىء لك اللهُ هدايةً وتوفيقاً فيما تريد ، جئتُك ، يا مولاى ، لا طالباً

---

(١) تضيف : تميل .
(٣) الأذواء والأقيال : ملوك اليمن
(٣) لا أرتاب : لا أشك .
(٤) نجران : إقليم باليمن من ناحية مكة

رِفْداً[1] ، ولا مُسْتعدِياً[2] بك على مظلوم ، ولكنّ حادثاً بنَجْرَان قد وقع ، وإنه إن لم يُتدارك أمْرُه ، فإنه يوشِكُ أن يمتدّ إلى غيرها من البلدان ، وربما امتدّ إلى اليمن ، وربما جاوزها إلى غيرها من أصقاع الأرض .

فقال ذو نُوَاس : قد رَوَّعْتَنِى[3] بأخبارك ، وشَغلت بَالِى بحديثك ، فهاتِ لما أجملْتَ تفصيلا ، ولما لَوَّحْتَ به بياناً وتبييناً .

قال الرجل : إنه منذ أيام قد دخل على نَجْرَان دينٌ جديد يدعونه النصرانية ، ويُبشِّرُون له باسم عيسى المسيح ، فأمّا الوثنيون مِنْ أهلها فقد ارتَاحَتْ قلوبُهم إليه ، وتغلغل فى نفوسِهم ، ودخَلُوا فيه أفواجاً[4] ، وأما اليهودُ ففريق منهم صبَأ[5] عن دِينه ، ودخل فيما دخل فيه الوثنيون ، وفريق ظلّ على اليهودية ، ولكنه مُمْتَحَنٌ بالأذى ، مُبْتَلى بالكَيْد ، وإنْ لم يتدارك الملك اليهوديةَ بنَجْرَان فإنه يوشكُ أن يمّحِى ظلُّها ، ويعْفُو رَسْمُها ، وينتهى تاريخها .

فاستوى ذو نُوَاس فى جلوسه ، وكأنه قد غُصّ بِرِيقه ، وقال : كيف دخل هذا الدين نَجْرَان ؟ وكيف مُكّنَ له فى الأرض ؟ وكيف استطاع أن يصلَ إلى القلوبِ على قرْبِ عهده وحداثة ميلاده ؟ ! زِدْنى إيضاحاً .

قال الرجل : قد وفد على نَجْرَان فيمن يَفِدُ عليها من الأرِقَّاء رجلان ؛ أحدهما رُومى واسمه فيميون ، والآخر عربىٌّ واسمه صالح ، أمّا فيميون فاشتراه رجلٌ من الوثنيين عُبَّادِ النخلة فوجده كريماً مِسْمَاحاً ، يجولُ فى غُرَّته ماءالتقوى ، ويفوح من خلائقه عَرْف[6] الصَّلاَح ، فكان يعمل له عامة يومه ، لا يعرف الكلال ولا الشكوى ، فإذا كان المساء أوَى إلى حجرة أفردها له ليصلِّى فيها .

---

(١) الرفد : العطاء . (٢) مستعديا : مستعينا .
(٣) روعتنى : خوفتنى . (٤) أفواجاً : جماعات .
(٥) صبأ : خرج من دين إلى دين . (٦) العرف : الريح الطيبة هنا .

وطلع عليه سيِّدُه يوماً فوجده يصلِّى ، والحجرةُ مضيئة من غير سِرَاج ! فعجب منه وسأله عن دينه ، وهل يؤدّى عبادةً أخرى لغير هذه النخلة التى يعبدونها ، ويستلهمون أسرارها ؟ قال : إنما أعبدُ الله مالكَ الملك ومدبِّرَ الخلق ، ومصدرَ الوجود ، ذلك الذى أرشدَ المسيحُ إلى وجوده ، ودلّ على قدرته ، وأما هذه النخلة فإنها لا تملكُ ضَرًّا ولا نَفْعاً ، بل لا تستطيع جَلْبَ خير لها ، ولا دَفْعَ شر يُرَاد بها ، ولو شئتَ لدعوتُ الله أن يرسلَ عليها ريحاً تجفّفها ، أو ناراً تحرقها ، فربما فعل ، وربما استجاب .

قال له سيّده : أو تستطيع ؟ قال فيميون : أتؤمن بالنصرانية لو فعلتُ ؟ قال : نعم . فصلَّى فيميون — فيما يزعمُ أصحابُه ومُرِيدوه — ودعا الله فأرسل على نخلةِ سيده ريحاً جفّفتها وألقتها . فعند ذلك آمنَ الرجل ، وشاعت هذه المقالةُ فى نجْرَان ، ودخل الناس فى النصرانية أفواجاً . . ولستَ ترى الآن فى هذه الأرض إلاّ مَنْ دخل ، أو هو سيدخل ، فى هذا الدِّين .

قال ذو نُواس : وهل بقى عندك فَضْلٌ[1] من حديث ؟ قال الرجل : لو شئتَ لحدثتك ما يتناقله أهلُ نجْرَان عن فيميون ، لتعلمَ مبلغَ حبّهم لدينه ، وتعلّقهم بذاته .

قال ذو نُواس : هاتِ كلّ ما عندك ، فإنكَ قد شغَلْتَ بالِى بحديث هذا الدِّين وأمْرِ هذا الرجل .

قال : زعم رفيقُه صالح — من تاريخه معه — أنه بينما كان يَعْمَلُ فى قرية من قُرَى الشام إذ بَصُرَ بفيميون سائراً فى إحدى طرقاتها ، فشهد عليه علائمَ التَّقْوَى ، وتحدّثَتْ معارفُه عن عَقْلٍ راجح ، فأحَبَّه وعلِقَ به ، وتبعه أنَّى ذهب

---

(١) فضل : زيادة .

من حيث لم يُشْعِر بذلك ، حتى خرج فى يوم من أيام الآحاد إلى الصحراء يصلّى ، وبينا هو فى صلاته أقبل نحوه تِنِّين[١] فاغِرٌ فاه ! فذُعر صالح وارتاع وصاح : يا فيميون ، احذر التّنين فإنه مُقْبِلٌ نحوك ، ولكن فيميون أقبل على صلاته ، وما اقترب منه التنّين حتى مات ! عند ذلك ظهر صالح ، واستأذنه أنْ يُرَافقه ويأنَس به ، فأذن له ، وما زالا ينتقلان من قرية إلى قرية ، وفيميون يُظْهِرُ من كراماته وعجائبه مازاد صالحاً فيه حُبًّا ، وبه تعلقاً ، حتى كانا بإحدى البوَادى إذ طلع عليهم بعضُ العرب ، وأخذوهما أسيرين ، ثم باعوهما فى نَجْرَان ، وكان من أمر فيميون ما سمعت .

* * *

وما انتهى الرجل من حديثه ، حتى ثارت حفيظة[٢] ذى نُواس ، واضطرمت نارُ الغَضَبِ فى صدره ، أن يَظهرَ فى نجران دينٌ غير اليهودية ، أو يعلوَ فيها حكْمٌ لغير التوراة ، وحلف لا يُغْمِدُ سيفاً ، ولا تسكُنُ منه ثائرة ، حتى يُنَكِّل[٣] بأهل نَجْرَان ، أو يرجعوا إلى اليهودية مُذْعِنين .

وخرج ذُو نواس من صنعاء بجيش يَملأُ أقطارَ الأرض قاصداً نَجْرَان ، فلما وصل إليها ضرب من حَوْلها نِطَاقاً ؛ فارتاع أهلُها وذُهِلوا ! ولكنه قبل أن يبدأهم بعذاب ، أو ينالهم بمكروه ، جمع سادَتَهم ، وأصحابَ الزّعَامَةِ فيهم ، وقال : إنى قد رأيتُ — كرَماً وتفضلا — قبل أنْ يستَحِرّ[٤] فيكم القَتْل ، ويعمل فيكم السيف وينالكمُ الأذى — أن أخَيِّركم بين اليهودية ، دينى ودينِ

---

(١) التنين : ضرب من الحيات .
(٢) الحفيظة : الغضب .
(٣) يجعلهم عبرة لغيرهم .
(٤) يستحر القتل : يشتد .

تبَّع من قبلى، وبين ما اعتنقتموه من دينٍ جديد، ولستُ بصانعٍ لكم العذابَ حتى تفكّرُوا ، ولا بِمُعْمِلٍ فيكمُ السيفَ حتى تتدبّرُوا :

فقالوا : إنَّمَا النصرانية دينٌ أشربته نُفوسُنَا ! ودخلَ فيما بينَ شِغَاف قلوبنا ، وما لنا عنه محِيص ولا مَعْدل ، وسواء علينا أوَسَّعْتَ لنا فى الأجل ، أم عجّلْتَ لنا بالموت !

فلما رأى إصراراً وعِنَاداً ، وتمَسُّكاً بالنصرانية واعتصاماً ، أمر بشق أخدود[1] فى الأرض ، وأحضر وقوداً وحَطَباً ، ثم أشعلوا النار ، وبعثُوا الدخان ، وأخذوا النصارى يُلقونهم فى لهبها ، لم يُعفُوا شيخاً همّاً[2] ، ولا امرأة عجوزاً ، ولا طِفلاً رضيعاً ، حتى خلت نجْرَان من النصارى ، ولم يَبقَ بها غَيْرُ اليهود .

---

(١) الأخدود : الشق الكبير فى الأرض . (٢) الهم : الفانى الضعيف .

سيل العرم (*)

قامتْ دولةُ سَبَأ على أطلالِ الدولةِ المعينية باليَمَن ، وخلفَتْها في لُغتها وعاداتها، واقتبست منها حضارتَها ومدنيّتَها ، وتدرّجت من الإمارة البسيطة، إلى الدولة المحدودة ، إلى الملك الواسع العريض ، وأسسوا القصورَ الشامخة بِصِرْوَاح[1]، ثم انتقلوا منها إلى مأرب ، واتخذوها حاضرة لهم ، حيث أخصب لهم العيش ، وطابت الحياةُ ، وتقلّبُوا فى أعطاف النعيم .

كانت اليمنُ بلاداً مُسْتفيضة الرُّقْعَة[2] ، ذات أودية عريضة، وتُرْبة خَصِيبة ، ولكنها كانت شحيحةً بالماء ، مقفِرةً من الأنهار ، إلاّ وَابِلاً[3] من المطر يَتَحَدَّرُ من سفوح الجبال ، ثم يمضى قُدُماً إلى الصحراء لا يَلْوِى على شىء ، حتى يأخذَ سبيله إلى باطن الأرض ، فلا يلبث إلاّ كما يلبث الطَّيف ، أو تقيم سحابة الصيف ؛ فهُدُوا إلى طريقةِ السدود والحواجز ، يقيمونها بين الأودية ، بمختلف الطرق الهندسية التى تسهّل الانتفاع بما تخلّفه وراءها من مياه .

كثرت هذه السدود ، وتعددت تلك الحواجزُ ، بكثْرَة الأودية وتعدُّد الجبال ، حتى جاوز عددها المئات ، ولكن سَدّ مأرب كان أقوَاها وأمتنها ، وأجْدَاها وأنفعها .

تقعُ مدينة مأرب فى نهاية وَادٍ فسيح يَتّجه إلى الجنوب ، ثم يقصر أَمَدُه ،

(*) سبأ : ١٥ - ٢٠

(١) صرواح : مدينة ذات حصون باليمن

(٢) واسعة :   (٣) الوابل : المطر الكثير

وتضيق رقعته رويداً رويداً ، حتى يكون أضيق ما يكون ، ثم يتد حتى يلتقي بمجرى السيول المتحدرة من جبال السراة .

فني هذا الوادى أقام الملوك الصيد[1] من سبإ سداً عريضاً منيعاً حصيناً ، قوياً مكيناً ، وجعلوا على جانبيه مصارف بطرق هندسية منتظمة ، هيأت لهذا الوادى أن يصبح بفضل ما احتجزوه من الماء أرضاً خصيبة ، فيها زروع نضرة ، وحدائق ذات بهجة ، ونطقت تلك الحجارة الصماء بألفاظ من الأشجار مورقة ، وأساليب من الأزهار معجبة .

واستحالت[2] رمال الصحراء بسطاً هندسية خضراء ، تجرى بينها القنوات الملتوية ، وتصدح فوق خمائلها الشحارير[3] المغنية ، إلى الأثمار الدانية القطوف ، والأزهار المعجبة الألوان .

كانت المرأة تسير وسط هذه الحدائق حاملة مكتلها[4] فوق رأسها ، فلا تمضى فى السير غلوة[5] ، حتى يكون قد امتلأ المكتل من الثمر المتساقط من شجره .

واتسعت لديهم النعمة ، وفاض عندهم الخير ، واشتغل جماعة منهم بالتجارة والرحلة ، فكانوا يسيرون إلى القرى التى بارك الله فيها من الحجاز والشام آمنين مطمئنين ، لا يسيرون مرحلة أو مرحلتين حتى يكون الله قد هيأ لهم مكاناً

---

(١) الصيد : جمع أصيد ، وهو الملك العظيم المتكبر .

(٢) استحالت : صارت .

(٣) الشحارير : جمع شحرور ، وهو نوع من الطيور .

(٤) المكتل : وعاء من خوص .

(٥) الغلوة : الغاية مقدار رمية .

يُبرِدُون فيه أقدامهم ، ويُرِيحون أبدانهم ، ويتبلّغُون بطيِّب الزاد وعذب الماء ، وهم فيما بين ذلك آمِنون مطمئنون ، نعمَةٌ تُظاهِر نِعْمَةً ، وفضلٌ من الله يعقبُ فضلا (بلدةٌ طيِّبَةٌ وربٌّ غفورٌ)[١] .

فكانوا خُلَقَاء أن يشكُروا لله نِعْمَتَه ، وأن يحمدوه على ما أطعمهم من جُوع وآمنهم من خَوْف ، ولكنهم جرَوْا في عِنَان بعض مَنْ سبقهم من الأمم ، وساروا في دُرُوبهم ، وتقيَّلوا[٢] طريقتهم ومذهبهم ، فكفَرُوا بالنعمة ، وبالغوا في البطر والأثَرَة[٣] ، حتى أرسل الله فيهم أنبياء نَصَحُوهم ، فأعرضوا ، وَهُدَاةً مرشدين حاولوا إصلاحهم ، فوضعوا أصابِعَهُم في آذانهم واستكبروا ، ثم انصرفوا عن العمل ، وشُغلوا عن العُمْرَان ، فأراد الله أن يُذيقهم وبالَ أمرهم ، وأن يُرِيهم عاقبةَ كُفرانهم ، ليكونوا عِبْرَةً لغيرهم ، ومَثَلاً لمن يأتي مِنْ بعدهم ، وعقوبةً قاسيةً لمن تحدثه نَفْسُه أن يسلك طريقهم ، ويفعل فعلتهم .

فتهدَّمَ السدّ ، وتقوَّض البناء ، ولم يستطع أن يحجزَ السيولَ المتدفِّقَة ، والأواذِيّ[٤] المتلاطمة ، وانطلقت المياهُ الحبيسة في شِعَاب الوادي ، وبين الغِيَاض[٥] ، فغرق الزَّرع ، وهلك الضَّرْع ، وتقوَّض البناء ، وعاد الوادي كما كان صحراء مقفرة صَامتة مُجْدِبة ، لا نباتَ سوى أشجار لا تُثْمر إلا كل مرّ بشع ، وأثْلٍ لا غَناء فيه ، وشيء من سِدْرٍ[٦] قليل ، وهربت العصافيرُ والبلابل ، وخلفها البومُ يَصِيح فوق الخرائب العافية ، والغربانُ تَنْعَقُ في ذُرَى الأشجار الجافة .

---

(١) سورة سبأ ، آية ١٥ . (٢) ساروا مثل سيرتهم .
(٣) الأثرة : حب النفس . (٤) الأواذى : الأمواج .
(٥) الغياض : جمع غيضة ، وهى الشجر الكثير الملتف .
(٦) السدر : شجر النبق .

أما الأهلون فإنهم لما رأوا أنَّ مَعين رزقهم قد غاض ، ونَبْع نحسِهم قد فاض ؛ لم يطيقوا صبراً على أنْ يقيموا فى صحراء كانت بالأمس جِناناً ، وخرائبَ قَطَنوها قصوراً ، ففارقوا أوطانهم على الكره منهم ، ونزَحُوا عن ديارهم بقلبٍ محرور[1] ، وعَينٍ عَبْرَى ، ثم تفرقوا فى شتى البلاد . فانحازت غسَّان إلى الشام ، وأنمار إلى يثرِب ، وجُذَام إلى تهامة ، والأزد إلى عمان ، ومُزِّقوا كل ممزّق ، حتى صار أمرهم حديثاً يتنقل ، وحكايات ترْوَى ، وأحاديث تُتَداوَل .

كانوا فى نعمة سابغة فلم يحفظوها ، وثياب من العز ضافية فلم يصونوها ، فجزاهم اللهُ بما كفروا (وهل نجازى إلاّ الكفور)[2] .

---

(١) قلب محرور : تداخلته حرارة الغيظ . (٢) سورة سبأ ، آية ١٧ .

أصحاب الفيل (*)

ملك ذو نُوَاس بلاد اليمن ، وهى تلك البلاد التى تَكْثُرُ خيراتها وتفيض بالأرزاق أرجاؤها[1] ، ولما قبض على ناصية المُلك فيها نَقَمَ[2] من سَلَفِهِ لانغماسه فى اللّذات ، وجُنوحه[3] إلى دَوَاعى الشهوات ، وأنكر عليه مَيْلَهُ إلى الإثم ، وإغراقه فى الفُحش ، فأنبأ ذلك عن نَفْس تطمحُ إلى الزهد فى الدنيا ، وتميلُ إلى النّأى عن المآثم والفجور ، وتحبُّ البعدَ عن مباهج الحياة وَزُخْرفها ، وترغبُ فى إصلاح النفوس ، وبثّ روح الدّين فى الرعية . وقد كان منه بعد ذلك ما صدق هذا الحدسَ[4] ، وأكد هذا الظن .

***

مرّ ذو نواس يوماً بيثربَ مُجتازاً ، وقد كان أهلُها ممن استجابوا لداعى اليهودية ، وأشْرِبَتْ نفوسهم حبّها ، وتأصّلَتْ فى قلوبهم مبادئُها ، واتخذها دُعاة اليهودية مِنبراً لدعوتهم ، وَمَعْقِلاً لديانتهم ، وانتشرت فيها معابدهم ، وصارت وكْراً لمبشّريهم ، وعُشّاً لدعاتهم .

وسرعان ماهُرِعوا إليه يُلقون إليه شيئاً من مبادىء اليهودية ، ويَبْسُطون له ما عرَفوا من ميزاتها وفضائلها ، علهم يجدون منه عَضُداً لهم ، ومساعداً عَلَى

(*) سورة الفيل (1) أرجاؤها : نواحيها .
(2) نقم منه : عابه وكرهه أشد الكراهة لسوء فعله .
(3) جنوحه : ميله . (4) الحدس : الظن .

نَشْر دينهم ، فصادفَ هذا الدينُ هَوًى فى نَفْسِه ، ورَغبة كانت كامنة فى فؤاده ، فأحبه وجاهَرَ بالدعوة إليه ، ونصبَ نفسهُ داعياً له ونصيراً ، ثم دعا العرب جميعاً إلى مُشايعته[1] فيه والدخول فى زُمْرَتِهِ ، واشتدَّ فى عقاب مَنْ خالفه ، فأطاعه كثير من العرب ، بعضهم يخافُ بَطشه وقوته ، وقليل منهم انخرط فى سلك هذا الدين بعد أن رآه يُصْلِحُ نَفْسه ، ويوافقُ هواهُ ، وشاع أمرُ ذى نواس ، وعظمت شوْكته ، وخاف الناس بَأسَه ، فدخلوا فى هذا الدِّين أفواجاً .

ولكن أهل نجران قد تفتَّحت قلوبهم لدِينٍ جديد ، وهو الدِّين المسيحى ، فَدُوْهُ بأنفسهم ، واختلط بقلوبهم ، فكانوا خارجين عَلَى دَوْلَتِهِ ومَتَحدِّين لعقيدته .

ووفَدَ إلى ذى نُوَاس مَنْ يُثيره عليهم ، ويُغْرِيه بهم ، علَّهُ يهدمُ ذلك الصَّرْح الذى امتنع عليه دخولُه ، ويفتَتِحُ ذلك الحصنَ الذى أعْياه ولُوجُه[2] ويمحو هذا الدِّين الذى يوشِكُ أن يُمْحَى به ظلُّ اليهودية ، وَيعفُو رسمها ، وينتهى تاريخها .

فاستجاب لهذا الدُّعاء واندفع وراء هذه الغَوَاية ، وخرج إلى أهل نَجْرَان يدعوهم إلى نَبْذِ دِينهم ، ويأمرهم بالأخذ بدينه ، والدُّخول فى زمرة أشياعه واتباعه ؛ فأبوا الانحرافَ عن دينهم ، وأصَرُّوا على امتناعهم ، ولم تُرْهِبْهُم عزَّتُه أو تُلين قناتهم صولتُه ؛ فعزَّ عليه أن يجدَ له مُناوئاً ، ولدِينه مخالفاً ؛ فحَفَرَ لهم حُفرة أضرم النار فيها ، ثم أذَّن فيهم مُؤَذِّنه : إنَّ هذه جزاء لمن لم يدخل فى دينه ، وهى عقاب لمن يُصِرُّ عَلَى مخالفته . فلم يَثْنِهم أُوارُها[3] .

(١) شايعه : صار من شيعته وأنصاره .
(٢) ولوجه : دخوله . (٣) أوارها : حرارتها .

أو تزغ أبصارُهم من وهَجها ؛ بل استمسكوا بدينهم ، وتشبثوا بعقيدتهم ، فرماهم فى الأخدود ، وصيّر أجسادهم وقوداً للنار ، جزاء عِنادِهم ومخالفتهم .

* * *

فرّ رجلٌ من هؤلاء الذين اصْطَلَوْا بتلك النار ، فمضى حتى أتى قصر ملكَ الروم ، فاستنصره على ذى نُوَاس وجنوده ، وأخبره بما كان منهم ، فقال له : بَعُدَتْ بلادك مِنّا ، ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة ، فإنه على هذا الدِّين ، وهو أقربُ إلى بلادِك .

وكتب إليه يأمُرُه بنصْرِه ، والطلب بثأره ، فقدم بلاد الحبشة بكتاب قيصر ، وشكا إلى النجاشى ما حلّ بقومه من الهلاك والدمار ، وأسمعه أنينَ القتلى وغوث الشهداء ، ونَعَى إليه رجال المسيحية والحامينَ ذِمَارها .

وعز على النجاشى أن يَخْبُو ضوء الدِّين المسيحى فى هذا البلد ، وتنطفىء شعلته فى ذلك المَعْقِل ، فصمّم على الثأر من ذلك الذى أراق دماءهم ، واستباح أموالهم ، وأهلك زروعهم ، وجهّز جيشاً كثُرَ عدده ، وتوافرتْ عُدّته ، وبعث به إلى اليمن يغزو ملكها ، وينتقم من أهلها .

ولما التقى الجمعان واشتبك الخصمان ، تتابعت الهزائمُ على ذى نُوَاس وأصحابه ، وأخيراً أسلمت اليمن إلى النجاشىّ قيادها ، وألقت إليه بزمامها ، وبذلك أصبحت بلاد اليمن ولايةً تابعة للحبشة .

* * *

ثم صار أبْرَهَة والياً على اليمن ، فأراد أن يُعيد إلى الدِّين المسيحى شأنهُ ، ويرجع إليه قوته ، ولما رأى الناس جميعاً يقصدون مكةَ ، يَحُجُّون بيتها الحرام وكعبتها المقدّسة ، فكّر فى أن يغتصِبَ ذلك الإكليل الذى ازْدَانَتْ به قريش ،

وأراد أن يَصْرِف الناس عن مكة وبيتها ، ويجذبَ قلوب الناس نحو بلاده ، ويستميلَهم إلى دينه ، فبنى كنيسة بِصَنْعاء[1] ، وزينها بما يَبْهَرُ الأبصار ، ويأخذ بالألباب ، وعُنِيَ بزخرفتها غايةَ العناية ، وجلب لها من فاخر الأثاث وثمين الرِّياش ما خُيِّل إليه أنه صارف العرب وصارف أهلَ مكة أنفُسَهم إليه ، ولكنه رأى أن العربَ لا تتَّجه إلا إلى البيت العتيق ، ورأى أهلَ اليمن أنفسهم يَدَعون البيت الذى بناه ، وينصرفون إلى مكة . واشتد غَيْظُ العرب ، واشتعلت نيرانُ الحقد فى نفوسهم ، إذ رأوا لبَيْتهم مُنَاوِئاً ، ولموئِل أصنامهم عَدُوّاً ، فَعَمَدُوا إلى تحقير بيته ، والحطِّ مِنْ قَدْره ، فأحدث فيه رجلٌ من كنانة ليلا !

ولما علم أبْرَهَةُ بذلك اشتد غضبُه ، وغَلَى مِرْجَلُ غَيْظه ، وأقسم ليَهْدِمَنَّ الكعبةَ ، وليزيلَنَّ بيت إبراهيم وإسماعيل ، وليثأرنَّ لبَيْتِهِ من العرب ، حتى ينصرفوا عن كعبتهم ، ويُوَلُّوا وجوههم نحو بيته .

تَهَيَّأ[2] للحرب ، وقاد الجحافل[3] تتقدمها الأفيال ، وسار نحو مكة ليهدم بيت العرب ، الذى هُوَ مَوْئِلُ حَجِيجِهم ، ومعقدُ آمالهم ، ومكانُ اجتماعهم .

ولما سمع العربُ بذلك عزَّ عليهم أن يُقْدم رجلٌ حَبَشِيّ على هَدْم بيت حَجِّهم ومقام آلهتهم ، فَهَبَّ رجلٌ من أشراف اليمن يُدْعَى ذا نَفَر ، فاستنفر قومه ، واستثار حمِيَّتهم ، ودعا أهْل وطنه وغيرهم من العرب لمُقَاتلة أبرهة ، وصده عن عَزْمِه ، ولكنه لم يستطع مقاومتَه ، ولم يصمد للقائه ، فهزِمَ ومَنْ التف حوله وأخذ أسيراً .

---

(١) قصبة اليمن . (٢) تهيأ : استعد .
(٣) الجحافل : جمع جحفل ، وهو الجيش .

ولكن هل كان هذا مما يَثْنِي غَيْرَه عن مقاتلة أبرهة ، وَيُقْعِدُ العرب عن محاربته ؟ لا ، فإنَّ كثيراً من العرب قد دفعتهم الغَيْرَةُ على بيتهم ، والحميَّة لنُصْرَةِ دينهم إلى مُنَاوَأَة أبرهة وَمُقَاتلته ، ولكنهم جميعاً رجعوا بالهزيمة ، وَبَاءوا بالخيبة .

سار أَبْرَهة نحو مكة بعد أن ازَّيَّنَتْ رَأْسُه بتاج النصر ، وتحلَّى صدرُهُ بِوِسَام الفَوْز ، وخضعت له قبائلُ العرب ، وسعَتْ إليه وفودُ القبائل ، تُقَدِّم له الطاعة ، وَتُظْهِرُ له الخضوعَ ، ويسعى أمام جيوشه منهم مَنْ يَدُلُّهُ على الطريق ، وَيُرْشِدُه إلى آمَنِ السُّبُل .

خرج أبرهةُ ومعهُ أبو رِغَال[1] حتى أنزله المُغَمَّس[2] ، ولما استقرَّ به وبجيشه المقام بعثَ أبرهةُ رجلا من جُنْدِه ، فساق إليه أموالَ أهلِ تهامة من قريش وغيرهم ، واستاق من بينها مائتي بعير لعبدالمطلب بن هاشم ، وهو يومئذ صاحبُ السِّقاية[3] ، وشريفُ قومِه ، وسيدُ عشيرته . فَهَمَّتْ قريشٌ ومَنْ معهم من أهل مكة بقِتَال أبرهة ، ولكنهم رَأَوا أنْ لا طاقةَ لهم به ، فاستكانُوا لما نالهم من أبرهة ، واحتملُوا الضَّيْم الذي لحقهم منه .

وبينما هم في هذا الضِّيق الذي تَمَلَّكَهم ، وذلك الحُزْن الذي تخالج في نفوسهم ، وفد إليهم رجلٌ من رجال أبرهة ، يسأل عن سيِّد مكة ، وصاحبِ السلطان فيها فأُتِيَ به إلى عبد المطلب بن هاشم . فلما مَثَلَ بين يديه قال له : إن الملك يقول :

---

(١) في الصحاح : كان دليلا للحبشة حيث توجهوا إلى مكة فمات في الطريق .

(٢) موضع بطريق الطائف ، فيه قبر أبي رغال .

(٣) في الحديث : « كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمي إلا سقاية الحاج وسدانة البيت » . وسقاية الحاج : هي ما كانت قريش تسقيه الحاج من الزبيب المنبوذ في الماء .

إنى لم آتِ لِحَرْبِكم ، وإنما جئتُ لهَدْمِ هذا البيت ، فإن لم تعرِضُوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لى فى دمائكم ، فإنْ هو لم يُرِدْ حربى فأتنى به .

فقال له عبد المطلب : والله ما نريدُ حَرْبَه ، وما لنا به طاقة .

قال الرسول : فانطلقْ معى إليه ، فإنه أمرنى أن آتيَهُ بك .

فسار معه عبد المطلب ومعه بعضُ أبنائه وغيرُهم من كُبَرَاء مكة وأصحابِ الرأى فيها ، حتى وصلوا إلى مُعَسْكره .

ولما دخل عبد المطلب عليه قيل : إنه سيِّد قريش ، الذى يُطْعِمُ الناسَ فى السَّهل ، والوحوش فى الجبل . وكان عبد المطلب رجلا جَسِيماً وَسِيماً ، تعلوه الهيبة ويحفُّه الوقار ، فلما رآه أبرهةُ أكْرَم وِفَادَته ، وأجَلَّه وأكْرَمه عن أن يجلسه تحته ، وَكَرِهَ أن تراهُ الحبشة يجلسُ معه على سرير مُلْكه ، فجلس على بِسَاطه ، وأجلسه معه إلى جَنْبِه . ثم أقبل عليه يستفسره عن طلبته ، فطلب إليه ردَّ ما اغتصبت جيوشُه من إبله ، فقال أبرهة : قد كنتَ أعجبتنى حين رأيتُك ، ثم زهدتُ فيك حين كلمتنى ، أتكلِّمنى فى مائتى بعيرٍ أصبتُها لك وتترك بيتاً هو دِينُك ودينُ آبائك ، قد جئتُ لأهدمَه ، لا تكلِّمنى فيه ؟

قال له عبد المطلب : أنى أنا ربُّ[1] الإبل ، وإن للبيت رَبًّا سيمنَعُه .

قال أبرهة : ما كان ليمتنعَ منى .

قال عبد المطلب : أنتَ وذاك !

ثم أسرع أبرهةُ إلى إرضائه ، وَرَدَّ عليه أَزْوَادَه[2] ، وعرض وَفْدُ مكة على أبرهة أن يرجع عن هَدْمِ الكعبة ، على أن ينزلُوا له عن ثلث ثَرْوَة تِهامة .

---

(١) رب : صاحب .

(٢) الذود : من الإبل : ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وجمعه أزواد .

ولكنه أبى الإصغاء إلى أىّ حديث فى هذا الشأن ، ورفض أن يَقْبَل أى فِدْية ، فانصرفوا وقد أهمّهم الأمر ، وأفزعهم الخَطْبُ ، وعادوا إلى مكة يجرّون أذيال الخَيْبَة .

ونصح لهم عبدُ المطلب أن يخرجُوا إلى شِعَاب[1] الجبل ، إبقاء على نفوسهم، وحفظاً لأرواحهم ، وتخوّفاً عليهم من مَعَرّة الهزيمة .

وكانت ليلةً لَيْلاَء ، تلك التى فكّر فيها القومُ فى هَجْر بلدهم ، وفيما هو نازلٌ بها وبهم ، فاشتدّ الهَرْجُ والمَرْجُ ، وتعالى الضَّجِيج والعويل ، وكنتَ ترى الناس وقد اكتظّت بهم شُعُوف[2] الجبل ، وضاقت بهم شوارعُ المدينة، وكنت تسمعُ رُغَاء الإبل ، وثُغَاء الغنم ، وعَوِيل النِّسَاء ، وبكاء الأطفال .

وخرج عبدُ المطلب من بين تلك الجماعات النازحة ، وذهب ومعه نَفَرٌ من قريش إلى البيت ، وأمسك بحَلْقَة بَاب الكعبة ، وجعل يَدْعُو وَيَدْعُون ، يستنصرون الله على أبْرهة وَجُنْده ، ويضْرَعُون إليه أن يمنعَ بَيْتَه ، ويحمى كَعْبَتَه ، ثم انطلق ومَنْ معه من قريش ، حتى صعدوا فى الجبل ، ومكثُوا ينتظرون ما يفعل هذا الطاغيةُ بمكة إذا دخلها .

وخَلَت مكةُ منهم ، وآنَ لأبرهة أنْ يُوَجِّه جيْشَه ليهدمَ البيت ، فتهيّأ لدخول مكة ، وجهّزَ فِيلَه ، وَعَبّى[3] جيشه ، ولكنّ الله أرسلَ عليهم أسْرَاباً[4] من الطير ، تحمل فى مناقيرها حجارةً رمتهُمْ بها ، فهشّمت رُءوسهم، ومزّقت لحومهم ، وجعلتهم جُثثاً هامِدَة ، وأشلاء مُمَزّقة .

---

(١) الشعب : الطريق فى الجبل .
(٢) شعفة كل شىء : أعلاه ، وشعفة الجبل : رأسه ، والجمع شعوف .
(٣) عبى الجيش : هيأه للحرب . (٤) أسراباً : جماعات .

وأصاب أبْرهةَ شيء مما أصاب جُنْدَه ، فأخذه الرَّوْع ، وداخله الفزَع ، فأمر مَنْ بَقِيَ معهُ بالعَوْدَةِ إلى اليمن ، بعد أنْ فَنِيَ عددٌ عَظِيم مِنْ جندهِ ، وتشتَّتَ شَمْلُه ، وتفرّق جَمْعُه ، وبلغ صَنْعاء ، وقد وهنَتْ قُوَّتُه ، ثم لَحِق بمن مات من جيشه .

وبذلك حفظ الله لقريش بَيْتَها ، وأبقى لها زَعامتها ، وزاد هذا الحادثُ العجيب فى مكانة مكة ، وجعل أهلَها يحتفظون بتلك المكانة الرفيعة ، ويتربَّصُون لكل من يحاولُ الانتقاصَ منها أو الاعتداء عليها .

وقد كان ذلك إرهاصاً لنبُوّةِ محمد ، الذى تفرّع من هذه الأرُومَة[1] الطيبة ، ونشأ فى ظل هذا البيت العتيق ، وَعُدّ هذا الحادث من أعجب الحوادث ؛ لأنّ اللهَ ردّ أصحاب الفِيل على أعقابهم خاسرين ، فأرّخ العربُ بعامِهِ[2] ، وتحدثوا بوُقوعه ، وصار ذِكْرَى لهم ، وحديثَ أبنائهم .

---

(١) الأرومة — بفتح الهمزة وتضم : الأصل . (٢) كان ذلك سنة ٥٧٠ م .

إقرأ باسم ربك (*)

كان فى الجاهلية جماعة تستقبح ما عليه قومهم من السفه ، وشرب الخمر ، وعبادة الأصنام ، وارتكاب الآثام ، وكانوا فى حيرة من أمرهم ، يدفعهم إحساسهم الظاهر إلى نبذ العادات القبيحة التى يرونها فى قومهم ، ولكنهم لا يجدون لهم من يرشدهم ويهديهم إلى الطريق المستقيم .

وفى يوم قال قائلهم :

يا قوم ، تعلموا[1] — والله — ما قومكم على شىء ، لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نطيف به ، وهو لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يضر ، ولا ينفع ؟

يا قوم ، التمسوا هداية لأنفسكم ، واطلبوا ديناً صحيحاً تسيرون على منهاجه ، فإنكم — والله — لستم الآن على شىء ، لا تهتدون إلى الدين الصحيح ، ولا تسيرون على الطريق السليم .

* * *

كان بعضهم ينقل الحديث إلى بعض ، على هذه الصورة ، التى تحاول أن تشق طريقها من سواد الظلمة إلى نور الحقيقة . . وكيف يهتدون فى ديارهم ، وليس أمامهم هاد ، ولا رسول ؟

(*) سورة العلق .

(١) تعلموا : اعلموا .

فخرج بعضُهم يلتمس الحقيقة ، فيما وراء بلادهم ، من بلادٍ أخرى ؛ يلتمسون الدين الصحيح ، ويبحثون عمن يكون على علم بدين أبيهم إبراهيم .

وكان من هؤلاء ورقةُ بن نَوْفل ، الذى كان ينتظر الدين الجديد ، ويستبطئه ، ويقول : حتى متى ؟

وكان منهم زَيْدُ بن عمرو بن نُفيل ، خرج من مكةَ ، يطلب أرضاً ، يتعرّف فيها على دين إبراهيم ، ويسألُ الرهبانَ والأحبار ، حتى بلغ المَوْصِلَ والجزيرة ، ثم أقبل فجال الشام كلها ، حتى انتهى إلى راهب ، قريب من دمشق ، فسأله عن دين إبراهيم ؛ فقال له الراهب :

إنك لتطلبُ دِيناً ، ما أنتَ بواجدٍ من يدلُّكَ عليه اليوم ، ولكن قد قَرُبَ زمانُ نبيٍّ يخرج من بلادك التى خرجت منها ، يُبْعث بدين إبراهيم ، فالحَقْ بها ، فإنه مبعوث الآن ، هذا زمانه .

فرجع زيدُ بن عمرو ، وتوجَّه تلقاء مكة ، وقال من قصيدة طويلة له :

رضيت بك اللهم ربا ، فلن أرى أدين إلهاً غيرك الله ثانيا

فرَبَّ العباد ألقِ سَيْباً[1] ورحمةً علَيَّ ، وبارِكْ فى بَنِىَّ وماليا

وقبل أن يَصِلَ زيد إلى مكة قُتل فى الطريق .

وبينما الناس فى حيرتهم وضلالهم ، مُعظمهم يغشى المنكر ، وينأى عن مسالك الخير ، وقليل منهم يلتمسون طرق الهداية والرشاد — إذ انبلج نور الفجر ، وآذن بشير الهداية ، بلغ محمد عليه الصلاة والسلام الأربعين من عمره ،

---

(١) السيب : العطاء .

وكانت تأتيه المنامات الصادقة ، لا يرى رؤيا فى الليل إلا جاءت فى النهار واضحة ظاهرة ، فكانت تلك المنامات مصابيح ، تكشف أمامه الطريق ..

ثم حبب الله إليه الخلوة ، والبعد عن الناس ، فلم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده يفكر ، ويفكر طويلا فى خلق الأرض وما عليها ، وفى خلق السماء وما وراء فيها .

وكان عليه الصلاة والسلام يحمل زاده إلى جبل « حراء » فيعتكف فيه شهراً يُطعم من جاءه من المساكين ، وكان لا يأكل من زاده إلا قليلا يكفى لإمساك روحه ، ثم يستغرق فى تسبيح خالق الأرض والسماء ، فإذا انقضى الشهر عاد إلى مكة ، وكان أول شىء يفعله فيها أن يذهب إلى البيت الحرام ، فيطوف به سبعاً ، ثم يعود إلى بيته ، وكانت خديجة ربة البيت تستقبله بوجه مُبتسم ، ونفس راضية ، وقلب يحنو عليه ، ثم تحيطه بكل أنواع الرعاية والتقدير ، كما كان عليه الصلاة والسلام ينقل إلى نفسها من روحه الطاهرة دروسا عالية ، ويُسْدى إلى بصيرتها نوراً وهُدى ، ويأخذ بيدها إلى أسمى المراتب وأعلاها .

يا للزوجين الكريمين !

زوجة تكلأ وترعى وتُشجِّع ، وزوجٌ يستهدى ، ويلتمس النور من رحاب الله ، رب الأرض والسماء .

ما أطهرك أيتها الدار ؛ تضُمِّين أكرم نفسَيْن على ظهر الوجود . وما أطيب أرضَك ! وما أسمى عرْشك !

يمضى الزوج فى التهيؤ لرسالته ، وتمضى الزوجة لتشجيعه ورعايته ، وعينُ القَدَر من فوقهما ساهرة ، والله من ورائهم محيط :

من وحي الله

خرج محمدُ الأمينُ من بيته قاصداً — كعادته — فى أول شهر رمضان إلى جبل حِرَاء ، يَعتَكفُ فى مغارة هناك ، مسبِّحاً ، ذاكراً ، شاكراً ، مُشتَغِلها مفكِّراً . واستمر فى ذكره ، وتفكيره حيناً من الزمان ، حتى إذا أوشك الشهر أن ينتهى نوره ، وتنقضى لياليه ، وكان الذاكر الشاكر المفكر قد بلغ من الطهر والصفاء ما بلغ ، واستعدّ ليتلقى إكرام الله إياه — وتتويجه برسالته . بينما كان فى أتمّ استعداده وصفائه — وفى ليلة القدر ، التى هى خير من ألف شهر — بينما كان كذلك إذ نزل عليه الأمر العظيم ؛ من رب السماء ؛ نزل عليه فى الليلة التى رحم الله بها عباده ؛ إذ جاءه جبريلُ وفى يده منديل من حرير ؛ فيه كتاب : وكان بينهما ما كان .

وبعد أن انصرف جبريل ؛ غرق محمد فى بحر النور ؛ واستمر فى الجبل ؛ فلا يتقدم إلى الأمام ولا يعود إلى الوراء .

فلم يَعُدْ إلى بيته ؛ ولم يوافِ خديجة كما تعودت أن يعودَ إليها بعد تعبّده فى الجبل فى موعد معلوم .

واستمرت الزوجة الحانية تنتظر زوجها ، ولكنه لا يعود !

أخذت اللهفةُ الشديدةُ الزوجةَ الراشدةَ ؛ فأرسلت رسلَها إلى الجبل يبحثون عن محمد ؛ فبلغوا أعلى مكة ؛ وساروا هنا وهناك ؛ ولم يأتوا لها بخبر .

واستمرّ محمدٌ فى مكانه حتى أفاق ، ثم سار إلى منزله الكريم ، فوجد زوجته على أحر من الجمر ، تنتظرهُ ، وتستبطىء عودته .

فلما رأته فرحت به فرحاً شديداً .. وأقبلت إليه تسأله خبره ، وتستوضحه سِرّه .

فأقبل عليها ، صلواتُ الله وسلامه عليه ، وجلس إليها ملتصقاً بها . فقالت له:

— يا أبا القاسم ، أين كنتَ ؟ فوالله لقد بعثتُ رسلى فى طلبك ، حتى بلغوا أعالى مكة ، ورجعوا إلىّ .

فقال عليه الصلاة والسلام : جاءنى جبريل ، وفى يده منديل من حرير ، فيه كتاب ، فقال :

— اقرأ !

قلت :

— ما أقرأ .

فجذبنى بشدة ، حتى احتبس منى النَّفَسُ ، وحتى ظننتُ أنه الموت ، ثم أرسلنى ، فقال :

— اقرأ !

قلت :

— ما أقرأ ؟

فضمنى إليه ، حتى ظننتُ أنه الموت ، ثم أرسلنى ، فقال :

— اقرأ !

قلت :

ماذا أقرأ ؟

فقال :

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ) .

ثم انتهى ، فانصرف عنى ، وهبَبْتُ من نومى ، فكأنما كُتِبَتْ فى قلبى . فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صــــوتاً من السماء يقول :

— يا محمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل .

فرفعت رأسى إلى السماء أنظُرُ إليه ، فإذا جبريل فى صورة رجل صَافٍّ قدميه فى أفق السماء يقول :

— يا محمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل . فوقفت أنظر إليه ، فما أتقدمُ وما أتأخرُ ، وجعلت أصرف وجهى عنه ، فى آفاق السماء ، فلا أنظر ناحية منها إلا رأيتُه كذلك ، فما زلتُ واقفاً ، فما أتقدم أمامى ، وما أرجع ورائى .

ثم انصرف عنى ، فجئت إلى أهلى .

ما سمعت الزوجة العاقلة الراشدة حديثَ زوجها حتى أصابت محبةُ الإسلام قلبها ، ونَفَذَتْ أضواؤه إلى أحاسيسها ؛ فاستقرّ إيمانها ، واطمأنت نفسها ، وارتبطت بحبل الله ، تحنو على محمد ، وتنصره ، بعد أن آمنت بدعوته .

فقالت :

أبْشِرْ يا بنَ عمّ ، واثبُتْ ، فوالذى نفس خديجة بيده ، إنى لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة ، ثم قامت فجمعت عليه ثيابها تحميه من رَعْشَة كانت به من أثر ما ناله :

* * *

ثم انطلقت خديجةُ إلى ابن عمها « ورقة بن نوفل » — وكان على دين النصرانية ، قد قرأ الكتب الدينية ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل

وعرف من كل ذلك ما بَشَّرَت به من نبوّة محمد ، وما أخبرت به من أخباره .

فقصّت خديجةُ رضيَ الله عنها على ابن عمها ما أخبرها به محمد عليه الصلاة والسلام ، فقال ورقة :

— قُدُّوس، قُدُّوس . . .

والذى نفسُ وَرَقة بيده ، لئن كنتِ صدقتنى يا خديجة ، لقد جاءه النامُوسُ الأكبرُ ، الذى كانَ يأتى مُوسى عليه السلام ، وإنهُ لنبىُّ هذه الأمّة . . .

بلال (*)

دَلَفَ[1] الرجلُ إلى أميَّة بن خلف ، وهو في مجلسه من ناديه في قُرَيش وقال له : أوَمَا بلغك الخبر ؟ قال أميَّة : وما كان ؟ قال : لقد شهدتُ عبدكَ بلالاً يختلفُ إلى محمد في قائلة[2] النهار أحياناً ، وفي ظلام الليل آناً ، وهو خائف في مِشيته ، يبدو عليه الحذَر في لَفتَتِه . ولقد يخيَّل إليَّ فيما توسمتهُ في وَجْهه ، واستقرأته من حالته أنه دخلَ فيما يَدْعُو إليه محمد ، وانخرط[3] فيما تَهَاوَى فيه كثير من قومنا في هذا الدِّين .

قال أميَّة : أحقًّا ما تقول ؟ وعلى بيِّنة أنتَ مما تروى ؟

قال الرجل : نعم ، ولهذا نَفَضْتُ عليك الخبر ، وأفضَيْتُ إليك بما أرَى لتُهذِّبَ هذا العبد ، وتقضيَ على هذه الفتنة التي توشكُ أنْ يَنْدَلعَ لهيبها بين الموالى ، وقد أخذت سبيلها بين الأشراف .

انْفَتَلَ[4] أميَّةُ من مجلسه إلى داره ، وإنَّ قلبه ليحترق من الغيظ ، وهو يعدُّ لبلال الشرَّ والمكروه .

وجاءهُ بلالٌ ، ووقف بين يديه يضطرب ويَرْتَعِدُ ، أن رأى الشرَّ يلمعُ في عينيه ، ونارَ الغيظ تكاد تخرج أوَارَها[5] من بين جنبيه .

(*) سورة الليل الآيات ١٤ — ٢١ .

(١) دلف إليه : مشى .

(٢) قائلة النهار : وقت اشتداد الحر .

(٣) انخرط : انضم .

(٤) انفتل : انصرف ، واتجه .

(٥) الأوار : حر النار .

قال له أميّة : ما هذا الذى بلغنى عنك ، وترامى إلىّ من أمرك ؟! أحقٌّ ما يقال إنك تختلفُ إلى محمد تحت رواق من الظلام ، أو ستار من قائلة النهار؟ وإنك آمنتَ بدعوته ، واستجبتَ إلى أوهامه وضلاله ، كافراً باللاتِ والعُزّى صابئاً[1] عن آلهةِ قُرَيش والعرب ؟

قال بلال :

أما إذ وَصَل إليكَ عِلْمى ، وانتهى إليك إسلامى ، فإنّى لا أكتمك أنى قد جئتُ محمداً فآمنتُ برسالته ، وصدقته فيما يدعو إليه ، ولا عَلَيَّ بَعْدَ أن حدثتكَ أن يعلم الناسُ جميعاً أمرى .

قال أميةُ :

أوَمَا علمتَ أنكَ مملوكٌ فى يمينى ، وعَبْدٌ رقيقٌ كبقية متاعى ؟ وأنى من من يوم أنْ اشتريتُكَ إنما اشتريتُ جسمَكَ وعقلَك ، وتملكت رُوحك وجوَارحك ، وأنه لاقدرة لعقلك أن يعتقدَ مايشاء ، ولا لتفكيرك أن يذهبَ أنّى شاء ؟ فما هذا الذى تجاوزُ به حدّك ، وتخرجُ به على دينِ سيِّدك ؟

قال بلال :

أما إنى عبدك وأسيرك ، وخادمك ومولاك ، فهذا ما لا أنكره عليك ، ولو أمرتنى بقَطْع وَادٍ مُسْبع[2] فى جَوْفِ الظلام لفعلتُ ، أو كلّفتنى حمل الأحجار فى رَمْضاء[3] الظهيرة لما شكَوْتُ ؛ أما عقلى وفكرى ، وعقيدتى وإيمانى ، فهذا الذى لا يَقَعُ تحت سلطانك ، ولا يدخل فى حَوْزتك ، ولا إمكانك ،

(١) صبأ : خرج من دينه إلى دين آخر .

(٢) مسبع : تكثر فيه السباع .　　(٣) رمضاء الظهيرة : شدة حرها .

وما يضيرك من إيمانى وإسلامى ؟ وما يَهُمُّكَ فى أن أملك عقلى وتفكيرى ، ما دمتُ قائماً على خدمتك ، حافظاً لعهدك ؟

قال أمية ـ وقد ثارَ ثائرُهُ ، وهاج هائجُهُ :

لستَ أيها العبد إلاَّ مملوكاً لى من مَفْرِق[١] رأسك إلى أخمَصِ[٢] قدمك ، وفيما بين ذلك من عقلك وتفكيرك ، حتى خَلجات قلبك ، وخطرات نفسك ، وهمسات لسانك ، لا تملكُ من كل ذلك شيئاً ، وسأذيقك من ألوان العذاب ، وضُرُوب النَّكالِ ، حتى أستَلَّ ماتعتقدُهُ من قلبك ، وأمَزِّقَ نسيجَ ماتَتَوَهَّم بين ألفافِ صدرك .

ثم هجمَ عليه مَغيظاً مُهتاجاً ، عزيزاً قادراً ، غليظ الكبدِ ، شديدَ الوطأة ؛ وشدَّ وثاقه ، وقيَّد يديه ورِجْليه ، ودفعَ به إلى الصبيّان فى بَطْحاء[٣] مكة ، يتلعبُون به ، ويقذفونه كالكرة ، ويدفعونَهُ كسَقَطِ المتاع[٤] .

وعاد أميةُ فى أعقاب يومه إلى بلال يشهد مَصْرَعَ الإيمان فى قلبه ، ويرى مبلغ العذابِ من نفسه وجسمه ، ولكن ماذا عسى أن يبلغ العذابُ من نفس أسلمت لله ، وَوَجّهت وَجهها لله ؟ وما القيدُ والأغلال ، وما الكيد والنّكال بجانب حلاوَةِ الإيمان التى ذاقها ، ونعمة الإسلام الذى ينعمُ قلبُه بها ؟

قال له : كيف وَجَدت العذابَ يا بلال ؟ أخيرٌ لك ما أنت فيه من هَمّ وَبلاَء ، أم عودة إلى اللاّت والعُزّى ، وكُفرٌ بما جاء به محمدٌ ، وما يزعمهُ من دين ؟

---

(١) المفرق : وسط الرأس .
(٢) الأخمص : ما دخل من باطن القدم فلم يصب الأرض .
(٣) البطحاء : مؤنث الأبطح ، وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى .
(٤) سقط المتاع : رديئه .

فنظر إليه نظرة جمع فيها كل ماتَطْوِيه نفسه من احتمال للعذاب ، واستعدادٍ للبلاء ، واحتقار لما يُوقِعه به أمية منْ تعذيب وإيذاء ؛ وكأنه يقول له : قد تملكُ السوطَ تنالُ به جسمى ، والحبلَ تغلُّ به عُنُقى ورِجلى ، بل لك السهمُ الذى تستطيعُ أن تُسَدِّده إلى نحرى ، والسيفُ تضربُ به عنقى ؛ أما أن تَمْلك عقلى وقلبى ، وتحتكم فى دينى وعقيدتى ، فهذا الذى لايستطيعُ أن ينالهُ بطشك ، والذِّرْوة التى لا تستطيعُ أن ترتقيها بقوتك وسلطانك .

ثم ما زاد بعدَ نظرته على أن قال : « أحَدٌ ، أحَد » ؛ إعلاناً لسيده بأنه سيظلُّ على توحيده وإيمانه ، وعقيدته وإذْعانه ، وإن ترادَفت عليه ضروب المحن ، واستقبلته صنُوفُ البلاء .

وطلعت الشمس فى اليوم الثانى قويةً ملتهبة ، وانبسطت أشِعّتها على الصحراء ، فاستوقد أديمُها ، واضطرم بالنار إهابُها ، وجاء أمية ببلالٍ فأضجعهُ على الرَّمْضاء[1] ، وأتى بصخرة عاتيةٍ فَأرَاحها على صدرهِ ، وظل بلال بين رَمضاء ملتهبة ، وصخرة ثقيلة قاسية ، وفيما بين ذلك تقذِفُهُ الشمسُ بسهامها ، والرياحُ تزْجِى[2] إليهِ غُبارَها .

ولكن كل هذا وبلالٌ لم يُغيِّر حرفاً من الكلمة التى أصبحت شِعارَهُ وَعقيدته ، وعنْوانَ إسلامه وإيمانه :

« أحَدٌ ، أحد » . . .

هو الله الذى أعبده وأتوجّه إليه ، وهو الذى أقصِدُه وأعتمد عليه ؛ لا يضيرنى هذا العذاب ، ولا يُزَحزحنى عن الإيمان به هذا العقاب .

---

(١) الرمض : شدة وقع الشمس على الأرض ، والأرض رمضاء .

(٢) تزجى : تسوق .

« أحدٌ ، أحد » . . .

هو الله وحْده الذى أستدفعُ به البلوى ، وألتجىء إليه فى المحنة الكبرى ، وإن ضاقت منافذُ الأمل ، ورَثّت حِبَالُ الرّجاء .

« أحدٌ ، أحد » . . .

هُو الله وحدهُ الذى بعث محمداً رسولا ، ومرشِداً أميناً ، ومن نُعماهُ علىّ أن كُنتُ من تابعيه ، ومنْ مُحِبِّيه ومريديه ، وكفاء لهذه النُّعمَى سأصبِرُ على هذا البلاء ، وأحمد لذلك القَضَاء .

ثم ما زالت الأيامُ تتوالى وتتتابعُ ، وألوانُ العذاب على بلال تترادفُ ، وأميّة ما يزداد إلا غيظاً وحِقداً ، وما يلقى من بلال إلا صبراً واحتساباً ، حتى كان أبو بكر يمشى يوماً فى بعض شِعاب[1] مكة ؛ فإذا بلال يئنُّ من آلامه ، ويتلوى فى محنتِه ، وأميةُ واقفٌ أمامه فى كِبْرِه وجهله ، وظُلمه وعَسْفِه ، ينظرُ إليه وكأنه قد شَفَى من غيظه أو أطفأ وقْدَةً من الحقد بين جنبيه ! فأدركت أبا بكر الرحمةُ ، وتحرّكت فى نفسه بناتُ العطف والشفقة ، فقال لأمية : حَتّام[2] تترك هذا المسكين غرَضاً لعذابك ، وهدَفا لبلائك ؟ وما حَظُّكَ من هذا الأنين تسمعه ؟ ومن هذه الدموع تبعثها من مآقيها ؟ أى جُرْم[3] اقترفهُ ؟ وأى إثم ارتكبهُ ؟

قال أمية فى صَلَفه[4] وغُرُوره ، وعجبه وخُيَلائه : هذا عبدى ومِلكُ يمينى ، أعذِّبهُ كيف أشاء ، وأطلقه متى أشاء ! وما أوقعه فى بلائه ، وجرّ عليه أسباب شقائه ، إلا أنتَ وصاحبك ! فإذا كنتَ مُشفقاً به ، وحدباً[5] عليه ، فدونكه اشتره ، وخلصه مما هو فيه . أما ما دام هذا العبد فى ملكى فلن أرفعَ عنه العذاب حتى يعود إلى اللاّت والعُزّى .

(١) شعاب مكة : طرقها . (٢) حتام : إلى أى وقت . (٣) جرم : ذنب .
(٤) الصلف : التكبر . (٥) حدباً عليه : مشفقا .

وانتهزها أبو بكر فُرْصة يخلِّص بها بلالا من محْنته ، ويرفعُ عنه عذابَ سيده ، فقال لأميَّة : قد اشتريتهُ منك ، وليس لك عليه الآن مِنْ سبيل ، وأما أنتَ يا بلال فقد أعتقتك حِسْبَةً لله وانتجاراً .

فهذا أُمَيَّةُ ، وهذا أبوبكر ، هذا مؤمن ، وذاك كافر ، وهذا بَرٌّ وذاك فاجر ، وقد سجَّل الله عاقبتَهما ، وفصل فى أمرهما : (فأنذَرْتكمُ نَاراً تَلظَّى * لا يَصلاهَا إلاّ الأشقى . الذى كذَّبَ وَتوَلَّى . وسَيُجَنَّبُها الأتقى . الذى يُؤْتى مَالَهُ يَتزكَّى . وما لأحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجزَى . إلا ابتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى . ولسوْفَ يَرْضى)[1] ، وشتَّان ما بين الرجلين ، ويا بُعْد ما بين العاقبتين !

---

(١) سورة الليل الآية ١٤ .

الإســراء(١)

أمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةً فى منزل أمّ هانىء ، بعد أن فرغ من شؤون الناس ، وصلّى العشاء الآخرة ، حتى إذا ما كاد النهارُ ينسلخُ من إهاب الليل ، وتفتّحت الأعينُ على تباشير الصباح ، أهيب به أن يستيقظَ للصلاة فنهض ، ودعا بالوضوء(٢) فتوضأ ، وحضرت الصلاةُ فصلّى ، ثم دعا إليه أم هانىء ليحدّثها ، إذ هو صلى الله عليه وسلم قد شهدَ الليلةَ أمراً عظيماً ، ورأى مشهداً عجيباً ! وقد اختصّه اللهُ بفضل ، وآثره بشرف ، ما يعلمُ أنه قد حَبَاهُ(٣) أحداً من قبله ، أو يُتاح لأحَدٍ من بعده ، ولا مَعْدِل عن الإفضاء به والتحدّث عنه .

وجاءت إليه أمُّ هانىء ــ وهى بنتُ عمه أبى طالب ، وَمِنْ شِيعَتِه وأنصاره ، ومن مُؤَازريه وأعوانه ــ فقال لها :

يا أمّ هانىء ، لقد صليت معكمُ العشاء الآخرة ، كما رأيتِ بهذا الوادى ، ثمّ جئتُ بيتَ المقدس فصلّيتُ فيه ، ثمّ قد صليتُ صلاةَ الغداة مَعَكُم الآن كما تَرَيْنَ .

وأعلمها أنه خارج الآنَ ليَلْقَى قريشاً ويخبرهم بما رأى ، ويقصّ عليهم ما شاهد ، تحدُّثاً بالنعمة ، وإعلاناً لقدرة الله .

كانت أم هانىء مؤمنةً قوية الإيمان ، مسلمة آكد الإسلام ، ولهذا

---

(١) سورة الإسراء .
(٢) الوضوء « بالفتح » : الماء الذى يتوضأ به .
(٣) حباه : أعطاه .

لم يُخامِرْهَا شكٌ فى صِدْقِ ما رَأى ، ولم يداخلها رَيْبٌ فى صحةِ ما روَى ، ولكنها عرفت قريشاً : مكْرَهم وإيذاءهم ، وشاهدَت قومَها : كيدهم وتكذيبهم ، فخافت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكَيد والتكْذِيب ، وأشفقت عليه من الأذَى والاستهزاء ، فأخذت بطرَفِ ردائه ، وتعلّقَتْ به من ثوبه ، وقالت : إنى أذَكِّرك الله يا بْنَ عمى ، أنْ تأتِيَ قوماً يكذّبون رسالتَك ، وينكرُونَ مقالتك ، فأخاف أن يَسْطوا بك ، وتمنّت من وراء توسُّلها ، وأمّلت من ورَاء تعلُّقها ، أن يكتمَ حديثَه ، وأن يحفظَ ما رأى بين طيّاتِ صَدْرِه ، حدَباً وعطفاً ، وخوفاً وإشفاقاً .

ولكنه صلى الله عليه وسلم يحتملُ رسالةَ البشرية كُلّهَا : حاضرها ، ومستقبلها ، فكيف السبيلُ به إلى الخوف ؟ ويتنزّلُ إليه أمْرٌ عظيم ، فكيف يحوطُهُ بالكتمانِ ؟ إنه لا يَخَافُ الكَيْدُ والأذى ، ولا يخشى الاستهزَاء والتكْذِيب ، ولهذا جذب رِدَاءه ، وجمع عَزْمَه وخرج .

***

ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم غير هَيَّاب يحدِّثُ قريشاً ، ولكن أم هانىء تضاعَف هَمُّها ، وزادَ وَجَلُها[1] ، فدعت إليها نَبْعَة — وكانت جاريتها وموضعَ سِرِّها وثقتها — وقالت : انطلقى خَلْفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واسمعى ما يقول ، وتعالى بعد ذلك حدِّثينى بما سيكون .

وذهبت نَبْعَة تَقُصُّ أثرَ الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم عادت إلى سيدتها وقالت : لقد أدركتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحَطِيم ، بين الكعبة

---

(١) الوجل : الخوف .

والحَجَرِ الأسود ، وما أنْ رآه أبو جهل حتى ابتدَره قائلا – مستهزئاً كعادته ، متعَنِّتاً كدأبه : هل كان من شيء ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، أُسْرِىَ بى الليلةَ .

قال : إلى أين ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى بيت المَقْدِس .

قال له : ثم أصبحتَ بين ظَهْرَانَيْنَا ؟ !

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

فعاد أبو جهل وقال : أرأيتَ إنْ دعوتُ قومك أنْ تحدِّثهم بما حدَّثتنى ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

وانطلق أبو جهل يَعْدُو كالثور ، وينادى : يا معشر بنى كعب بن لؤى ! !

قالت أم هانىء : اجلسى يا نَبْعَة ، ثم أتمِّى الحديث ، فما أرَى إلا أنه سيطول ، وجلست نَبْعَة ، واستأنفت الحديث ، وقالت : وما رَاعَنى إلا القوم يَنْثَالُون[1] من كل ناحية ، وينْسِلون من كل حدبَ ، يقدمُهم أبو جهل حتى أحاطوا برسول الله صلى الله عليه وسلم من كل جانب ، وطلب أبو جهل أنْ يُخْبِرَهُم الرسولُ بما رَأى ، وَحَسِبَ أنه سيغيِّر مِنْ قَالَتِهِ ، أو يبدِّل من خَبَرِه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى أُسْرِىَ بى إلى بيت المقدس ، فنُشر لى رَهْط[3] من الأنبياء ، منهم إبراهيم وموسى وعيسى ، وَصَلَّيْتُ بهم وكلَّمتهم .

قال أبو جهل — مُمْعِناً فى هزئه وَمَكْرِهِ — : إن كنتَ قد رأيتهم فَصِفْهم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمَّا عيسى ففوق الرَّبْعة ودونَ الطويل ،

---

(١) ينثالون : يتتابعون . (٢) ينسلون : يسرعون . (٣) رهط : جماعة .

تعلوه حُمرة كأنما يتحادَرُ عن لحيته الجُمان[1]، وأما موسى فضَخْم آدم[2] طويل كأنه من رجال شَنُوءة، وأما إبراهيم فإنه والله لم أرَ رجلا أشبه بصاحبكم، ولا صاحبكم أشبَهَ به منه .

ثم عادُوا فطلبوا منه آيةً تدلُّ على صِدْق ذلك، فقال : آيةُ ذلك أني مررت بعِير[3] بني فلان بوَادِي كذا وكذا، فأنفرَهم حِسُّ الدّابة، فَنَدَّ لهم بَعير، فدللتُهم عليه وأنا مُوَجَّهٌ إلى الشام، ثم أقبلتُ حتى كنتُ بضَجْنان[4] مررت بعِيرِ بني فلان، فوجدتُ القومَ نيَاماً، ولهم إناء فيه ماء، وقد غطُّوا عليه بشيء، فكشفتُ غطاءه وشربتُ ما فيه، ثم غطَّيته كما كان، وآيةُ ذلك أنَّ عيرهم تصوب الآنَ من ثَنِيَّة التنعيم البَيْضاء، يقدمها جَمَلٌ أوْرَق[5]، عليه غِرَارَتان : إحداها سوداء، والأخرى بَرْقاء[6] .

وابتَدَرُوا إلى الثنيَّة، فوجدوا العِير كما ذكر الرسولُ صلى الله عليه وسلم، يقدمها جَمَلٌ أوْرَق كما أخبر .

قالت أمّ هانيء : هِيه يا نَبْعَة، وماذا كانَ منْ أمْرِ القَوْم بَعد هذهِ الآيات البينات ؟

قالت : لقد رأيتُهم لَوَّوْا رُءوسهم، وغمَزُوا بعيونهم، ثم صاحوا منكرين بملء حَنَاجرهم .

وقد اجترأ المُطْعم بن عَدِيّ، فقال : كان أمرك قبلَ اليوم أمراً يسيراً، فإذا بكَ اليوم تُعجِب وَتغرِب ! نحن نضربُ أكبادَ الإبلِ إلى بَيْتِ المقدس

---

(١) الجمان : جمع جمانة، وهي حبة تعمل من الفضة، كالدرة
(٢) آدم : أسود (٣) العير : الإبل تحمل الميرة .
(٤) ضجنان : جبل بمكة .
(٥) الأورق من الإبل : ما في لونه بياض إلى سواد .
(٦) برقاء : كل شيء اجتمع فيه سواد وبياض .

نصعّد شهراً ، ونَنْحَدِرُ شهراً ، وأنتَ تزعمُ أنكَ أتيتَه فى ليلةٍ واحدة ؟!
واللات والعُزّى لا أُصَدِّقُكَ ، ولقد أشهد أنكَ كاذب .

وما وصلت نَبْعَة فى الحديث إلى هذا المقدار ، حتى علَتْ وَجْه أمّ هانىء سحابةٌ من الهمّ ، وتحيرت فى عينيها دمعةٌ من الإشفاق .

ولكن نَبْعَة استأنفَت حديثها وقالت : أما أبو بكر فإنه نطق من فَوْرِه ، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أشهد أنكَ صَادق . فقال له المُطْعِم بن عدىّ : أتصدِّق أنه ذهب إلى بيت المقدس ، وعاد قبل أن يُصْبِح ؟! قال أبو بكر : نعم ، إنى لَأُصَدِّقه فيما هو أبْعَدُ من ذلك ، أنا أُصَدِّقه فى خَبَرِ السماء فى غُدُوِّه ورَوَاحِه ، أفأكذبه فى إكرام الله له بأنْ ينقله مسيرةَ شهر ؟

وتَبع المسلمون أبا بكر ، ولكن وا أسفاه ! لقد ارتدّ نَفَرٌ قليل منهم ، لم تَتَّسِعْ عقولهم لأن تدرِكَ قدرةَ الله ، ولم تستَرْوِحْ قلوبُهم لما اختصّ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

قالت أم هانىء : لا بأس على دِين رسول الله من هؤلاء النَّفَر الذين ارتدُّوا ، فلعلّ من الخير أنْ يبتعدوا عن صفوف المسلمين ، ويمَّحُوا من صحيفة المسلمين ، إذ لا خَيْرَ للمسلمين فى ضعيف متردّد ، ولا نفعَ لهم فى مُذَبْذَب مضطرِب .

صوت (*)

ضاقت قريش وزعماؤها بدين محمد وأتباعه ، وأحسوا أن هذه المبادىء التى ينادى بها النبىّ ويدعو إليها ، أخذت تنتشر وتذيع ، ويكثر أتباعها والمؤمنون بها ، وفى ذلك ذهابُ دولتهم ، والقضاء على رياستهم وسلطانهم .

واجتمع شَمْلُ الرؤساء من قريش ، والصناديد من أهل مكة ، يفكرون ويدبرون ، واستقر رَأْيُهم على أن يتحدثُوا إلى محمد فى هذا الأمر الذى شغلهم وأقض مضاجعهم ، وهدّد كيانهم ، وقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلموه فى هذه الدعوة التى يحاول أن يدكّ بها صَرْحَ قريش ، وينال من دِينهـا وزعامتها ، فإذا استطعنا إقناعه بالحجة والبرهان كان ذلك خيراً لنا ولبلدنا الحَرَام ، وإن أبى أن يُصْغِيَ إلى حديثنا ويستمع إلى رأينا كنا قد حذّرناه مَغَبَّة أعماله ، وبينّا له عاقبة أمره ، ولنا — بعـد ذلك — أن نفعل به وبأتباعه ما نريد.

وبعثوا إليه : إن أشرافَ قومِك اجتمعوا لك ليـكلِّمُوكَ فى شأن هذا الدين الجديد الذى تدعو إليه .

ومحمد نبىٌّ كريم ، يدعو إلى الإخاء ، ولا يسعى إلى الشقاق ، وهو حريص على قومه ، يحب رشدهم ويعز عليه تعنتهم ، وهو مع ذلك يودّ لو رجعوا عن غيهم وعادوا إلى صوابهم ، واستجابوا إلى دعوته ، وانضموا إلى زمرة أصحابه وكانوا جميعاً على دين الله إخواناً .

لذلك أسرع النبى إلى لقائهم ، وجلس إليهم ، يصغى إلى حديثهم ، وهو

(*) سورة الإسراء ، الآيات ٩٠ — ٩٣

يشكر الله أن تهيأت له هذه الفرصة التي سيعرض لهم مبادىء دينه ، ويحاول إقناعهم وإنقاذهم من ضلالهم .

وبدءوا الحديث يُغرونه بالمال والجاه ، والشرف والملك ، قالوا : يا محمد ، إنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدْخَلَ على قومه ما أدخلتَ على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعِبْتَ الدِّين ، وسفّهت الأحلام ، وسببت الآلهة ، وفرّقْتَ الجماعة ، وما بقي من أمرٍ قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك . فإن كنت إنما جئتَ بذلك كلِّه لتطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا ما تكونُ به أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلبُ الشرفَ والرياسة فينا سوّدْناك علينا ، وإن كنت تريد مُلْكاً ملّكناك . وإن كان هذا الرِّئيّ الذي يأتيك تراه قد غلب عليك ، بذلْنا أموالنا في طلب الطبّ حتى نبرئكَ منه أو نُعذر فيك .

وعجب الرسول من حديثهم ، إذ خالهم قد رجعوا إلى الحقّ ، وعادوا إلى الصواب ، ولكنه رآهم مازالوا سادِرين في غَيِّهم ، يَظنّونَ به السوء ، ويزعمون أنه يطلب السؤدد والغنى والمال والشرف ، فيقول : ما بي شيء مما تقولون ، وما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ، ولا للشرف فيكم ، ولا للملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رَسُولا ، وأنزل عليّ كتاباً ، وأمرني أن أكونَ لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالة ربّي ونصحتُ لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ ولم تقبَلُوه أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم .

ولما سمعوا حديثه ، وَرَأَوْه مُصِرّاً على دعوته ، متمسكا بدينه ، اتّجهُوا في المحاورة وجهة جديدة ، يتحدَّوْنَ بها محمداً ، علّهم يُضْعِفُونَ من عزمه ، ويثنونه عن طريقه ، قالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا ما عرضناهُ ، فقد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلاداً ولا أقل مالا ولا أشد عيشاً منّا ،

فسل لنا رَبَّكَ الذى بعثك بما بعثك فلْيُسَيِّر عنّا هذه الجبال التى ضيقت علينا ، ويبسط لنا بلادنا ، ويجرى فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وأن يبعث لنا مَنْ مضى من آبائنا ، وليكُنْ مِمَّنْ يبعث إلينا منهم قصيّ بن كلاب ، فإنه كان شيخاً صدوقاً ، فنسألهم عما تقول ، فلعلهم يؤيدونك فى زعمك ، ويشيرون علينا بجميل الرأى فيك . فإن صنَعْتَ ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله ، وصدقنا أنه بعثك بالحق رسولا كما تقول .

فازْدَاد عجبُ الرسول من هذا الحوار العقيم ، وقال لهم : ما بهذا الذى تذكرون بُعِثت ، وإنما جئتكم من عند الله سبحانه بما بعثنى به ، وقد بلغتكم ما أرسلتُ به إليكم ، فإن تقبلوا فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردُّوه أصبر لأمر الله ، وهو نِعْمَ المولى ونِعْمَ النَّصير .

وبدا لهم تمسّكه بدعوته ، وقوته فى الردّ عليهم ، فساروا فى الحوار إلى طريق آخر ، قالوا : فإن لم تَفْعَل هذا فسل ربَّكَ أن يبعث لنا ملكا يصدقك وسَلْهُ ليجعلَ لك جناناً وكنوزاً وقُصُوراً من ذهب وفضة ، فيغنيك بها عما نَرَاك تُشْغَل به من شئون الدنيا ، فإنك تقوم فى الأسواق ، وتلتمس المعاش ، للحصول به على ما تحتاجُ إليه من الرزق .

قال الرسول — ثابتاً على الحق ، متمسكا بالدين : ما أنا بالذى يسأل ربه مثل هذا ، وما بُعِثت به إليكم ، ولكن الله تعالى بعثنى بشيراً ونذيراً .

واستمروا فى مكابرتهم وتحدّيهم للرسول الكريم ، فقالوا : فأَسْقِطْ علينا كِسفاً[1] من السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فَعَل .

قال الرسول : ليس ذلك إلىّ ، ولكن الله هو القادِرُ على كل شىء ، وهو إن شاء الله فعل .

(١) كسفا : قطعا

وَأَعْيَتْهُمْ حجته ، وسدّت عليهم مسالك الحوار ، ولكن قائلاً برز من بينهم يرمى بآخر سهم فى جعبة القوم ، قال : يا محمد ، لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا[1] ، وقال آخر — يؤكد هذا القول ، ويسدده ويشرحه ويفسره : لا أومن بك حتى تتخذ إلى السماء سلّما ، وترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ، وتأتى لنا بنسخة منشورة معك ، ونفر من الملائكة يشهدون لك أنك بعثت إلينا رسولا ، يدعو إلى التوحيد ، ويبشر بدين جديد .

وهنا ظهر تعنُّتهم البالغ ، بعد ما عجزوا عن إغرائه ، وصَرْفه عن دعوته ، فترك الرسول مجلسهم ، وفارقهم إلى أهله كاسف البال حزيناً ، فقد فاته أمرٌ يحرص أشد الحرص عليه ، وهو متابعة قومه له ، ودخولهم فى دعوته ، وصلاح أمرهم باتباع هذا الدين الذى يجاهد فى سبيل نشره .

وقد سجل القرآن الكريم هذه المحاورة التى ظهر فيها الحقُّ قوياً واضحاً ، وبدا الباطل ضعيفاً متعنتاً ، فقال :

(وقالوا لن نُؤمِنَ لكَ حتى تفجر لنا من الأرض يَنْبُوعاً[2] أو تكون لك جنّةٌ من نخيل وعِنَب فتفجِّر الأنهارَ خلالها تفجيراً . أو تُسقِط السماء كما زعمتَ علينا كِسَفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيتٌ من زُخْرُفٍ[3] أو ترقى فى السماء ولَنْ نُؤْمِنَ لرقيِّك حتى تُنزِّلَ علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنتُ إلا بشراً رسولا) .

وذلك ليرى ذوو الرأى السليم أى الطريقين خير مقاماً ، وأيهما أضلُّ سبيلا .

---

(١) قبيلا : كفيلا بما تقول شاهداً لصحته .

(٢) ينبوعا : عينا غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء الذى لا ينقطع

(٣) من زخرف : من ذهب

الهجـــرة (*)

قالت الأوسُ : إن الحرب قد ضرَّستنا[1] ، وألقت بصدرها علينا ، وهؤلاء بنو عمِّنا الخزرج قد ألبُّوا اليهود علينا ، ليشتدَّ بهم أزرُهم فى القتال ! فالتمِسُوا عليهم حِلْفاً عند بعض قبائل العرب .

وكانت الأوسُ والخزرج[2] قبيلتان تنحَدِرَان عن أصلٍ واحد ، وتقيمان فى المدينة ، ولكن نار الحرب ما كانت بينهما تنطفىء ، ولا ثَوْرة الخلاف تهدأ وما زال ما بينهما يشتدُّ ، حتى كان يوم «بُعاث»[3] ، ففنى فيه رؤساء القبائل ، وزعماء الشعائر ، ثم وقعت بينهما هُدنة حالفت الخزرجُ فيها اليهود ، وأخذت الأوسُ تلتمسُ الحِلف عند العرب .

وفصَل عن المدينة رَهْطٌ من الأوس : أبو الحَيسر ، وإياس بن مُعاذ ، وآخرون ، وَوَلّوا وُجُوهَهم نحو مكة يلتمسون الحِلفَ عند قريش على بنى عمهم من الخزرج ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرفُ موسماً يُقامُ ، أو جمعاً يُحْتَشَد ، أو نفَراً يَفِدُ ، إلا أذاع فيهم دَعْوته ، ونشر رسالته ، لا يُبالى الكَيدَ ولا الأذى ، ولا الصدّ ولا الإعراض ، فلهداية البشرية يدعو ، وفى سبيل الله ما يَلقَى .

وسمع بهؤلاء الرَّهْط ، فأتاهم وجلس إليهم ، وقال لهم : هل لكم فى خيرٍ

(*) سورة الأنفال : آية ٣١ .

(١) جربتنا وأحكمتنا .

(٢) هما الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو . . . من كهلان سبأ ، ملوك اليمن .

(٣) يوم بعاث : من أيام العرب المشهورة بين الأوس والخزرج ، وبعاث موضع قرب المدينة .

مما جئتم له ؟ فقالوا له : وما ذاك ؟ قال . أنا رسولُ الله ، بعثنى إلى العِبَاد ، أدعوهم إلى أن يَعْبُدُوا اللهَ ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل علىّ الكتابَ ، وتلا عليهم القرآن ، ثم ذكر الإسلامَ .

فقال إياس — وكان غلاماً حدَثاً : أىْ قوم ، هذا والله خيرٌ مما جئتم لهُ ، فأخذ أبو الحيسر حفنَة من البَطْحاء[1] فضربَ بها وَجْهَ إياس ، وقال : دَعْنا منك ، فلعمرى لقد جئْنا لغير هذا !! فصمت إياس ، وقامَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصَرَف القوم .

* * *

وفى الموسم من هذا العام وَفَدَ على مكة نفرٌ من الخزرج ، ولقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : مَنْ أنتم ؟ قالوا : نفرٌ من الخزرج ، قال : مِنْ مَوَالى يهود[2] قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون أكلِّمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه ، ودعاهم إلى الله عزّ وَجَلّ ، وعرَضَ عليهم الإسلامَ ، وتلا عليهم القرآن .

فقال بعضهم لبعض : يا قوم ، تَعَلَّمُوا[3] والله إنهُ للنّبىُّ الذى توعّدكم به اليهودُ ، فلا يَسْبِقُنكم إليه . ثم أجابوهُ فيما دعا إليه ، وصدّقوهُ فيما بلغَ ، وقبلوا منه ماعرض عليهم من الإسلام ، وقالوا له : إنا قد تركْنا قومنا ولاقومَ بينهم من العداوَةِ والشّرِّ ما بينهم ، وعسى أنْ يجمَعهم الله بك ، فسنقدُم عليهم

---

(١) البطحاء : مسيل واسع فيه دقاق الحصى .
(٢) موالى اليهود : أحلافهم .
(٣) تعلموا : اعلموا .

فندعوهم إلى أمرك ، ونعرضُ عليهم الذى أجَبْنَاك إليه من هذا الدِّين ، فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجل أعَزّ منك .

ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة ، وهناك دَعَوْا قومهم إلى الإسلام ، فلقىَ من نفوسهم الكريمة قَبُولاً ، ومن سُوَيْدَاء قلوبهم استئناساً ، وفَشَا بينهم الإسلام ، ولم تبق دارٌ من دُور الأنصار إلا وفيها ذِكْرٌ لرسول الله .

واستبشر صلى الله عليه وسلم بإيمانهم ، وفرح بإسلامهم ، واتّسعت أمامَه رُقعةُ الأمل ، وامتدت خيوط الرجاء ، فهؤلاء قريش ما فَتِئُوا يسفّهون رأيه وَيَحُولونَ دونَ قَصْدِه ، وهم ما بَرِحُوا أيضاً يَقْعدون لأنصارِه كلّ مَرْصَد ، ويؤذونهم فى كل مكان .

ثم هو صلى الله عليه وسلم قد عرض نفْسَه على القبائل ، وأعلن دعوتَه فى العشائر ، أعلنها فى ثَقِيف وكِنْدة ، وفى بنى عامر ، وبنى حنيفة ، فلم يكونوا خيراً من قريش رَأْياً ، ولا أقلّ منهم صَدًّا وإعراضاً ، أما هؤلاء القوم من الخزرج فلم يَجِدْ عُسْراً فى إيمانهم ، ولم يَلْقَ جهداً فى إقناعهم ، إنهم آمنوا مخلصين وهُدُوا مُطْمئنين ، ومَنْ يدرى ! لعلهم يكونون من أنصاره وأعوانه ، ومن شيعته وخُلَصَائه .

* * *

ومضى عام ، وترقّبَ رســـول الله صلى الله عليه وسلم الموسم : موسم الحجيج[1] ، وإذا اثنا عشر يَفِدون مسلمين : اثنان من الأوس ، وعشرة من الخزرج ، وأعلنوا للرسول إسلامَهم ، ومدّ يدَهُ الكريمة لبَيْعتهم ، فبايَعُوه وعاهَدُوه ألا يُشرِكُوا بالله شيئاً ، ولا يَزْنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ،

(١) الحجيج : الحجاج.

وَلاَ يأتوا بِبُهْتَانٍ[١] يَفْتَرُونه بين أيديهم وَأَرْجُلِهم ، ولا يعصوا الله فى معروف ، فإن وَفَّوْا فلهم الجَنَّة ، وإن غَشُّوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى الله ، فإن شاء عَذَّبَ ، وإن شاء غَفَر . ثم عاهدهم على كتمان أمرهم عن قريش ، وَوَعدهم اللقاء فى العام المقبل .

وَأَرسل معهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مصعبَ بن عُمَير ، يفقّههم فى الدين ، ويُقرئهم القرآن ، ويُعلّمهم قواعد الإسلام .

وعادوا إلى المدينة ونورُ الله يُضىء بين جوانحهم ، وسِمَاتُ[٢] الإسلام تَعلو وُجُوهَهم .

ومضت الأيامُ ، ودعوةُ الرسول صلى الله عليه وسلم تصادفُ فى نفوسهم مكاناً خَصِيباً ، وصَدْراً رَحِيباً[٣] ، وذهبت من نفوسهم الأحقادُ ، وذابت الأضغان ، وَصَفَتْ منهم القلوب ، حتى كان العامُ المقبل ، فوفَدَ من المدينة — فيمَنْ وَفد منها — سبعونَ رجلاً وامرأتان من مُسْلِمِى الخزرج والأوس ، وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدومهم ، فوَاعدهم العَقبة[٤] من أوسط أيام التَّشريق[٥] .

ولما كان الموعد ، ومضى من الليل ثُلُثه ، خرجُوا من رِحالهم مُسْتَخْفِين يتسللون تَسَلُّلَ القَطَا ، حتى اجتمعوا فى الشِّعْبِ[٦] عند العقبة ، ثم أقبلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه العباس بن عبد المطلب ، وهو وإن كان على دين قومِه ، إلا أنه أحبَّ أن يحضرُ أمرَ ابن أخيه ويتوثّقَ له .

---

(١) البهتان : الباطل والكذب .
(٢) سمات : علامات .
(٣) رجيباً : واسعاً .
(٤) العقبة : منزل فى طريق مكة .
(٥) أيام التشريق : من أيام الحج ينحر فيها اللحم ، ويشرق : أى يقدد .
(٦) الشعب : الطريق فى الجبال

قال العباس :

يا معشر الخزرج[1] ، إن محمداً منا حيثُ قد علمتم ، وقد منعناهُ من قومنا ممّن هو على مثل رأينا فيه ؛ فهو فى عزّةٍ من قومه ، وَمَنَعةٍ فى بلده ، وإنه قد أبَى إلا الإنحياز إليكم ، واللحاقَ بكم ، فإن كنتم ترون أنكم مُسْلِمُوه وخاذِلُوهُ بعد الخروج إليكم فمن الآنَ فدعُوه[2] ، فإنه فى عزّةٍ وَمَنَعَةٍ من قومه وبلده .

فقالوا : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ثم قال : أُبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

فقام البَرَاء بن مَعْرُور وقال : نعم ! فوالذى بعثك بالحقّ لَنَمْنَعنَّك مما نمنعُ منه ذَرَارِينا[3] ؛ فبايعنا يا رسول الله ، فنحنُ والله أبناء الحروب ، ورثناها كابراً عن كابر .

وقال العباس بن عبادة : يامعشر الخزرج ، هل تدرُون علام تُبايعُون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال : إنكم تبايعونهُ على حرب الأحمر والأسود[4] من الناس فإن كنتم ترَوْن أنكم إذا أُنهِكت[5] أموالكم مصيبةً ، وذهبت أشرافكم قتلاً ، أسلمتُموهُ ، فمن الآن ؛ فهو والله إن فعلتم خزىُ الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وَافُونَ له بما دعوتموه إليه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فإنا نأخذهُ على مُصِيبة[6] الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن

---

(١) العرب يسمون هذا الحى من الأنصار : الخزرج : خزرجها وأوسها .

(٢) دعوه : اتركوه .

(٣) ذراريا : أبناءنا .

(٤) يريد بالأحمر والأسود الناس جميعا .

(٥) أنهكت أموالكم : أضعفتها .

(٦) مصيبة الأموال : ما ينال أموالهم من الضعف والقلة .

وفَيْنَا ؟ قال: الجنة ؛ قالوا : ابسط يدك نبايعك ، ثم بايعوه . واعترض أبو الهيثم ، فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين اليهود حِبَالا وإنَّا قاطعوها ، فهل عسيت إن فعلنا ذلك ، ثم أظْهَرَك[1] الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنا ؟ !

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : بل الدَّمَ الدَّمَ ، والهَدَمَ الهدم[2] ، أنا منكم وأنتم منى ، أحاربُ من حاربتم وأسالمُ من سالمتم . ثم قال لهم : أخرجُوا إلى منكم اثنى عشر نَقِيباً[3] . ولما انتخبوا نُقَباءهم قال لهم : أنتم كُفَلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ، وأنا كفيلٌ على قومى .

* * *

وشاع فى مكة أمرُ البَيْعة ، وعلمت قريشٌ بظهور الإسلام فى المدينة ، فاضطرب حَبْلُهم ، وزادَ غَيْظُهم ، واشتدَّت الحَفِيظَة[4] فى صدورهم ، ثم ضاعفوا الأذى بالمسلمين ، وأخذوا يوقِعُونَ عليهم ضروبَ المحن ، ويَصُبُّون فوق رءوسهم ألوان العذاب : من تنكيل واستهزاء ، إلى سخرية وإيذاء . وفيما هم بين ذلك مُضَيَّق عليهم فى العبادة ، مضطهَدُون فيما يعتقدون ؛ فساءت حالُهُمْ ، وكثرت أحزانُهُم ، ورأى رسولُ الله ما هم عليه من مِحْنة وفتنة ، فأذِن لهم بالهجرة إلى المدينة ، وقال لهم : إن الله جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها .

فاستجابوا لله وللرسول ، وهاجروا إلى المدينة أرْسَالاً[5] ونَزَحُوا إليها جماعات ووحْدَاناً تاركين — ابتغاء مرضاة الله — ديارهم وأوطانهم وأولادهم وأموالهم . وما عليهم لو هاجروا ؟ أليسوا قد امْتُحنوا بأنكى ألوانِ الأذى ، وفُتِنُوا

---

(١) أظهرك : نصرك .

(٢) كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار : دمى دمك ، وهدمى هدمك . يعنى ما هدمت من الدماء أهدمه أنا .

(٣) النقيب : العريف ، وهو شاهد القوم وضمينهم .

(٤) الحفيظة : الغضب .

(٥) أصل الرسل : الجماعة من كل شىء ، وجمعه أرسال — يريد جماعة بعد جماعة .

بأشد صنوف الآلام ؟ أولم يضيّق عليهم فى العبـــادة ، وتسَدّ عليهم منافذ الطرقات ، فاضطروا للزوم الدُّور أحياناً ، والهجرة إلى الحبشة أحياناً ؟!

وذلك رسولُ الله — وهو أكرَمُ من طلعَتْ عليه شمْس ، وأفضلُ مَنْ أظلّتْهُ سماء — ألم يَضَعْ وَاحِدٌ منهم الثوب فى عُنُقه حتى كادَ يُميته خنْقاً ، ألم يحمِل واحدٌ منهم الحجرَ ليشجَّ به[1] رَأْسَهُ ، ولولا أن عناية الله لاحظتْهُ لأرْدَاهُ قتيلاً ؟!

هذه مكةَ وقد أصبحت دارَ بلاَء وعذاب ، فما المقامُ على دارِ الهَوَان — وهم العرب أبَاة الضيم والإذلال ، وهم المسلمون — والإسلامُ دين العزّةِ وَالْمَنَعَة والحرية والكرامة .

ثم هو الإسلام دينٌ عام شامل ، ليس دين مكة وحدها ، وليس دينَ قريش وحدها ، بل هو دينُ البَشَرِ كلهم : حاضرهم ومستقبلهم ، ودين الخلق أجمعين ، عربيهم وعجميهم ، وأسودهم وأحمرهم ، من تلك الساعة التى هتف فيها محمدٌ داعياً ، إلى يوم تتبَدّلُ الأرْضُ غير الأرضِ والسموات .

وإذن فليخرجْ هؤلاء المسلمون مُهاجِرين إلى المدينة ، يَضربون أحسنَ الأمثال ، يُلقُون دَرْساً على من يُضطهد فى عقيدته ممن يأتى بعدهم من الأجيال . وكذلك خرجوا ، واستقبلهم الأنصارُ بالمدينة ، ولقوا فيها أهلاً بأهل ، وجيراناً بجيران .

عَلِمَ رجالُ قريش خروج المسلمين إلى المدينة ، فَسُقِطَ فى أيديهم ، ورأوا أنهم إن لم يتدبَّرُوا فى أمورهم ، وينظروا فى غَدِهم ، فإنّ أمرَ محمد غالب ، وشأنهم فى ذهاب؛ فاجتمعوا فى دارِ النَّدْوَةِ يَتشاورُون ويتدبَّرُون، وَيُبْرِمون وينقضون ، وكذلكَ كانوا يفعلون حين يَحْزُ بهم الأمر ، وتشتَبِهُ عليهم الآراء.

---

(١) شج رأسه : جرحه .

واجتمع أشرافهم وَبَهَالِيلهم[1] ، ورؤساؤهم وغطاريفهم[2] . ثم قام واحدٌ منهم ، فقال :

لقد جمعناكم اليوم ليَدْلِيَ كلٌّ واحدٍ منكم برأيِهِ فى محمد ، فهو كما علمتم قد ظهر أمره واتضح ، وقد جاوز مكة ، وامتدَّ إلى يثرب ، وربما امتدَّ إلى غيرها من البُلدان . واعلموا قبل أن تَتَشقّقوا بالآراء ، أنّا قد فتنّاه بأنواع الأذى ، فوجدناه صابراً جليداً ، وأنّا بَلَوْنا أصحابه بصنوفِ المِحَنِ ، فوجدناهم صامدِين أقوياء .

ولقد ارتاحت نفوسنا حينما علمنا ما لَقِيَهُ من خِذلان عند بنى حنيفة ، ومن كَيْدٍ وأذى فى ثَقِيف ، ومن تكذيب عند غيرها من أحياء العرب ، بل تنفّسنا الصُّعداء حين مات أبو طالب ، ذلك الذى يُؤْويه وَيَنصُرَه ، ويحميه وَيُخفِرُه[3] ، ولكن وا أسفاه ! لقد وجد اليومَ عند الخزرج عَضُداً ونَصيراً ، وَوَلِيًّا وظهيراً[4] ، بل لقد أصبحوا بعد دَعْوَته فيهم إخواناً وكانوا أعداء ، وأقوياء وقد كانوا مُتخاذلين ضُعفاء ، وذهبتْ من صُدُورهم الإِحَن ، وامّحت الأحقاد .

وليت المصيبة وقفتْ عند هذا الحدّ ، ولم تجاوز ذلك المِقدار ! فها هم أولاء أصحابه قد هُرِعُوا إليهم ، وانثالُوا عليهم ، غير مُبالين أوطانهم أو ديارهم ولا عابئين بأموالهم ولا أولادهم .

وأكبَرُ الظنّ أنّ محمداً سيلحقُ بهم ، وإذَنْ تكونُ المصيبة أشد ،

(١) البهاليل : جمع بهلول ، وهو السيد الجامع لكل خير .
(٢) الغطريف : السيد الشريف ، والجمع غطاريف .
(٣) يخفره : يجيره .   (٤) ظهيرا : معاوناً ومساعداً .

ويكون الخَطْبُ أنكى ، وما تأمنون أنْ يَثِبَ علينا بهم ، فيسقط الأمْرُ مِنْ أيدينا ، وتعود الدائرةُ علينا .

قال أبو البَخْتَرِيّ بن هشام : احْبِسُوه فى الحديد ، وغلِّقُوا عليه الأبواب ، حتى يصيبَه ما أصاب غيره من الشُّعَراء .

قالوا له : ليس هذا برَأْيٍ ، وقد علمتم أصحابه ، وحُبَّهم له ، وتعلّقهم به ، وإنه ليُوشك — لو علموا — أن يُكاثِرُونا ، ويُطْلِقوه من أيدينا ، فلا نكون قد صَنَعْنا شيئاً .

وقال أبو الأسود ربيعة بن عَمْرو : نُخرِجُه من بين أظهُرِنا ، ونَنْفِيه من بلادنا ؛ فإذا خرج عنّا فوالله ما نُبَالى أين ذهب ولا حيثُ وقع !

قالوا : والله ما هذا لكم بِرَأْيٍ ، ألم تروا حُسْنَ حديثه ، وحلاوة مَنْطقه ، وغلَبَته على قلوب الرجال بما يَأْتِي به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أَمِنْتُم أن يحلّ على حى من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه ، حتى يُتَابِعُوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم ، حتى يَطأكُمْ بهم ، فيأخذ أمرَكم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد . أدِيرُوا فيه رَأْياً غير هذا !

وقال أبو جهل بن هشام : والله إنّ لى فيه رأياً ، ما أراكم وقعتم عليه بعد .

قالوا : وما هُو يا أبا الحكم ؟

قال : أرى أن نأخذ من كل قَبيلة فَتًى ، شابًّا جَلِيداً ، نسيباً وَسِيطاً فينا ، ثم نعطى كل فَتى منهم سيفاً صارماً[1] ، ثم يعمد هؤلاء إليه ، فيضربوه بها ضَرْبة رجلٍ واحد فيقتلوه فنستريح منه ؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك تَفَرّق دَمُه

---

(١) صارما : قاطعا .

فى القبائل ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حَرْبِ قومهم جميعاً ، ثم يرضوا منا بالعَقْل فَنَعْقِل لهم[١] .

فصفَّقُوا لرأيه ، واستراحُوا لقوله ، وتفرَّقوا على ذلك .

وكان أبو بكر رجلا رضى القلب ، سخىَّ النَّفْسِ ، حلْوَ الشمائل ، أحبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل قلبه ، وآثره على خاصة نفسه ، وودَّ لو يُفَدِّيه برُوحه وماله ، وعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه هذه الصفات ؛ فقرَّ به إليه ، وأدْنَاه منه ، وسَمَّاه صدِّيقا ، ودعاه من النار عَتِيقا .

وأذِن رسولُ الله للمسلمين بالهِجْرة إلا أبا بكر ؛ فإنه كلما استأذنه فى الرَّحيل، واستشاره فى الذهاب إلى المدينة يستَبْقِيه ، ويقول له : لا تَعْجَلْ ، لعلَّ الله يجعلُ لك صاحباً ؛ فيطمئن أبو بكر ، ويودّ لو يكونُ الرسولُ صاحبَه فى هِجْرَته ، ورفيقَه فى سَفرَته[٢] ؛ ولهذا اشترى رَاحِلَتَيْنِ أعَدَّهما ليوم الرحيل.

ويومَ أن اجتمعت قريشٌ فى دار نَدوتها ، وأعدَّت مَكْرَها ، وهيَّأت كَيدَها ، أوحى الله إلى رسوله : إنَّ القوم قد أجمعوا لك كَيْداً ، وبيَّتُوا[٣] لك مَكْراً ، ولكنَّ الله عاصِمُك من كَيْدِهم ، وحافِظُك من مَكْرهم ؛ فخذ عزمك للسفر ، وهيِّىء نفسَك للرَّحيل إلى المدينة .

فتوجَّه الرسولُ مِن ساعتِه لأبى بكر وقال له : يا أبا بكر ، إن الله قد أذِن لى فى الخروج والهجرة . فقال أبو بكر : الصُّحْبة يارسول الله ، فقال رسول الله : الصحبة ؛ وواعده العَتَمَة[٤] . وفرح أبو بكر ، وراح يُهيِّىء الراحلتين .

---

(١) عقل له : اكتفى بالمال عن القتل .

(٢) فى رحلته . (٣) بيت أمراً : دبره ليلا .

(٤) العتمة : ثلث الليل الأول .

وعاد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى داره ، وهو عالم أنّ القوم سيُحيطون به ، وفى أيديهم سِلاَحُهم ، وبين جوانبهم كَيْدُهم ومَكْرهم ، وجاء القومُ ، وتربّصُوا ينتظرون خُرُوجَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه لم يَعْبَأْ بجَمْعِهم ، ولم يُبَالِ كيْدَهم ؛ لأنّ اللهَ وَعَدَهُ العِصْمَة ، ومَنَّاهُ النَّجاة ، وما انتصف الليلُ حتى خرج عليهم بعد أنْ أمر علياً أنْ ينام فى فراشه ، وأن يَتَسَجّى[1] ببُرْده ، وألقى الله عليهم النوم فناموا ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يَنْتَبِهُوا ، ويمكرون ويمكرُ اللهُ ، والله خَيْرُ الماكرين .

وذهب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى دار أبى بكر ، وخرجا من خَوْخَة[2] هناك ، وساراحتى بلغا غَارَ ثَوْر[3]، وهناك كمنا فيه .

أما القومُ الذين ظلّوا يترقبون خروجَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ، فقد كشف لهم الصَّبَاحُ أنهم إنما باتُوا يحرُسون علىّ بن أبى طالب ، لا محمد ابن عبد الله ! وعندئذ ذُعِرُوا وَهرُعُوا إلى أشرافهم ، وهؤلاء أدركتهم الحَيْرَةُ ، وعلاهم الوُجُوم .

وذهب أبو جهل إلى منزل أبى بكر ، وسأل أسماء بنته : أين أبوك ؟ فقالت له : لا أدرى ؛ فلطمها على وجهها ، ثم خرج مع قومه يَقْتَفُون[4] الأثر ، حتى وصلوا إلى الغَار !

ولكن الله رَدَّهُم على أعقابهم ، وخذَلهم فى كيْدِهم ، إذْ بَان لهم أنه غارٌ مهجور ، وأنه مكانٌ لم تَطأهُ قَدَمٌ منذ أزمان !

ثم عادُوا إلى مكةَ ، وجعلوا لمن يدلُّ علىَ محمد مائةَ ناقة . وعرض سُرَاقةُ

---

(١) يتسجى : يتغطى . (٢) الخوخة : كوة تؤدى الضوء إلى البيت .
(٣) ثور : جبل بمكة فيه الغار . (٤) يقتفون الأثر : يتبعونه .

الكنانى لهذا الأمر ، وأعدَّ نفسه لتلك الغاية ، على أنْ يُوفُوا له بالشرط ، ويأخذ النِّيَاق[1] إذا دلهم عليه .

ومكث رسولُ الله وصاحبه فى الغَارِ ثلاثةَ أيام ، يمرُّ عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر بالأغنام فى أعقابِ اليوم ، فيحتلبان ويشربان ، ويأتى لهما عبد الله ابن أبى بكر بالأخبار حتى سكنَ الطَّلَب ، وغَفلَ عنهما الناس .

وجاءهما عبدُ الله بن الأرَيْقط بالراحلتين ، وخرجا متوجِّهين إلى المدينة ، وأبو بكر لا يَفْتَأُ يذكرُ الطلَب فيتلفَّت خَلْفَه ، ويخاف الرَّصَد[2] ، فيتلفت أمامه ، حتى أدركهما سُرَاقة ، وما اقترب منهما حتى عَثَرَ به فرسه ، وساخَتْ[3] قوائمه فى الأرض ، ثم ثار مِنْ حوله الدُّخان والإعْصَار ، فأدرك سُرَاقةُ أنَّ محمداً رسول الله ممنوعٌ منه ، ولهذا استغاث واستنصر ، على ألاَّ يُخْبِرَ قريشاً بشىء مما رَأى ، فدعا له الرسولُ ، وعاد سُرَاقة ولم يَقُلْ لقومه شيئاً .

***

ونعودُ إلى المسلمين من أهل المدينة ، فإذا بهم يَخْرُجُونَ إلى ظاهر[4] البَلَدِ كلَّ يوم ، من ساعة أنْ علموا بخروجه من مَكَّة ، لا يعودون إلى منازلهم حتى تَغْلِبَهم الشمسُ على الظلال ، إلى أن كان يومٌ سفَعَتْهم الشمس ، وتحرَّقت منهم الأقدام ، فرجعوا إلى منازلهم ، وماراعَهم إلا صائح يَهتِفُ[5] بهم أنَّ محمداً قد جاء ، فخرجُوا إليه مُهَرْوِلين ، وإذا به ورَفيقه أبو بكر يتفيَّئان ظلالَ النخيل ،

---

(١) نياق : جمع ناقة .
(٢) الرصد : القوم يرصدون كالحرس .
(٣) ساخت قوائمه : نزلت وغاصت .
(٤) ظاهر البلد : خارجها .
(٥) يهتف بهم : يصيح منادياً .

فأحلوه فى قلوبهم ، وحاطُوه بنفوسهم ، ونزل على بنى عمْرو بن عوف ، وأقام فيهم أياماً ، وأسّس المسجد بقُباء[١] .

ثم خرج بناقته ، وقد وضع لها زِمامَها ، وكلّما مرت بقوم تهافَتُوا عليها ، وقالوا للرسول : هلمّ يا رسولَ الله إلينا ، إلى العددِ والعُدّة والمَنَعة ، ولكن رسول الله يقول : خلّوا سبيلها فإنها مَأمورة . وما زالت تسيرُ حتى إذا أتَتْ دارَ مالك بن النجار برَكت على بابِ المسجد ، وهو يومئذ مِرْبَدُ تَمْرٍ[٢] لسَهْل وسهَيل ابنى رافع بن عمرو ، وهما يتيمان فى حِجْرِ أسعد بن زُرَارة ، ثم سارت ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم عليها ، حتى برَكت على باب أبى أيوب الأنصارى ، فقال عليه السلام : هاهُنا المنزل إن شاء الله ، (رَبِّ[٣] أنْزِلنِي مُنزَلا مُبارَكا وَأنْتَ خَيْرُ المُنزِلِينَ) . فاحتمل أبو أيوب رَحْله ، ووضعه فى منزله ، وجاء أسعد بن زُرَارة ، فأخذ بزِمامِ ناقتِه . فكانت عنده .

ثم دعا مَنْ جاء مِنْ مكة ، وسمّاهم مُهاجرين ، ومَنْ أسلم مِنْ أهل المدينة وسمّاهم أنصاراً ، وآخَى بينهم ، وجمعهم على المَحَجّةِ الواضِحَة ، والصراط المستقيم ، ثم بدأ يستأنِفُ الدعوةَ إلى الله بعَزْمٍ جَدِيد .

---

(١) قباء : بئر بالمدينه ، ثم عرفت القرية بها ، وهى مساكن بنى عمرو بن عوف .
(٢) مربد تمر : مكان يجمع فيه التمر ويرص .
(٣) سورة المؤمنون ، آية ٢٩

بـــدر (*)

— ١ —

ما كاد يستقرُّ أمرُ المهاجرين بالمدينة حتى عُقِدت أواصِرُ المحبة بينهم وبين الأنصار ، فعاشوا بها إخواناً متآلفين ، وجيراناً متعاونين ، غير أنهم لم ينسَوْا ما حاق بهم من إيذاء خصومهم بمكة ، وما بَرِحُوا يتطلعون إلى نَشْرِ دينهم ، ويستشرفُون[1] إلى وطنهم ، ويَهِيمون بوَادِيهم الذى فيه نشئوا ، ومن مائه شربوا ، ومن هوائه تنفّسوا ، وفيه أبناؤهم وأقاربهم ، وخُئُولتهم وعُمُومتهم ، وطريفهم وتَليدهم[2] .

ورأى هؤلاء — الذين اضطرّوا إلى الجلاء عن مكة بسبب ما عانَوْا من الاضطهاد ، وما لاقَوا من الأذى — أن لابدّ من التعرض لتجارة قريش : فى ذهابها أو رجوعها ، حتى يحسّ هؤلاء قوتهم ، ويَشْعُروا بِبأسهم ، وحينئذ يخافون على تجارتهم أن تَبُور ، وقوافلهم أنْ ينقطعَ بها الطريق ، فيزول ما بينهم وبين المهاجرين من إحَن ، ويُصَفوا ما بينهم من كَدَر ، وينفسح المجالُ أمام المسلمين لنَشْرِ دينهم ، والدعوة إلى عقيدتهم .

فى السنة الثانية من الهجرة ، بعث[3] رسول الله عبدَ الله بن جَحْش ، ومعه

(*) سورة البقرة ٢١٧ و ٢١٨ والأنفال ، آية ٥ وما بعدها .

(١) يستشرفون : يتطلعون .

(٢) الطريف : المال الذى أحدثوه . والتليد : مالهم الذى ورثوه .

(٣) هذه هى سرية عبد الله بن جحش .

جماعةٌ من المهاجرين ، ودفع إليه كتاباً ، وأمره ألا ينظرَ فيه إلا بعد يومين من مَسيره ، فيَمْضى لما أمره اللهُ به ، ولا يستكره أحداً من أصحابه .

ويمضى عبد الله فى طريقه ، وهو لا يعرفُ له وجهة ، ولا يقصد إربة[1] ، ولكنه يندفع فى سيره ، طوْعا لأمر الله ، وتنفيذاً لإشارته ، ثقةً بالله ، واطمئنانا إلى رأى رسوله .

سار يومين كاملين ، ثم فتح الكتابَ ، فإذا فيه : « إذا نظرتَ فى كتابى هذا فامْضِ حتى تنزلَ نَخْلَةَ[2] بين مكة والطائف ، فترصَّدْ بها قريشاً ، وتعلّمْ[3] لنا من أخبارهم » .

وأعلن فى أصحابه أمرَ الرسول ، وقال لهم : أمرنى رسولُ الله أنْ أمضى إلى نَخْلة ، أرْصُد بها قريشاً ، حتى آتيَه منهم بخبر ، وقد نهانى أنْ أستكره منكم أحداً ، فمنْ كان منكم يريدُ الشهادةَ ، ويرغبُ فيها فلْيَنْطلِقْ ، ومن كرِهَ ذلك فليرجعْ ، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله .

فاستجابوا لدعوته ، واستعدُّوا لمُعاوَنته ، وساروا جميعاً نحو غرَضِهم الأسمى ، تَدْفعهُم الثقةُ بالله ورسوله ، وتحْدُوهم عنايةُ الله ، وتَشُدُّ من أزرهم قوته ، ولكن اثنين منهم ضلَّ منهما بعير ، كانا يعتقبانه[4] ، فتخلّفا فى طلَبه ، فأسرتهما قريش .

ومضى عبدُ الله وبقيةُ أصحابه حتى نزل بنَخْلَة ، ومرت به عِيرٌ[5] لقريش تحمِلُ تجارةً لهم ، وما أن رَأوْه حتى فزِعُوا لتلك المفاجأة ، ودُهِشُوا لهذه المقابلة ، وتشاور أصحابُ عبد الله فيما بينهم ، فقال قائل منهم : والله لئن تركتم

(١) الإربة : الحاجة .
(٢) نخلة : موضع .
(٣) تعلم : اعلم .
(٤) يعتقبانه : يركبانه واحداً بعد الآخر
(٥) العير : الإبل التى تحمل الميرة .

القومَ هذه الليلة ليَدخُلُنّ المسجد الحرام ، فليمتنعُنّ منكم به ، ولئن قتلتموهم لتقتُلنّهم فى الشهر الحرام .

فتردّد القوم وهابُوا الإقدامَ عليهم ، وخافُوا أن يقاتلوهم ، ولكنهم ما لبثوا أنْ أقدموا على الاشتباك معهم ، وأجمعوا أخْذَ ما يحمِلُونَ من مالٍ ونَشَب [1]

التقى الخصمان ، فرمى وَاقِدُ بن عبد التميمىّ عمْرَو بن الحضرمىّ بسَهْمٍ فقتله ، وأسرَ عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان ، وأفاء الله على المسلمين ما كانوا يحملون من أموال ، وخلص لهم ما جمَعُوا من تجارة .

— ٢ —

أقبل عبدُ الله بن جَحْش وأصحابُهُ بالعِير وبالأسيرين ، حتى قدمُوا بهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، فلما رآهم ، وعلم أنه قد التقى الفريقان ، فانهزم المشركون وفازَ المسلمون بالغَلبة والنَّصْر ، قال : ما أمرْتُكم بقتالٍ فى الشهر الحرام .

ووقف العِيرَ والأسيرين ، وأبى أن يأخذَ من ذلك شيئاً ، حتى يفصلَ الله فى أمرهما بحُكمٍ ، ويقضِيَ فى شأنهما بوَحى .

وسقط [2] فى أيدى القوم ، وظنّوا أنهم قد هلكوا ، وعنّفهم إخوانُهم من المسلمين فيما صنعوا ، وثارت ثائرةُ قُريش حين علموا بالتعرّض لتجارتهم ، وإيذاء قومهم ، وقالوا : قد استحَلّ محمدٌ وأصحابُهُ الشهرَ الحرام ، وسفَكُوا فيه الدّمَ ، وأخذُوا الأموالَ ، وأسَرُوا الرجال .

ولكنّ الله أنزل على هؤلاء المجاهدين رحمَتَه ، وأظلّهم بعطفه ورعايته ،

---

(١) النشب : المال والعقار .

(٢) سقط فى أيدى القوم : تحيروا وندموا .

وأوحى إلى نبيه الكريم (يَسْئَلونكَ عن الشهْرِ الحرام قتالٍ فيه قُلْ قتالٌ فيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عن سَبيلِ اللهِ وكُفرٌ به ، والمَسْجِدِ الحرام ، وإخراجُ أهْلِهِ منهُ أكْبَرُ عِندَ اللهِ والفِتنةُ أكبرُ مِنَ القتل)[١] .

فلما نزل هذا القرآنُ ، وفرّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّفَق[٢] ، سُرِّى عن أصحاب هذه السَّرِية ، وانقشعت غياهبُ الحزن عن تلك الفئة المقاتلة ، وقبضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم العِيرَ والأسيرين .

ثم بعثت إليه قريش ، تطلبُ منه فداء أسيريها ، ولكنه أبى إلّا أن يكونَ ذلك بردّ صاحبيه اللذين أسَرُوهما ، وقال : لا فداء حتى يقدمَ صاحبانا فإنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم .

فنزلوا على رَأْيه ، واستسلوا لشرطه ، ورَدُّوا إليه أسِيرَيه ، وأتمّ الله نعمته على المسلمين ، وأنجز لهم وَعدَه ، إذ أيدهم بنصره .

أما عبدُ الله بن جحش وأصحابه ، فما تجلى[٣] عنهم ما كانوا فيه من الحزن ، وانقشعَ[٤] ما غمرهم من اليأس ، حتى طَمِعُوا فى الأجر ، وتطلعوا إلى الثواب ، فقالوا : يارسول الله ، أنطمعُ أن تكونَ لنا غزوَة ، نُعطَى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله فى شأنهم : (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهَدُوا فى سبيل الله أولئك يَرْجُونَ رحمة الله واللهُ غَفُورٌ رحيم)[٥] .

بذلك انجابت أحزانهم ، واطمأنت قلوبهم ، وشاع السرورُ فى نفوسهم ، إذ غمرتهم نعمةُ الله ، وأظلتهم رحمته .

---

(١) البقرة ٢١٧ .
(٢) الشفق : الخوف .
(٣) تجلى : انكشف .
(٤) انقشع . زال .
(٥) سورة البقرة ، آية ٢١٨ .

كانت هذه السَّرية مفترقَ طرق فى سياسة الإسلام ، وَأَوّلَ دِعامة[١] استقر بها نظامه ، وقام عليها عِمَادُه ؛ فيها أجيب المشركون على تساؤلهم عن القتال فى الشهر الحرام بأنه كبير ، ولكن هناك ما هو أكبرُ منه ، وهو الصدّ عن سبيل الله ، وردُّ المسلمين عن دينهم بالوَعْدِ والوعيد ، والخوف والتهديد ، والكفر بالله ، وإخراجُ أهل المسجد الحرام منه . . . وهذا هو ما ارتكبه المشركون ، وما اقترفه أعداء المسلمين ، لذلك شُرِعَ بعد ذلك قتالُ من يَصُدُّون عن دين الله ، وَيَفْتِنُونَ الناس عن عقيدتهم التى رسخت فى نفوسهم وتمكّنتْ من قلوبهم .

(٣)

شعرت قريش بالحطّ من كرامتها وعزّتها ، والنَّيْل من بأسها وقوتها ، إذ أغيرَ على أموالها ، وقُتل أبناؤها ، وأُسِرَ رجالها .

لذلك حاوَلُوا إثارة شِبْه الجزيرة كلِّها على محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه : أن قاتلوا فى الشهر الحرام ، حتى لقد أيقَنَ المسلمون أنْ لم يَبقَ فى مُصانعتهم[٢] أو الاتفاق معهم رجاء .

وكان يومٌ أخبر فيه النبيُّ المسلمين أن أبا سُفيان بن حَرْب قد أقبل من الشام فى عيرٍ لقريش ، فيها أموالهم وتجارتهم ، ونَدَبهم[٣] إليها ، وقال لهم : هذه عيرٌ لقريش فاخرجوا إليها لعل الله يُنفِلكموها[٤] .

فخفّ بعضهم وثقل بعضهم لأنهم ما كانوا يظنون أن النبى يلقى حرباً .

---

(١) أصل الدعامة : عماد البيت .
(٢) المصانعة : المداراة والمجاملة .
(٣) ندبهم : دعاهم .
(٤) أنفله إياه : أعطاه نفلا وغنما .

أما أبو سفيان فقد كان يتحسَّسُ الأخبار ، ويتسمّع الأنباء ، ويسألُ مَن لقىَ من الأعراب ؛ تخوّفاً على تجارته ، وحِرصاً على أمواله ، فأصاب خَبَراً من بعضِ الرُّكْبان : أن محمداً قد استنفر[1] أصحابه لكَ ولعيرك ، فخاف العاقبة وَحَذِرَ الأمر ، وأراد أن يأخذ للأمر عُدَّتَه ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى وأرسله إلى مكة ، وأمره أن يأتىَ قريشاً ، فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويُخبرهم أنَّ محمداً قد عرضَ له فى أصحابه .

(٤)

قال العباسُ بن عبدالمطلب — وقد لَقِىَ الوليدَ بن عُتْبة بمكة — : إن عاتكة قد رأت رؤيا أفزعتها ، ولما قصَّتها علىَّ تخوفتُ أن يدخل على قومكَ منها شرٌّ ومُصِيبة . . .

قال الوليد : وماذا رأت ؟

قال : رأت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح[2] ، ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفِرُوا يا لَغُدَر[3] لمصارعكم (فى ثلاث) ! ثم دخل المسجدَ والناسُ يتبعونه . فبينما هم حوله مَثَلَ[4] به بعيرُه على ظَهْر الكعبة ، ثم صرخ : ألا انفِرُوا يا لَغُدَر (فى ثلاث) ! ثم مَثَلَ به بعيرُه على رأس أبى قُبَيْس[5] ، فصرخ

---

(١) استنفر أصحابه : طلب منهم النصرة .

(٢) الأبطح : أصله كل مسيل فيه دقاق الحصى ، ويضاف إلى مكة وإلى منى لأن المسافة بينه وبينهما واحدة .

(٣) غدر : إذا نقض العهد . ويقال : رجل غادر ، وغدر . وأكثر ما يستعمل هذا النداء فى الشتم ، يقال : يا غادر ، ويقال فى الجمع : يا لغدر .

(٤) مثل : قام منتصباً .

(٥) أبو قبيس : جبل بمكة .

بمثلها ، ثم أخذ صخرةً فأرسلها ، فأقبلت تهوِى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ترفّضت[1] فما بقى بيتٌ من بيوت مكة ، ولا دارٌ إلا دخل منها فِلْقة[2] ، ها هى ذى رؤياها ، فاكتم عنى ما أحدّثك به . . . ولكن الوليد حدّث أباه بها وفشا أمرُها حتى أصبحت حديث قريش فى أنديتها ، ومثار الجدل فى مجالسها .

***

وغدا العباسُ يطوفُ بالبيت ، وأبو جهل فى رهط[3] من قريش قعودٌ يتحدثون برؤيا عاتكة أختِه ، فلما رآه أبو جهل قال: يا أبا الفضل ، إذا فرغت من طوافك ، فأقبل إلينا .

فلما فرغ جلس معهم ، فقال له : يا بنى المطلب ، متى حدثت فيكم هذه النّبية ؟ قال العباس: وماذاك ؟ قال: تلك الرؤيا التى رأتها عاتكة . قال : ما رأت ؟ قال أبو جهل : يا بنى المطلب ، أما رضيتم أن يتنبّأ رجالُكم حتى تتنبأ نساؤكم ! قد زعمت عاتكة فى رؤياها أن راكباً قال انفرُوا فى ثلاث . فسنتربص[4] بكم هذه الثلاث ، فإن يكُ حقاً ما تقول ، وإلا كُنتم أكذبَ أهل بيتٍ فى العرب .. فأنكر العباس أن تكون قد رأت شيئاً ، ثم افترقوا .

وأمسى المساء فلم تبق امرأة من بنى عبدالمطلب إلا أتت العباس ، وصِحْنَ به ، فقلن له : أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقعَ فى رجالكم ، ثم قد تناول نساءكم وأنتَ تسمَعُ ؟ ثم لم يكن عندك غَيْرَة لشىء مما سمعتَ ؟

---

(١) ترفض الشىء : إذا تكسر .
(٢) الفلقة : الكسرة .
(٣) الرهط : ما دون العشرة من الرجال ، والمراد : الجماعة .
(٤) ننتظر .

قال العباس : قد واللهِ فعلتُ ، ما كان مِنى إليه مِن كبير ، وأيْمُ الحق لأتعرضَنّ له ، فإن عاد لأكفيَنَّكه .

وغدَا إلى المسجد فى اليوم الثالث من رُؤيا عاتكة ، وهو حديدٌ مُغضَب[1] ، يرى أنه قد فاته أمرٌ يحبُ أن يُدركه ، ودخل المسجد ، فرأى أبا جهل ومشى نحوه يعترضُ له ليعُودَ لبَعْض ما قال ، فيَقَعُ به .

ولكنه رأى أبا جهل يَتجه نحو باب المسجد ، فظنّه قد فَرِق[2] منه أن يُشاتمه . ولكنه كان قد سمع صوْتاً لم يسمعه ، ورَنّ فى أذنه صَدًى لم يَعْهَده ، فشُغِل به ، وخرج إليه .

(٥)

كان ضَمْضَمُ بن عمرو الغفَارى رسول أبى سفيان قد وصل إلى مكة ، ووقف على راحلته ، وقد جَدَع[3] أنفَ بعيره ، وحوّل رَحْله ، وشقّ قميصه من قُبُل ومن دُبُر[4] ، وجعل يَصيح : يا معشر قريش ، اللّطيمة[5] اللّطيمة ! أموالُكم مع أبى سفيان قد عرَض لها محمد فى أصحابه ، ولا أرى أن تُدرِكوها ، الغَوثَ الغَوثَ ! !

وشُغِلَ الناسُ بهذا الأمر ، واجتمعوا يُجيلون[6] قِداحَ الرأى ، ثم أجمعوا على أن يتجهّزُوا سِراعاً ، فكانوا بين رَجُلَين : إما خارج ، وإما باعث مكانه

---

(١) رجل حديد : يكون فى اللسن والفهم والغضب .

(٢) فرق : خاف .

(٣) جدع أنفه : قطعه .

(٤) من أمام ومن خلف .

(٥) اللطيمة : المال والتجارة .

(٦) يتشاورون .

وجلا ، وأوْعَبت[١] قريش ، فلم يتخلّفْ من أشرافها أحد ، إلا أبا لهب ؛ فقد بعث مكانه مَنِ استأجره بأربعة آلاف دِرهم ، كانت دَيْناً عليه .

ولما أجمعوا سَيْرَهم ، وفرَغُوا من جِهازهم ذَكَرُوا ما كان بينهم وبين كِنانة مِنْ إحَن ، وما وقع بينهما من حروب ، وقال قائل منهم : إننا نخشى أن يأتونا مِنْ خَلْفِنا ، وكاد ذلك يَثنيهم ، ويَقْعُد بهم عن الخروج ، ولكنّ سُرَاقة بن مالك ـ وكان من أشراف كنانة ـ قال : أنا لكم جار مِنْ أن تأتيكم كِنانة من خَلفكم بشيء تكرهونه .

إذْ ذاك رجحَتْ كَفّةُ رأى الدُّعَاة إلى الخروج ، ولم يَبْقَ بمكة متخلِّف قادرٌ على القتال .

(٦)

أما محمد فقد خرج[٢] من المدينة وأمامه رَايتان سَوْدَوان : إحداهما مع علىّ ابن أبى طالب ، والأخرى مع الأنصار .

وسار أصحابه يتعاقبون فى الإبل[٣] ، حتى إذا لَقِىَ رجلا من الأعراب سأله عن الناس ، فلم يَجدْ عنده خَبَرًا ، فواصَلُوا السير والسُّرى[٤] حتى إذا كانوا قريباً من الصفراء[٥] بعث رسولُ الله مَنْ يتحَسَّس أخبارَ أبى سفيان ابن حرب ، وسار حتى كان بذَفِران[٦] نزل به ، فأتته العيونُ تُخبِرُه أنّ قريشاً قد سارت إلى أبى سفيان ، ليمنَعُوا عِيْرَه .

---

(١) أوعب : جمع .

(٢) هذه هى بدر الكبرى .

(٣) يتعاقبون الإبل ؛ يختلفون عليها ؛ أى يركبونها واحداً بعد واحد .

(٤) السرى ؛ السير بالليل .

(٥) الصفراء ؛ قرية بين جبلين .

(٦) ذفران ؛ واد قرب الصفراء .

استشار النبيُّ أصحابه فيما عرض لهم من أمر قريش ، فقد تغيرَّ وَجْهُ الأمر ، وصار أمام عدُوٍ لابدَّ أن يلتحم معه فى حرب ، ويشتبكَ معه فى قتال .

قام المِقْدَاد بن عَمْرو ، فقال : يا رسول الله ، امْضِ لما أمَرَكَ الله ، فنحن معكَ ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهَبْ أنتَ وربُّك فقاتِلا إنّا ههنا قاعِدون ؛ ولكن نقول : اذهَبْ أنْتَ وربُّك فقاتلاَ إنّا معكما مُقَاتلون، فوالذى بعثك بالحقّ ، لو سِرْتَ بنا إلى بَرْك الغِمَاد[1] لجَالَدْنَا معك مِنْ دونه حتى تبلُغه .

فقال له النبي خَيْراً ، ودعا له به.

ثم قال : أشيروا علىّ أيُّها الناس — وإنما يريدُ الأنصار — فقال سعد بن مُعاذ : والله لكأنك تُريدُنا يا رسول الله ! قال :أجل . قال : «قد آمنّا بك وصدّقناك ، وشهِدْنا أنّ ما جئْتَ به هو الحق ، وأعطيناكَ على ذلك عهودَنا ومواثيقَنا على السمع والطاعة ، فامْضِ يا رسولَ الله لما أردتَ فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا البَحْرَ فخضْتَه لخضْنَاهُ معك ، ما تخلّفَ منا رجلٌ واحد ، وما نَكره أنْ تَلْقى بنا عدوّنا فى الحرب ، إنا لصُبُر فى الحرب ، صُدُق فى اللقاء ، ولعلّ الله يريك منا ما تقرُّ بِهِ عيْنُك ، فسِرْ بنا » واستمدّ العون والتوفيق من الله .

وما إنْ أتمّ كلامه ، وانتهى من حديثه ، حتى أشرقَ وجْهُ الرسول ، وشاع السرورُ فى نفسه ، ثم قال : سِيروا وأبْشِرُوا ، فإن الله قد وعدنى إحْدَى

---

(١) برك الغماد : موضع باليمن ، أو أقصى معمور الأرض، وهو مثلث الغين كما فى القاموس .

الطائفتين[1] ، والله لكأني أنظرُ إلى مصارع القوم ! وارتحلوا حتى نزلوا قريباً من بَدْر .

* * *

وبعث النبيّ بعضَ أصحابه إلى ماء بَدْر[2] يتحسَّسُون أخبارهم ، فأصابوا رجُلَين يَسْتقيان لقُرَيش ، فأتوا بهما وسألوهما : إلى أينَ يذهبان ؟ وإلى أي قبيلة يَنْتَسِبان ؟ وأيّ غَرَضٍ يقصدان ؟ فقالا : نحن سُقَاةُ قريش بَعَثُونَا نَسْقيهم من الماء ، فكَرِه القومُ خَبَرَهما ، وقد رجوا أنْ يكونا لأبي سفيان ، فانهَالُوا عليهما ضَرْباً ، وأشبعوهما لَطْماً ، فلما أذْلَقُوهما[3] قالا : نحن لأبي سفيان ، فتركوهما .

ولما رأى النبيُّ ما كان من أصحابه — وقد كان يُصلِّي — أقبل عليهم ، يقول : إذا صدَقَاكم ضربتموهما ، وإنْ كذَبَاكم تركتُموهما ؟ ! صدَقَا والله ، إنهما لقريش .

ثم التفت إليهما يقول : أخبِرَاني عن قريش ، قالا : هم والله وراء هذا الكَثِيب[4] الذي ترَى بالعُدْوة[5] القُصْوى . فقال رسول الله : كم القوم ؟ قالا : كثير . قال : ما عِدّتُهم ؟ قالا : لا نَدْرِي . قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يَوْماً تِسعاً ، ويوماً عشرا .

---

(١) إحدى الطائفتين : العير أو قريش .

(٢) بدر : ماء على ثمانية وعشرين فرسخاً من المدينة في طريق مكة وقد نزلت قريش بالعدوة القصوى من الوادي خلف العقنقل . والقليب ببدر : هو في العدوة الدنيا .

(٣) أذلقوهما : أضعفوهما .

(٤) الكثيب : التل من الرمل .

(٥) العدوة : شط الوادي .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه : القومُ ما بين التسعمائة والألفِ ، ثم أقبل على الناس فقال : هذه مكةَ قد ألقَت إليكم أفلاذ[1] أكبادها .

(٧)

هذا أبو سفيان قد تقدم عِيرَه حَذَراً من أن يفاجئه أصحاب محمد ، ولما علم بمكانهم ا وأفضَت إليه عيونه بمستور أمرهم ، رجع إلى أصحابه سريعاً ، وغيَّرَ وجْهة سيره ، وجانب الطريقَ بعيره ، وترك بَدْراً يساراً ، وانطلق حتى أفلتَ من محمد وأصحابه ، واستخلص عِيْرَه من بين أظفارهم .

ولما رأى أنه قد استخلص عِيره ، وأحرزَ تجارته ، ونجا بأمواله ، أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عِيركم ورجالكم وأموالكم ، وقد نجَوْت بها فارجعوا . . فقال أبو جهل : واللهِ لا نرجعُ حتى نَرِدَ بَدْراً فنقيم ثلاثاً فننحر الجُزُرَ[2] ، ونُطْعِم الطعام ونَسْقِي الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرَب وبمسيرنا وجَمْعنا ، فلايزالون يهابوننا أبداً بعدها ، فامْضُوا .

ولكن الأخنس بن شريق عارض رأيه ، ونقض حُجَّته ، وقال لبنى زُهْرَة ، وكان حليفاً لهم : يا بنى زهرَة ، قد نجت أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم ، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله فارجِعُوا ، فإنه لا حاجةَ لكم بأن تخرجوا فى غير ضَيْعَة[3] ، لا ما يقولُ هذا .

وقد كان الأخنَسُ فيهم مُطاعاً ؛ فلم يشهدها زُهْرِىّ واحد .

ومضت قريش حتى نزلوا بالعُدْوَة القصوى من الوَادِى .

---

(١) الفلذة : القطعة من الكبد واللحم ، والجمع أفلاذ .
(٢) الجزور من الإبل يقع على الذكر والأنثى ، والجمع الجزر بضمتين .
(٣) الضيعة : العقار والأرض للغلة وتجارة الرجل .

وأسفرَ الصباحُ ، والمسلمون فى انتظار مرور العيرِ بهم ، فإذا الأخبار تَصِلهُمْ أنَّ أبا سفيان قد فاتهم ، وأنَّ مُقاتلةَ قريش هم الذين ما يزالون على مَقرَبة منهم ، فَذَوَى[1] فى نفوس جماعةٍ منهم الأملُ الذى كانوا يَنْعَمُونَ به ، وجادل بعضُهم النبيَّ صلى الله عليه وسلم كى يعُودوا إلى المدينة ، ولا يلقوا القوم الذين جاءوا من مكة لقتالهم ؛ فأنزل الله عليهم : (وإذ[2] يَعِدُكم اللهُ إحدى الطائفتين[3] أنها لكم وَتَوَدُّونَ أن غيرَ ذاتِ الشَّوْكةِ تكون لكم ، ويُرِيدُ الله أن يُحِقَّ الحقَّ بكلماته وَيَقْطَعَ دابرَ الكافرينَ) .

فأجمع المسلمون أن يَصْمُدوا للعدوِّ إذا اشتبكوا معه فى القتال ، وبادروا إلى ماء بدر ، وبعث اللهُ السماء[4] فأصاب الوادىَ ماء لَبَّدَ لهم الأرض ، ولم يمنعهم عن السير ، وأصابَ قريشاً منها ماء ، فلم يقدروا أن يرتحلوا معه . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا جاء أدْنَى ماء من بدر نزل به .

(٨)

استقرَّ بهم المقام ، فقال الْحُبَاب بن المنذر : يا رسول الله ؛ أرأيتَ هذا المنزل أمَنزلاً أنزَلَكهُ اللهُ ليس لنا أن نتقدّمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأىُ ، والحربُ والمكيدة ؟ !

قال النبى صلى الله عليه وسلم : بل هو الرأىُ والجهاد . .

قال . يا رسول الله ؛ ليس هذا بمنزل ، فانْهَضْ بالناس حتى نأتىَ أدنى ماء

(١) ذوى الأمل : ضعف . (٢) الأنفال ٧

(٣) الطائفتان : العير أو النفير ، وغير ذات الشوكة : العير ، والشوكة كانت فى النفير لعددهم وعدتهم .

(٤) السماء : المطر .

من القوم ، فننزله ، ثم نُغَوِّر[1] ما سواه من القُلُب[2] ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون . .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى .

فساروا حتى إذا أتوا أدنى ماء من القوم نزلوا عليه ، ثم أمر بالقُلُب فغُوِّرت ثم بنوا حوضاً وملئوه ماء .

***

بنوا الحوض ، وأخذوا عُدّتهم للقتال ، وبينما هم يتحدثون ويتشاورون تقدم سعدُ بن مُعاذ قائلاً :

يا نبىّ الله ؛ ألا نبنى لك عريشاً[3] تكون فيه ، ونعدّ عندك ركائبك ، ثم نلقى عدوّنا ، فإن أعزنا الله ، وأظهرنا[4] على عدوّنا ، كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى جلستَ على ركائبك ؛ فلحقتَ بمَنْ وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوامٌ ـ يا نبىّ الله ـ ما نحنُ بأشدّ لك حُبًّا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يُناصحُونك ويجاهدُون معك .

فأثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سعد ودعا له بخير ، ثم بُنى العريشُ للنبى ، حتى إذا لم يكُن النصر فى جانبه وجانب أصحابه ، لم يقع فى يد عدوه ، واستطاع اللحاق بأصحابه بيثرب ، يؤذِّنُ فيهم بدعوته ، وينشر بين غيرهم من العرب دينه .

---

(١) تغور : تردم حتى يذهب الماء .
(٢) القلب : جمع قليب : البئر العادية القديمة .
(٣) عريشا : خيمة من خشب .　　(٤) أظهرنا : نصرنا .

(٩)

ونزلت قريشُ منازلَ القتال ، ثم بعثوا مَنْ يقُصُّ لهم خبرَ المسلمين ، وجاء رائدُهُم ينبئهم أن أصحاب محمد ثلثمائة أو يزيدون أو ينقصون ، وليس لهم كمين ولا مَوْرِد ، ولكنّهمْ مع ذلك قَوْم لا ملجأ لهم إلا سيوفهم ، ولا مَنَعَة لهم إلا إيمانهم الثابت ، ويقينهُمُ المكين .

وداخَل الرعبُ قلوبهم ، وخاف بعضُ ذَوِى الحكمة منهم أن يَقْتُلَ المسلمون كثرتهم ، فلا تبقى لمكّةَ مكانتُها ؛ فقام عُتْبة بن ربيعة وقال : يا معشر قريش ؛ إنكم والله ما تصنعون بأن تَلقَوْا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لايزال الرجلُ ينظر فى وَجْهِ رجل قتل ابنَ عمه أو ابن خاله ، أو رجلا من عشيرته ! فارجِعُوا وخلوا بين محمد وسائر العرَب ، فإن أصابوه فذاكَ الذى أرَدتم ، وإن كان غير ذلك لم نتعرض لما تكرَهون .

وبلغت أبا جهل مقالتُه ، فاستشاط غَيظاً ، وذكّر القومَ بما بينهم وبين المسلمين من إحن ، وما فَشَا بينهم من عداوَة ، وما وقع من دماء ، فأعجل ذلك القتال ، وتزاحَف الناسُ ، والتقى الجمان .

(١٠)

وَرَأى رسول الله صلى الله عليه وسلم كثرةَ أعدائه ، وَوَفرَة عُدَّتهم ، فخرج إلى أصْحابه يشدِّدُ من عزمهم ، ويعدِّل صفوفهم ، ويأمرهم إلاّ يحملوا عليهم حتى يأمُرَهم ، وقال لهم صلى الله عليه وسلم : إن اكتنفكم القومُ فانضَحُوهُم[1] عنكم بالنَّبْل .

---

(١) نضح فلان بالنبل : رماه .

وعاد إلى العَريش معه أبو بكر ، وهو أشدُّ ما يكون خوفا من مَصير أصحابه ، وأكثرُ ما يكونُ إشفاقاً مما سيؤول إليه أمْرُ الإسلام والمسلمين .

ثم لجأ إلى الله يستمدُّ منه النّصر ، ويستنجزه الوَعْدَ ، وجعل يضْرَعُ إليه ويقول : « اللهم هذه قريش قد أتت بخُيلائها وفخرها ، تُحادُّك[1] وتكذِّبُ رسولكَ . اللهم فنَصْرَك الذى وعدتنى ، اللهم إن تهلكْ هذه العصابة اليومَ لا تعبَد » .

وما زال يدعو ربَّه ، باسطاً يدَه ، مستقبلَ القِبْلَة ، حتى سقط رِداؤه . وجعل أبو بكر من ورائه يردُّ على مَنكبيه رداءه ويهيب به : يا نبى الله ، بعضَ مناشدتك ربك ! فإنّ اللهَ منجزٌ لك ما وعدك من النصر .

ولكن النبيّ صلى الله عليه وسلم ظلّ فيما هو فيه من ضراعة إلى الله ، واستغاثة بربه ، حتى أخذته سِنَةٌ ، رأى خلالها نَصْرَ الله ؛ إذ أوحى إليه : « يأيها النبى حرِّض المؤمنين على القتال ، إن يَكُنْ منكم عِشرون صابرونَ يغلبوا مِائتين ، وإن يكنْ منكم مِائةٌ يَغلبوا ألفاً مِن الذين كفرُوا بأنهم قومٌ لا يَفقهونَ »[2] .

فخرج النبيُّ إلى أصحابه يحرِّضهم على القتال ، فقال : « والذى نَفسُ محمد بيده لا يقاتلُهم اليوم رجلٌ فيقتل صابراً محتسباً ، مُقْبِلا غير مدْبر ، إلا أدخله الله الجنة » . ثم أخذ حفنة من الحَصْبَاء[3] ، فرمى بها فى وُجوهِ القوم ، وقال : « شاهتِ[4] الوجوه ، ثم أمر أصحابَهُ ، فقال : شُدُّوا . فازداد المسلمون قوة ، وصاحُوا مهلّين أحد أحَد !

---

(١) المحادة : المعاداة والمخالفة والمنازعة . (٢) سورة الأنفال ، آية ٦٥
(٣) الحصباء : الحصى . (٤) شاهت الوجوه : قبحت .

وأمدّهم الله بالملائكة يُبشّرونهم ، ويَزْدادون بهم يقيناً وإيماناً ؛ ووقف النبي وسط الْمَمَمة[1] ، يُقوى من عزيمتهم ، وَيشدُّ من أزْرِهم ، ويبشّرهم بنصر الله لهم .

(١١)

ازداد المسلمون قوةً بتحريض النبي لهم ، ووقوفه بين صفوفهم ، وأمدّهم الله بملائكته ؛ فأكثروا فى قريش القَتْل والسّبْي ، وخاضوا وَطِيس المعركة ؛ فثار النّقْع[2] ، وامتلأ الجو بالغبار ، وجعلت هامُ[3] قريش تطِيرُ من أجسادها .

ورأى بلالٌ أمية بن خلف يَخْطِر في صفوفِ المقاتلين ، ويسير وسط هؤلاء المشركين ، وقد كان يُغْرِيه بمكة أن يتركَ الإسلام ، فيخرجه إلى رَمْضَاء[4] مكة إذا حمِيَت ، ويُضْجعه على ظهره ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضَعُ على صَدْرِه ثم يقول : لا تزال هكذا حتى تفارقَ دينَ محمد ، فيقول بلال : أحَدٌ أحَد !

رآه بلال ، فاقتحمتْه[5] عَيْنُه ، وأقبل نحوه ، وقال : رَأْسُ الكفر أمية ابن خلف ! لا نجوتُ إن نجا . وحاول غيره أن يأسِرَه ، ولكنه صرخ بأعلى صوته ، وأقبل عليه بسيفه فأرداه قتيلا .

(١٢)

وتبدّد الغبار ، وانجلت المعركة عن جثث هامدة ، وأشلاء متناثرة ، وولّى أهل مكةَ الأدبارَ كاسفاً بالهم ، خُشّعاً من الذلّ أبصارُهم .

---

(١) المممة : صوت الأبطال فى الحرب .

(٢) النقع : الغبار . (٣) هام : جمع هامة ، وهى الرأس .

(٤) الرمض : شدة وقع الشمس على الرمل وغيره ، والأرض رمضاء .

(٥) اقتحمه : احتقره .

وأمر رسول الله بالقتلى أن يُطرَحوا فى القَليب[1] ، ووقف عليهم ، فقال : « يأهل القَليب ، بئست العشيرةُ كنتمُ لنبيكم : كذّبتمونى ، وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، فهل وجدتُم ما وعد ربُّكم حقًّا ؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقًّا » !

فقال له أصحابه : يا رسولَ الله ، أتُنادى قوماً قد جَيَّفوا[2] ! فقال لهم : « ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم ؛ ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى » .

* * *

وبينما النبىُّ فى حديثه مع قومه فى شأن قَتْلى قريش إذا أبو حذيفة بن عُتبة كئيب قد تغيّر ، فقال : يا أبا حُذَيفة ، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شىء ؟ فقال : لا والله يا رسولَ الله ، ماشككتُ فى أبى ولا فى مَصرَعه ، ولكننى كنتُ أعرِفُ من أبى رأياً وحِلماً وفضلا . فكنت أرجو أن يَهديَه ذلك إلى الإسلام . فلما رأيتُ ما أصابه ، وذكرتُ ما ماتَ عليه من الكفر ، بعد الذى كنتُ أرجو له ـ أحزننى ذلك !

فَطمأنه الرسولُ ، ودعا له بخير .

وانصرف المسلمون إلى الغنائم يجمعونها ، وإلى الأسلابِ يمضون أشتاتها وهم بنصر اللهِ فرحون ، ولنعمَتِه شاكرون .

---

(١) القليب : البئر قبل أن تبنى بالحجارة . أو البئر القديمة .
(٢) جيفوا : انتنوا .

العتب في الفداء (*)

عادت قريش يوم بَدْر كَسِيرَةَ الفؤاد مقصوصةَ الجناح ، يطأطىء الذلُّ هاماتِهم [1] ، ويَصْدَعُ [2] الأسى أكبادهم ، ويأكل الحقدُ لفائفَ صدورهم ، فقد اشتبكوا مع رسول الله في يوم ثارَ فيه النَّقْع [3] ، واشتبك القَنَا ، وتلاقت الأبطال بالأبطال ، ثم تكشف القَتَام ، وتجلى اليومُ عن عشرات القتلى وعشرات الأسرى ، دَعِ الغنائم والأسلاب ، والخيلَ والرِّكاب . ولو أن أولئك القَتْلى وهؤلاء الأسرى كانوا من عامتهم ودَهْمَائهم ، أو صغارهم وسَوَادِهِم ، لهان الخَطْبُ وخفَّ المصاب ، ولكنهم - ويابؤسَ لهم ! فقدوا رءوسهم وشُجْعَانهم وبَهاليلهم [4] وأعلامهم ، فهم اليوم أشدَّ ما يَرَوْنَ ذِلة ، وأعظم ما يكونون مهانة وانكساراً .

أما رسولَ الله - وقد عقد الله له النَّصْرَ ، واختار له التوفيق - فقد أمر بالقتلى أن تلقى فى القَلِيب أجسادُهم ، وأن تُوارىَ بالتراب أشلاؤهم ، وعَمَد إلى الغنائم فقسَّمها عَدْلا ، ووزعها انصافاً .

وجاء دور الأسرى : ماذا يفعل بهم ؟ وكيف سلوكه معهم ؟ وليس عنده - صلى الله عليه وسلم - فيهم أمرٌ صريح ، أو حكم منزّل ! عمد إلى صحابته يستشيرهم ، ويتعرفُ الصوابَ فى ضوء آرائهم - وكذلك كان دأبهُ صلى الله عليه وسلم فى كثير مما كان يعرِضُ له من أمورِ الحرب والجهاد - وإن كان

(*) الأنفال ٦٨ وما بعدها .

(١) الهامة : الرأس .

(٢) يصدع : يشق .

(٣) النقع : الغبار .

(٤) البهاليل : جمع بهلول ، وهو السيد الجامع لكل خير .

أوفرهم عقلا ، وَأَنفَذهم فى المشكلات رَأْيا ، وأمضاهم فى الحادثات عزماً — ليضعَ سُنناً صالحة يستنُّها[1] ملوكُ الأنام ، ومن يكون بيدهم زِمامُ الأمور ، والأحكام .

قال لهم صلى الله عليه وسلم : ما تقولون فى هؤلاء الأسرى ؟

قال أبو بكر : يا رسولَ الله ، قومك وأهلك ، اسْتَبْقِهِم وَاسْتَأْنِ[2] بهم لعلَّ الله يتوبُ عليهم وَخُذْ منهم فِدْية تقوِّى بها أصحابك .

وقال عمر : يا رسولَ الله ، أخرَجوكَ و كذَّبوكَ ، اضرب أعناقهم ، فإنَّ هؤلاء أئمةُ الكُفرِ ، وإنَّ الله أغناك عن الفداء .

فسمع رسولُ الله صلى الله عليه رأيهما ، وأصاخَ[3] إلى غيرهما ، ولكنه دخل مَخدَعَهُ ، لم يُبدِ رَأْياً ، ولم يتخذ حُكماً .

واشْتَجَرَت[4] الآراء بين المسلمين ، مِنْ قائلٍ يقولُ : إنه سيأمرُ بقتلهم ومن قائل يقول : إنهُ سَيَفُكُّ إسارَهم . . . وما هو إلاَّ أن طلع عليهم فقال : إن الله ليُلِينَ قلوبَ رجالٍ فيه حتى يكونوا أليَنَ من اللبن ، وإن اللهَ ليشدَّ قلوبَ رجال فيه حتى تكون أشدَّ من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم حين قال : (فَمَنْ تَبِعَنِي فإنهُ مِنِّي وَمَنْ عَصاني فإنكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[5]

(١) يستنها : يجعلونها سنة لهم .
(٢) استأنى بفلان : لم يعجله .
(٣) أصاخ له : استمع .
(٤) اشتجرت الآراء : تفرقت واختلفت .
(٥) سورة إبراهيم ، آية ٣٦ .

وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى حين قال : (إن تُعذِّبهم فإنهم عِبَادُكَ ، وإن تغفِرْ لهم فإنكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ)[١] .

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح حين قال[٢] : (رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأرض من الكافرينَ دَيَّارًا[٣]) وإن مثلك يا عمر كمثل موسى حين قال : (رَبنَا اطمِسْ على أموالهم ، وَاشْدُدْ عَلَى قلوبهم فلا يؤمِنُوا حتى يَرَوُا العذابَ الأليمَ)[٤] أنتم عالة ، فلا يبقينَّ أحدٌ إلا بفِدَاء أو ضَرْبة عُنُق .

وشاعَ فى جَنَبات مِكةَ وبين أندية قريش أنَّ محمداً قد أعلن فى الأسرى أنه خيَّرهم بين القتل والفداء ، فخفوا سِرَاعا إلى المدينة ، ودفعُوا المال ، وفكوا عن أسرَاهم الأغلال .

* * *

وما انتهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من أمر هؤلاء الأسرى ، حتى أوحى الله إليه يُعاتبه فى إيثار الفِدَاء على القتل ، إذ كان المسلمون ــ فى بَدْء دولتهم ومطالع مُلكهم ــ حاجتُهُمْ إلى إذلالِ عدوِّهم بالقتل أشدّ ، ليعظُمَ شأنُهُمْ ويعلوُ فى الأرض سلطانهم ، وتستقرّ فى نفوس الأعداء هيبتهُم وتضعف شوكةُ أعدائهم ، وهمْ فى عُنْفوَان قوتهم وكثرتهم ، أما المال فهو نَفْعٌ عرضىٌ ومرتبةٌ ثانية بعد إضعاف العدوّ بالقتل .

على أنه سبحانه وتعالى جرت سُنّتُه ، واقتضت رحمته وحكمته ألا يؤاخذَ

---

(١) سورة المائدة آية ١٢١ .

(٢) سورة نوح آية ٢٦ .

(٣) دياراً : أحداً .

(٤) سورة يونس ، آية ٨٨

مُجتهداً وإن أخطأ ، ولا مُتأوِّلاً وإن أضله رائدُ التوفيق ، فقال[١] :
(ما كانَ لنبيٍّ أن يكُونَ له أسرَى حتى يُثخِنَ[٢] فى الأرض ، تُرِيدُونَ عرَضَ الدنيا واللهُ يُرِيدُ الآخرة واللهُ عزيزٌ حكيمٌ . لولا كتابٌ[٣] من اللهِ سَبَقَ لمَسَّكُم فيما أخَذتم عذابٌ عَظِيمٌ)[٤] .

(١) سورة الأنفال آية ٦٧ .
(٢) يثخن فى الأرض : يقوى ويشتد ويغلب .
(٣) كتاب : أى حكم .
(٤) روى أنه لما نزلت هذه الآية دخل عمر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال : يارسول الله ، أخبرنى فإن أجد بكاء بكيت وإلا تباكيت ، فقال : أبكى على أصحابك في أخذهم الفداء ، ولقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة .

أُحُــــد (*)

فى السنة الثانية بعد الهجرة ، والصِّرَاعُ قائم بين الكفر والإيمان ، غُلب كُفار قريش ، وَرَجَع فَلهم[1] إلى مكة مذموماً مَدحوراً ، بعد أن هُزِموا يوم بدر ، فَقُتِلَ منهم مَنْ قتل ، وأُسِرَ من أسر .

فهذا أبو سفيان بن حرب زعيمُهم يعودُ الْخَيْزَلى[2] بحزب الشيطان ، وقلوبُهم تصطلى ناراً ، وتتّقِدُ أُوَاراً[3] مما أصابهم يوم نصرَ الله المسلمين ببــدر .

وهذا رسولُ الله الكريم فى صحابته يقبل فِدَاءَ الأسرى ، ويترفق بضعيفهم ويَمُنُّ على فقيرهم ، ومِنْ هؤلاء أبو عزَّة الْجُمَحِىُّ يقول : يا رسول الله ، إنى فقير وذُو عِيال وحاجة قد عَرَفتها ، فامنن علىَّ ، ويفيض كرمُ الرسول ، فيَمُنُّ عليه ، ويعطيه مما أفاء الله :

* * *

استمَرَّت قريش سنةً تُعِدُّ سلاحها ، وتُؤَلِّبُ[4] عديدها ، حتى إذا كانت السنةُ الثالثة بعد الهجْرة مشى عبدالله بن ربيعة ، وعِكْرِمة بن أبى جهل ، وصفوان ابن أمَيَّة فى رجالٍ من قريش ، ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم يوم بَدْر ، يحرِّضُونهم على القتال والأخذ بالثأر ، فينادون : يا معشر قريش ، إنَّ محمداً

(*) آل عمران ١٢٥ وما بعدها .

(١) فلهم : ما بقى من جيشهم . (٢) الخيزلى : المشى فى تثاقل .

(٣) أواراً: ناراً (٤) تؤلب : تجمع .

قد وترَكُمْ ، وقتلَ خيارَكم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منّا .

يدبّ هذا النداء فى آذان القوم ، فيتبارَوْن فى حشد[1] الجنود ، وبذل الأموال ، فهذا جُبَير بن مُطعم يقول لغلامه : إن قتلت حمزة عمّ محمد بعمّى قتيل بدر فأنت طَليق ، وهذا غيره من طغاة القوم يقدّمون أموالهم ، وعبيدهم ، وعَتَادهم للقاء هذا اليوم العظيم : (إنّ الذين كفَروا يُنفقُون أموالهم لِيَصُدُّوا عن سبيل اللهِ ، فسينفقونها ثم تكُونُ عليهم حسْرَةً ثم يُغلَبُون ، والذينَ كفروا إلى جهنم يُحشَرُون)[2] .

وبهذا وَعَدهم الله ، ومن أصْدقُ من الله قِيلاً[3] ! ولقد صدق اللهُ وَعْدَهُ ، ونصر جُنْدَهُ يوم الفتح العظيم .

اجتمعت قريشٌ لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقودها أبو سفيان ، ومعهم جمعٌ من كنانة وأهل تهامه ، وانبثّ شياطينهم ، ينفرون المقاتلين لحرب الله ، فهذا صفوان بن أمية يُقبِلُ على أبى عزةَ طليق بدر ، فيقول : يا أبا عزّة ، إنك امرؤ شاعر ، فأعِنّا بلسانك فاخرج معنا .. فيرد أبو عزة قائلا : إن محمداً قد منّ علىّ فلا أريد أن أظاهر[4] عليه ، فيقول صفوان ؛ فأعنّا بنفسك ، فلك علىّ إن رجعت أن أغنيك ، وإن أصبتَ أن أجعَل بناتك مع بناتى ، ويصيبهن ما أصابهن من عُسْرٍ ويُسْر .

خرج كبار قريش ومعهم نساؤهم ، فهذه هند بنتُ عُتبة زوجُ أبى سفيان ، احتشدت فى نساءٍ من أشراف قريش ، تحمّسُ الجيش ، وتنفّر المقاتلين ، وهم

---

(١) حشد : جمع .
(٢) سورة الأنفال آية ٣٦ .
(٣) قيلا : قولا .
(٤) أظاهر عليه : أعين عليه .

يخبُّونَ فى سيرهم و يوضعون[1]، حتى تستقرّ رحالهم بجبل أُحُد[2] مقابل المدينة .

وهذا رسولُ الله الكريم فى جمع من صحابته يُشاورهم فى الأمر ، ويُجيلُ قِداح الرأى[3] إذ يقولَ : فإن رأيتم أن تُقيموا بالمدينة وتدعُوهم حيثُ نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مُقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم . فينطلق عبدُ الله بن أُبَىّ بن سَلُول مُحَبِّذاً رأىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم داعياً إلى الأخذِ بما يراه ، إلاّ أنّ نفراً ممن حبَّبَ اللهُ إليهم الاستشهادَ فى سبيله قالوا : يا رسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يَرَوْنَ أنا جَبُنّا عنهم وضعفنا ، فيردّ دعوتهم عبد الله بن أُبَىّ : أن يا رسول الله ، أقِمْ بالمدينة لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ لنا قطّ إلاّ أصابَ منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه .

وما زالَ القومُ فى أخذ وردّ حتى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلاة الجمعة ، فلبس لَأْمَتَه[4] ، وتهيَّأ للقتال ، فقال القوم : يا رسول الله ، استكرهناك ، وليس لنا ذلك ، فإن شئتَ فاقعُدْ . فيقول صلى الله عليه وسلم : « ما ينبغى لنبىّ إذا لبس لَأْمَتَهُ أن يضعَها حتى يُقاتل » .

ثم خرج الرسول صلى الله عليه وسلم فى ألف من أصحابه بعد أن خلف بالمدينة ابنَ أم مكتوم يَؤُمُّ الناسَ فى الصلاة ، حتى إذا كان الجيش بين المدينة وأُحُد انخذَل عنه عبدُ الله بن أُبَىّ بن سَلول بثلث الناس ، وهم بنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الأوس ، متعلِّلاً بأن الرسول — صلى الله عليه وسلم — قد أطاع غيرَه وعصاه ! !

---

(١) الخبب والإيضاع : نوعان من السير .

(٢) أحد : جبل تلقاء المدينة .

(٣) القداح : جمع قدح ، وهو ما له نصيب فى الميسر ، والمراد أنواع التفكير

(٤) اللأمة : الدرع .

ثم قال : لو نَعْلَمُ قِتَالا لا تَبِعْنَاكم ! ما ندرى علامَ نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس ؟ ! ولكن عبدَ الله بن عمر اتبعهم يقول : يا قَوْم أذكِّرُكم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيَّكم ، ولكنهم ولوا عنه مدبرين .

فكان هذا جلاء لشر كشفه ربُّ الأرض والسموات : (وليَعلم الذينَ نافقُوا وقيل لهم تعَالَوْا قاتِلوا فى سبيلِ اللهِ أو ادْفَعُوا ، قالوا لو نعلَمُ قِتَالاً لا تَّبعْنَاكم ، هم للكفر يومئذٍ أقْرَبُ منهم للإيمانِ ، يقولون بأفواههمْ ما ليس فى قلوبهمْ واللهُ أعلمُ بما يَكْتُمون * الذين قالُوا لإخوانهم وَقَعَدُوا لو أطاعُونَا ما قُتلوا ، قل فادْرَءوا عَنْ أنفسكم الموتَ إن كُنتم صادقين .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشِّعْبَ من أُحُد فى عُدْوة[٢] الوادى إلى الجَبل ، ثم جعل ظَهْرَهُ وعسكره إلى الجبل ، وقال : لا يُقاتِلَنَّ أحدٌ منكم حتى نأمُرَهُ بالقتال .

وتعبَّأ رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتال وهو فى سبعمائة رجل ، وتعبَّأت قريش ، وهم ثلاثة آلاف رجل ومعهم مائتا فارس ، جاعلين على مَيْمَنة الخيلِ خالدَ بن الوليد وعلى ميسرتها عِكْرمة بن أبى جهل .

قام الرسولُ مُمْسِكا سيفاً ، فقال : مَنْ يأخذُ هذا السيف بحقّه ؟ فقالَ أبو دُجانة : وما حقُّهُ يا رسول الله ؟ قال : أن تضربَ به العدوَّ حتى ينحنى ، قال : أنا آخُذُه يا رسولَ الله بحقه . فأعطاهُ إياه ، فلما أخذ السيف مِنْ يد رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرج عصابةً له فعَصَبَ بها رأسه ، وجعل يتبخْتَر بين الصفين ، فقال الرسول : إنها لِمِشْيَةٌ يُبْغضها الله إلا فى مثل هذا المَوْطن .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٦٦

(٢) العدوة : جانب الوادى وحافته . أو هى المكان المرتفع .

وهذا أبو سفيان يتقدم إلى أصحاب اللِّوَاء من بنى عبد الدّار ، يُحَرِّضهُمْ على القتال ويقولُ : يا بنى عبدالدار، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر، فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يُؤتى الناس من قِبَل راياتهم إذا زالت زالُوا . فإما أن تَكْفُونا لواءنا ، وإما أن تخلو بيننا وبينه فنكفيكُمُوه . فهمُّوا به وتَوَعدوهُ ، وقالوا : نحن نسلم إليكَ لواءنا ؟ ! ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع !

وهذه هند بنت عتبة فى النسوة اللاتى احتشَدْنَ[1] معها ، أَخَذْنَ الدُّفوف يضربن بها خَلفَ الرجال محرضاتٍ على القتال .

التحمت الموقعة ، واستعرَ القتال ، وحَمِيَتِ الحرب ، وأبو دُجانة يقاتِل بسيف الرسولِ ، وبينما هو فى كِفاحه وجِلاَده إذا بإنسان يُحَرِّض الناس ويدفعهم دَفعاً شديداً إلى قتالِ المسلمين ، فصمد له أبو دُجانة ، حتى إذا حمل السيف فَسَلّه على رأسِهِ وَلْوَلَ وانتَحَب ، وضَجّ وصَخِب ، فإذا هى هند بنت عتبة ، فأكرم أبو دُجانة سيفَ الرسولِ أن يضرب به امرأة .

وهذا وحْشىّ الحبشىّ يتحيَّنُ الفرص ، لينفذ إلى قتل حمزة حتى يعتق ، فإذا به يراه صائحاً كالجمل الأَوْرَق[2] ، فيقدم عليه وحشى ، فيطعنه بحَرْبتِهِ ، فيخرّ صريعاً شهيداً فى سبيل الله .

اشتد القتالُ يوم أُحُد ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت راية الأنصار ، يقَوِّى عَزْمَ المسلمين ، ويربط على قلوبهم بالصبر والتقوى ، ويحذرهم المخالفة ؛ فلا يتركون مراكِزهم ، ولا يغترُّون ببوادِرِ النصْرِ ، ولا يُؤْخَذون ببريق من متاع الحياة ، ولا يَحْرِصُون على جمع الغنائم ، وتعقب المشركين طمعاً فى زينة الحياة .

---

(١) احتشدن : اجتمعن .

(٢) الأورق : ما فى لونه بياض إلى سواد .

أنزل الله نصرَه على المسلمين ، وصدَقهم وَعْدَه ، حتى أزالوا المشركين عن عسكرهم ، وكانت الهزيمةُ منهم قابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى ، وَوَلّى الكفارُ الأدبار ، إلاّ أن نَزْوَةً من النزوات الشيطانية ، وَهَفْوَةً ما تزالُ تعترى النفسَ الإنسانية ،صرفت جموعَ المسلمين عن متابعة النصر ، وموالاةِ المشركين حتى النهاية ، وَأنْسَتْهم نُصْحَ نبيهم .

وقد كان فى أُخراهم يدعوهم : «إلىّ عبادَ الله ، إلىّ عبادَ الله !»فانصرفوا عنه ، وانكبّوا على الغنائم ، وانخذلوا عن مواقفهم ، وَعَصَوْا أمرَ الرسول صلى الله عليه وسلم : (إن الّذِين تَوَلّوْا مِنْكُم يَوْمَ التقى الجَمْعانِ إنّما استزَلّهُمُ الشيطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا)[1] .

وقع هذا بعد أن كان النَّصْرُ معقوداً لِوَاؤُهُ للمسلمين ، وكان لِوَاء الكفار مع غلام لأبى طلحة ، فقاتل حتى قُطِعَتْ يَدَاه ، ثم أخذه بصَدْرِه وبَرَك عليه ؛ فأسرعت إليه عمرة بنت علقمة الحارثيةورفعته ؛ فلاذَتْ به قريش ، واجتمعت تحت ظلاله .

تراجع المسلمون ، وَخُضِدَت شوكتهم ، وَغَشِيَهم فتور وَضَعف ، وداخل قلوبَهم الهمُ ، وَشُغِلوا عن ذكر الله ، فرجع عليهم القومُ ، وكان اليوم يوم بلاء وتمحيص ، أكرم الله فيه مَنْ أكرم من المسلمين بالشهادة ، حتى خلص العدوُّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأُصيبتْ رَبَاعِيَتُه[2] ، وَشُجَّ وَجْهُه، وَكُلِمت[3] شفتُه .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٥٥

(٢) الرباعية ــ بوزن الثمانية : السن التى بين الثنية والناب .

(٣) كلمت : جرحت .

ثم شاع أنَّ محمداً قد قُتِلَ ، فاضطرب أمْرُ المسلمين ، وَانفَرَط عقدهم : (وَمَا مُحَمَّد إلاَّ رسُولٌ قد خلتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسلُ أفإنْ مَاتَ أو قُتِلَ انقلبْتُمْ عَلَى أعقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شيئاً ، وسيَجْزِى اللهُ الشاكرين * وما كان لنَفْسٍ أن تموتَ إلا بإذْنِ الله كِتاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثوابَ الدُّنيَا نُؤْتِهِ منها وَمَنْ يُرِدْ ثوابَ الآخِرَةِ نُؤْتِه منها وَسَنَجْزِى الشاكِرين)[1] .

ثم أبصر كَعْب بنُ مالك الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعيناه تَزْدَهِرَان تحت مِغْفَرة[2] ، فنادى بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أبشروا ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما عرف المسلمون الرسول صلى الله عليه وسلم نهضُوا به ، ونهض معهم نحو الشِّعبِ ، ومعه أبو بكر ، وعُمَرَ ، وعلىّ ، وطلحة بن عبد الله ، والزُّبير ابن العوام ، وَرَهطٌ من المسلمين ، فأدركه أُبىُّ بن خلف ، وهو يقول . أيْنَ محمد ؟ لانجوتُ إن نَجَا !

فقال القوم : يا رسول الله ، أيعطف عليه رجلٌ منّا ؟

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : دعُوه ، فلما دنا تناولَ الرسولُ عليه الصلاة والسلام حربةً ضرب بها عُنُقَهُ ، فكانت سبباً فى مَوته .

ثم قَدَّم علىٌّ للرسول صلى الله عليه وسلم ماَء ، فغسل دمَه ، ثم أصابه عليه الصلاة والسلام ضَعْفٌ ، فكان يصلِّى من قُعُود .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٤٤ ، ١٤٥

(٢) المغفر : غطاء الرأس من معدن يلبسه المحارب

وقفت رَحَى الحربِ بين المسلمين والكفار في أحد ، وقد هُزِم المسلمون فيها ، واستُشْهِدَ منهم سبعون من الأخيار الطاهرين ، بعد أن لمسوا النَّصْرَ بأيديهم ، ولكن هكذا قدَّر الله وهو خَيْر الحاكمين : (ولقدْ صدقكمُ اللهُ وَعْدَه إذ تَحُسُّونَهُم[1] بإذْنِه حتى إذا فَشِلتُمْ وتنازَعْتُمْ في الأمْرِ ، وعَصَيْتُمْ منْ بعدِ ما أرَاكُمُ ما تحبُّونَ مِنكُم مَنْ يُريدُ الدُّنيا ، ومِنكُم مَنْ يُريدُ الآخِرَة ، ثمَّ صرفَكُمْ عنهم ليَبتلِيَكُم ، ولقد عَفَا عَنكُم ، واللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى المُؤْمِنينَ * إذ تُصْعِدُونَ ولا تَلوُونَ عَلَى أحَدٍ والرَّسولُ يَدْعُوكُم في أخْرَاكُم فأثابَكُمْ غَمًّا بغَمٍّ لكيلا تحزَنُوا على ما فاتَكُم ولا ما أصابَكُم وَاللهُ خبيرٌ بما تعملون * ثمَّ أنزلَ عليكُمُ منْ بَعدِ الغَمِّ أمَنَةً نُعاساً يَغْشى طائفةً منكُمْ وطائفةٌ قد أهمَّتْهم أنفسهُم ، يَظُنُّونَ باللهِ غَيْرَ الحقِّ ظَنَّ الجاهليةِ ، يقولونَ هلْ لنا منَ الأمْرِ منْ شيء قُلْ إنَّ الأمْرَ كلَّهُ للهِ ، يُخْفُونَ في أنفُسِهم ما لا يُبْدُونَ لكَ ، يقولونَ لو كانَ لنا من الأمْرِ شيءٌ ما قُتِلْنَا ها هنا ، قُلْ لو كُنتمْ في بُيُوتِكُمْ لبرزَ الذينَ كُتِبَ عليهم القَتْلُ إلى مضاجِعهم ، وليَبْتَلِيَ اللهُ ما في صدورِكم ، وَلِيُمَحِّصَ ما في قلوبكُمْ وَاللهُ عليمٌ بذاتِ الصُّدُورِ)[2] .

انتهت الموقعةُ ، وأراد أبو سفيان بن حَرْب الانصرافَ ، فأشرف على الجَبَل ، ثم صرخ بأعلى صوته : اعْلُ هُبَل ، إنَّ الحربَ سِجَالٌ[3] ، يَوْمٌ بيوم !

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : قُمْ يا عمر فأجِبْهُ ، فقال : الله أعلى وأجلُّ ، لا سَوَاء ! قَتْلانَا في الجنة ، وقتلاكم في النار .

(١) تحسونهم : تستأصلونهم قتلا .
(٢) سورة آل عمران . آية ١٥٢–١٥٤
(٣) الحرب سجال : نصرتها بين القوم متبادلة

فلما أجاب عمر قال له أبو سفيان : هلمَّ إلىَّ يا عمر .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لعمر : ائْتِهِ ؛ فانظر ما شأنه .

فجاءه ، فقال أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمداً ؟

قال عمر : اللهمَّ لاَ ، وإنه لَيَسْمَعُ كلامك الآن .

ولما انصرف أبو سفيان بعث الرسولُ صلى الله عليه وسلم عليًّا أن اخرجْ في آثار القوم ؛ فإنْ جَنَّبُوا[1] الخيلَ ، وَامْتَطَوا الإبل ، فإنهم يريدون مكةَ ، وإن ركبوا الخيل ، وساقوا الإبل ، فهم يريدون المدينة ، والذى نَفْسِى بيده إن أرادُوها لأسيرنَّ إليهم فيها ، ثم لأناجِزَنَّهم[2] .

ولكن أبا سفيان وقومه رجعوا إلى مكة بعد أن مَثَّلَ المشركون بكثير مِنْ قَتْلَى المسلمين ، فكانت نساؤهم يَجْدَعْنَ الأنوف ، ويقطعْنَ الآذان ، وَيَتَّخِذْنَ منها قلائد ، وَبَقَرَتْ[3] هند بَطْنَ حمزة عَمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذت كبده ، وجعلت تَلُوكها ، فلم تُسِغْهَا فَلَفَظَتْهَا .

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فَسُجِّيَ[4] ببرده ، ثم صلّى عليه ، ثم أتى بالقَتْلَى إلى جانب حمزة ، فصلّى عليهم اثنتين وسبعين صلاة ، ثم أمر بدَفْنِهم جميعاً .

ثم خرج عليه الصلاة والسلام فى أثر العدوّ واللواء معقودٌ لم يُحَلّ ، حتى

---

(١) جنبو الخيل : قادوها إلى جنبهم .

(٢) المناجزة فى الحرب : المبارزة .

(٣) بقرت : شقت .

(٤) سجى ببرده : غطى بثوب .

وصل حَمْرَاء الأسد ، على ثمانية أميال من المدينة ، ليُرْهِبَ قريشاً ، وليعلموا أنَّ قوةَ الله لا تُغْلَب ولا تُفَلّ .

فلما علم بذلك أبو سفيان وأصحابهُ فُتَّ فى عضدهم ، فمضَوْا سِرَاعاً إلى مكة ، ينتظرون بَطْش محمد فى كل حين : (إنَّ الَّذِينَ اشترَوُا الكفْرَ بالإيمانِ لنْ يَضرُّوا اللهُ شَيْئاً وَلهم عذَابٌ أليمٌ * ولا يَحْسَبَنَّ الَّذِين كَفرَوا أنَّمَا نُملِي[1] لهم خَيْرٌ لأنفُسِهم إنّمَا نُمْلِي لهم ليَزْدَادُ إثماً ولهم عذابٌ مُهِين)[2] .

(١) أملى الله له : أمهله .
(٢) سورة آل عمران : آية ١٧٧ ، ١٧٨

سيد الشهداء(*)

كان حمزة بن عبد المطلب سيّداً من سادات قريش خُلُقاً وخَلْقاً ، ومن أقوامهم بأساً وأنفذهم عزماً، وأبعدهم همّةً وإقداماً،وكان أيضاً عمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخاه من الرّضاع ، أرضعتهما ثُويبة مولاة أبى لَهب ، فقارب الرّضاع بين نفسيهما ، وألّف بين قلبيهما ، وعاشا صَدْرَ أيّامهما على الرّحِم القريبة ، والوُدّ المصفّق الموصول .

ثم كانت بعثته عليه السلام ، ودعوتُه إلى الإسلام سرّاً ، واتخاذه دار الأرقم بن الأرقم لمن يؤمن به ملاذاً ، فلم يؤمِنْ به إلا القليل ؛ ثم أمر الله بالجهر ، وأن يُعلن الرسالة ، وأن ينذِر قومَه مبتدئا بعشيرته الأقربين ، وأخذ الإسلامُ ينتشر رويداً رويداً ، ويدخل الناس فى الدين الجديد أفراداً وجماعات، فهلعت قلوب الرُؤساء من قريش ، وخافوا على زعامتهم ، وأشفقوا على آلهتهم وأصنامِهم ، فأعلنوا العداوة والإيذاء ، وصارحوا رسولَ الله بالسفاهة والبغضاء ، وكان من أشدِّهم أذى وكيداً، وأكثرهم نُكراً، أبو جهل عمرو ابن هشام المخزوميّ ؛ افتنّ فى إيذاء الرسول بيده ولسانِه ، وبذَل فى إيذاء صحبه كلَّ جهده وإمكانِه ، حتى كان هذا الإيذاء حديثَ القوم وموضعَ اللائمة لعشيرته ، أن تقاعدوا عن نُصرة محمد ،ولم يحموه من أبى جهل ونُظرائه .

وكان حمزة يمشِى فى بعض شِعَاب مكة إلى بعض شئونه ، فطلعتْ عليه جارية ممن سمعت بإيذاء أبى جهل ، وإمعانه فى الكيد ، فقالت له تعيّره : ما بالك

(*) أسباب النزول ٢١٤ ، الاستيعاب ، ١٥٥٤

يا حمزة ، وانت فى الصّميم من بنى هاشم ، أبوك عبد المطلب ، وأخوك أبو طالب ، ومحمد أقربُ الناس إليك وأدناهم من قلبك ينالُ من الأذى والمكروه ما لا يستحقّه ولا يليق به ؟! فقال حمزة : ويلكِ ما تقولين ؟ من يؤذيه ؟ قالت : أبو جهل ؛ أصبح إيذاؤه لمحمد قصة تُروى وحديثاً يسير ! فكأنّما كان حمزة فى سنةٍ عميقَة فاستيقظ ، أو غفلةٍ محيطةٍ فصحا وانتبه ، وانصرف إلى أبى جهل مَغيظاً هائجاً ؛ فقال له : كيف تسبُّ محمداً ، وقد علمتَ أنه ابنُ أخى ؟! وكيف تؤذيه ؛ وهو أخى فى الرضاع ؟! قال أبو جهل : ويحك ! أما علمتَ أنه يسبُّ آلهتنا ، ويسفّه عقولنا ، ويصطنع ديناً جديداً ! فقال حمزة حميّةً وانتصاراً : اسمعها يا أبا جهل كلمة واضحة جليّة : إنى منذ اليوم على دين ابن أخى ، وحذار أن يمسّه منك سوء بعد اليوم !

وانطلق حمزة إلى الرّسول عليه السلام ، وصَفق على يديْه ، وأعلن الإسلام ، ومن ذلك اليوم عزّ الدين بحمزة ، وحالف رسولَ الله عليه الصلاة والسلام على الجهاد ، ولازمه فى كل مواقفه ومشاهده .

كانت غزوة بدر ، وأبْلَى حمزة فيها البلاء الأكبر ، وأبدى من البسالة والشجاعة والتنكيل بقريش ، ما جعله فى المقدمة من المجاهدين ، قتل شيبَة ابن ربيعة ، وشارك فى قتل أخيه عتبة ، ثم قتل طعيمة بن عدىّ ؛ وغير هؤلاء ؛ مما دعا رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يلقّبه أسد الله .

وعاد المسلمون من بدر مظفّرين منصورين ، ورجع المشركون من قريش وفى قلوبهم الحزن والثّكل ، وفى عزمهم الثأر والانتقام ، وكان جُبير بن مطعم من أوجعهم قلباً ، وأثقلهم بالهم نفساً ، وأشدّهم رغبة فى ردّ الكيد بمثله ، إذ كان طعيمة بن عدى عمّه وربيبه ، وأرأف الناس عليه بعد أبيه ، واحتمل

فى نفسه لحزة الغل والحقد ، والعزم الأكيد ، أن ينال ثأره منه وإن طال الزمان .

وكانت غزوة أحد ، وخرج النبى صلى الله عليه وسلم فى صَحْبه والصناديد من قومه ، وخرجت قريش برجالها وأضغانها وأحقادها ، وكانت معركة قُتل فيها من المسلمين عدد وافر ، ومنهم حمزة سيد الشهداء ، قتله وحشى غلام جُبير بن مطعم .

قال وحشىّ : كنت غلاما لجبير ، ولما شاءت قريش الخروج إلى أُحُد ، قال لى جُبير : إن قتلتَ حمزة بعمىّ طُعَيمة فأنت عتيق . قال : وكنت حبشيًّا أقذف بالحربة قذفَ الحبشة ، فلا أخطىء بها شيئاً ، فلما التقى الناس خرجت أنظار حمزة رحمه الله ، حتى رأيته فى عرض الجيش مثل الجمل الأوْرَق يهذّ الناس هذًّا ، ما يقوم له شىء ؛ فوالله إنى لأتَهيّأ له ، وأستتر منه بحجر أو شجَر ، إذا به يدنو منى ، وتقدّمنى إليه سِباع بن عبدالعزّى ، فلما رآه حمزة ضربه ؛ فوالله ما أخطأ رأسَه ؛ وهززت حربتى حتى رضيت منها دفعتها إليه ، فوقعت فى بطنه حتى خرجت من بين رجليه ؛ فذهب ليَنَالَنى ، فَغُلِب ، فتركته حتى مات رضى الله عنه ، ثم أتيتهُ فأخذت حربتى ، ثم رجعت إلى الناس فقعدت فى العسكر ، ولم يكن لى بغيره حاجة ؛ إنّما قتلتُه لأُعْتَق .

وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرآه صريعاً ، فلم يَرَ شيئاً كان أوجع لقلبه منه ، وقال متألماً ؛ والله لأقتلنّ بك سبعين منهم ؛ فأنزل الله عز وجلّ ؛ (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فعاقِبُوا بمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لهو خيرٌ للصّابِرين)[1] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بل نصْبر يا ربّ .

(١) سورة النحل ١٢٦ .

ومرت الأيام ، ودارت السنون والأعوام ، وأسلم وَحْشى فيمن أسلم ؛ ودخل على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فيمن دخل . فقال له : أنت وحشى ؟ قال : نعم ، قال : أنت قتلت حمزة ! قال : قد كان قدراً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فهل تستطيع أن تغيب عن وجهى ! !

قال وحشىّ : فلما قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج الناس إلى مُسيلمة الكذاب ، قلت : لأخرجنّ إليه لعلى أقتله ، فأكافىء به قتل حمزة ، قال : فخرجت ... وكان من قتله مسيلمة ما كان !

قال ابن عبد البر : وكان بعد ذلك وحشىٌّ يقول : قتلتُ بحربتى هذه خيرَ الناس ، وشرّ الناس ! !

بنو النضير (*)

مِنْ أين أقبلتَ يا عمرو ؟.. وما ذلك الذى يَتخالَجُ بين عينيك ؟.. لَيُخَيَّلُ إلىّ أنك فعلتَ عظيماً ، وأنك تحملُ بين طيّاتِ صدركَ شيئاً كبيراً ! !

قال عمرو بن أمية الضَّمْرىُّ فاتكُ الجاهلية وفارسُ الإسلام : أجل ! لقد أصبتَ ما فى نفسى ولم تُبْعِدْ ، صادفتُ فى طريقى إلى المدينة غِرَّة[1] من رجلين من بنى عامر فقتلتهما ، وَرَوَّيتُ الثرى بدمائهما ، ولعلى أكونُ قد أطفأت وَقْدَة غَيظٍ تتسعَّرُ فى صدور المسلمين ، مما أصاب فينا بنو عامر يومَ بئر مَعُونة[2] !

قال محدِّثه :

يا بؤسَ لما صنعتَ ! ويا خرقَ ما رأيتَ ! لقد فعلتَ شرّاً من حيث حسبتَ أنك أردتَ الخير ؛ وركبتَ مركباً حراماً من حيث أردتَ الثأر ، إنك بما فعلت قد أوطأتَ المسلمين العَشْوة[3] ، وأردْتهم على الحَسَكَ والسَّعْدان[4] ؛ ذانك العامريان اللذان قتلتهما ، وحسبتَ أنك أدركتَ الثأر فيهما ، إنْ هُما إلاّ رَجُلاَن معهما من رسول الله عَهدٌ وجِوَار ، ولهما حُرْمة وذِمَام . انطلقْ إليه تجدْ عنده الخبر اليقين .

(*) سورة الحشر ٣ وما بعدها . (١) غرة : غفلة .

(٢) بئر معونة : فى طريق المصعد من المدينة إلى مكة .

(٣) العشوة : ركوب الأمر على غير بيان .

(٤) الحسك والسعدان : من النبت ذى الشوك .

وأدرك عَمْرو أنه قد ضلّ فيما أراد ، وأنه ارتكب خطأ فيما فعل ؛ فخاف عاقبة أمره ، وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خائفاً يترقّب[١] .

قال : يا رسول الله ؛ لقد قتلتُ العامريين اللذين صادفانى فى طريق إلى المدينة ، وحسبتُ أنى أصبتُ فيهما من بنى عامر ثأرا . وما نفَضَ على الرسول هذا الخبر حتى رآه قد تربَّد وجهه ، وانعقدت سحابةٌ من الهم بين عينيه ، وقال : لقد قتَلتَ قتيلين ؛ لأدِيَنّهما[٢] .

ولكن رسولَ الله فى ضَنْكٍ من المال ، وخَصاصة[٣] من العَيش ، فماذا يفعل ! ودِيةُ القتيل عاجلةٌ لا تحتمل النسيئة[٤] ، والدمُ الثائر لا ينفعُ تسكينه التّسويف !

لِيَذهَبْ إلى بنى النَّضير ، إنهم حلفاؤه ومعاهِدُوه ، ولقد عقد معهم يوم حضر إلى المدينة عَقْداً ، ألا يحارِبُوه ، وألا يُؤذِيهم ولا يُؤذوه ، وإنهم بعد ذلك حلفاء بنى عامر ، فليس ما يمنع أن يستعينَ بهم على دَفْعِ دِيَة القتيلين .

ودعا رسولُ الله نفراً من صحابته ، وذهبوا حيث يقيمُ بنو النَّضير فى أطرافِ المدينة .

* * *

وقال حُيىُّ بن أخطب زَعيمُ بنى النَّضِير : ذلك محمدٌ مُقبلٌ فى بعض صَحْبِه ، لأمر ما قدم ، ولأمرٍ ما وَطِئَتْ قَدَماه هذه الديار . لننهضْ جميعاً للقائه ، ولنتعرف ما وراء قُدومه .

---

(١) يترقب : ينتظر .
(٢) أدينهما . ادفع ديتهما .
(٣) أصل الخصاصة : الفقر .
(٤) النسيئة . التأخير .

وقاموا إليه هاشّين باشّين ، وحَيَّوْه معظِّمين ! وإنّ قلوبهم لتَنْحنى على المكر والكَيْد ، وإنّ أنفاسهم لتصاعد بالغَيْظِ والحنق .

قال حُيَىّ : خيرٌ ما جاء بك يا محمد ! لقيتَ أهلا ! ومكاناً سهلا .

قال الرسول : لقد قَتَل واحدٌ من المسلمين اثنين من بنى عامر ، حَسِب أنه أصاب فيهما عدُوّاً ، وأدرك ثأراً ، ولكنهما كانا معنا فى حِلْف ، ولهما ذِمَام ، وقد جئناكم نستعينُ بمالِكم على دِيَة هذين القتيلين ، بما بيننا من حِلْف وعَهْد .

***

قال حُيَىّ بن أخطب : لكَ ما تريد يا محمد ، وهَوْناً ما أردت ! استرحْ إلى هذا المكان ، وأنظِرنا[1] قليلا ، حتى نجمعَ المال ، ونأتى بما تُريد .

وجلس رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى جِدَار ، وجلس معه صَحْبَه انتظاراً لما وُعِدوا ، أما هُمْ فسرعان ما ألّف الشرُّ بين جموعهم داخل الدُّور ، وسرعان ما أقبل بعضُهم على بعض يتذامرون[2] ويتآمَرُونَ : كيف لا يفتِكون بمحمد ، وهو بين أظهُرِهم ، حاضِرٌ فى رِحَابِهم ؟ ها هو ذا قد مكن لهم من نفسه ، وهيَّأ لهم الفتكَ به ، ليس معه منْ يَنْصرُه ، ولا يوجد حَوْله من يَعْصِمُه ، إلا نَفَراً ضعافا ، عُزْلا من السلاح . قالوا : لئن قتلتموه لتستريحن وتستريح العرب من هم ناصب ، وبلاء واقع ، ولئن أفلت منكم اليوم فلن تظهروا عليه أبداً ... من منكم ينتدِب لقتله ، ويتطوّع للتنكيل به ؟

---

(١) انظرنا : أمهلنا .

(٢) يتذامرون : يحض بعضهم بعضا .

قال عمرو بن جحّاش : أنا بذلك زعيم ، دعونى أقتله ، وأشفى غيظكم منه ؛ وانطلق يُعدّ صخرةً يرضخه[1] بها ، وتسلق الجدار ، وأعدّ الحجرَ ، ولكنه نظر فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف ، وخذَلَ الله الكيدَ والمكر .

* * *

وعاد رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إلى أصحابه ، فأعلن فيهم أن بنى النضير قد غدَرُوا ونكثُوا ، وأنهم قد أرادوا له قتلاً وبه شرًّا ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى قد أوْحى إليه بسوء نيتهم وخُبْثِ دخيلتهم ، لنالَهُ منهم شرٌّ وكيد ، والمسلمون بعد ذلك فى حلّ من عهدهم ، ولا جُنَاح عليهم فى حربهم ؛ إذ لم يعد أمانٌ لجوارهم ، ولا عهد لميثاقهم .

وانتدب صلى اللهُ عليه وسلم محمد بن سلمة ، لينذرَهم الخروجَ من ديارهم ، والجلاء عن أوطانهم ، وإلا عُوجِلوا بالحرب ، ووقع عليهم النكال .

وذهب إليهم محمد بن سلمة ، ونادى فيهم : يا بنى النضير ، قد علمنا مكركم وغدْرَكم ، وأطلع الله رسوله على مؤامرتكم ، وقد قدرنا مواثيقكم وأيمانكم ، فلا بقاء لكم بعد اليوم فى ديارنا ، ولا نأمنكم على رجالنا ، فارحلُوا عن هذه الديار سالمين بأنفسكم ، موفورين فى حياتكم ، ولكم أسوةٌ فى إخوانكم بنى قَيْنُقَاع .

وأدرك بنو النّضير حرَج موقفهم ، وعاقبة فعلتهم ، وكادوا يُصِيخُون للقول ، ويستمعون للنذير ، ويتهيئون للخروج ، لولا أن قيّض الله لهم عبد الله ابن أبىّ[2] الذى قال لهم : لاتخرجوا من دياركم ، وإيّاكم والجلاء عن أوطانكم

(١) يرضخه : يرميه .

(٢) رأس المنافقين بالمدينة.

وإننا سنكونُ فى حزبكم ، ومن أنصاركم ، (لئن أُخرِجتُم لنخرُجنَّ معكم ، ولا نُطِيعُ فيكمْ أحداً أبداً ، ولئن قُوتِلْتُمْ لننصُرَنَّكُم ، واللهُ يشهدُ إنَّهُمْ لكاذِبُونَ)[١] .

وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم كفرهم وعنادهم ، فتهيَّأ لحربهم ، ونهض لقتالهم ، وحاصرهم ليالى ، فلم يفتحوا له بابا ، ولم يُلقُوا إليه يداً ، ولكنهم ما رأوا المسلمين يقطعون النخيل ويتهيَّأون للغارة حتى خار عودهم[٢] ، وانخذلت قواهم ، والتجأوا إلى الرسول يسألونه أن يُجْليهم ، ويكُفَّ عن دمائهم ، على ألاّ يأخذوا من أموالهم إلا ما حَمَلت جِمالهم .

وأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طلبهم ، واحتملوا إثم غدرهم ومكرهم ، فتركُوا الديارَ ورحَلُوا عن الأوطان : (وَمَنْ نكَثَ فإنما يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ)[٣] ، (ولولا أنْ كتبَ اللهُ عليهمُ الجلاء لعذَّبهُمْ فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذابُ النار ، ذلك بأنهم شاقُّوا اللهَ ورسُولهُ ومن يُشَاقِقِ الله وَرسُوله فإنَّ اللهَ شديدُ العِقَابِ)[٤] .

---

(١) سوره الحشر ، آية ١١
(٢) خار عودهم : ضعفوا .
(٣) سورة الفتح ، آية ١٠
(٤) سورة الحشر ، آية ٣

الأحزاب (*)

حُيَيّ بن أخطب زعيمُ بنى النَّضير ، وعظيمٌ من عظماء اليهود ، وهو الآنَ منبوذ طَريد ، منفِيّ شَريد ، يُقيمُ فى أرض خَيْبَر ، مَهيضَ الجناح ، مُغْمد السلاح ، ذليل الرأس ، وقيذ ما بين الجَوَانح (1) .

ومُذْ أجْلاهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه عن المدينة ، جزاءً وفاقاً لما ارتكبوه من نَكْث فى العهد ، وحنث فى يمين لا يزالُ عليه حنيقاً ، مُوغرَ الصَّدْرِ ، مُلْتاعَ الفؤاد ، يتربّص به الدوائر ، ويتوَقّع للمسلمين غائلة السوء ؛ ويودّ لو انتصر الكافرون ، وتخاذَلَ المسلمون ، ويودّ لو يهلكُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فيستطيع أن يعودَ إلى وطنه ، وأن ترجعَ إليه فى قومه سابقُ زعامته ، ولكنهُ ـ لِعثار جدّه (2) ، ولما كتبَهُ اللهُ له أن يموتَ بغيظه ـ لا يسقط فى أذنه إلا ما يكْرَههُ من نُصْرَة المسلمين ، وهزيمة الكافرين ، فيغصّ بريقه ، ويتسعّر فى غيظه ، ويتأوّهُ من آلام الحقد والحسد ، كما يتأوّه السليم (3) .

وصاحبُ الثأر لا يسكُتُ عن وِتْرِه (4) ، والمنفيّ أبداً يحنُّ إلى وطنه ، ثم هو يتعلّق بالرّثّ البالى من الآمال ، ويجرى وراء ما يدهن له الوهم من مَعْسول الخيال .

ولقد أصبح حيَيّ يوماً على زعمٍ زخْرَفَه (5) له الشيطانُ ، وَوَهْم زينته له

(*) سورة الأحزاب ١٠ وما بعدها .

(1) وقيذ ما بين الجوانح : كسير القلب .

(2) الجد : الحظ . (3) السليم : الملدوغ .

(4) الوتر : الثأر . (5) زخرفه : زينه .

خَوَادِعُ الآمال أن يجمع إليه نَفَراً من قومه ممن جَلَوْا عن أوطانهم ، وأكل الحقدُ قلوبهم ، ويُحَزِّبُوا[1] على محمد — صلى الله عليه وسلم — أعداءه ، فهم كُثر ، ويؤلِّبُوا عليه القبائل جميعاً ؛ فهم منه على وِتْر . . . ومَنْ يَدْرِى ؟ لعل محمداً تذهبُ دَوْلتُهُ ، وتسكن حركته ، ويعودُ أمرهم من الزعامة والعزّة كما كان .

وجمع حيىّ على هذا الزعم سَلاّم بن الحُقَيْق[2] ، وكنانة بن الربيع ، وهما من بنى النضير ، وهَوْذة بن قيس ، وأبا عمار ؛ وهما من وَائل ، ونفراً غير هؤلاء ممن ذهب مَذْهبهم ، وانطلقوا إلى قريش .

قالت لهم قريش :

يا معشرَ يهود ، دَعونا مما جئتُم فيه الآن ، وأخبرونا عما نسألكم عنه ، إنكم أهلُ الكتاب الأوّل ؛ وإليكم ينتهى عِلْمُ ما نختلف فيه ، وقد أصبحنا فى أمرنا على ريبة[3] ، ومن ديننا فى شكّ ، فماذا ترون ؟ أدينُنا خَيْرٌ أم دينه ؟ وآلهتنا حَقّ أم إلهه ؟

قالوا لهم :

أأنتم فى شكّ مِن دينكُم ؛ وفى ريب من عقائدكم ! تالله إنّ دينَكُم لَلحَقُّ ، وإن دين محمد لَلخُرَافة ، وإن آلهتكُم لهى التى تضرُّ وتنفع ، وتُعْطِى وتمنعُ ، وإن إلهه لا يدفعُ شراً ، ولا يجلبُ خَيْراً ، فحذار أن يدخُلَ الشكُّ إلى نفوسكم ، أو يجرى الظنُّ إلى عقائدكم ، فلا تَتَقَاعَسُوا[4] عن مناهضته ، ولا تَعْدِلُوا عن مُحاربته ، وسنجمعُ عليه معكم القبائل ونَدْعُوا العرب : سنُحَرِّضُ غطفان

---

(١) يحزبون : يجمعون الأحزاب والجماعات .

(٢) قتله عبد الله بن عتيق بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) الريبة : الشك . (٤) لا تتأخروا .

وَنُهِيب بأشْجَع ، وندْعُو بنى قُرَيظة ، وباتحادكم مع هؤلاء وهؤلاء لا تدَعُون شأنَ محمد يرتفعُ أبداً .

ثم ذهبوا إلى غطفان وحرّضوهم ، فوجدوا للتحريض عندهم مرتعاً خصيباً ، وذهبوا إلى أشجع ، فوجدوا عندهم صدْراً رحيباً ، ثم انطلقوا بعد ذلك إلى بنى قُرَيظة .

وكانت بنى قريظة تُسَاكِنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة على عَهْدٍ بينهم وبينه : ألاّ يُحاربهم ولا يحاربوه ، وأن يُهادنهم ويُهادِنُوه ، وأن يكونوا بعد ذلك على غيرهم أحلافاً . وظلُّوا قائمين على العَهْدِ ، حافظين للميثاق ، حتى وفد عليهم حُيَيّ بن أخْطب ومعاونُوه .

وسَمِعَ بمجيئهم كَعْب بن أسد القُرظيّ — وكان رئيسهم — فقال لقومه : لم يَقْصِدكم هؤلاء إلا لشرّ ؛ غلِّقُوا أبوابكم ، وصُمُّوا آذانكم ، فوالله ما يدفعونكم لخيرٍ أبداً .

وغَلّقُوا الأبواب ، وجاء حُيَيّ ، وقال : وَيْحَكَ يا كعب ! افتَحْ لى ، فما أنا إلا ابنُ عمك ، وعلى عقيدتك ، ولقد جئتُك فيما أرجو أن يكونَ فيه صلاحك وصلاحُ قومِك جميعاً .

قال كعب : إنك لأشأمُ الطَّلْعة ، مُتَّهَم النصيحة ، مُزَوّر فى الكلام . لقد عاهدت محمداً فلم أرَ منه إلا سِلْماً وَأَمْناً ، وإلاّ صدقاً وَوَفاءً ، ونحن — بنى قريظة — نعيشُ اليوم فى سلم من الأحقاد والأضغان ، وفى مأمن من المكايد والحروب .

قال حُيَيّ : إن محمداً — وإن عاهدك — ليس على دينك ، وإنْ صانعك فهو على بُغْضٍ مِنْ جوارك ، ويودّ لو أجلاك ، ولقد جئتك بعزّ الدهر ،

وبهزيمة محمد على الأيام . هذه قريشٌ بقادتها وسادتها ، ما زلت بها حتى جئتُ بها تحارب محمداً ، وهى الآن بمجتمع الأسيال فى طريقها إلى المدينة . وهذه غطفان ، وهؤلاء أشْجَع فى طريقهم إلى المدينة ، وإنهم فى حملتهم لصادِقُون ، وإنهم من نُصْرتِهم لواثقون .

قال كعب : جئتنى والله بذلٍّ الدهر ، وخيبة الرجاء ، وبجَهامٍ[1] قد هَرَاق[2] ماءه ، فهو يُرْعِد وَيُبْرِق ليس فيه شىء ، دَعْنى من حَرْبِ محمد ، فما أنا بناقض العهد ، ولا حانثٍ فى الميثاق .

ولكن حُيَيًّا ما زال بكَعْبٍ يزَوِّر له الغَدْر ، ويزخرِفُ له الفُجُور ، حتى لانت عرِيكَتُه ، ونقضَ العهد ، وخرج بقومه لقتالِ المسلمين !

* * *

ووفدت الأخبارُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنَّ قريشاً قد جَمَّعَت جموعها ، وظاهَرَتْها غطفان ، وتابعتها أشجع ، وأنهم جميعاً قد خرجوا لغَزْوِ المسلمين بالمدينة .

فتلَقَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الأخبار بحَزْمه وعزمه ، وإيمانه ويقينه ، وأمر المسلمين بحفرِ خَنْدَقٍ حَوْلَ المدينة .

وبينا المسلمون يتهيَّئون لصدِّ قريش ومَنْ حالفهم ، إذ بوَافِدٍ آخر يُلقى إلى رسولِ الله : أن بنى قريظة قد نَكَثَتْ عهودها[3] ، ونقضت وُعُودَها ، وأنهم حَسِبُوها فرصة ، وتخيلوها نُهْزَة[4] ، يطمعون من ورائها المسلمين .

(١) الجهام : السحاب لا ماء فيه . (٢) هراق : لغة فى أراق .
(٣) نكث العهد : نقضه . (٤) نهزة فرصة .

وفى هذا الليل الحالك من الفرقِ والفزَع ، وفى ذلك العِثْير[١] المنعقد من الخوف والهلَع ، ساق الله إلى المسلمين نُعيم بن مسعود ـ وهو رجل من رجال غطفان ـ وقال : يا رسول الله ، إنى قد أسلمت ، وإنّ قومى لم يعلموا بإسلامى فمُرْنى بما شئتَ.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنتَ فينا رجل واحد ، فخذِّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خُدْعة .

وذهب نُعيم أعزلَ من سلاحه ، مفرداً عن قومه ، ولكن بما وهبه الله من قبَسِ الإيمان ، وما نفخ فيه من رُوح اليقين ، كان يحمل عزيمةَ أمضى من السيف ، وهمةَ أثبت من الطَّوْد[٢] ، ذهب لا يحملُ سيفاً ، ولا يتنكّب قوساً ولكنه يرجو ـ بما رخّص له رسول الله صلى الله عليه وسلم من خِداعٍ ، وبما أباح له من نَسْج خيوطِ الدّهاء ـ أن ينالَ من الأعـــــداء مالا يُنال بالسيوف ، ويُصِيب فيهم مالا تُصيبه السهام .

ذهب إلى بنى قريظة ـ وكان نديماً لهم فى الجاهلية ـ وقال لهم : يا بنى قُرَيظة ، لقد عرفتم وُدِّى إياكم ، وَحُبىَّ لخاصّتكم وعامّتكم .

قالوا : صدقت ، لستَ عندنا بمُتَّهم .

قال : إن قريشاً وغَطفان ليسوا مثلكم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم ، وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تَحولُوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرْبِ محمد وأصحابه ، وقد ظاهَرْتُمُوهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فإن رَأَوها نُهْزَة[٣] أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحِقُوا ببلادهم ، وَخَلّوْا بينكم وبين الرجل ، ولا طاقة لكم به إذا خَلا بكم.

---

(١) العثير : الغبار .
(٢) الطود : الجبل .
(٣) نهزه : فرصة .

وعلم المسلمونَ بما هم عليه ، وبما وقعوا فيه : من تحزُّب الأحزاب عليهم ، وإحاطة العدوّ بهم من فوقهم ، ومن أسفل منهم ، فزاغت أبصارهم ، وهلعت قلوبُهم ، وعَظُمَ أمامَهم الكرب ، واشتد البلاء ، وأخذوا يظنُّون بالله الظنون .

أما المؤمنون فحسِبُوا أن هذه مِحنة الله ، وأنها امتحان لهم ، وابتلاء لمقدار جهادهم ؛ فهم يخافون الزَّلل ، ويخشون ضعفَ الاحتمال .

وأما المنافقون فقد قالت طائفة منهم : لقد كان محمد يَعِدُنا أن نأخذ كنوزَ كسرى وَقَيْصر ، وإن أحدنا لا يملك أن يذهب الآن لقضاء الحاجة : (مَا وَعَدَنا اللهُ ورَسُولُه إلاَّ غرُوراً)[1] .

وهَمَّت طائفة بالفرار ، وإيقاع الضُّعْف في صفوفِ المسلمين ، وجاءت تستأذنُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كذِباً ونفاقاً ، وخَتْــــلاً[2] وخِداعاً ، يقولون[3] : (إنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وما هيَ بِعَوْرَةٍ إنْ يُرِيدُونَ إلاَّ فِرَاراً)[4] .

ووقف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين أعداء من الأمام ، وأعداء من الظهر ، وأعداء في الصفوف :

ولو كان هَمًّا وَاحِداً لاتقَّيتُه ولكنَّهُ هَمٌّ وَثانٍ وثالث

***

---

(١) سورة الأحزاب آية ١٢ . (٢) ختله : خدعه .
(٣) سورة الأحزاب آية ١٣ .
(٤) العورة في الثغر والحرب : أمر يخاف منه .

قالوا : وما الرأىُ ؛ وقد عاهدناهم على أن نحاربَ معهم ، ونسلكَ فى عداوة محمد سبيلَهم ؟ قال : أنْ تأخذوا رُهُناً من أشرافهم ، يكونون بأيديكم حتى تُناجِزُوه ؛ وبذلك تكفلون صِدْقَهم ونصرتهم .

قالوا : لقد أشرتَ بالرأى .

وتركهم نُعَيم بعد أن بثّ خديعتَه فيهم ، وذهب إلى قريش فقال لهم : لقد علمتُم وُدّى لكم وبُغضى محمداً ، ولقد بلغنى أمرٌ قد رأيتُ حقًّا أنْ أبلغكم إياه ، نصحا لكم ، وخشية عليكم ، فاكتُموه عنى ، تعلموا أنّ بنى قريظة قد ندِمُوا على ما صنعوا بينهم وبين محمد ، ولقد أرسلوا إليه : إنّا قد ندِمْنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أنْ نأخذَ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم ، فنعطيكهم فتضرب أعناقَهم ، ثم نكون معك على مَنْ بقى منهم حتى تستأصلهم؟ فأرسل إليهم ، أنْ نَعَمْ ، فإنْ بعثوا إليكم يلتمسون رُهُناً من رجالكم فلاتدفعوا إليهم أحداً .

ثم تركهم وذهب إلى غَطفان ، وحدّثهم بمثل ما حدّث قريشاً ، وانخدعوا له كما انخدعت قريش ، وترك نعيم الجمعَ ينظرُ ما يكون .

***

وفى ليلة السبت من شوال أوفدت قريش وغطفان عِكْرِمةَ بن أبى جهل فى نفر منهم إلى بنى قريظة يستنفرونهم[1] للقتال .

قال عِكْرِمة لرؤسائهم : إنّا لسنا بِدَارِ مقام ، قد هلك الخُفُّ والحافر ، فاغْدُوا للقتال ، حتى تُنَاجِزَ محمداً ، ونفرغَ مما بيننا وبينه . فقالوا له : إنّ اليوم يوم سَبْت لا نعملُ فيه شيئاً ، ولو فعلنا لعادَ الخِزْى والخِذْلان علينا ، ولسنا

(١) يطلبون منهم أن يخرجوا للقتال .

مع ذلك بالذين نقاتلُ معكم محمداً حتى تُعطُونا رُهُناً من رجالكم يكونون بأيدينا حتى نناجِزَ محمداً ، فإنا نخشى إن ضرّستْكم الحَرْبُ[1] ، واشتدَّ عليكم القتال، أن تتشمّروا[2] لبلادكم ، وتتركونا ومحمداً ، ولا طاقة لنا بقتاله .

ورجعوا إلى قريش وغطفان ، وحدّثوهم بما قالت بنو قريظة ، فقالوا : والله إن ما حدّثكم به نعيم بن مسعود لَحَقّ ، وعادت الرسلُ إلى بنى قريظة ، وقالوا لهم : والله لا ندفعُ إليكم من رجالنا أحداً ، فإن كنتم تُريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا .

فقالت بنو قُريظة ، حين انتهت إليها الرسلُ بهذا : والله ؛ إن ما ذكره نُعيم لحقّ ، وحينئذ وقع التخاذُل فى صفوفِ الأحزاب ، ودبَّ الرُّعْبُ فى قلوبهم .

أما قريشٌ فقد بعث الله عليهم الريحَ فى ليل شاتٍ ؛ فكَفَأتْ[3] قدورَهم ، وطرحت آنيتهم ، وزادت فى تخاذُلهم ، وقَفَلوا إلى مكة راجعين مُذْعورين ، (وردَّ اللهُ الذينَ كفرُوا بغَيْظِهِمْ لم ينالُوا خيراً وكفَى اللهُ المُؤْمِنِينَ القتالَ ، وكان اللهُ قويّاً عَزِيزاً)[4] .

ورجع رسولُ الله إلى الذين ظاهروا قريشاً وغطفان من بنى قريظة ، فوجدهم أيضاً قد قذف الله فى قلوبهم الرُّعب ، وأوقع عليهم الفزَع ، فانتقم منهم ، وأنزلهم من حُصونهم وصَيَاصيهم[5] ، ثم عاقب رجالهم بالقَتْل ونساءهم بالسَّبْى والأسْر ، وأورث الله المؤمنين أرضهم وديارَهم ، (وكان الله على كل شىء قديراً).

---

(١) ضرسته الحرب : جرسته وأحكمته .
(٢) تشمر للأمر : تهيأ وجد .
(٣) كفأت قدرهم : قلبتها .
(٤) سورة الأحزاب ، آية ٢٥ .
(٥) الصياصى : الحصون .

قصة الإفك

ضرب الليل رِوَاقَه على الصحراء وكساها رِدَاءً من السُّكون ، فصارت قطعةً سوداءَ مظلمةً ، لا يكادُ الساري فيها يَرَى رفيقَه ، وهى فضاءٌ هادِئٌ ، حتى لتكادُ الأذنُ تسمَعُ دبيبَ الدابّة ، وحركة النملة إذ تسير .

ويظهر فيها بدوي مُلتفٌ فى ردائه ، يُعْمِل[1] الناقة ، ويجهد فى السير ، وكأنه مطلوب هارِب ، أو طالبٌ مُجدٌّ . . .

وكان صفوان بن المعطّل السُّلمى قد تخلّف لبعض حاجته عن جيش الرسول ، وهو عائدٌ من غَزْو بنى المُصطَلِق إلى المدينة ، وهو الآن يطلبُ القومَ ليلحقَهم ، ويَقْفُو أثرهم ليسير معهم ، ولكنه يَلمَحُ فى سيره شخصاً ملتفًّا فى ثيابه ، مطويًّا على نفسه ، وهو غارق فى نومه . وكأنه ذاهبٌ فى أحلامه ، فنزل عن ناقته ، واتّجه صَوْبه ، يمشى على أطرافه ، خشية أن يُفزِعَه أو يُخيفه .

وما كان أشدَّ ذهوله ، وأعظم دهشته ، حينما تبيَّن الشخص ، فإذا هو عائشة[2] أم المؤمنين ، مغرقةً فى نومها ، ملتفةً فى ثوبها ، فى هذا المهمه[3] القفر ، والظلام الحالك ، ولم يستطع أن يملكَ صَيْحته ، أو يكتم دَهْشته ، فصاح : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ظعِينة[4] رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فاستيقظت عائشةُ

(*) سورة النور : ١١ – ١٢

(١) يعمل الناقة : يجهدها فى السير .

(٢) كان صفوان قد رآها قبل أن يضرب الحجاب .

(٣) المهمه : المفازة البعيدة . (٤) الظعينة : المرأة ما دامت فى الهودج

مذعورةً على ترْجيعه[1] وصَوْته ، وخمّرت[2] وجهها بجلبابها ، فقال لها : ما خَطْبُكِ يرحمك الله ! فما استطاعتْ أن تردّ عليه جوابا ، حياءً وخجلا ، ثم قدّم إليها راحلته فركبتها ، وأخذ هو بزِمامها ، وانطلق يطلبُ رسول الله ، وظلّ طريقَه ما التفت إليها ولا حدّثته نفسُه بحديثها ، حتى أدرك القوم مُعَرِّسين[3] فى الظّهيرة .

وسألها رسولُ الله : ما خَطْبُها ؟ وفيم تخلّفها ؟ قالت : سمعتُك ليلةَ الأمس تؤذِّن فى القوم بالرحيل ، فذهبتُ لقضاء بعض شأنى ، ولما عُدْتُ إلى رَحْلى تفقّدْتُ عِقْدى فإذا هو قد انسلّ من عنقى ، فذهبت فى طَلَبه ، ولما عُدْتُ وجدتُ القومَ قد ارتحلوا ، ما فيهم داعٍ ولا مُجيب ، فتلففتُ فى ثيابى ، ولزمتُ مكانَ رَحْلى ، لعلكم إذ تفتقدوننى فلا تجدوننى تعودُون فى طلبى ، ثم ضرب الله على أذنى فنِمْتُ ، وما استيقظتُ إلا على صوتِ صفْوان .

وصدّقها رسولُ الله فى حديثها ، ولم يخالطه الشكُّ فى أمرها ، إذ هى عائشة بنت أبى بكر فى شرَفِ مَنْبتها ، وطهارةِ عِرْقها[4] ، وهى عائشة زوجُ رسولِ الله فى عفّةِ أديمها ، وكَرَمِ دِخلتها[5] .

حَصَانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بريبة[6]
وتصبحُ غَرْثَى من لحوم الغَوَافِلِ[7]
عَقيلة حىٍّ من لؤى بن غالب
كِرَام المساعى مَجْدُهم غيرُ زائل

---

(١) ترجيعه : قوله : إنا لله وإنا إليه راجعون .
(٢) خمرت وجهها : وضعت عليه الخمار .
(٣) معرسين : مقيمين . (٤) العرق : الأصل .
(٥) الدخلة : الطوية . (٦) تزن : تتهم . (٧) غرثى : جائعة .

مهذبة قد طيّب اللهُ خِيمَها[1]   وطهّرها من كلّ سوء وباطل

أما عُصبة الكذب وجماعة السوء فإنهم ما رأوا عائشة يقودُ راحلتها صفوان مُقبلين من الصحراء حتى أخذوا يتخرَّصون[2] الكذبَ، ويقفُون في شرف عائشة، ويتهمونها في صَفْوان.

قال عبد الله بن أُبيّ حينما رآهما: والله ما نجَتْ منه، ولا نجا منها!

وفشت هذه المقالة بين الناس، وتبع مِسطح ابن أبيّ، وتبعهما حسّان وزيد ابن رفاعة، وحَمْنَة بنت جَحْش، ثم أخذوا يَهضِبون[3] في القول ويزيدون، حتى بلغ الخبرُ رسول الله، وسقط في أذنى أبي بكر، وتحدّث به الصغير والكبير، والداني والبعيد.

وظلّ القومُ في هَرْجهم ومَرْجهم، واتّهامهم، ودفاعهم، وشكّهم ويقينهم حتى وصلوا إلى المدينة؛ كلُّ هذا وعائشةُ لا تعرف شيئاً مما في نفس القوم، ولم يقع لها كلمةٌ مما خاض فيه الناس، ولكنها حين ذهبت إلى بيتها تخوّنتها[4] الحمى، ومسّها المرض، فلزمت الفراشَ، وتلمّست الشفاء، وترقبت من رسول الله صلى الله عليه وسلم — كما اعتادت — قلباً عطوفاً، ورحمةً مبسوطة الجناح؛ فما ظفرت منه إلا بنظرة خاطفة وسؤال قصير: «كيف تِيكم؟» لا يزيدُ على ذلك، فأهمها وأكربها[5]، وزاد من سقمها، وضاعف من علتها.

ما بالُ رسول الله لا يَرِقُّ لحالها، ولا يرثى لمرضها، ولا يَحفل بشأنها؟! ذلك مالا تعرفه عائشة، ولا تستطيعُ أن تربط فيه علّةً بمعلول، أو سبباً بمسبَّب ولهذا استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لتذهبَ إلى بيت أبيها، لعل في البعد ما يُثيرُ حنانَهُ، ويعطف من قلبه.

(١) خيمها: سجيتها.
(٢) تخرص عليه: افترى.
(٣) يهضبون: يفيضون.
(٤) تخونتها الحمى: أضعفتها.
(٥) أكربها: غمها.

وأذِنَ لها ، وقضَتْ في بيت أبيها بضعاً وعشرين ليلة تُعاني المرض وتحتمل الداءَ ، حتى أبلّتْ من مرضها واستفاقَتْ من علتها .

وخرجت يوماً إلى فُسَح المدينة ومعها أم مِسْطح بنت أبي رُهْم ، وإنهما ليمشيان إذ عثرت أم مسطح في مِرْطها[1] فقالت : تَعِس مِسْطح ! قالت عائشة : بئس — لَعَمْرُ الله — ما قلتِ لرجل شهد بدراً ! قالت لها : أو ما بلغكِ الخبر يا بنت أبي بكر ؟ قالت عائشة : وما الخبرُ ؟ فحدّثتها بما كان من أصحاب الإفك، وما تَقَوّل به مسطح وحسان ، وما أذاعه ابنُ أبيّ ، وما تَزيّدَت فيه حَمْنة بنت جحش ...

قالت عائشة : أوَكان هذا ؟ !

قالت : نعم ، والله كان . .

قالت عائشة : هيّا بنا نعود ، وانكَفَأت[2] إلى البيت تبكي ما تَرْقأ[3] لها دمعة ، ولا تسكُن منها لَوْعة ، ثم قالت : يا أمّاه ، يغفرَ اللهُ لك ، تحدث الناس بما تحدّثوا به ، ولا تذكرين من ذلك شيئاً ؟ ! قالت : أي بنيّة ، خففي عليك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأةٌ حسناء عند رجل يحبُّها ولها ضرائر ، إلا أكْثرْنَ عليها .

* * *

ومضى شهرٌ ورسول الله صلى الله عليه وسلم في حَيْرَة من أمرها ، وَرَيب من قضيتها ، يتطلعُ إلى الوحي ، ويتشوّف إلى الرُّؤيا ، عله يجد فيهما مخرجاً من أمره ، وسكوناً من حيرته ، وكشفاً لِشُبْهَته ؛ ولكن لم ينزل الوَحي ، ولم تُتَحْ له الرُّؤيا، فرأى أن يَسْتَفتي ويستشير . .

(١) المرط : كساء من صوف أو خز . (٢) انكفأت : رجعت .
(٣) ما تجف وتنقطع .

سأل صلى الله عليه وسلم زينبَ بنت جحش وكانت ضرَّتها ، وتزحمها في مكانتها ـ فقالت : أحْمِى[1] سمعى وبصرى ، والله ما علمتُ عليها إلاّ خيراً . .

وسأل أسامة بن زيد ، فقالَ : أهلكَ يا رسولَ الله . . وما علمنـــــــا إلاّ خيراً . .

وسأل عليّ بن أبي طالب ، فقال : النساء غيرها كثير ، وسَلْ بَرِيرَة جاريتها تصدقكَ الخبر . .

وجاءت بريرة ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيتِ شيئاً يَرِيبك ؟ فقالت : لا ، والذى بعثكَ بالحقّ ، ما رأيتُ منها أمراً أغمصه[2] عليها قطّ ، أكثر من أنها حديثةُ السنّ ، تنامُ عن العجين ، فيأتى الدَّواجنُ فتأكله ! !

* * *

وفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من استشارة مَن استشار ، ولم يَرَ في حديثهم شيئاً يَزِنُ عائشة أو يَصِمُها[3] ، فخرج إلى الناس مُغضباً ، وقال : أيها الناس ، ما بالُ رجال يُؤذُونني في أهلى ، ويقولون عليهم غيرَ الحق ؟ والله ما علمت منهم إلا خيراً ، وقد ذكروا رجلاً ما علمتُ منه إلا خيراً ، وما يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى ؟ !

ثم ذهب إلى عائشة في منزل أبيها ، فوجدها تبكى ، ووجد امرأةً من الأنصار تبكى معها ، وعندها أبواها ، فسلم عليها ، وقال : يا عائشة ، إنه قد

---

(١) أحمى سمعى وبصرى : أمنعهما من أن أنسب إليهما ما لم يدركا .

(٢) غمصه : عابه . (٣) يزنها : يتهمها ، ويصمها : يعيبها .

كان ما بلغك من قول الناس ، فاتقى الله ، فإن كُنتِ قد قارَفْتِ[1] سوءاً مما يقول الناس فتوبى إلى الله ، فإن اللهَ يقبلُ التوبة عن عباده .

ولكنها لم تستطع جواباً ، ثم التفت إلى أبيها ، وقالت : أَجِبْ عنى رسول الله ، فقال : واللهِ ما أدرى ما أقول ، فالتفت إلى أمها وقالت : أجيبى عنى رسول الله ، فقالت ؛ والله ما أدْرِى ما أقول .

ولما لم تَرَ منْ أبويها قولاً يَنفَحُ عنها ، أو دفاعاً يمزِّقُ خيوطَ الشكِّ التى نُسِجَتْ حولها قالت : واللهِ ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخلَ على آل أبى بكر فى هذه الأيام .

ثم استعبرتْ ـ رضى الله عنها ـ وقالت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً ، والله إنى لأعلم لئن أقررتُ بما يقول الناس ، والله يعلم إنى منه لبَرِيئة ، لأقولن ما لم يكن ، ولئن أنكرتُ ما يقول الناس لا تُصَدِّقونى ، ثم أجهشت بالبكاء ، والتمست أن تذكرَ اسم يعقوب عليه السلام فغاب عنها ، فقالت : ولكنى أقول لكم كما قال أبو يوسف : (فَصَبْرٌ جَميلٌ واللهُ الْمُسْتَعانُ عَلَى ما تَصِفُون)[2] .

فأطرقَ رسولُ الله ، وَوَجَم أبو بكر[3] ، وتنهدت أمُّ رُومان[4] ، وبينما هم على هذه الحال ، إذ تغشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يَتغشّاهُ حين نزول الوَحى ، فَسُجِّىَ[5] بثوبه ، ووضعت وسادة تحت رأسه ، وعندذلك علمت عائشة أن الوَحى سيفصل فى أمرها ، وسيزيحُ الشكَّ عن قضيتها ،

---

(١) قارفت : ارتكبت . (٢) سورة يوسف ، آية ١٨ .
(٣) الواجم : الذى اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام .
(٤) أم رومان : هى زوج أبى بكر وأم عائشة .
(٥) سجى : غطى

فترقبت رَ بيطة الجأش ، ساكنة الجوارح ؛ إذ كانت عارفة بنفسها ، واثقة من نزاهتها ، وطهارة ذيلها .

أمَّا أبواها فإنهما ما أحسَّا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلَّقى الوحى حتى انماث[1] قلبُهما من الفزع ، وكادت تتزايل أعضاؤهما من الجزع ، أن يأتىَ الوحى بتصديق ما قال الناس .

ثمَّ سُرِّى عن رسول الله ، وإنَّ قطرَات مِنَ العرق لتنحدَّرُ منْ جبينه مثل الجُمان ، وقال : أبشرى يا عائشة ، لقد أنزل اللهُ براءتك فى قرآن يُتْلى بين الناس ، ثم أخذ يقرأ :

(إنَّ[2] الذينَ جاءوا بالإفكِ عُصْبَةٌ مِنْكُم لا تحْسَبُوهُ شَرًّا لكُمْ ، بلْ هُوَ خَيْرٌ لكم ، لِكُلِّ امْرِئٍ منهُمْ ما اكْتَسَبَ مِنَ الإثمِ ، والذى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنهمْ لهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلا إذ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المؤمنونَ والمُؤمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خيراً وَقالُوا : هذا إفْكٌ مُبينٌ * لَوْلاَ جاءوا عليهِ بأرْبَعَةِ شُهَداء ، فإذْ لم يَأتوا بالشُّهَدَاءِ فأولئكَ عندَ اللهِ هُمُ الكاذِبُونَ * وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيكُم وَرَحمتهُ فى الدنيا والآخرة لَمَسَّكم فيما أفضْتُمْ فيهِ عذابٌ عظيمٌ * إذ تَلَقَّوْنَهُ بِألسنتكم وتقُولُونَ بأفْوَاهِكمْ ما ليسَ لكم بهِ عِلْمٌ ، وَتحْسَبُونهُ هَيِّناً وهوَ عندَ اللهِ عظيمٌ * وَلَوْلا إذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلتم ما يَكونُ لَنَا أنْ نَتَكلم بهذا ، سُبحانكَ هذا بُهتانٌ عظيمٌ * يَعِظُكم اللهُ أن تعودُوا لِمثلهِ أبدًا إن كُنتُمْ مُؤمنينَ * وَيُبَيِّنُ اللهُ لكم الآياتِ

(١) انماث : ذاب .

(٢) النور : ١١ — ٢١ .

والله عليم حكيم * إنّ الذين يحبّون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأنّ الله رءوف رحيم * يأيها الذين آمنوا لا تتّبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتّبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ، ولكنّ الله يزكى من يشاء والله سميع عليم).

المنافقون (*)

ظهرت رسالةُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، فهزّتِ المشاعرَ وشقّت القلوب ، وتغلغلت فى قرارةِ النفوس ، واطّردَ سبيلها فى الأرجاء ، وانتشر أمرُها فى كل مكان .

لكن ثلاثةً من صنوفِ الأعداء أخذُوا يقاوِمُونَها ، ويُوقِعُونَ النّكاية بها ، والكيْدَ لها ، خوفاً على زَعامتهم ، أو حِرْصاً على رِياستهم ، أو حَسَداً من عند أنفسهم : مشركو قريش بمكة ، واليهودُ بالمدينة ، والمنافقون بين الإسلام والكفر .

أما المشركون فقد أعلنوا كُفرَهم صريحاً ، وأبْدَوا عداوتهم جِهاراً ، وأقاموها حَرْباً لا تنطفىء جذْوَتُها ، ولا تَسْكن وَقْدَتُها[1] . وأما اليهودُ بالمدينة فإنهم ما كادُوا يَرَوْن رسول الله بين ظهرانيهم حتى نَفِسوا عليه رسالته ، وحسدُوه نِعْمتَه ، وأنكروا زعامَتَه ، وسلَكُوا سبيلَ أشباههم من كفّار قريش ، كُفراً وعِناداً وحَرْباً وعداء .

فأصبح رسول الله - من هؤلاء وهؤلاء - على المحجّةِ الواضحة ، والعداوة الصريحة ، يحارِبُهم أحياناً ، ويُهَادِنُهم أحياناً ، وهو فيما بين ذلك يرجُو أنْ يغلبَهم أو ينتهى بهم إلى الإسلام والإذعان .

وأما المنافقون فقد كانوا قوماً من الأنصار أبناء عُمُومة ، أبْطَنُوا[2] الكفر

(*) سورة المنافقين .

(1) الوقدة : أشد الحر .

(2) أبطنوا : أخفوا .

وأضمروا العداء ، ثم أعلنوا الإسلامَ وتظاهَروا بالمحبة الصافية ، وانتحَلوا الإخاء المصفّق[١] ، واصطنعوا الودَّ المنخُول ، وإنَّ قلوبهم لتنطوى على المرض والحقد ، والغدْر والمكر : زعموا أن سيوفَهم مع المسلمين ، صَدَقوا ، ولكن قلوبهم كانت مع الكفار ، وزَعمُوا أنهم خالصون خيِّرون ، كذبوا ! هم جُبناء أخِسّاء أشرار (وإذا لَقُوا الذينَ آمنُوا قالُوا آمَنَّا ، وإذا خَلَوْا إلى شياطِينهمْ قالُوا إنّا مَعَكُم إنّما نَحْنَ مُسْتَهزِئُونَ)[٢] .

لم يقولوا كلمة الإسلام فى صِدْق فينتظموا فى عِقْدِ الأنصار ، ولم يُعلِنُوا الكفرَ واضِحاً فيُجْرِى عليهم الرسولُ حُكْم الكفّار : مُذَبذَبين بين ذلك ، لاَ إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ولهذا كانوا أشدَّ ضرراً ، وأبلغ فى الأذى أثراً ، إذْ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان فى استطاعته إلاّ أن يكتفىَ بظاهرِهم ، ويَكِلَ إلى الله ما فى سَرَائِرهم ، وكان ظاهرُهم السلم والإسلام ، وباطنهم الكفر والكُفْران ؛ وظلُّوا على هذا شوكةً فى جَنْبِ المسلمين ، وقذًى فى العيون ، وقرْحة فى الأكباد ، حتى كان يوم بَنِى المُصْطلق : وعلى ماء المرَيْسيع[٣] ، إذْ هتكَ اللهُ أستارَهم ، وكشف مُخبّآتِ ضمائرهم ، ودَمَغهم بآياته ، وأظهَرَ زائفَهم بكلماته .

* * *

بعد أن فرغ رسولُ الله من أمْر بنى المصطلِق ، ووَرَدَتْ واردةٌ من الناسِ تَستقى الماء ، وتذُود الخيلَ والإبلَ حول ماء يسمُّونه المُرَيْسيع ؛ وازدحم الشَّرْب[٤] ، وتدافعت الدوابُّ ، وضاق المكانُ ، وتلاقى على الماء جَهْجاه

---

(١) الإخاء المصفق : الصافى .

(٢) سورة البقرة ، آية ١٤

(٣) المريسيع : ماء لبنى خزاعة .

(٤) الشرب : جماعة من الشاربين .

ابن مسعود الغِفارى ، أجير عمر بن الخطاب — وكان يقودُ فرسَه — وسِنان ابن مسعود الجُهنىّ ، حليف بنى عَوْف من الخَزْرج ، ووقع بينهما ما أثار الشرّ ، وأضرم الغيظ ، وهاج البغضاء ، فنادى الغِفارى : يا للمهاجرين ! ونادى الجهنى : يا للأنصار ! ودعَوَا إلى جاهليةٍ قضى عليها الإسلام ، وأهابا مصيبة مُنتِنةٍ عَفّى عليها القرآن .

اثنان من عِدَادِ المسلمين اقتتلا : واحدٌ من المهاجرين ، وواحد من الأنصار وشَجَر بينهما عداء ، فما شأنُ المهاجرين ، وما شأن الأنصار ؟ وقد أصبحوا بنعمةِ الله إخواناً ، وأحباباً وأعواناً ، يَدٌ على منْ سِوَاهم ، وأمرهُم جميع على منْ عَدَاهم ، وُدُّهم غيرُ مُتّهم ، والعهد بينهم غير مُضاع ؟ !

ولكن ما أسرع ما وجدَتْ هذه المقالةُ عند المنافقين رواجاً ، وفى قلوب المتردّدين استئناسا وقبُولا .

وكان عبدُ الله بن أبىّ بن سلُول رَأْسُ الكفر ، وكَبْشُ الضلال ، وزعيمُ جماعة المنافقين ؛ فما سَمِعها حتى هشّ لها وَبَشّ ، ثم راح ينفُثُ لها سمومَ مَكْرِه ، ويُعلِن مكنونَ غَيظه ، ويُفصِحُ عن مخبَّآت حِقْدِه ، وجمع رَهْطا من قومه ممن لَفّ لَفّه ، ونهج سبيله ، وقال لهم : ما رأيتُ كاليوم مذلة ! أوقد فعلوها ؟ نافَرُونا فى ديارنا وكاثرونا فى بلادِنا ؛ ما نحن والمهاجرون إلا كما قال الأول : سمِّنْ كَلْبَكَ يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنّ الأعزُّ منها الأذَلّ ، هذا ما فعلتم بأنفسكم ، وصنعتُم لأقوامكم !

أما واللهِ لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير دِيارِكم ، ونزَحُوا لغير بلادكم ؛ أو لا ترون إلى أنفسكم ، جعلتُم منكم دون محمد أغراضاً للمنايا ، وأهدافاً للرّزَايا ، وطلائع للخيول ، ثم عُدْتُم بالولد اليتيم والطفل

الُلطيم[1] ! يا قوم ؛ لو أردتم الخير لأنفسكم لا تنفقوا على هؤلاء المهاجرين حتى ينفَضوا ، ولا تلاقوهم بوَجْهٍ حتى يظعنوا .

وكان حاضراً مجلِسَه زَيْدُ بن أرقم ، فتًى حديث السنّ ، حسنُ الإسلام ، شديدُ الحبّ للرسول ، شديدُ الغَيْرة على جمْعِ كلمة المسلمين ؛ فقام إليه غيرَ عابىء بزعامته ، أو هيّاب لمكانته ، وقال : أنتَ والله الذليلُ القليلُ ، المبغّضُ فى قومك ، المشنُوء[2] فى عَشيرتك ، ومحمّد إنما هو فى عزّ مِنَ الرحمن ، وقوةٍ من المسلمين .

ثم قام من فَوْرِه إلى رسول الله ، ونفَضَ عليه ما قال عبد الله ؛ فظهرت الكراهيةُ فى وَجْه رسول الله ، واختلج الهمُّ بين عينيه ؛ أن رأى قَرْن الفتنة بين المسلمين يَطْلُع ؛ وأصبع الشيطانِ تلعبُ ، ونارَ الشرّ تَسْرِى وتَدِبّ .

قال الحاضرون من شيوخ الخزرج : يا رسول الله : شيخنا وكبيرنا ، لا تصدِّقْ عليه كلامَ غلامٍ ؛ عسى أن يكونَ قد وهِم . فتلفّت رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى زَيْدِ بن أرقم وقال له : لعلك غضبْتَ عليه ؟ قال : لا . قال : فلعله أخطأ سمعُك ؟ قال : لا . قال : فلعلّه شُبِّه عليك . قال : لا .

ودَعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أُبَىّ ، وقال له : أنتَ صاحبُ الكلام الذى بلغنى ؟ فقال — فى غير تحفّظ ولا استحياء : واللهِ الذى أنزل عليك الكتاب ما قلتُ شيئاً من ذلك ، وإنّ زيداً لكاذِب ! وهكذا حلف كاذِباً ، واتخذَ يَمِينَ اللهِ جُنّة وسِتَاراً ، واللهُ يعلم إنه لكاذِب ، ومعارفُه تتحدّثُ بأنه كاذب .

وقال عمرُ بن الخطاب : يا رسولَ الله ، مُرْ بقَتْله . فقال رسول الله صلى الله

---

(١) اللطيم : من يموت أبواه .　　(٢) المشنوء : المكروه .

عليه وسلم : فكيف يا عمرُ إذا تحدَّث الناسُ أنَّ محمداً يقتلُ أصحابه ، ولكن أذِّنْ بالرَّحيل .

وارتحل الناسُ فى ساعةٍ مُبكرة ، لم يكن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يرتحلُ فيها ، وذلك ليشغلَ الناس عن الفتنة ، ويصدَّهم عن دعوَى الجاهلية ، وإذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريقه لقيه أُسَيْد بن الحُضَير ، فدُهِش أن رأى القومَ قد ارتحلوا فى ساعةٍ مبكرة ، وقال : يانبيَّ الله ، والله لقد رحلْتَ فى ساعةٍ مبكِّرَة ما كُنْتَ تَرُوحُ فى مِثْلها ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوَما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال : وأيَّ صاحبٍ يا رسول الله ؟ قال : عبدُ الله بن أُبيّ ، قال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إنْ رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل . قال أُسَيد : فأنتَ يا رسول الله — والله — تخرِجُه منها إن شئت ، هو والله الذليل ، وأنتَ العزيز ، ثم قال : ارْفُقْ به يا رسولَ الله ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومَه لينظِمُون له الخرز ليتوِّجُوه(١) ، وإنه الآن ليرى أنك قد استلبتَ منه مُلْكاً ، ونزعْتَ منه رياسة ، وهو أبداً من الحسد فى هَمٍّ ناصب(٢) ، وقَلْبٍ حانق .

ومضى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى سَيْرِه حتى انتهى إلى المدينة ، وما استقرَّ فيها حتى نزل عليه : (إذا جاءكَ المنافقُونَ قالوا نَشْهَدُ إنكَ لرَسُولُ الله والله يَعْلَمُ إنكَ لرسولهُ ، والله يَشْهَدُ إنَّ المنافقينَ لكاذِبونَ * اتخذُوا أيمانهمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سبيلِ الله إنهمْ سَاء ما كانوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بأنّهمْ آمَنُوا ثمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفقَهُونَ * وإذا رَأَيْتَهمْ تُعْجِبُكَ أجْسَامهمْ وإنْ يَقُولُوا تَسْمَع لقولهم كأنهمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كلَّ صَيْحَةٍ عليهم ، هُمُ العَدُوُّ فاحْذَرْهُمْ ، قاتلهم اللهُ أنّى يُؤْفَكُونَ *

---

(١) يجعلوه ملكا عليهم .

(٢) هم ناصب : ذو نصب وتعب .

وإذا قيلَ لهم تعالَوْا يستغفرْ لكم رسولُ اللهِ لَوَّوْا رءوسهمُ ورأيتهمْ يصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ عليهمْ أستغفرتَ لهم أمْ لم تستغفرْ لهمْ لَنْ يَغفِرَ اللهُ لهمْ إنَّ اللهَ لا يَهْدِي القومَ الفاسقين * هُم الذِينَ يقولونَ لا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حتى يَنْفَضُّوا وَللهِ خَزائنُ السَّمٰواتِ والأرض ولٰكنَّ المنافقينَ لا يَفْقَهُونَ * يقولون لئنْ رَجَعْنا إلى المدينةِ ليُخْرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذَلَّ وللهِ العِزَّةُ ولرسُولهِ وللمُؤْمِنِينَ ولٰكِنَّ المنافقِينَ لا يَعْلمُونَ)[1] .

فتلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين ، ثم قرب إليه زيداً ، وعَرَكَ أذُنه ، وقال له : وفَتْ أذُنك يا غلام ، إن الله قد صدقك وكذّب المنافقين .

أمّا عبدُ الله فقد اعترضه ابنُه خارج المدينة – وكان مسلماً خالصَ الإسلام – وقال له : وراءك ! والله لا تدخلها حتى تشهد على نفسك بالذِّلةِ وبالعزّةِ للهِ وللرسول والمؤمنين . ولكن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : جزاكَ الله عن رسوله وعن المؤمنين خيراً ، وأمره أن يُخَلِّيَ سبيله ، علّه أن يتوب .

---

(١) سورة المنافقون من آية ١ — ٨

نبأ الفاسق (*)

غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى المصطلق ، وقُتِلَ فى الغَزْوِ من قُتِلَ منهم ، ثم أصهر[1] إليهم وتركهم بعد ذلك مُسْلمين ، ولما رجع إلى المدينة أرسل إليهم الوليدَ بن عُقْبَة ليأخذ الصدقاتِ من أغنيائهم فيردَّها إلى فُقَرَائهم ولما سمعوا بقدومه تهيَّئُوا لاستقباله ، وخرجوا للاحْتِفاء به ، وكان بين الوليد وبين بنى المصطلق إِحَنٌ قديمة ، وَغِلٌّ موروث ، فحسِبَ أنهم إنما خرجوا يريدون به شرًّا ، ويَبْغُون به كيداً ؛ فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يَزْعُمُ أنَّ القومَ قد ارتدُّوا عن الإسلام ، وامتنعوا عن إيتاء الزكاة ، وأنهم وقَعُوا فى الجلَى والخطيئة العظمى .

فغضب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وغضبَ لغَضَبِه المسلمون ، ثم تهيَّأ لغزوهم ، وردِّهم على أعْقابهم ، ولكنَّ الخبر سَرَى إلى بنى المصطلق ، وهم برآء مما رماهم به الوليد ، بعيدون عما وصل مِنْ أمرهم إلى الرسول ؛ إذ ما برحُوا مسلمين حَقًّا ، قائمين على قواعد الإسلام صِدْقاً ، ثم ألَفُوا وفدَهم ، فذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فألفاه متهيئاً للغزو ، متحفِّزاً للمسير .

قالوا : يا رسول الله ، سَمِعْنا برسولك حين بعثته ، فخرجنا إليه لِنُكْرِمَه ، ونؤدى إليه ما عندنا من الصدقة ، فانشمر[2] راجعاً ، ثم بلغنا أنه زعم إليكَ

(*) سورة الحجرات ، آية ٦ وما بعدها .

(١) أصهر إليهم وبهم : صار فيهم صهراً . والصهر : زوج بنت الرجل وزوج أخته

(٢) انشمر : جد فى الرجوع .

أنَّا خرجنا إليه لنقْتُله ، وأنا ارتَدَدْنا عن الإسلام ، وامتنعنا عن الزكاة ، ولكننا ما كفرنا بالله مُنذ آمنَّا ، ولا انسلخنا عن الإسلام منذ دخلنا فيه .

فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين خَبَرِ الوليد وَخَبَرِهِم لا يَقضِى بأمر ، ولا يَفصِلُ بحكم حتى نزل عليه : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ * وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ[1] وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)[2] .

---

(١) لوقعتم فى العنت : وهو الجهد والهلاك .

(٢) سورة الحجرات آية ٦ ، ٧

الفتح(*)

الرؤيا

انتبه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مِنْ نَوْمه على طَبَعٍ مُرْتاح ، وَصَدْرٍ مشروح ، وَعَزْم نشيط ، ثم دعا إليه بِطَانته وَصَحْبه ، فَرَأَوْهُ جميعاً بارِقَ الأسارير[1] ، طَلْقَ المحيّا[2] ، وَاضِحَ البِشْر والسرور .

تُرَى ما وراء هذه النفس الراضية ؟!

وما وَرَاء ذلك الوجه المتهلّل ؟!

لعل هناك خبراً بهيجاً ، أو نبأ عظيماً .

وما اطمأنَّ بهم المكانُ ، وامتلأت بهم رَحْبَة المسجد ، حتى أفضى إليهم برؤيا ضاءت لها نفوسهم ، واهتزّت منها مَشَاعِرُهم ، وغرّدت خواطرُ آمالهم : (لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ)[3] فاشحذوا عَزْمَكم للسفر ، وخذُوا أهبتكم للرّحيل ، وَلْتَكُنْ غايتُكُمْ العُمْرةَ والطّوَاف ، ولا يَفوتنّكم أن تَصْحَبُوا البُدْنَ[4] ، وَتُشْعِرُوا[5] الهَدْى[6] ؛ تكريماً للبيت العَتيق .

(*) سورة الفتح .

(١) الأسارير : محاسن الوجه .

(٢) المحيا : الوجه .

(٣) سورة الفتح ، آية ٢٧

(٤) البـدن : جمع بدنة : ناقة أو بقرة تنحر بمكة . سميت بذلك لأنهم كان يسمونها (المختار) .

(٥) أشعر الهدى : أعلمه ، وهو أن يشق جلده ، أو يطعنه حتى يظهر الدم .

(٦) الهدى : ما يهدى إلى البيت من النعم .

واعتلنت هذه الرؤيا فى كل مكان ، وَتُنُوقِلَ ذِكْراها فى كل وادٍ ، وإذا المسلمون يُقبِل بعضهم على بعض مهنِّئين ، فَرِحين مستبشرين .

أليست هذه هى رُؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

وما رأى صلى الله عليه وسلم فى حياته رُؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصُّبح وُضُوحاً ، ومثل الشمس المتألقة بياناً وظهوراً .

أليس هذا خَبَرَهُ ؟

وهم قد عَهِدُوه صادقاً إذا أخبر ، غير مُلَبِّس فى قوله إذا بلغ ، إذَنْ هم قد أصبحوا قابَ قَوْسين أو أدنى من بلدهم الكريم ، ووطنهم الحبيب ، مَهْوَى الفؤاد ، ومجمع الآصِرَةِ[1] والأنداد ، وإذَنْ هم عما قريب سيشمُّون هذه التُّرْبة ، وَيَنْشَقُون[2] عَبقَ هذا الوطن العزيز . وهم أيضاً فى رُؤيا نبيهم الصادق الأمين ، سيطوفُونَ بالبيت ، ويستلمون الرُّكْنَ ، وَيَسْعَوْنَ بين الصَّفا والمَرْوة ويضعُون أقدامهم حيث وضعها أبوهم إسماعيل وجدُّهم إبراهيم .

ومَنْ يَدْرِى ؟ لعلّ الله بعد ذلك يُرغِمُ أنفَ قريش ، وَيُذِلّ أبيّها ، وَيَقْهر حَمِيَّها ، وَيُظْهِرَ كلمة التوحيد بين مكة والمسجد الحرام .

وَتَنَفَّسَ الصباح من اليوم التالى ، وهبَّت نسائمه حُلوةً عذبة ، تُدَاعِبُ آمال قَوْم يسوقون بُدْناً تَسِيلُ بأعناقها البِطَاح ، وظهرت تباشيره مشرقةً لمّاعة ، تبعثُ فى عزائمهم النشاط والارتياح ، شملهم جميع ، وَأَمْرُهم حازم ، وَشَعْبُهم مَلْتَئِم ، لم يُفرِّق لَفِيفهم[3] هؤلاء الذين استَغْفر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) الآصرة : الرحم والقرابة .

(٢) ينشقون : يشمون .

(٣) اللفيف : ما اجتمع من الناس واختلط .

فقالوا : (شَغَلَتْنَا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا)[١] ، ولم يَصدَع صَفَاتهم هؤلاء الذين رَاحُوا يغمزون الرسول ، ويُشيعون قالة السوء بين الناس : (أَنْ لَنْ يَنْقلبَ الرَّسولُ والمؤمنونَ إلى أَهْلِيهم أبداً)[٢] ؛ بل سارُوا آمنين مطمئنين ؛ يسوقُهم الأمل ، ويدفعهم الإيمانُ ، ويحصِّد[٣] عَزائمهم اليقين .

ولـكنهم ما بلغوا منتصفَ الطريق حتى سمعوا بِشْرا الْخُزاعى يتحدَّث إلى الرسول : أى رسول الله ، لقد دَلَفْتُ[٤] — كما أمرتنى — إلى قريش، أتندَّس[٥] أسرارها ، وأتعرف أخبارها ، وما راعنى إلا أنَّ خَبَر مسيرك قد ترامى إليهم وحديثَ رُؤْياك قد هبط عليهم ، ولا أدرى كيف وقع عليهم الخبرُ ، ولا كيف استنشوا[٦] حديث الرؤيا !

هِيهِ يا بشر ! وبماذا قابلوا هذا الخبر ؟ وماذا أعدّوا للقاء ؟ قال بشر : إنهم يارسول الله قد خرجوا ومعهم العُوذُ الْمَطَافيل[٧] ؛ ولبسوا جلودَ النُّمور، وعاهدوا أنفسهم ألا تدخل عليهم مكة أبداً ، وهذا خالد بن الوليد ، وهو من يعدّونه بُهْمَتَهم[٨] ، وفارسَ حَلبتهم ، قد خرج يستقبلكُ بخَيْلِهِ ، ولعله الآن فى كُراع الغَميم[٩] .

فأرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم زَفْرَة مِنْ قَرَارة نفسه ، ثم قال :

---

(١) سورة الفتح آية ١١ . (٢) سورة الفتح آية ١٢ .

(٣) يحصد عزائمهم : يقويها . (٤) دلفت : مشيت .

(٥) أتندس : أتسقط الأسرار . (٦) استنشوا : علموا وعرفوا .

(٧) العوذ المطافيل : النياق معها أولادها.

(٨) البهمة : الشجاع الذى لا يعرف من أين أتى .

(٩) كراع الغميم : موضع على ثلاثة أميال من عسفان .

يا وَيْحَ قريش ! قد أكلتهم الحربُ ، وماذا عليهم لو خَلَّوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هُمْ أصابونى كان ذلك الذى أرادُوا ، وإن أظهرنى[1] اللهُ عليهم دخلُوا فى الإسلام وافرينَ ؟! وإن لم يَفعلوا قاتلوا وبهم قوّةٌ . . . فما تظنُّ قريش ؟ والله لا أزالُ أجاهِد على هذا الذى بعثنى الله به ، حتى يُظهِرنى الله أو تنفردَ عنى هذه السالِفة[2] ، وماذا يريد خالد ؟ نحن ما خرجنا مقاتلين ولا محاربين ، بل خرجنا مسالمين مُوَادِعين ، وما ذاك يومُ اشتباك القتال ، ولا تقابل الأقران . منْ يخرج بنا إلى طريق غَيْرِ طريقهم ، ويدفعُ بنا إلى مكان بعيدٍ عن عيُونهم وطلائعهم ؟

فتقدمَ رجل[3] من أسلم — وكان بصيراً بالطرق : مستدقاتها ومُنْعرَجاتها عليما بمنحنياتها والتِيَاتها — ثم أمسك بخِطام القَصْواء[4] ، وَأَحْزَنَ[5] بها فى مكان وَعْر وطريق صَعب ، وما زال بالقوم يُجْهِدُهم ويُضنيهم حتى أفضَى بها وبهم إلى طريق سهلٍ فَسِيح .

وساروا وبين جوانحهم قلوبٌ ترْصُد آمالاً ، وفى رءوسهم عيونٌ تَشِيمُ[6] رَجاء ، والرسول يُحيِّى هذا الأمل ، ويُضاعِف هذا الرجاء ، ولكنهم فجأة لمَحُوا أنَّ ناقة الرسول امتنعت عن السير ، وَوَقفت فى عرض الطريق ، عجبًا ! لماذا وقفت الناقةُ ، أشىءٌ ثنى الرسول عن عزْمِه ، أم أُوحى إليه بأنْ يُغيِّرَ وجْهَه ؟

---

(١) أظهرنى الله : نصرنى .
(٢) السالفة : صفحة العنق ، وانفرادها كناية عن القتال .
(٣) هو ناجية بن جندب الأسلمى .
(٤) القصواء : ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
(٥) الحزن : ما غلظ من الأرض ، وأحزن : صار فيها .
(٦) تشيم الرجاء : تنظر إليه .

لا ، لكن هو ذا الرسول يدفعُ الناقةَ للقيام فلا تقُوم ، ويستنهضها للسير فتمتنع إذن فقد خلأت⁽١⁾ القَصْواء ، وما أسرع ما انتشرت هذه القالة ، واضطربت الألسنة حتى دارت بين القوم ، ثم عَلِمها رسول الله فقال : « والله ما خَلأتْ وما هو لها بخُلُق ، وإنها لذَلُول مِطْوَاع ، ولكن حَبسها حابِس الفِيْلِ عن مَكة ، وإن وراء ذلك لشيئاً ، وإن في وقوفها لَسِرًّا ، والذي نَفسي بِيدِهِ لا تسألني قريش خطةً يُعظِّمون فيها حُرماتِ الله إلا أعطيتهم إياها » . وأدرك رسول الله أنه مصروفٌ عن السير ، مُوحَى إليه بالتريث والتلبث⁽٢⁾ ؛ فأمر القوم أن يتربصُوا مكاناً فسيحاً ، ويلتمسوا مناخاً رَحيباً ؛ فكانت الحديبية ، وفيها أناخُوا جمالهم ، ونَصبُوا خيامهم ، وأقاموا الصُّوَى⁽٣⁾ والأعلام .

***

رجل يُلمَح في الظلام ، ويضربُ برجليه في الطريق ! انتظرُوا قليلا فإنه قادم إلينا ، وأغلب الظنِّ أنه يقصدنا .

هذا بُدَيل بن وَرْقاء الخزاعي ، لا بَأسَ بقدومه ، إنه من خُزاعة ، وهي مَن عَلِمْناها صِدْقاً وولاء ، وإخلاصاً ووفاء ، وإن كان قادماً من مكة فإنه سيَصْدُقنا الخبر ، ويَقْبُسنا أمر قريش .

ولما توسط بُديل جَمعَهم ، تهافتُوا على حديثه من كل ناحية ، وسقطت عليه الأسئلة من كل جانب ؛ مِنْ أين ؟ وإلى أينَ يا بديل ؟ هل من مُغرِّبَةِ خبر⁽٤⁾ ؟ إن كنت قادماً من مكة فما حالُ قريش ؟ وكيف استعدادها للقاء ؟ وما شأنُ خالد خرج ثم عاد ؟

---

(١) خلأت : امتنعت عن السير . (٢) التلبث : الانتظار .

(٣) الصوى : جمع صوة . وهي حجر يكون علامة في الطريق .

(٤) أي هل من خبر أتيت به من بعيد ؟

قال بُدَيل : كُفُّوا عن تساؤلكم ، وخفّضوا من لَجَاجِكم ؛ لستُ مُجيباً عن سؤال ، ولا مُطَارِحا بكلام ، حتى ينتهى مقامى عند محمد ، ثم أخذ سَمْتَه[١] إلى خيمة الرسول ، وجلس إليه يَنفضُ خبره ، ويفتحُ بين يديه عَيْبَة[٢] سِرِّه .

قال : يا محمد ، لقد جئتك هذه الساعة وقريشٌ لا تعلم من أمرى شيئاً ، ولكنى سمعتُ قولا خشيت عليك من عاقبته ، ورأيت شرًّا وَدِدْتُ عنك دَفْعَه ، لقد غدوتُ بالأمس ، كدأبى — على قريش فى مُتَحدَّثهم ، فوجدتهم جلوساً ، يخوضون فى حديثك ويُعيدون ، حديثٌ كله غيظٌ وسُخْط ، وكله حَنَق وحِقْد ، وإن أنوفهم لترمَع[٣] ، وإن قلوبهم لتكاد تتمزَّق ، أنْ علِمُوا أنكَ مَقْبِلٌ وصحبك إلى مكة تَطَأ حصَاها ، وتجوزُ حِماها .

وانتهى بهم الحديثُ أن أخذوا للحرب عُدّتهم ، وشدُّوا أوتارهم ، ورَاشُوا[٤] سِهامهم ، وأقسموا جَهْد أيمانهم ألا تدخل عليهم مكةَ أبداً ، ثم أشْهَدوا على أنفسهم اللاّت والعُزّى ، وهُبَلهم الأعلى .

وقد خشيتُ عليكَ أن تؤخذَ منهم على غِرّة ، أو ينالوك على غَفْلة ، فَخُذْ لنفسك ولقومك ما تريد .

قال الرسول : إننا يا بُديل ما جئنا نتحرّف[٥] لقتال ، أو نَقصِد إلى حرب ، ولكننا جئنا للبيت زَائرين ، ولحرُماته معظِّمين ، وها أنتَ ذا ترى السيوفَ فى أغمادها ، والبُدْن مُشْعَرة ، والقوم مُعتَمرين ، إن شئتَ يا بُديل

---

(١) السمت : الطريق . (٢) العيبة : ما يجعل فيه الثياب .
(٣) ترمع : تتحرك من الغضب .
(٤) راش السهم : أزق عليه الريش ، يريد أعدوها ليضربوا بها .
(٥) نتحرف : المراد نستعد .

فاحمل إليهم نبأنا ، وأفصح لهم عن وجوه مقاصدنا ، لعل الله يحقن بك الدماء ، ويذيب ضغائن الصدور .

وعاد بُدَيْل إلى مكة ، فوجد القوم قد عادوا إلى متحدثهم ، يخوضون في حديث محمد ويعيدون ، هم أقسموا أن يصدوا محمداً ، ولكنهم ودوا لو عاد من غير قتال ، وهم أخذوا للحرب عدتهم ، ولكنهم تمنوا لو كفوا جهد الحرب والكفاح ، فهم لذلك اجتمعوا ثانية يجيلون قداح الرأى ، ويصرفون طرق الخلاص ، وما علموا أن بديلاً قد وفد على محمد وجاء حتى هرعوا إلى لقائه ، والاستماع لما عنده .

تعال يا بديل ، هات ما عندك من حديث محمد ، أرأيت أن محمداً يريد أن يغزونا في دارنا ، ويفض من عزتنا ؟ ألم يكفه ما كان من قتل صناديدنا[1] ، وذوى الرأى فينا ؟ إن ذكريات عتبة وشيبة وحنظلة وابن هشام لا تزال أمامنا ، وإن دموع الباكيات على ابن ود لا تزال تجرى سخينة حارة ، وها هو ذا يجيء اليوم ليعيدها جذعة[2] ويقيمها حرباً ضروساً ، فما عندك ؟ وما ترى ؟

قال بديل : إنكم تبعدون في الوهم ، وتسرفون في الظن ، لقد جئت محمداً ، وعرفت رضخاً[3] من خبره ، ومجملاً من قصده ، ثم إني حملت قولاً ، ورأيت شيئاً ، فإن شئتم بلغتكم ما حملت وبصرتكم بما رأيت .

---

(١) الصنديد : السيد الشجاع .

(٢) قال في اللسان : « إذا أطفئت حرب بين قوم ؛ فقال بعضهم : إن شئتم أعدناها جذعة ، أى أول ما يبتدأ فيها » .

(٣) الرضخ : خبر غير موثق به صاحبه

قالوا : هات ما عندك ، وإنّ لنا وراء قولك قَوْلا ، وبعد حديثك رَأْياً .

قال بُدَيل : لقد جئتُ محمداً واستنبأته عن رَأْيه ، وتحدّث إليّ عن عَزْمه ونيّته ، إنه لا يريد بكم حَرْباً ، ولا يبغى عليكم عُدْواناً ، وإنما جاء مُعْتَمِرا ، وللبيت طائفاً ومعظِّماً ، ولقد أفضى إلىّ برأى ارتاح إليه طبْعِى ، ووافق هوًى عِنْدى ، وفيه — لو حفظتموه — صلاحُ ذاتِ البَيْنِ ، وإطفاء لِوَقْدَة الأحقاد ، وسلٌّ لسخائم[1] النفوس : أن تخلُّوا طريقه للبيت يطوفُ ويعودُ ، ثم تهادِنُوه ويهادِنكم ، وتتركوا شأنه مع العرب ، يظهرُ عليهم أو يظهرون عليه ، وأنتم بعد ذلك بالخيار ، تدخلونَ فيما يدخلُ فيه الناسُ ، أو تكونون بنَجْوة[2] عن قِتَاله ، وعافيةٍ من مَعَاداته ، وإنى لكم فيما أقول مخلِصُ السريرة ، أمينُ المغيَّب .

فقالوا — إذ سمعوا رأى بُدَيل — : هذا رأْىٌ فائل[3] ، ومذهَبٌ خادِع فاسد ، إنّ بُدَيلا يريدُ أن يوطئنا العَشْوة[4] ، ويشبِّه علينا وجوهَ الرشد ، ويلبِّس صورَ السدَاد ، تنصحنا يابُدَيل أنْ نغمِدَ سيوفنا ، ونطأطىء رءوسَنا ، وندَعَ السبيلَ إلى محمد يدخلُ مكة ونحن صاغِرُون أذِلّة ؟ ! إن فى نصحك لِريقَ الحيّة وسمَّ الأساود ؟ ألستَ من خُزَاعة وشأنُك مع محمد اليوم معروف ، وشأنُ آبائك مع آبائه مشهورٌ ، ولِيَخْرَسْ لسانك ، وإياك أن تخوض بعدها فى هذا الحديث .

قال بُديل : شأنكم وما تفعلون ، وغداً تعلمون .

---

(١) السخيمة : الحقد ، وجمعها سخائم .
(٢) بنجوة : بعيدين .
(٣) رأى فائل : خاطىء ضعيف .
(٤) أوطأه العشوة : حمله على أمر غير رشيد .

واتجهت عيون القوم إلى أبى سفيان ، زعيم ندوتهم وقائدُ جماعتهم ، يعلمون رأيه ، ويتعرّفون ما عنده .

قال أبو سفيان ، هـذا الحُلَيْس بن علقمة ، سيِّد الأحابيش[1] حاضِرٌ جمعنا ، وهو حليفُنا ، وعليه حقُّ جوَارنا ، وفوق ذلك فإنّ له رأياً يمزِّقُ ظلمات الإشكال ، ويطبِّقُ مَفَاصِل الصواب ، ليذهَبْ إلى محمد رسولاً أميناً ، ومبلِّغاً كريماً ، لعله يصدُّه عن عَزْمه ، ويحوِّلُه عن قصده ، ولننظر بعد ذلك ما يكون .

ورأى الرسول الحُليس مُقبلا من بعيد ، فقال : هذا الحُلَيس مُقْبلا ، يظهرُ أنّ قريشاً قد أرسلته سفيراً ، وهو من قوم يتألّهونَ[2] ، فابعثوا الهدْى فى وجهه حتى يراه ، وما راعَ الحليسَ إلا الإبلُ تسيلُ من عرض الوادِى مُشْعَرةً[3] قد أكلت أوبارها من طول ما حبست ، فما استطاع أن يتحدَّث حتى عاد إلى قريش مَعيظاً ، يقول : أيها القوم ، بئس والله ما طاش سهمُكم ، وفال رأيُكم ، أتصدُّون عن البيت قوماً أتَوْا مُعْتَمِرين ، وله معظمين ؟ أتحجُّ إلى البيت جُذَام وحمير ، ويُمنع عن البيت ابن عبد المطلب ، وله فيكم شرفٌ يَنْطحُ النجوم ، ولأجداده عزٌ يعلو أجنحة النسور ؟ هلكت قريش وربِّ الكعبة ، إن القومَ أتَوا مُعتمِرين ، والله ما على البَغْيِ عاهدناكم ، ولا على العُدوان حالفناكم ، لئن صددْتُم محمداً عن البيت لأنفرَنّ بالأحابيش نفرةَ رجلٍ واحد .

قالوا : مَهْلاً يا بن علقمة ، وأنظِرنا نصنعُ لأمرنا .

---

(١) الأحابيش : قوم تحالفوا بينهم على غيرهم ، مارساً حبشى ، وحبشى ، جبل .
(٢) التأله : التعبد والتنسك .
(٣) أشعر الناقة جلدها حتى يظهر الدم ، ليعرف أنها هدى للبيت .

وعلا وجوهَ القوم وُجومٌ ، وغشِيتهم حيرةٌ وسكون ، ثم أخذوا يُديرون حديثاً ، فيه مرارةٌ وألم ، وفيه حزنٌ وامتعاض .

ذلك محمدٌ واقفٌ على ثَنيّات مكة ، ويوشكُ أن يدخلَها ، حقّا لقد تعاهدنا على الحرب ، وشَحَذنا عَزَائمنا للدفاع ، ولكن ما غَناء الحرب ؟ وما فائدة الدفاع ؟

إن محمداً يقدمُ علينا اليوم فى قوم ٍ حارَبناهم ، واشتبكت القَنا فيما بيننا وبينهم ، فوجدنا فيهم صَبراً على القتال ، وَجَلَداً على الاستبسال ، ما فيهم إلا ابنُ كَرِيهة[1] ، ومانعُ حَرِيم ، لقد اخترمَت المنيةُ أبطالنا ، وَطَوَّحَت الحربُ بِفتْيانِنا .

ولقد لقيناهم يوم بَدر ، فكان يوماً مَنحوساً أغبر ! وحسبنا أننا هزَمناهم يومَ أُحُد ، وَخَضَدنا[2] منهم الشَّوْكة ، ولكن ما أسرع ما اندملَت القُروح ، والتأمت الصفُوف ، وعادُوا يَوْمَ الخندق أشدَّ ما يكونون مَنَعةً ، وأعظم ما أوتوا نَصْراً .

وها هم أولاء يعودون اليوم طالبين بعد أن كانوا مطلوبين ، ومهاجمين بعد أن كانوا مُدافعين ، إننا لو دافعناهم فأكْبَرُ الظنِّ أن الدائرةَ ستدورُ علينا ، والهزيمة تأخذ سبيلها إلينا ، وإنْ خَلّيناهم يدخلون البيتَ فإنما هو عارٌ تَعصِب به رءوسنا ، ومَسبّة تَخدشُ بها وجوهَ أحسابنا ، لا يكونُ لنا شأنٌ بعدها ، إنه لرأى مضطرب ، وحيرة جائلة ، وأمر لا ندرى أشرٌ آخره أم أوله ؟

ورآهم نُعيمُ بن مسعود يضطربُون فى حَيْرتهم ، ويصطرِعُون فى أمرهم ،

---

(١) الكريهة : الحرب .

(٢) أصل خضد : قطع . يريد حسبنا أننا أضعفناهم .

فأراد أن يُدلىَ برأى ويَصْدَع بقول ، قال : أى قريش ، لقد علمتمونى من أشرف العرب نَسباً ، وأبعدِهم مَحتِدا[1] ، وأكرمهم أرُومَةً ونِجَارا ، ولى فى ثقيف رياسةٌ ، وفى الطائف مُلكٌ ، ثم إنى ـ وإن كنت بعيداً فى الوطن عنكم ـ مِنْ صَمِيمكم ، وأجْرى على عِرْقٍ فى أنسابكم ، وقد استبطنتُ سوَادَكم ، وتعرفتُ دَخَائلكم ، وفطنْتُ إلى أموركم ، ولقد جرَّبتمونى من قَبلُ فما اتهمتمونى فى نَصيحة ، ولا تعلقْتم علىّ بكذبة ، وتذكرون أنى استنفرتُ لكم أهلَ عُكاظ من قبل ، فلما بَلّحُوا علىّ[2] ، جئتكم بأهلى وولدى ومَنْ أطاعنى وإنّ لى عليكم مشورةً ورَأياً ، وعندى لكم نُصحاً وبياناً ، دَعُونى أذهب إليه سفيراً عنكم ، ورسولا منكم ، أنافثه وأناقِله[3] ، وأجادلُه ، فإن جئتُ إليكم من عنده بخطّةٍ فاقبلُوا ، واعلموا أنى سأرْمِى عن قَوْسكم ، وأصْدِر عن رأيكم ، وأرجو أن أكونَ موفقاً مَجْدودا[4] .

فقالوا : إننا يا أخَا ثقيف ما اغتمزْنا فيك رَأياً ، ولا عهِدنا عليك كذباً ؛ فاذهَبْ حافظاً للأمانة ، مُفَوَّضاً فيما ترى .

وجاء ابن مسعود إلى الرسول ، فوجده فى هالَةٍ من صَحْبه ، أجلسوه على عَرش من قلوبهم ، وحاطوه بسياج من نفوسهم ، ما يأمر إلا ابتدرُوا[5] إليه ، وإذا تكلم خفَضُوا أصواتهم ، وإذا نظروا غَضُّوا من أطرافهم ، وقد وقرت مهابَتُه فى الصدور ، وارتفعت منزلته فى العيون ، فتلجلج فى مَشْيته ، وتردَّد فى رسالته ، ولكنه جمع نفسه ، واستردّ عازِبَ حِلمه ، وشقّ

---

(١) المحتد : الأصل .

(٢) بلحوا : أبوا .

(٣) المنافثة والمناقلة : المناقشة .

(٤) مجدوداً : لى حظ طيب .

(٥) ابتدروا إليه : أسرعوا .

الصفوف ، حتى انتهى إلى الرسول . ثم قال : يا محمد ، ما هذا الذى جمعْتَ إليه جَمْعَك ، وحشدتَ إليه جُنْدَك ؟ أراك قد جمعت أوْشابَ الناس[١] وزمَر القبائل ، ثم غدوت بهم على قومك من قريش ، تحاول أن تُذلهم ، وتنْتَهك حُرمتهم ؛ إنها والله لقريش ، قد علم الناسُ صِدْقها عند اللقاء ، وصَبْرَها على اللّأْواء[٢] ، وكفاحها فى البأساء ، هم مَساعِرُ[٣] حَرْب ، وأحلاس[٤] خيول ، ولقد ترامى إليهم أنكَ جئْتَ غازياً ديارهم ، قاصداً الكَيْدَ بهم ؛ ألا فلتعلم أنهم عاهَدُوا الآلهة ألا تدخلَها عليهم أبداً ، وأيْمُ الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عَنْك غداً ، وبقيتَ وَحْدَك ، فلا أنتَ تحوّطْتَ لنفسك ، ولا احتفظت بقومك ، فتدَّبر أىّ شر أنت قادم عليه ، وأىّ أمرٍ أنت مُقْصَدٌ له .

قال له الرسولُ : لقد تحدثْتُ إلى بُديل ، وتحدثْتُ إلى الحُلَيس ، إنى ما جئتُ أبغى حَرْباً ، أو أريد قتالا ، وإنما جئنا معتمرين ، وللبيتِ الحرام طائفين ومعظّمين ، فإن شاءوا خَلّوا لنا الطريق ، وإلا فإنّ لنا معهم شأناً ، نترقبُ فيه أمْرَ الله .

وعاد ابن مسعود إلى قريش لم يَلْقَ نجاحا ، ولم يصادِفْ فَلَاحا ، فاستشرفوا لحديثه ، وتطلّعوا إلى نهاية سِفَارته ، كما استشرفُوا من قبله لبُديل ، وكما استشرفوا للحُليس ، ولكنهم كانوا لابن مسعود أكثر اطمئناناً ، وأشدّ استئناساً ، وأطولَ آمالا ، وقالوا : هاتِ ما عندك يا ابن مسعود ؛ فلعلك جئْتَ بما يحقِنُ الدماء ، ويحفظ الذماء[٥] ، ويحمِى البيت ، ويحفظُ لقريش مقامها بين العرب .

---

(١) أوشاب الناس : أخلاطهم . (٢) اللأواء : الشدة .

(٣) مساعر : جمع مسعر ، وهو موقد النار .

(٤) أحلاس الخيول : الملازمون لظهورها . والحلس : كساء رقيق يجعل تحت السرج . (٥) الذماء : بقية النفس .

قال ابنُ مسعود : اسمعُوا يا قوم ، والله لقد وفدتُ على الملوك ، وفدتُ على قَيصر فى مُلْكه ، وعلى كِسْرَى فى عِزّه ، وعلى النجاشى فى عرْشِه ، فوالله ما رأيتُ رجلا يعظّمه قومُه كما يعظِّمُ محمداً قومُه ، ولقد ألقَوْا إليه بمقاليدهم ، وأمكنُوه من قيادهم ، وإنهم لا يرجعون له قَوْلاً ، ولا يَرُدّون عليه رَأيا ، فروّوْا رأيكم واقدحوا زنادَ عُقولكم ، والأمرُ نهايتُه بين أيديكم .

فقالوا — وقد أدركتهم الحميَّةُ : إن قريشا جِسْرٌ لا يُعبر ، وكَتَفٌ لا يوطأ ، وعَقَبةٌ لا تُرْتقى ، ودون ما يبغِى محمد شَيْبُ الغراب ، ومُخُّ النَّعام !

الصـــلح(*)

قالت قريش : يظهرُ أنَّ محمداً صادقُ العزم ، ماضى العزيمة ، وهولاء السُّفراء لم يستطيعوا أن يُحيلوه عن قصده ، أو يَصرِفُوه عن عزمه ، أو يخذِّلوه فى رأيه. فقم يا ابن مُكْرَز ، بما عهدناه فيك من شجاعة وحَزْم ، وما بَلَوْناه[1] فيك من قوّة وبأس ، واخترْ لنفسك نفرا ممن تراه ثبْتَ الجنان[2] ، صادقَ اللقاء ، رابط الجأش ، وطُفْ بعسكر محمد ، فلعلك تكسِّر سهامهم ، وتُلقى الرعْبَ فى صدورهم ، فينكثوا ما أمَرُّوا[3] ، وينقضوا ما غَزَلُوا .

وفى ساعة من الليل ، والظلامُ قد ضرب الرُّواقَ ، وشدَّ الأطْناب ، أخذ حفص بن مُكْرز يطوف بعسكر المسلمين ، ولكنه ذُعِر فجأة . ثم التفت إلى من معه قائلا : قفوا يا رفاق ! من هذا الذى يخفِر أصحابَ محمد ؟ تبيَّنوه معى ، كأنى به محمدبن مسلمة ؟ إنه هو ؟ ! أعرفه والله بقامته وسَمْته ، وبِشِيَته وعلاماته، وبحذَره ويقظته . احذروه ، فوالله ما هو إلا ليثُ غابٍ ومِسْعر[4] حرُوب ، إنه كالذئب ينام بإحدى مُقْلتيه ، وكالأسد الخادِر[5] إذا كشَّر عن نابه فإن فتكه لا يُصَدُّ ، وعَزْمه لا يُردّ .

---

(1) بلوناه : اختبرناه .

(2) الجنان : القلب .

(3) أمر الحبل : شد فتله .

(4) سعر النار والحرب : أوقدها .

(5) الأسد الخادر : المستكين .

وما عَلموه ابن مسلمة حتى تَخَبَّبت[1] قلوبهم ، ومشت الرِّعدة فى مفاصلهم ، وجَبُن الجرىء ، وخار عودُ الشجاع .

وأرهَفَ ابن مسلمة أذنه ، فإذا همسُ كلام ، ووقع أقدام ، من يكونُ هؤلاء غير قريش ؟ ! إذنهم قد أبْدَوْا ناجِذَى[2] الشر ، وصَرَّحُوا بالعدوان، وإذن هم يريدون حَرْباً ويبغون كيداً . .

أيها القوم ، سُلّوا السيوفَ من أغمادها ، وابعثُوا العزائم من رُقَادها ، فهذه قريش قد برزت بطلائعها . .

ونشَرَ العزائم ، وأحمسَ النفوسَ ، وما هى إلا جَوْلة ونِزَال ساعة ، حتى وقع القومُ أسرى فى يَدِ المسلمين .

ولكنه صلى الله عليه وسلم ما جاء يُذكِى ضِرَام[3] حرب ، أو يُثِيرُ نَوَازِى شر ، وإنما جاء مُعتمراً ، وللبيت مطوِّفا ومعظماً ، فما له وللأسرى ؟ ! وماله وللقتال ؟ !

أطلقوا سراحَ هؤلاء الأسرى ، وفكُّوا أصفادهم[4] ، ودَعُوهم يرجعوا إلى أوطانهم ، فلعلهم يطمئنونَ إلى وجْهنا ، ويؤمنون بغاياتنا ، واذهب أنت يا خِرَاش[5] بعدُ فى إثر القوم ، وتعرف ما بنفس قريش ، بعد أن أطلقنا أسراهم وتجاوزْنا عن مساءتهم .

---

(١) نخب قلبه : كأنما نزع .

(٢) الناجذ : آخر الأضراس ، يريد أظهروا العداوة .

(٣) أصل الضرام اشتعال النار .

(٤) الأصفاد : القيود .

(٥) هو خرش بن أمية الخزاعى ، بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، وحمله على بعير له يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ، فعقروا الجمل ، ولولا الأحابيش لقتلوه .

وذهب خِراش ورجع فقال : يا رسول الله ، إنّ قريشاً ما زالت على مكرها وحَنَقِها ، وما زالت الحفيظة تملأ قلوبَ عامتها ، إنهم أذلوا وفادتى ، وعقروا ناقتى ، ولولا الأحابيش لأطلّوا دمى[1] .

وسمع هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأطرقَ ، ولكنه لم يتعكّر صَفْوُ حِلمه ، ولم تُستثر قطاةُ حكمته ، بل قال : سنُصَابِرُ القومَ بالحلم ، ونعالجهم بالصَّفح ؛ فلعلّنا بهذا نستلُّ سَخائم صدورهم ، وننزعُ الغِلَّ من قلوبهم ، وربما كان قد هانَ عليهم أمرُ خراش ، واستخفوا بالسفير من خزاعة ، فقُمْ يا بن الخطاب ، فإنّ فيكَ رَأْياً وعقلا ، ولك فى قريش منزلةً ومقاماً ، اذهب إليهم وناضِلْ عن قَصْدنا ، واشرح ما غُمّ[2] عليهم من أمرنا ، وما لُبِّسَ من مسألتنا .

قال عمر :

أى رسول الله ، سمعاً لقولك ، وطاعةً لأمرك ، ولكنى أخافُ هؤلاء القوم على نفسى ، ولا آمَنُهم على حياتى ، وليس فيهم إلاّ مَنْ يُضمر لى حَسِيكة[3] ، أو يخفى ضِغْناً وغِلاً ، وقد نزح عن مكة من كان يشدُّ ظهرى من بنى عدىّ[4] ، فليس من يحمينى أو يدفع الشّرَّ عنى ، ولكن هذا عثمان ابن عفان ، لا يزالُ لهُ فى مكة من أُميّة رَحم ، ولا يعدم أن يصادفَ عندهم حامياً ، فهنالكَ معاوية ، وأبو سفيان ، وهناك عُقبة ، وأبان[5] ، وحَسْبُهُ منهم حماة !

(١) لأطلوا دمى : لسفكوا دمى .
(٢) غم عليهم : خفى فلم يعرفوه .
(٣) الحسيكة : الحقد والعداوة .
(٤) بنو عدى : قوم عمر .
(٥) أبان بن سعيد العاصى .

سمع أبان بن سعيد طارقاً يقرَعُ البابَ ، فخرج فإذا هو عثمان بن عفان ، قال : مرحباً بك يا ابن عمى ، كيف جئت فى هذه الساعة وخَلَّفْتَ صاحبك محمداً ؟ !

قال : لقد قدمتُ سفيراً عنه ، ورسولاً من عنده إلى قريش ، أُبيِّن لهم ماخفِيَ عليهم من أمره ، وأكشفُ القِنَاعَ عن قصده ، فلعلَّ الأفهام تتقاربُ ، والأرواح تتعارفُ ، ولكننى أخافُ على نفسى الإيذاء ، وأتوقع من قريش المكروه ، فاقبلنى فى جِوَارك ، وأدْخِلنى فى حماك ، بما بيننا من عَصَبٍ مُشْتَبِك ورَحِمٍ ماسة .

فَغَدَا به أبان على الرؤساء من قريش ، وقال : هذا ابن عمى عثمان بن عفان ورسولُ محمد (صلى الله عليه وسلم) يحملُ رسالته ، ويُريد أن يلقى إليكم كلمته ، ثم هو فى جوارى وحماى . . .

فقبلوا جِوَاره ولكن على مَضَض ، واحتملوا ظله ولكن على كره ، ثم قالوا : أمَّا أن يدخلَ محمدٌ مكة ، ويطوفَ بالبيت ، فدون ذلك عزَّةٌ تملأ نفوسنا ، ونخوةٌ تدوِّى فى جوانحنا ، ولكنك إن أرَدْتَ أنتَ الطوافَ فدونك وما تريد .

فتأذَّن[1] عثمان : ألاَّ تطأ قدماه البيت ما دام محمدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم ممنوعاً ، وما دام المسلمون يحَالُ بينهم وبين ما يشتهون ! وانطلق إلى المُسْتَضعفين من المسلمين الذين مُنِعُوا الهجرةَ وهمَسَ فى آذانهم : إن يوم الفتح قريب ، وساعة الخلاص آتية .

وبلغ قريشا قولُ عثمان فخافوا الفتنة وحبسوه .

---

(١) تأذن : أقسم .

وبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يرقُبُ بريد النجاح ، ويَشيمُ مخايلَ[1] الرَّجاء ، جاء نبأ أن عثمان قد قتل ، واستطارَ هذا الخبرُ فى المسلمين ، وتُسُومع فى خيامهم ، فَذَهِلوا ووجِمُوا ، ثم ثارُوا وسخطوا ، ثم شمروا عن سواعدهم للقتال واستعدُّوا .

أما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقدْ وقفت آماله من السِّلم على شَفَا اليأس ، وكادت تقَطّع أمام عينيه خيوط الرجاء ، وأعلن للمسلمين أن لا براحَ من مكانه ، حتى يناجِزَ القوم الحرب ، وجلس إلى شجرةٍ ينظرُ ما يكونُ من عزْم المسلمين .

جاءه أبو سنان الأسدى وقال : امْددْ يدكَ أبايعكَ يا رسول الله ، قال : علام تبايعنى يا أبا سنان ؟ قال : على ما فى نفسك يا رسول الله ، من تَفدِية للنفس ، وبذل للروح ، وما شئتَ من صبر واستبسال ، وجِلاَدٍ وكفاح .

وتابعَ المسلمون أبا سنان ، ورضى الله عنهم ، وعلم ما فى قلوبهم ، وأنزلَ السكينة عليهم ، وَوَعَدَهم فتحاً قريباً .

* * *

المسلمون قد استعدّوا للقتال ، وشهروا سيوفهم للحربْ ، وإنهم لكذلك إذ رأوا رجلا يقْدُم نفراً ...

من هذا الرجل ؟ !

ثم أخذوا يديرون فيه الطَّرْف ، ويتعرَّفون الشخص ؛ وصاح أحدهم قائلا : أنا أعرفُ الأرْنَب وأذنيها[2]، ذاكم سهيل بن عمرو ، وانطلقَ يعدو إلى النبى

(١) شام مخايل الرجاء : تطلع نحوه منتظراً .

(٢) أنا أعرف الأرنب وأذنيها : مثل يضرب فى معرفة الشىء .

فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : إن كان سهيل بن عمرو حقًّا فقد أراد القومُ الصلحَ ، فإنى أعرفه كيِّساً[1] حَصيفاً ، فَطِناً لبيباً .

وصدق حَدْسُ[2] الرجل فى سهيل ، وصدق رأىُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نِيَّة القوم ، فقد قال سهيل حينما جلس إلى الرسول : يا محمد ، إنه قد بلغنا خَبَرُ البيعة ، جملتها وتفاريقها ، وإنَّ قريشاً قد استَوْبلوا[3] عاقبة أمرهم ، وندِمُوا على ما وقع بأيدى أشرارهم ، وعثمانُ لم يُقتَل ، ولكنه حُبِسَ ، وما حُبِسَ إلا عن حلم طائش ، ورأىٍ فائل[4] .

وقد جئتُ رسولاً من قريش ، رسولَ موادَعةٍ وسلام ، وصُلح وَوِئام ، علّنا نُضَيِّقُ مسافة الخلف ، ونسكِّنُ فَوْرة النفوس ، وعثمانُ بعد ذلك بين يديك .

ورسول الله ما بَرِحَ يَبْغى السلام ، ويُريدُ الوئام ، ويتجنَّبُ ما فيه إراقة الدماء ، ويجيبُ إلى كل ما يُعَظِّم حُرمات البيت الحرام . . .

ألم يرسِلْ لهم بُدَيلا وخراشاً وعثمان فى سبيل هذا الصلح ؟ !

ألم يحدثْ نُعيماً بما لا يَدَع فى نفس متردِّد خَيطاً من الشك ، أو يترك فى الأفق غيمةً من الرَّيْب ؟ !

وقريش قد ثابت إلى رُشْدها ، واستفاقت من سَوْرَةِ حمقها ، وَمَدَّتْ يدها للصلح ، وأرسلت رسولها للسلام ، فتعال يا سُهيل نَنْتَبِذْ[5] مكاناً نتحدثُ فيه عن شأنِ هذا النزاع .

---

(١) كيسا : عاقلا .

(٢) الحدس : الظن .

(٣) استوبل الشىء : لم يوافقه .

(٤) فائل : خاطئ .

(٥) انتبذ مكاناً : ذهب ناحية .

ومكثَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وسهيلا ساعةً يتَنَاقَّان[1] الحديث ، ويتنافثان الكلام ، ثم طلعا على القوم بما انتهيا إليه : أن يرجع المسلمون بغير عُمرةٍ هذا العام ، فإذا كان العام المقبل جاء النبيُّ عليه الصلاة والسلام وأصحابه إلى مكة ، وقد خَلتها قريش ، فيقيمون فيها ثلاثاً يَعْتَمِرُون ، وليسَ معهم من السلاح إلا السيوف فى القُرُب[2] ، وأن تضعَ الحرب بين الفريقين أوزَارَها عشر سنين ، ومن جاء إلى المسلمين من قريش يُرَدُّ عليهم ، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون رَدّه ، ومن أراد أن يدخلَ فى عهد قريش دخلَ فيه ، ومن أرَادَ أن يدخل فى عهد محمد دخلَ فيه.

* * *

وماعلم المسلمونَ بهذا العهدِ حتى حَصِرت صدورُهم[3] ، وأقبلَ بعضهم على بعض يتساءلون : إذن فلسنا بمعتمرينَ هذا العام ؟ ! فقد نفَذَ سهم قريش فى حُلوقنا ، وارتفعت كلمتهم فوقَ كلمتنا ، وَنالُوا منّا ما يريدون ! ! كيفَ نردُّ من جاءنا مسلماً ، ومن جاءهم منا مُرتداً تركْناهُ ؟ ! إن هذا لأمر يضطربُ فيه رَأْيُنَا ويتيهُ فيه رُشْدنا .

أما عمر فقد نبضَ نابضُ الغَضَبِ فى قلبه ، وَغَلاَ مِرجَل الغَيْظِ فى صدره ، ولم يلبث أن وَقَفَ على أبى بكر ، وقال : نشدتكَ الله يا أبا بكر ! أليس برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أوَلَسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أوَليسوا بالمشركين؟ قال : بلى . قال : فعلام نُعْطى الدَّنيَّة[4] فى دِيننا ؟ !

(١) نث الخبر : أفشاه . (٢) القرب ، جمع قراب ، ما يوضع فيه السيف .
(٣) حصرت صدورهم : ضاقت .
(٤) الدنية : الخصلة المذمومة ؛ أى الدنيئة .

فقال أبو بكر : يا عمر ، الزَمْ غَرْزَه[١] ، فإنى أشهدُ أنه رسولُ الله .

قال عمر : وأنا أشهدُ أنه رسولُ الله ، ولكننى أشهدك أيضاً أنى منذ الساعة التى رَأَيتنى فيها مسلما بدار ابن الأرقم ، ما شككتُ إلا الساعة ، ولا اضطربت فى قلبى العَقِيدة إلاَّ الآن ، وقد تخالجنى الرِّيَبُ ، وَأخذَت تَدِبُّ فى صدرى عَقَارِبُ الظنون .

قال أبو بكر : لا دَوَاء لما قامَ بنفسك ، وَلا مُهَدِّىء لفورة غضبك ، إلاّ أن تبسط خوَالج نفسك بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدونكهُ كلِّمْهُ ، وَما بينك وَبينه حجاب .

وَعمر بن الخطاب طَبَعهُ الله سَلِيم الفطرة ، طاهرَ السَّرِيرة ، نقىّ الضمير ، لا يُبَالى أن يَجْهَرَ بما يعتقده ، وَأن يُعْلِنَ الرَّأْيَ الذى يراه ، لا يخشى فى الحقِّ لَوْمَةَ لائم ، وَإن خالف — فيما يظنُّهُ الحق — رسُولَ الله .

وَبهذه النفس الكريمة الصافية ، وَبذلك الإيمان الصادق المتين ، حادَثَ رسول الله ، وقال : ألستَ برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أوَلسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أوَليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نُعْطِى الدنيَّةَ فى دِيننا ؟ ! فقال صلى الله عليه وَسلم : أنا عَبْدُ اللهِ ورسوله ، لن أخالف أمرَهُ ، وَلنْ يُضَيِّعنى .

قال عمر : أوَلستَ كنتَ تحدِّثنا أننا سنأتى البيتَ وَنطوفُ به ؟ قال : بلى ، أفأخبرتك أنا نأتيه هذا العام ؟ قال : لا ، قال : فإنك آتيه وَمُطَوِّفٌ به .

فوجدت هذه الكلماتُ سبيلا إلى وَقدة غيظه فسكّنتها ، وَإلى خوالج الشك من نفسه فانتزعتها .

---

(١) الزم غرزه : أى أمره ونهيه .

وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسهيلا ، وَدَعوا علياً ليكتب العهد، فأصلح لِيقة دَوَاتِهِ ، وَأَعَدَّ قلمه ، وتهيأ للكتابة .. اكتُبْ « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال سهيل : هذه فاتحةٌ لا أعرفها ، وعبارةٌ لا أستريح إليها ، ولكن ليكتُب «باسمك اللهم» ، فكتب عليّ ، ثم رفع القلم يَسْتَوحى عبارة العهد من رسول الله ، فقال : اكتب : «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » فأمسك سهيل بقلم عليّ ، وقال : لا تفعل ، ثم التفت إلى رسول الله ، وقال : لو شهدت أنك رسول الله ما قاتَلْتُكَ ، ولكن اكتب اسمك واسمَ أبيك .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اكتب : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، سهيل بن عَمْرو ، اصطلحا عَلَى وَضْعِ الحرب عشر سنين ، يَأمَنُ فيها الناس ، ويكُفُّ بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وَليّه رَدّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردُّوه عليه ، وأنه بيننا عَيْبَةٌ مَكْفوفة[1] ، وأنه لا إسلالَ ولا إغلالَ[2] ، وأنه من أحبَّ أنْ يدخلَ فى عَقْدِ[3] محمد وعهدِهِ دخلَ فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وَأَنَّ محمداً يرجع عامَه هذا فلا يدخل مكة ، فإذا كان عام قابل خرجت منها قريش ، ودخلها بأصحابه ، فأقام بها ثلاثاً ، معه سِلاحُ الراكب ، السيوفُ فى القُرُب » .

وفرغ عليٌّ من الكتاب ، وشهد عليه رجالٌ من الفريقين وقرأه المسلمون ، وكأنما دُفِعُوا به إلى أمرٍ عظيم ليس لأحد منهم فيه يدَانِ .

وبينما هم فى تلك الحيرَةِ إذ بَصُرُوا برجل مُنْفلت إليهم يرسُفُ[4] فى

---

(١) عيبة مكفوفة : أى صدور منطوية على ما فيها لا تبدى عداوة .

(٢) الإسلال : السرقة . والإغلال : الخيانة .

(٣) العقد : الضمان والعهد .

(٤) رسف فى قيده : مشى فيه .

الحديد ، ويئنّ تحت أغلال القيود ... لم يكن هذا الرجل إلا أبا جندل بن سهيل ، جاء صارخاً فزعاً مستجيراً بالرسول مستنصراً ، وقال : يارسول الله، لقد وصلت إلىّ دعوتك فأسلمت ، وبلغني قرآنك فآمنت ، ولكن ما عرفت قريش أني صبأت عن دينهم ، ومرقت عن آلهتهم ، حتى أوسعوني كيداً وتعذيباً ، وزادوني رهقاً[1] وتنكيلاً ، وكم حاولت أن أهاجر إليك،فسدّوا في وجهي المسالك ، وكم حاولت أن أرحل عن مكّتهم ، فحالوا بيني وبين ما أريد ، حتى خفت أن أفتن في ديني ، وأوذى في نفسي ، وأنت تراني الآن مقيداً مغلولا ، فخذني إليك مهاجراً مسلماً ، مجاهداً في سبيل الله مقاتلاً .

ورأى سهيل ابنه ، وسمع قوله ، فتهم ووجم ، ولكنه قال : يا محمد ؛ لقد انتهينا من العقد قبل أن يأتيك هذا ، وإذن فليس هناك ما يحول دون أن أردّه إلى مكة ، راضياً أو ساخطاً ، طائعاً أو مكرهاً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدقت ، ولك ما تريد .

وأخذ سهيل أبا جندل ولبّبه[2] بمخنقه[3] ، وجرّه من عنقه ، ودفعه إلى مكة ، فأخذ يصيح : يا معشر المسلمين ، أأردّ إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟

فنفذت هذه الصيحة إلى أعماق النفوس ، ولمست قرارة القلوب ، وهزّت أوتار الحزن والأسى ، ولكن ما يصنع المسلمون ، وذلك قضاء الله ، ورسول الله إنما يصدر عن أمر الله ؛ على أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم طمأن أبا جندل وقال : يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن من معك

---

(١) رهقا : ظلما .
(٢) لببه : جمع ثيابه عند نحره في الخصومة ثم جره .
(٣) المخنق : موضع حبل الخنق .

المستَضْعفين فَرَجاً ومخرجاً ؛ إنا عَقَدنا بيننا وبين القوم صُلْحًا ، وأعطيناهم وأعطونا عهداً أنا لا نغدرُ بهم .

●●●

ثم صاح صائح فى أحياء مكة : مَنْ أراد أن يدخلَ فى عهدِ أحدِ الطرفين فليدخل ، فتواثبَتْ بكرٌ ودخلت فى عهدقريش ، وتواثبت خُزَاعة ودخلت فى عهدِ المسلمين .

ثم نادى المنادى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد قُضِىَ الأمرُ وعُقِدَ العهد ، فتحللوا من إحرامكم ، وانحَرُوا بُدْنكم ، واحلقُوا أو قصِّرُوا شعوركم ، ثم شدّوا إبلكم للرحيل.

والتفت المنادى فإذا نفوسٌ مُعْرِضَةٌ ، وعزائم مترددة ، وعيون زائغة ، وقلوب حائرة ؛ وصاح الثانية فلم يُجيبوا ، ودعا الثالثة فلم يلبُّوا ! !

فانطلق إلى النبى صلى الله عليه وسلم يحدثه فى أمر هذه النفوس التى ماتعودت إلا تلبية الدعاء ؛ وما عُهِدَ فيها استخفافٌ بالنداء ... فكَبُرَ الأمرعلى الرسول، ودخل عَلَى أم سلمة مُطْرِقاً[1] مهتماً ! قالت : ما خطبُكَ يا رسول الله ؟ قال : هلك القومُ ؛ دعوتُهم للإحلالِ والحلقِ والنَّحْر فلم يُجيبُوا .

قالت : يا رسول الله ؛ إن لهم فيكَ لأسْوَة حسنةً وقُدْوَة كريمةً ، فاخرج إليهم ، وانحرْ واحلق ، وما أظن إلا أنهم سيسيرون فى نهجكَ ، ويقلّدُونك فى فعلك .

خرج رسول الله إلى الناس يقول : أمَّا ما أهمكم من العَهْد ، فإن من ذهب إليهم منا فلا حاجة لنا به ، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرَجا ، وأما البيتُ

---

(١) أطرق : سكت ولم يتكلم .

فإنكم إن شاء الله مُطَوَّفون به فى قابل ، وما فعلتُ ما فعلتُ عن أمرى ، وإنما عن أمر الله ، وهو نَصِيرى ولن يُضَيِّعَنى ، ثم دعا الحلاّق فحلَق ، وعمد إلى البُدْنِ فذَبح ، وتحلّل من الاعتمار .

وما سمع القومُ قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما رَأَوْا أفعاله ، حتى لانَتْ عَرِيكَتُهم ، وثابت إليهم حُلُومُهم[1] ، وطابت نفوسهم ، وأقبلوا على رُءوسهم مُحلِّقين ومقصِّرِين ، ثم نحروا البُدْن وتحللوا من الإحرام ، وانكَفَئوا[2] إلى المدينة رَاجعين ، لم يَمْسَسْهُم سوء ، ولم يصابوا بأذى ، ولكنهم ما برحوا عِطاشاً إلى مكة ، متشوِّقين إلى البيت ، وهم بين هذه اللّهفة وهذا الاشتياق ظلوا ينتظرون قضاء الله .

---

(١) حلومهم : عقولهم .　　(٢) انكفئوا : عادوا ورجعوا .

نقض العهد

وعاد المسلمون إلى المدينة مَوْفُورِين ، وانقلبوا إلى دُورهم آمنين ، ولكنهم لم يطوّفوا بالبيت كما كانوا يَطْمَحُون ، ولم يَنْشَقُوا عَبِير الوطن كما كانوا يتشوّقون ، تغشَى وجوههم حَيْرَة ، ويبدو فى معارفهم الوُجوم .

أجل ! إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدهم أنهم لابدّ داخلون مكة ، طائفون حوْل البيت ، ووَعْدُهُ صِدقٌ وقولهُ حق : (وما يَنطِقُ عَنِ الهَوَى)[1] ، وما يبلّغُ إلا عن رُوح أمين ، ولكنّ لواعِجَ الشوق إلى البيت ، وتبارِيحَ الحنين إلى الوطن ، والرغبة فى القتال والجهاد — كلّ ذلك أقلق نفوسهم ، وأقضّ مَضاجِعَهم .

لقد كانوا قبل اليوم أحسن حالا ، وأعزّ شأناً ، وأقوى سلطاناً ؛ أما اليوم فواحرَبَاه ، مَنْ جاء إلى المدينة من قريش ، راغباً إلى الإسلام ، زاهداً فى عبادة الأصنام ، لا يجدُ فيها ظلا ولا مَقِيلا ، ولا يستطيع أن يُنزلَ فيها رَحلا ، أو يَشُدّ طُنُباً ؛ فالعهد المأخوذ يردُّه إلى مكة ، والميثاقُ يرجعه كاسِفاً بين الكفّار ، وما يأمنُ من أن يَفْتِنُوه فى دينه ، أو يضيّقوا عليه فى عبادته ، أو ينالُوا منه فى بَدَنِهِ وعافيته ، وَمَنْ ذهبَ إلى الكفّار منّا مرتدًّا عن الإسلام ، صابئاً عن كلمة الإيمان ، فليس للمسلمين عليه سلطان ، وليس لإرجاعه إليهم سبيل!

ثم إنهم ما كادوا يَنْسَوْنَ يوم أبى جندل ، حينما جاء مؤمناً يَرْسُف

---

(١) سورة النجم ، آية ٣ .

فى القَيْد ، مُسْتَجِيراً يطلبُ المجير ، فلم يَجِدْ مُعيناً ولا مُجيراً ، ولم يلق وَلِيًّا ولا نصيراً ، حتى هَيَّأت الأحداثُ أمراً جديداً ، مزَّقَ خيوطَ النسيانِ ، وجدَّد الأسى ، وبعث كامنَ الآلام ؛ والأسى يبعثُ الأسى ، وَبَعِيد الهَمِّ ينشرُ دَانيه[١] .

ذاك أبو بَصِير قدم إلى المدينة زائغَ البصر ، واجفَ القلب ، مستطار الفؤاد، وفى رجليه أثرٌ من قيْد ، وفى يديه سِمَةٌ[٢] من غُلٍّ !

قالوا : لا تُرَع يا أبا بصير ، وَلْيُفرِخْ رَوْعُك[٣] ، وليهدأ بالك ، ما بك ؟ وما شأنك ؟ ولم اضطرابك ؟ وفيم قُدُومك ؟

قال أبو بصير — وقد عاد إليه الاطمئنانُ ، وسكن فى نفسه طائرُ الأمان : اسمعوا ، لقد هاجر محمدٌ عن مكة ، وما كان أبغضَ إلىّ من دَعْوَتِه ، ولا أثقلَ على نفسى من رسالته ، وكنتُ أحسبُهُ خارجا عن قومه ، متجنِّياً على عشيرته ، حتى أُتِيحَ لى مرةً فى إحدى سبحاتى بالليل أن سمعتُ رجلاً يتلو شيئاً من الكتاب الذى جاء به ، فوجدتُ فى طَبْعى إليه ارتياحاً ، وله فى نفسى قبُولاً ، فأسلمتُ وأزمَعْتُ الهجرة إليه ، ولكنى ما جهرتُ بإعلان ما اعتقدتُ ، وما عرفوا ما اعتزمت حتى وضعوا فى رِجْلى القيود ، وَصَفَدُونى[٤] تحت أعيُنِ الرقباء ، وَلَقِيتُ من صنوف البلاء وَالأذَى ما يَنُوء به كاهِلُ الشجاع ، ولكننى فى ساعة من غفلتهم ، واشتغالهم بشؤونهم حطمتُ قيْدِى ، وَفككتُ أسْرِى ، وَفرَرْتُ بنفسى وَدِينى ، لأشرككم فى الحظوة ، وأكون معكم فى الجهاد .

---

(١) الدانى : القريب .
(٢) سمة : علامة .
(٣) الروع : الخوف . وليفرخ روعك : ليذهب خوفك .
(٤) صفدونى : قيدونى .

قال ذلك أبو بَصِير ، وحسب أنه قد زالت عنه همومُهُ وأحزانُه ، وأقبلت عليه أيامُ دهْره ، وظنّ أنه من اليوم سيعبد اللهَ كما يريد ، ويتوجَّه إليه متى شاء ، وما دَرَى أن هناك عَهْداً يحولُ بينه وبين ما يريد .

وأخذ سبيله إلى الرسول ، وقبل أن يتشقق[1] الحديث وجدَ اثنين من قريش سبَقاه إليه ، كانا قد جاءا فى أمْرِ أبى بصير يَسْتعديانِ عليه الرسول ، ويذكِّرانه العهدَ والميثاق . قال أحدهما : يا محمد ، ما عرفناك غادِراً صغيراً ، فكيف بك كبيراً ، هذا أبو بَصِير قد أبَق[2] عن ديننا ، وانسلخ عن جمعِنَا ، وجاءك فارًّا ، وقد عاهدناك أن تردَّ من جاءك مِنَّا مسلماً ، وتدفع إلينا من التجأ إليك فارًّا ، وقد أوفدتنا قريش لترى مقدارَ قيامك على العهد ، ورعايتك للميثاق .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما نقضتُ العهد ، ولا حَنِثْتَ فى اليمين ، ودونكما الرجل فَخُذَاه ، ولعلَّ الله يجعل له من أمْرِه يُسْراً وفى دينه فَرَجاً .

ومضى أبو بَصِير أسيراً بين سَمع المسلمين وَبصَرِهم ، يشيِّعُونه بنفوس ملؤها الأسى ، وقلوبٍ حَشْوها حزنٌ عميق ، ولكنه لم يبعد فى السير طويلا حتى رأوه قادماً ! قالوا له : أين غَرِيماك ؟ قال : لقد قتلْتُ أحدهما وألجأتُ ثانيهما إلى الفرار .

ولقد وَفَيْتُ بذمةِ الرسول صلى الله عليه وسلم ، وَبَرَرْتُ بما قام به من عهدٍ ، ولا علىَّ أن أُقِيمَ بينكم !

قال رسول الله — وقد بلغه صَنِيعُ أبى بصير — : وَيْل أمه مِسْعرُ حرب

(١) يتشقق الحديث : يطول ويتفرع .
(٢) أبق : فر .

لو كان معه رجال ، ولكن لا بقاء له فى المدينة ؛ فأىَّ أرضٍ يذهب يجدْ مراغما[1] ، وفى أىِّ مكان يَصلْ يَلْقَ الله .

وخرج أبو بَصِير — كما خرج فى المرة الأولى — كاسِفَ البال ، ساهِمَ الطَّرْف ، مُلْتاع الفؤاد ، حائراً أينَ يذهب ؟ وخلَّفَ وراءه — كما خلَّف فى المرة الأولى — نفوساً ثائرة ، وأفئدةً تنطوى على هَمٍّ طَوِيل .

* * *

ومضت أيام ، وتصرَّمت[2] شهور ، وكلما تذكر المسلمون ماهم فيه من أمر قريش — من عَهْدٍ جائر ، وظلم واقع — سالت نفوسهم أسًى ، وَصَعِدت أنَّاتُهم حسرة وأسفاً ، حتى هبَط عليهم فى المدينة قرشىٌّ جديد .

قال أحدهم : هذا مسلم فارٌّ ، ومؤمن مُسْتَجِير ؛ إنه قدم ليجدِّدَ الأسى ، وَيَضَعَ الإصبع فى جُرْحٍ لا يزال وَجِيعاً .

وتقدم إليه آخر ، وقال : أمسلماً جئت يا هذا ؟ إنَّ المدينة ليست بدارك ، ولا محطاً لِرِحالك ، ولا موضعاً لأمانك ، لقد علمت أن بينكم وبين الرسول عهداً لا يحمى قرشياً مسلمٌ ، وألا يُؤْوِى عنده رجلاً منكم ، وإنه لقائم على العهد ، أمين على الميثاق ، لئن طال مُقامك لَتُوشِكَنَّ قريش أن ترسل فى أثرك ، فلا تستطيع فِكاكاً ، ولا تملك لنفسك حَوْلاً ولا طَوْلا ؛ فخيرٌ لك أن تطلب داراً غير المدينة ، وحَيًّا غير هذا المكان ونرجوا الله أن يجعل لك فَرَجاً قريباً .

فضحك الرجلُ وَأَغْرَب[3] ، ثم قال : إنكم حَزَرْتُم[4] فأخطأتم ، وتوهمتم وما صَدَقتم ، لست مسلماً حضرت ، ولا فارًّا التجأت ، وما ابتغيت عن دين

(١) المراغم : المذهب والمهرب . (٢) تصرمت : انقضت ومرت .
(٣) أغرب : بالغ فى الضحك . (٤) الحزر التقدير .

قومى ديناً ، ولا اتخذت غيرَ مذهبهم مذهباً ، ولكن جئتُ محمداً فى أمر ، والإفصاح عنه رَهِينٌ بِلُقْياه .

قال المسلمون : ما هذا الأمر الذى دفع قريشاً إلى أن ترسل هذا الرسول ؟ انطلقوا لننظرَ ما يقول .

ولما دخلوا المسجد وجدوا الرجل يتحدث إلى الرسول بعبارات مطمئنة : لقد أرسلتنى قريشٌ فيما حَزَبها من أمرِ أبى بَصير ، وما يترَّصد لها من النَّكال ، لم يَكفِهِ أن قتل غِيلةً وغَدْراً رجلا من خير رجالنا ، وفَتًى من أشجع فُرْساننا ، حتى وثب إلى سِيفِ(1) البحر فاتخذه مَقَرّا ، يلجأ إليه كلّ هارب من قريش ، ويُقيم عنده كلُّ مسلم لا تتسعُ لدِينه جَنَبات مكة ... وما كان يهمنا أمرهم ، أو نعبأ بجمعِهم ، لولا أنهم أقاموا علينا حَرْبا ، وسلُّوا دوننا سَيفاً ، وهم لا يسمعون بقافلةٍ منّا تذهب إلى الشام أو ترجع إلى مكة ، حتى يُناوئوها فى سيرها ، ويبدِّلوا أمْنَها خوفاً ، ويُوسِعُوا رجالها رعباً وفزعاً ، ولسنا نرى ـ دَفْعاً لشرهم ، أو رَدّا لجماعتهم ـ إلا أن تعفينَا من شرط أخذناه على أنفسنا ، وحسبناه خيراً لجماعتنا ، فإذا هو بلاء وشَرّ ، وإذا هو محنة وعَناء ، فلتضمّ إليكَ مَنْ جاءك منا مسلماً ، أو خرج عنا فارا .

وسمع المسلمون هذا العَرْضَ من قريش ، فأزاحوا بعضَ الهمّ عن نفوسهم وارتاحت ـ هَوْناً ما ـ ضمائرهم ، وانسَلَكْت عنهم بعضُ همومهم ، وعادوا أخفّ أحزاناً ، وأيسر بَلْبالا(2) ، وأشدّ اطمئناناً .

ولكن كلما مضى الزمن اشتدّ نزوعُهم إلى البيت ، يشوقُهم إليه لامعُ البرقِ

---

(1) سيف البحر : ساحله .

(2) البلبال : شدة الحزن .

ويهيج حَنِينَهم وافدُ النسيم ، أجلْ ! إنَّ قريشاً قد وفَتْ بعهدها ، وبرَّت بيمينها وأخلَتْ للمسلمين مكةَ فى أيام الحج ، فدخلوها معتمرين ، وطافُوا بالبيت معظّمين ، ولكن هى إلمامةٌ ما أشبهها بإلمامة الطيف ، وزَوْرَة ممزوجة بالخوف : يطوفون وعيونهم تتلفّتُ إلى الوراء خوفَ الغَدرِ ، وقلوبُهم تتوجّس حذَر المكر، ثم هم ممنوعون بعد ذلك أن يسلوا سيفا أو يقيموا عليهم حرباً ، أو يُثيروا قتالا ... لو طال بهم الأمر على هذه الحال فأكبرُ الظنّ أنّ همّهم سيطول ، وحُزْنهم سيستمرّ .

***

وانفلت فريقٌ منهم يوماً من صلاة العشاء ، والتجئوا إلى سَقِيفَة[1] لهم يَسْمُرون ويتحدّثون ، أخذوا يتذاكرون سِقَاط الحديث ، ويتشقّقُ بهم القول فى كل مجال ، حتى انتهوا إلى الحديث فيما كان بين خُزَاعة وبَكْرٍ من عِدَاء وما سال بين هذين الحيَّيْن من دماء ، قال واحد منهم ، وكان أخْباريا حِدْث ملوك[2] : إن عندى من قديم أخبارها ، مالو نفضتُه عليكم لاجتذب أسماعكم واستهوى ألبابكم ، لولا أن التّهويم[3] قد ابتدأ يلعبُ بأجفانكم ، والنوم يأخذُ سبيلَه إليكم.

قالوا : لسنا قائمين إلى فراش ، أو ذاهبين إلى رُقاد ، حتى تحدّثنا بأخبارك وتَروِى لنا من مكنون رواياتك .

قال : لقد حدّثنى أبى فيما كان يحدّثنا به فى ليالى سَمَرِه ، أنه لم يكن بين

---

(١) السقيفة : كل ما سقف من جناح وغيره .
(٢) حدث ملوك : سمير ملوك . (٣) التهويم : هز الرأس من النعاس .

الحيين فى قديم عَهْدِهما إلاّ صِلاتٌ موثقة العُرَا ، متينة الأسباب ، يتزاوَرُون ويُصهرون ، ويسافرون ويتّجرون ، وكم مرة كانوا أحلافا على غيرهما ، وكانوا نصراء على مَنْ يعتدى على أحد منهما ، وما زالوا على هذا الخلاط المؤكد ، والود المصفّق[1] ، حتى خرج مالك بن عباد حليفُ بكر تاجراً فى أرض خُزاعة فاعتدى عليه سَقِيط[2] أحمق ، وَأرْدَاه قتيلا ، ومِنْ يومها استوقدت نارُ الفتنة ، واستطار شرَرُ العِدَا وترَنّق[3] ما كان من الوُدّ صافياً ، وتغيّر ما كان من القلوب سَليما ، وكم سعى رجال من كِرام العشائر ليستلّوا السخائم فلم يفلحوا ، وكم تقدّم الوسطاء لإطفاء وَقْدَة النفوس فخابوا . . واستمر الثّرَى[4] بينهما يابسا ، والجوع عابساً مظلماً مكفَهِرّا ، حتى ظَهر محمدٌ رسول الله بمكة ، فتلفّتَتْ إليه القلوبُ ، وشُغِل به الناسُ .

ولكن عادت العداوة إلى الظهور ، واتخذت سيرتها الأولى فى الوجود ، حينما وقع صُلْحُ الحديبية ، وحينما دخلت خُزاعَةُ فى عهد المسلمين وبكْر فى عهد قريش ، إنهما بحلْفهما على هذا النحو ، قد أثارا كامِنَ عداوتهما ، وبعثا رَاقِدَ حِقْدِهما ! ومن يدرى ماذا تتمخّض عنه الأحداث .

وانتهى الرجلُ من حديثه ، وإذ همّوا بالانصراف سمعوا الكَلْبَ يَنْبَحُ طارقا غَريباً ، قالوا : من الطارقُ الغريب فى جُنْحِ هذا الليل ؟ ليذهب أحدكم فلينظر ، لعله ضالٌ يتخبّطُ فى الطريق ، أو لعله عابرُ سبيل يَلْتَمِسُ القِرى والثّواء[5] .

وذهب رجلٌ وعادَ ، ومعه عَمْرو بن سالم الخزاعىّ ، فسلم عمرو ، وجلس

---

(١) المصفق : المصفى . (٢) السقيط : الأحمق .

(٣) ترنق : تكدر وتغير .

(٤) أى استمرت العداوة بينهم ، وأصل الثرى : التراب ، أو الندى منه .

(٥) الثواء : الإقامة .

تَعبان قد أدركه الأين[1] ، ونال منه السُّرى[2] فى الظلام ، وكأنه يحملُ على ظهره أثقالا من الهمّ ، ويخفِى بين جنبيه داء وجيعاً ماله بَرَاء .

ما بكَ يا عمرو ؟ وما وراءكَ ؟ لأمرٍ ما جئْتَ إلى المدينة ، ولأمرٍ ما طرقْتَ بليل ؟ ما هذا الهمُّ الذى يظهر فى سُهُوم وجهك ، وحَيْرة أجفانك ، وتقطيع كلامك ؟ لمن غريبات الأمور ، وعجب التوفيق أن نخوضَ الليلة فى أحاديثكم ، ونتحدث فيما بينكم وبين بكر من عِدَاء مستمرّ ، وقتال مُسْتَحِرّ[3] .

قال عمرو : إن ما جئتُ فيه الليلة ليس بعيداً عن هذه الحروب ووَيْلاَتها ، وليس قصيًّا[4] عن هذه العداوة وما يجرى فى سبيلها ، لقد بَدَا لنا فى العداوة خَطْبٌ جديد ، وأضافنامّ طَرِيف[5] ، أصابت بكرٌ فينا غِرّة[6] مُصْبِح يوم عند الوتير[7] ، فأسالت دماء ، ومزّقَتْ أشلاء ، وهممنا أنْ نأخذ لثأرنا ، وننتقمَ لقتلانا ، لولا أن قريشاً نقضت العهد ، ورَفَدَت[8] بكراً بالسلاح ، وأمدّتها بالرجال والكُراع[9] ، فكثر الجمع ، وغلب العدوّ ، واستحر فينا القتل ، ولقد التجأنا إلى الحرم نستجيرُ بحرمه ، ونحتمى إلى جواره ، ولكنهم ما راعوا له مقاما ، ولا حَفِظوا فيه جواراً . ولولا من التجأ إلى دار بُدَيل ابن ورقاء لَفَنِىَ مَنْ بمكة من خزاعة أجمعين .

* * *

وطلعت الشمس ، وانتشر الخبر مع شُعاعها فى كل مكان : أن قريشاً نقضت

(١) الأين : التعب .
(٢) السرى : السير فى الليل .
(٣) استحر القتال : اشتد .
(٤) قصيا : بعيداً .
(٥) طريف : حديث .
(٦) غرة : غفلة .
(٧) الوتير : ما بين عرفه إلى إدام .
(٨) رفده : أعطاه وساعده .
(٩) الكراع : جماعة الخيل .

العهد ، وبجرت فى اليمين ، وأعانوا ـ غَدْرا ـ بكراً على خزاعة ، ونصروا حليفا على حليف ، فدلَف الناسُ إلى المسجد يلتمسون رؤية الرسول ، أو يتعرفون ماعنده من رأى ، فإذا هو جالس وعمرو بن سالم يُنشدُ بين يديه بصوت متهدج ونَبْرٍ متوجع :

يا ربِّ إنى ناشدٌ مُحمَّـــدَا ... حِلْفَ أبينـــا وأبيه الأتلدَا[1]

قد كنتم ولدا[2] وكنَّا والدا ... ثمَّتَ أسلمنا فلم نَنْزِعْ يَدَا

فانصُرْ هَدَاك اللهُ نصرا أعتَدا ... ودَعْ عباد الله يأتوا مَـــدَدَا[3]

فيهم رســـولُ اللهِ قد تجرَّدا ... إنْ سيمَ خَسْفا وجهـــه تَرَبَّدا[4]

فى فَيلقٍ[5] كالبَحْرِ يجْرى مُزْبدا ... إنّ قريشـــاً أخلفوكَ المَوْعِدا

ونَقَضُوا ميثاقك المؤكـــدا ... وجعلوا لِى فى كَدَاء[6] رَصَدا

وزعموا أن لستُ أدعو أحدا ... وهُمْ أذلُّ وأقلُّ عـــدَدَا

هم بَيَّتُونا بالوتير[7] هُجَّـــدا ... وقتلونا رُكَّعا وسُجَّـــدا

فانصُرْ هداكَ الله نصراً أيّدَا[8]

فقال الرسول : نُصِرتَ يا عمرو بْنَ سالم ، ثم توجَّه إلى الله قائلا : اللهم خُذ العيون والأخبار عن قريش حتى نَبغَتَها فى بلادها .

---

(١) ناشد : طالب وذكر . والأتلد : القديم .

(٢) يشير إلى أن عبد مناف أمه من خزاعة .

(٣) نصرا أعتدا : أى حاضرا . والمدد : العون .

(٤) تجرد : شمر وتهيأ لحربهم . وسيم خسفا : طلب منه وكلفه ، والخسف : الذل . وتربد : تغير .

(٥) الفيلق : العسكر الكثير . (٦) كداء : موضع بأعلى مكة .

(٧) الوتير : الموضع الذى وقع فيه غدر قريش بخزاعة وهجد : جمع هاجد . ويطلق على النائم والمستيقظ .

(٨) نصرا أيداً : قويا ، وهو من التأييد وهو المعونة .

نصر مبين (*)

لم تُدْرِك قريش خطأها إلا حين تمزقت خيوط الظلام ، وانفلق عمود الصباح نصَرُوا بكراً على خزاعة ، وأعانوا حَليفاً على حليف !

ما أوْخَم العاقبة ؟ وأسوأ المصير !

سيسيرُ الخبر مع الشمس ، وينتقلُ مع الريح ، ويبلغ محمداً أن قريشاً فجرتْ في يمينها ، وعبثَتْ بعهدها ، وسيلقاها المسلمون ثُلمةً ينفذون منها ، وفرصةً ينتهزونها ، وإنهم ما استعدُّوا لحرب ، ولا تهيَّئوا لِقتال .

انتدَوْا دَار واحد منهم ، يقَلِّبُونَ الرأى ، ويتلمَّسُونَ الخروج ، ويتعرَّفون المصير ؛ وتشعَّبت الآراء ، وعلَتِ الأصوات ، واضطربت المذاهبُ .

ثم انتهوا إلى رأى لعلهُ يحسمُ الداء ، ويدفعُ البلاء : أن يذهب أبو سفيان إلى المدينة — وهو شيخُ قريشٍ وَغِطْرِيفها[1] ؛ إليه تومىء الأصابعُ ، وتمتدُّ الأعناق — قبل أن يعلن الخبر ، وينتشرَ في الأنحاء ، وَلَيأتِ محمداً ، فيوثِّقَ العهد ، ويزيد في المُدّة ، فلا يجدُ محمد — صلى الله عليه وسلم — سبيلاً إلى الغزو ، أو سبباً لنَقْضِ العهد .

وسافر أبو سفيان ، وانعقدت عليه الآمالُ ، والتمعَتْ بُرُوقُ الرجاء ، سافر عن قريش يحمل أعباءها ، ويُصْلِحُ ما أفسده حُمْقها . .

---

(١) الغطريف : السيد الشريف ، والسخى السرى .

وما وصل إلى المدينة حتى رأى حديث بكر وخُزَاعة قد ملا الأسماع ، واضطربت به الألسنة ، وانتشر فى كل مكان ، والمسلمون بعد قد أخرجوا مكنون سُخْطهم ، وَرَاشُوا نِبَال غيظهم ، والأمر على غير ما يحبُّ ويرجُو ... فَوَجم الشيخ ، وارتاع فؤاده ، وتوقّعَ الخطب والمكروه .

* * *

والآن ؛ أيَعُودُ إلى مكة خائبَ الرجاء طائش السهم ؟ !

ولـكن فيم كانت مشيختُهُ فى قريش وزعامتُهُ فيها ؟ !

أم يجدّ ليلقى محمداً — صلى الله عليه وسلم — يَبْسط عندهُ العُذْرَ وينتَحِلُ الأسباب ؟ !

لِيُجرِّب الثانية ، فلعلها أنجحُ الرأيين وأحسنُ الطريقتين !

ويذهب أبو سفيان إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقفُ فى ساحته ، حائرَ الطرْف ، مُبَلْبل الرأى ، موزّع الفؤاد ، ثم يتحدث إلى بنته أم حبيبة[1] أم المؤمنين ، فَتُغْلظ له فى القول ، وترده رَدًّا غير كريم ، فيخرج متعثراً فى ذيل اليأس ، مُتَلفِّعاً بمئزر الصغار .

ثم يلتقى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يُصيبُ عنه إلا سُخْطاً وامتعاضاً ، وما يلقى إلا صَدًّا وإعراضاً ، ويرجُو الشفاعة من أبى بكر ، فلا تَعْدُوا آماله أحلام نائم ، ويلتمسُ الخير عند عُمَرَ ، فلا يظفر عنده إلا بِقَلْبٍ حانق ،

---

(١) أم حبيبة : اسمها رملة ، تزوجها رسول الله ، وقد زوجه إياها خالد بن سعيد ابن العاص ، وهما بأرض الحبشة ، وأصدقها النجاشى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار .

وسخط هائج ، ثم ينتهى الأمر عنده إلى خَيْبَةِ الرجاء ، والْتِوَاء الطريق ؛ فيعود إلى مكة مُنْذِراً أهلها أمراً شَفَّت عنه الدلالات ، وأسفَرَتِ العلامات.

***

أما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقد أمر المسلمين بالاستعداد والتهيؤ ، وأعلن فى المسلمين : منْ كان يؤمِنُ بالله واليوم الآخر فليشهَدْ رمضان بالمدينة.

وأُسْرِجَتِ الخيول ، وأعِدَّ السلاح والكُرَاع[1] ، ووفَدَتِ القبائلُ من مُزَينة وغِفَار ، وأشجع وسليم ، والتأمَ جيشٌ من المسلمين ، فى جمع من قبل لم يعرف ، وحماس لم يُؤلف ، وصدر عن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أمرٌ كريم : أن يحفظَ المسلمون أسرارهم ، ويَضِنُّوا بمخبَّآتِ ضمائرهم ؛ فلعلهم يصيبون قريشاً على غير استعداد ، ويدخلون مكة من غير كَيْدٍ أو عناد ؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم حريصٌ على ألا يَسْفِكَ فى البلد الحرام دماً ، ولا يُزْهِقَ رُوحاً ، ولا يثيرَ حَرْباً ، ولا يذكى ضِرَام عداء .

وساروا جميعاً ترفرفُ فوقهم العُقاب[2] ، وتَكْلَؤهم رعاية الله .

ويطلعُ عليهم فى الطريق رجل مَهِيب الطلعة ، أبْلَج الغُرَّة ، طويلٌ بادِنٌ ، فى نَفَر من الناس تبيّنوهُ ، فإذا هو العباس بن عبد المطلب .

قال : يا رسول الله ؛ لقد علمت أنى أسلمْتُ من عهد ، ولكننى ما استطعت أن أجهر بالإيمان ، وما استطعتُ أن أصبر بعد ذلك على الكتمان ، وقد خرجت مهاجراً إلى الله وإليك بنفسى ، وها هم أولاء زوجى وولدى .

---

(١) الكراع : اسم يجمع الخيل .

(٢) العقاب : اسم راية الرسول صلى الله عليه وسلم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مرحباً بك يا عمّ ، ليَهْنِئكَ الإسلام ، وليبارك لك اللهُ في الإيمان ؛ أرسل إلى المدينة أهلك وَوَلَدَك ، وارجع معنا إلى مكة حتى تشهدَ ما يكون بيننا وبين قريش .

ورمى العباسُ ببصره في الجيش ، فإذا بقوم مِلْء السمع والبصر ، والسهل والجبل ، فقال : وارحمة لقريش ! إن دخل هذا الجيش مكة عُنْوَةً فإنه سوفَ لا يُبقى في قريش طفلا ولا كهلا ، ولا امرأة ولا رجلا .

وخافَ العباس ، وأشفق من مصير قريش ، فخرج إلى الصحراء لعله يلقى خطابا أو لَبّاناً أو ذا حاجةٍ ، فيحمّله رسالته إلى قريش : أن يحضر كبراؤها وزعماؤها إلى محمد يُؤمنونه على نفوسهم ، ويعاهدونه على تسليم حَرَمِهم ، فيكون هذا أحْقَنَ لدمائهم وأبقى لحياتهم .

وبينا هو يَشِيم وينظرُ ، ويتطلع ويتنوّر[1] ، سمع همسَ رجلين يتراجعان : قال أحدهما : تلفّتْ إلى هذه النار ، وأدِرْ طَرْفك فيها ، ثم ارجع البصر إلى هؤلاء العسكر ، فإني ما رأيتُ نيراناً قبل كهذه النار ، ولا جنداً أحشد من هؤلاء الجنود .

قال الثاني : هذه واللهِ خُزَاعة قد حَمَّشتها[2] الحرب ، وهاجها يوم الوتير .

قال الأول : اسكُتْ ، فواللهِ لخزاعة أذَلُّ نفوساً ، وأضعفُ جنوداً من أن تكون هذه نيرانها وتلك جنودها .

وبينا الثاني يتهيّأُ للكلام وجد العباس بينهما ، قال العباس : عجباً ! أأنتَ أبو سفيان ! ما جاء بك في هذا الظلام يا أبا حنظلة ؟ قال : هُمُ العشيرة ، وأفداحُ

---

(١) يتنور : يطلب النور.

(٢) حمشتها : اغضبتها .

القبيلة ، وَرُزْء الزمان . . . لقد خَرَجت أَتَحَسَّ خبر ابن أخيك ، وأتطلعُ طِلع[1] المسلمين ، وقد حَزَرَت قريش الحرب ، وتوقّعتِ الشر من يوم أن انتقض العهدُ وفجرنا فى اليمين .

قال العباس : ويْحَكَ يا أبا سفيان ! هذا محمدٌ رسول الله قريب منكَ ، فى جند كعديد الرمل ، ولئن ظفر بك لأخشَيَنَّ أن تضرب عنقك ، وشديدٌ علىَّ أن أرى رأس قريش مجدّلاً ، وشيخها مقتولا .

اركب معى هذه البغلة ، لعلّى آتى بك رسولَ الله أطلبُ لك الأمان ، وأستوهبَ منه الحياة .

* * *

وشاهد الناسُ أبا سفيان رَدِيفاً[2] للعباس ، ورآه عمر بن الخطاب ، فوثب على قدمَيْهِ ، وقال : أبا سفيان عدو الله ! الحمدُ لله الذى أمْكَن منك من غير عقد ولا عهد ! وانطلقَ يعدُو إلى رسول الله .

قال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان ، قد أمكن اللهُ منه من غير عقدٍ ولا عهد . . . فدعنى أضْرِبُ عُنُقه ، ليخبو ضِرَامُ غيظى ، وتهدأ ثائرةُ ضلوعى . . .

قال العباس : يا رسول الله ، إنى قد أجَرْتُ أبا سفيان ، وأعطيته الأمان ، وهيهات للرسول الأمين ، الكريم الحليم — صلى الله عليه وسلم — أن يَرُدَّ جِوَارِى ، ويرجعنى فى أمانى .

---

(١) الطلع – بالكسر : الاطلاع . والطلع – بالفتح : المقدار .

(٢) رديفا : يركب خلفه .

قال عمر : ذاك يا رسول الله شيخ قريش يوم بدر ، ومُحَرِّضها يوم أُحُدٍ ، وزعيمها يوم الأحزاب ، وقد أمكن الله منه بعد عَهْدٍ نقضوهُ وحِلْفٍ ضيَّعُوه ، وإن فى قتله لراحة للمسلمين ، وشفاء لما فى الصدور .

قال العباس : على رِسْلِكَ يا عمر ، فوالله لو كان من قومك من بنى عدىّ ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجالى عبد مناف .

قال عمر : لقد جاوزت الحدَّ يا عباس ، فوالله لساعةُ إسلامك يوم أسلمتَ أحَبُّ إلىَّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أن عرفت أن إسلامك أحب إلى النبى من إسلام الخطاب لو أسلم . . .

وهم العباس بالكلام ، ولكن رسولَ الله حجز بينهما حَجْزاً كريماً ، وفصل بينهما فَصْلا حكيما ، ثم قال : يا عباس ، اذهب به إلى رحلك ، وَدَعْهُ يقضى عندك هذا المساء ، ثم ائتنى به الغداة .

وأخذ العباسُ بِيَدِ أبى سفيان ، وانطلقَ به إلى قُبَّته ، وباتَ مُحَدِّثاً لهُ حتى السَّحَر ، وهو يَرْجُو أن يُطْمِعه فى الإسلام ، ويَأْفِكه[1] عن عبادة الأصنام ؟ !

ولما نهض من نومه ، رأى القوم يقفون خاشعين ، ويُتَمْتِمُون بعبارات لايفهمها ؛ ثم يركمون بظهورهم ، ثم يعفِّرون بالتراب وجوههم ، فقال : مايفعل هؤلاء يا أبا الفضل ؟ فقال : إنها الصلاة ، قم يا أبا سفيان وتطهر ، وانطلق معى إلى رسول الله ، فتطهر أبو سفيان متلكئاً ، وقام مُتثاقلا ، وذهبا حتى جلسا بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم .

قال الرسول : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يَأْنِ لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟

(١) يأفكه : يصرفه .

قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت لو كان مع الله إله غيره لقد أغنَى عنى شيئاً .

قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يَأنِ لك أن تعلم أنى رسول الله ؟

قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأوصلك ! أما هذه والله فإن فى النفس حتى الآن منها شيئاً !

قال العباس : يا أبا سفيان ، لقد وضح الصُّبحُ لِذِى عينين ، فإن كان على عينيك غمامةٌ فارفعها ، وإن كان على قلبك غشاوة فمزِّقها ، وأسلم إبقاء على حياتك ، وحِرْصاً على دُنياك وآخرتك .

فاضطرب أبو سفيان ، ثم تلعثم ، ثم تردد ، ثم قال : شهدت أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمداً رسول الله .

وابتهج الرسولُ والتمع البِشْرُ فى وجه العباس ، ثم أخذ بيده ، وعلمه الوضوء والصلاة ، وَبصَّرَهُ بمبادىء الإيمان .

ثم عاد العباس إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : يا رسول الله ، إنّ أبا سفيان — كما أعْلَمه — رجل يحب الفخر ، وتميل به الخُيلاء[1] ، وإنه حتى هذه الساعة لا يزال الإسلام غريباً فى قلبه ، والعقيدة غير مستقرة فى نفسه ؛ فاجعَلْ له شيئاً يقْضِى به حاجة نفسه من الزّهْو والمخيلة ، ويجعله فى الإسلام أثبتَ قدماً ، وأكبر يقيناً . . .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نَعَمْ ، من دخل دار أبى سفيان من مكة فهو آمِن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمِن ، ومن دخلَ المسجدَ الحرام فهو آمِن .

---

(١) الخيلاء : الكبر .

ويسمع أبو سفيان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيذهب صائحا في عَرَصات[1] مكة : يا معشر قريش ، قد جاءكم محمد بما لا قِبَل لكم به ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ... فقامت إليه زَوْجُه هند وقالت : اقتلوا الحَمِيت الدسم الأحْمَس[2] ، قُبِّحْتَ من طليعة قوم ! قال : يا قوم ، لا تغرَّنكم هذه عن أنفسكم ! وقد نصحتُكم ، وما أردتُ إلا حقنَ دمائكم ، وحِفْظَ أرواحكم ، ولقد جاءكم محمد بما لا قِبَل لكم به .

فارتاع القوم وقالوا : ويلك ! وما تُغني عنا دَارُك ؟!

قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمِن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمِن ؛ فهُرِع الناس إلى المسجد والدُّور .

ودخل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مكة حانياً ظَهْرَه شكراً ، غاضاً طَرْفه حمداً ، لابساً عمامته السوداء مُعْتَجِراً[3] شُقّه بُرْد حمراء ، لم يَلْقَ سيفاً قائماً ، ولا رجلا شاكِياً[4] ، وهو يتلو : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا . هُوَ الذى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عنهم سَيِّئاتهم وكان ذلك عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيما . وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالمشْرِكِين وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّين باللهِ ظَنَّ السَّوْءِ ، عليهِمْ دَائِرَةُ

(١) العرصة : كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء ، والجمع عرصات .

(٢) الحميت : السمين . والأحمس : من لا خير فيه .

(٣) الاعتجار : لف العمامة .

(٤) شاكى السلاح : ذو شوكة وحد فى سلاحه .

السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عليهمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وسَاءتْ مَصِيراً ، وَلِلهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالأرضِ وكان اللهُ عَزِيزاً حَكِيما)[١] .

ثم توجه إلى البيت طائفاً ، وذهب إلى الرُّكْنِ مُسْتَلما ، واحتشد الناسُ فى المسجد ، وتدافعوا ينظرون ما يقول محمد وما يصنع . . .

هذا الذى أخرجوه وصَحْبَه من ديارهم ، وافتنوا فى إيذائهم ، ونالوا من عافيتهم وراحتهم ، هو ذا قد عاد اليوم ظافراً بهم ، قادراً عليهم ، ليت شِعْرهم ماذا سيقول ؟ وليت عِلْمهم ماذا يصنع ؟

ووقف الرسول عليه الصلاة والسلام على شرف[٢] فى المسجد ، وتهيَّأ للقول وقال : يا معشر قريش ، ما تظنُّون أنى فَاعِلٌ بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطّلقاء !

---

(١) سورة الفتح من ١ – ٧ (٢) الشرف : المكان العالى .

يوم حنين(*)

المسلمون بين الهزيمة والنصر

كان دُرَيد بن الصِّمَّةِ ذا عِلْمٍ فى الحرب ، وصاحبَ رَأْيٍ فى أساليب القتال ، خَبَّ فيها ووضع[1] ، وشَبَّ واكتهل ، وهو وإن كان اليوم قد أصبح شيخاً متهدِّماً ، وعجوزاً فانياً ، ليس لقومه من بنى جُشَم فيه من عَوْن ، ولا عليه من مُعَوَّل ، فإنه ما زال فَيْصَلا فى الأحكام ، ومَرْجِعاً فى المشكلات .

قال لقومه — وقد حملوه فى شِجَارِه[2] ، وقادُوه بزمام جمله : بأىّ وادٍ أنتم ؟

قالوا له : نحنُ بأَوْطاس[3] .

قال : نِعْمَ مجالُ الخيلِ ، لا حزن ضَرِس[4] ، ولا سَهْل دَهِس[5] ، ولكن مالى أسمعُ رُغَاء البعير ، ونُهَاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويُعار[6] الشاء ؟

قالوا : لقد ساق مالكُ بن عوفٍ الناسَ للحرب ، وحشد وراءهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم .

(*) سورة التوبة ٢٥

(١) الخبب والإيضاع : نوعان من السير ، والمراد أنه مرن على الحرب .

(٢) الشجار : الهودج . (٣) أوطاس : مكان .

(٤) ضرس : صعب . (٥) دهس : سهل .

(٦) اليعار : الشديد من أصوات الشاء .

قال دُرَيد : دلُّونى عليه ، فوالله ما أراه إلا دَبَرِىَّ[1] الرَّأى ؛ أفِيلَ الفِكْرَة[2] ؛ أهكذا تَكُونُ الحرب ؟ وأمسكَ غلامُهُ بخطام جَمَله حتى وقف به على مالك .

قال دُرَيد : يا مالك ، لقد أصبحتَ بَعْدِى رئيسَ القوم ، وزعيم الجماعة ، فحدِّثنى عن هذا الحَشْد .

قال مالك : هؤلاء قومى وقومك ، دفعتُ بهم إلى لقاء محمد ، لقد علمتُ أنه قد دخل مكة فى جيش لم ترَ العربُ مثله ، ولم يلق فيها صادًّا ولا رادًّا ، ولم يصادِفْ عقَبَة ولا عثرة ، فذلَّتْ له قريش ، ولم تعُدْ لهم بَعْدُ فى مكة كلمةٌ ... وإنه ليُوشك إن لم نَغزُه أنْ يَغزُونا .. وما يبعد — إن لم نستعدَّ له — أن تذلَّ له هَوَازن ، وتخضع نَصْر وجُشَم ، وتَدِين ثَقِيف ، ويصبح محمدُ ملكَ العرب جميعاً ... ولكننى — كما ترى — أعددتُ له قبل أن يُعِدَّ لنا ، وأزمعت المسير إليه قبل أن يسير إلينا .

قال دُرَيد : هؤلاء الرجال ، وهؤلاء الفرسان ، ولكن ما هذا الذى أسمعه من رُغَاء البعير ، ونُهاقِ الحمير ، وبكاء الصغير ، ويُعار الشاء ؟

قال مالك — وَحَسِبَ أنه طَبَّق من الرأى المَفْصِل[3] ، وأصاب شاكِلَة[4] الصَّوَاب : لقد خشيت هزيمةَ القوم ، وهم قِلَّةٌ بجانب أصحاب محمد ، ولهذا سُقْتُ وراءهم أموالهم وأبناءهم ونساءهم ليقاتِلُوا ، ولعلهم بهذا يكونون أصدقَ لقاء ، وأثبت أقداماً .

---

(١) الرأى الدبرى : هو الذى يسنح بعد فوات الفرصة .
(٢) أفيل الفكرة : ضعيفها .
(٣) أصاب المفصل : يريد إصابة الرأى .
(٤) الشاكلة : الشكل ، والناحية .

فهزَّ دُرَيد رأسه ، وقال : رَاعِي ضَأْنٍ واللهِ[1] ! وهل يردّ المنهزمَ شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رَجل بسيفه ورُمحه ، وإن كانت عليك فضحت أهلك ومالك ، يا مالك ، إنك لم تصنع بتقديم البَيْضة[2] : بيضة هَوَازن إلى نُحُورِ الخيل شيئاً .. ارفعْهم إلى متمنَّع بلادهم ، وعُلْيا قومهم ، ثم الْقَ الصُّبَاة[3] على متُون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك مَنْ وراءك ، وإن كانت عليك ألْفَاك ذلك وقد أحرزْتَ أهلك ومالك .

قال مالك : يا دُرَيد ، لقد كَبِرْتَ فى السن ، وكبر علمك ، فَدَعْها لمن يعرفها ، واترك من سيخُوض غِمارَها ويدبِّرُ خطتها .

ثم عاد إلى القوم ، وقال : يا معشر هَوَازن ، لتطيعمنى أو لأتَّكِئَنَّ على سيفى هذا فيخرج من ظهرى .

قال زعماء القوم وعُرفاؤهم[4] : دُونَكَ يا مالك وما تُريد .

وطار الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكَّة ، وهو يتهيّأ للعودة إلى المدينة ، أن مالك بن عوف قد حشد هَوَازن ، واستنفر ثَقِيفاً ، ودعا إليه نَصْرا وجُشَم ، وأنه يوشك أن يشتبك مع المؤمنين فى قتال .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين ألا يُلقوا سلاحهم ، وألاّ يُريحو أبدانهم ، حتى يلقَوْ مالكا ؛ فلعلَّ يومهم آخرُ يوم لغزو العرب ، وشوكتهم آخرُ شوْكةٍ فى المشركين .

---

(١) قصد بذلك تجهيله . (٢) البيضة : الأهل والعشيرة .
(٣) التاركون دينهم : وبهذا كان الكفار يسمون المسلمين .
(٤) عرفاؤهم : جمع عريف ، وهو رئيس الجماعة .

فاستجابوا لله وللرسول فى جيش لم يهيَّأ لهم من قبل : عشرة آلاف ممن قدموا مع الرسول فى المدينة ، وألفان ممن دَانَ يوم الفَتْح ، إنه لعدد يدعو إلى الزَّهْو ويدعو إلى الإعجاب ، أين الرسول الآن وهو فى قوم من المسلمين كعديد الحَصَى ، منه يوم أن خرج من مكة تحت جُنْح الظلام مطلوباً ، لا عَوْن له ولا ناصر ؟ وأين عديد المسلمين اليوم من عديدهم يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق ؟ إنه جيش غرّ قائلهم فقال : إنهم لا يُغْلَبُونَ اليوم من قِلّة .

ولكن ما خَطَرُ الكثرة إذا لم تؤيد بنصر الله ؟ وأين هذا الجيش الذى يضمُّ صفْوَان بن أمية على شِرْكه ، وأبا سفيان والأزْلَامُ[1] فى كِنانته ، وَكَلَدَة بن حنبل وَقَتْل رسول الله صلى الله عليه وسلم ضالّته ؟ أين هذا اليوم من يوم بَدْر ، وما فى المسلمين إلا مؤمن قوىّ الإيمان ، مجاهد صادق فى الجهاد ! إنها لكثرةٌ لم تبعثْ إلا غرُوراً ، ولم تُهيِّء لهم إلا عجباً وخُيَلاء .

* * *

وخرج المسلمون فى عَماية الصُّبْح[2] ، وانحدروا بجموعهم إلى وادى حُنَين[3] كما ينحدرُ السيلُ إلى الحَدُور[4] ، وما راعهم إلا المشركون قد سبقوهم إليه ، وكمنوا فى شِعابه ، واختبئوا وراء أحْنائه ومَضايقه ، وظهروا عليهم فجأة !

فإذا كثرةُ المسلمين ما خرجوا إلا طامعين ، ولا ذهبوا إلا متردّدين ، يخورُ عُودُهم ، وتَنخب[5] قلوبهم ، وينشمِرُون منهزمين ، ويرجعون متقهقرين ثم يقع الذُّعر فى سائر الجيش ، ويَغزُو الرعبُ قلوبَ المسلمين .

(١) الأزلام : سهام كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية .
(٢) عماية الصبح : ظلمته . (٣) حنين : بين الطائف ومكة .
(٤) الحدور : المكان ينحدر منه . (٥) النخب : الجبن وضعف القلب .

ويتكشف القتام(١) عن رسول الله منحازاً إلى ذات اليمين ، راكباً بغلته البيضاء وهو يصيح : أينَ أيها الناس ؟ هلمّوا إليّ أنا رسول الله ، أنا محمد ابن عبد الله ، ولكن لا شيء غير قوم مذعورين ، وفلول منهزمين .

ويتلفت الرسول فلا يلقى إلا أبا بكر ، وعمر ، وعليًّا ، والعباس ، وقليلامن خاصته وأهل بيته ، وأبو سفيان يبرز مكنونَ حقده ، ويعلن ما بين ألفاف صدره ويقول : إنّ هزيمتهم لاتنتهي إلا إلى البحر ، ويصيحُ كلدة بن حنبل : الآن قد بطل السحر ، ثم يعود الرسول فيدعو العباس ويأمره أن يهتف بالأنصار وكان العباس فارعاً بادناً ، صيِّتاً جهير الصوت ، فنادى : يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السَّمُرَة(٢) ، هذا رسول الله يدعوكم ، ويستنصر بكم على عدوّكم ، وإذا بصوته يشقّ الصدور ، ويَصِلُ إلى قرارات النفوس ، ويجيب الأنصارُ هاتفين : لبَّيْك يا رسول الله ، لبَّيْك . .

وإذا كان الله قد بلغ بالمسلمين ما أراد من أن يُريهم عاقبة غرورهم ، ومقدار كثرتهم ، وخطأهم فى تعبئة جيوشهم ، فإنه عاد فثبّتَ أقدامَهم ، وَربطَ على قلوبهم ، وأنزل سكينتَه عليهم ، وَأمَدَّهم بجنود لم يرَوْها ؛ فانقلبت الهزيمةُ إلى نصر ، وَوَلَّتْ هَوازن وأحلافها ، تاركةً للمسلمين أسلابها وغنائمها .

---

(١) القتام : الغبار .

(٢) السمرة : الشجرة ، والمقصود شجرة البيعة .

الثلاثة الذين خلفوا[*]

المسلمون فى عُسرة من المال ، وضيق من العيش ، ولَفْح شديد من الحرّ ، ولكنهم كانوا يَعْقِدُونَ آمالهم بيوم قريب ، يَجْنُونَ فيه الثمر ، ويحصدونَ الزرع ، ويروِّحُون عن نفوسهم بِفَرَجٍ مُقْبِل ، وخيرٍ آتٍ .

وبينما هم يَرْجُونَ ذلك الأمل ، ويترصَّدُون هذا اليسر وهم أشدُّ ما يكونون رغبةً فى البقاء ، وَأَزْهَدُ ما يَرَوْنَ ميلاً عن السفر ، إذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم للجهادِ ، ويُؤَذِّنُ فيهم بالنفير العام : (انفِرُوا خِفافاً وَثِقَالاً وَجاهِدُوا بأموالِكم وَأَنفُسِكم فى سبيل الله . .)[1] ومن استطاع منكم الإنفاق عن سَعةٍ وفضل فَلْيُنْفِق ، ومن استطاعَ أن يحمل غيرَه فليَحْمِل ، واعلموا أنّ وجهتنا غَزْوُ الرُّوم ، فلا يتخلفَ أحدٌ منكم ما استطاع إلى الجهاد سبيلاً .

أقبل المسلمونَ بعضهم على بعض يتساءلون : ما بالُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا للجهادِ فى وَقْتِ الحرِّ وَلَفْحِ الهاجرة[2] ، وقبل أن نجنى الثمار ، ونحصدَ الزَّرْع ؟ !

ثم ما باله يَجْرِى اليومَ فى الجهاد على غير عادة مألوفة ، ويسلك طريقاً غيرَ معروفة ، فيعلن الجهة التى يقصدها ، والقوم الذين سيغزوهم ، والعهدُ به يُخْفِى ولا يُصَرِّح ، ويُكَنِّى ولا يُفْصِح ؟ !

(*) سورة التوبة ، آية ١١٨ .

(١) سورة التوبة ، آية ٤٢ .

(٢) الهاجرة : نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر .

ولكنهم ما علموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهيأ ليَصُدَّ بنى الأصفر[1] الذين أعَدُّوا جموعهم ، وحشدُوا[2] جيوشهم لغزو المسلمين ، وهم أقوى ما يكونون عَدَّةً وعَدَداً ، وأنه قد آثر إعلامَهم وإيذانهم ، ليتهيَّئُوا لسفرٍ بعيد وشُقّةٍ طويلة ، حتى استطابت نفوسهم للجهاد واستعدوا للبَلاء .

***

ودعوةٌ للجهاد فى عُسْرَةٍ من المال ، وعسرة فى الإنفاق ، وعُسرةٍ فى الظَّهر[3] ، تتلقاها النفوسُ بحسب ما قُدِّرَ من الهداية والتوفيق ، وبمقدار ما خالطها من الإيمان واليقين ؛ فالنفوس الفَيَّاضةُ بالتقوى ، الطامحةُ إلى الجنة ، المتطلِّعةُ إلى رضوان الله ، لا تُبالى الجهادَ صَيفاً أو شتاء ، حرًّا أو قرًّا ، وإنما هى كلمة يُلقيها الرسول ، فإذا أموالهم وأنفسهم بين يديه ، وطاعتهم منتهيةٌ إليه ، ذلك لأنهم عَلِمُوا أنه لا يصيبهم ظَمَأ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ[4] فى سبيل الله ، ولا يطئون موطِئاً يغيظُ الكفارَ ، ولا ينالُون من عدو نَيلاً إلا كُتِبَ لهم به عمل صالح ، ولا يُنفِقُونَ نفقةً صغيرة ولا كبيرة ، ولا يَقْطَعُون وادياً إلا كُتِبَ لهم ، ليجزيهم اللهُ أحسنَ ما كانوا يعملون .

وأما أصحابُ النفوس المترددة بين الإيمان والكفر ، المُذَبذَبةِ بين الشكِّ واليقين ، فإنهم ما يسمعون بكلمة الجهاد ، ولا يَرَوْنَ قوماً يتهيَّئُونَ للغزو ، حتى يُعَظِّمُوا الشقَّة ، ويكبروا النفقة ، ويُرْجِفوا بسوء العاقبة والمصير .

فما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى التجهز إلى تَبُوك ، حتى تطوّعَ

---

(١) بنو الأصفر : الروم (٢) حشدوا : جمعوا .

(٣) الظهر : وسائل النقل . (٤) النصب : التعب ، والمخمصة : الجوع .

المسلمون بأموالهم وأنفسهم ، وَظَهر منافقون حاوَلوا أن يخذِّلوا[1] المسلمينَ فلم ينجحوا وَيُثنوهم عن عزمهم فلم يُفلِحُوا .

وَمَاجَتِ الصحراء بالغزاة وَالمجاهدين ، مُبتهجين مَؤَمَّلين ، ولكن أربعة لم ينتظِمُوا فى الصفوف ، وَلم يأخذوا مكانهم بين الجنود ، فكانوا موضعَ العجَبِ والسؤال .. إذ كانوا ذَوِى غنى وَيَسَار ، وَإيمان وَإيثار ، أبو خَيْثَمَة أخو بنى سالم بن عوف ، وكعب بن مالك أخو بنى سلمة ، وَمرارة بن الربيع أخو بنى عمرو بن عوف ، وَهلال بن مُرة أخو بنى وَاقف .

أما أبو خَيْثَمَة فإنه ذهب إلى أهله ، بعد أن سار رسول الله صلى الله عليه وسلم أياماً فى يوم حارّ ، فوجد امرأتَيْهِ فى عَرِيشَيْنِ لهما فى حائطه[2] قد رَشَّتْ كلٌّ واحدةٍ منهما عَرِيشها ، وَبَرَّدَتْ له فيه ماء وَهَيَّأت طعاماً .

فلما دخل وجد شرابا بارداً ، ولحماً غَرِيضاً[3] ، تحت ظلّ وَارِف ، ونسيم بليلٍ عَلِيلٍ ، وامرأتين تتهيَّآنِ لخدمته وإسعاده . . فتذكَّرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه فى غزوهم وجهادهم ، وَشُقَّتهم[4] وَبلائهم ، وهم الآن قد يبحثون عن الماء فلا يجدونه ، وعن الطعام فلا يظفرون به .

ألاَ ما أبعدَ ما بينهُ وبينهم ! وما أظهر الفرقَ بين حاله وحالهم ! ثم أعلن الحربَ على نفسه وَالكَيد لهواه .

وقال : رسول الله فى الضحِّ والريح[5] ، وأبو خَيْثَمَة فى ظلّ بارد ، وطعام مهيَّأ ، وامرأة حسناء ، وهو فى ماله مُقيم ؟ ما هذا بالنَّصَف[6] .

---

(١) خذلته تخذيلا : حملته على الفشل وترك القتال .

(٢) الحائط : البستان .

(٣) الغريض : الطرى .

(٤) الشقة : البعد.

(٥) الضح : الشمس .

(٦) النصف : العدل .

ثم قال لامرأتيه : والله لا أدخُل عَرِيشَ واحدةٍ منكما حتى ألحق برسول الله .. وَهَيَّأ راحلتَه وطعامه ، ولحق بالنبى عليه الصلاة والسلام .

أما الثلاثة : كعب ، ومرارة ، وهلال ، فقد قعدت بهم هِمَّتهم فى أول أمرهم فلم يَذْهَبُوا ؛ ثم عادوا فاستشعروا الندم ، وأحسوا ما تورَّطوا فيه ، فهمّوا باللحاق به ، ولكن تَنَاهم الخجل ، وصَرَفهم التردد .

وتقارَبت الأيامُ ، وأمعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغزْوِ ، فلم يجدوا للحاق به سبيلا .

وَأظلتهمْ بالمدينة ليال نابغيّات[1] وساعاتٌ نحسات ؛ يخرجون نهارَهم يَجُسوسُون خِلالها ، ويَرُوحُون ويَغْدُون بين لاَبَتَيها[2] ، ويتلفّتُونَ فلا يرون إلا رجلا مَغمُوصاً[3] عليه بالنفاق والرياء ، أو ممن عَذَرَهم اللهُ من الضعفاء ؛ فتتصاعد أشجانهم ، وتتحدَّر شئونهم[4] إذ لم يكونوا منافقين ولا مُرائين ، ولا مستضعفين ولا مَعْذورين ، ولم يكونوا أقل حُبًّا فى الجهادِ ممن سبقهم ، ولا أرْغَب فى الموت فى سبيل الله ممن تخلفوا عنهم .

ولكن هكذا لعبت بهم الأقدار ، وَصَنَعت صُرُوفُ الحدَثان ، وكانوا كلما اقترنت أيامُ عودة الرسول عليه الصلاة والسلام ضاقت عليهم نفوسهم ، وكثر هَمُّهم ، وَأُقِضَّت مضاجعهم ، فكيفَ يَلْقَوْنه ؟ وماذا يعتذرونَ به ؛ وهم ما بَرِحُوا فى صحة أبدانهم ، وَبَسْطةِ أرْزَقهم ، وَرَفاهية عيشهم ، وصدق إيمانهم ؟

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من جِهاده ، وذهب إلى المسجد كعادته يصلى ركعتين ، ثم يستقبل الناس .

---

(١) ليلة نابغية : طويلة ، من قول النابغة :

كليني لهم يا أميمة ناصب   وليل أقاسيه بطىء الكواكب

(٢) لابتا المدينة : حرتان من حجارة غليظة تكتنفانها .

(٣) مغموص عليه : مطعون عليه .   (٤) تتحدر شئونهم : تتساقط دموعهم .

وجاء قوم مُخلَّفُونَ أخذوا يبسطونَ له المعاذير ، وينتحلون الأسبابَ ، وَيُقسمونَ باللهِ جَهْدَ أيمانهم ، فقَبِلَ علانيتهم ، وبايعهم ، وَوَكَلَ إلى اللهِ سرائرهم ؛ ثم أقبل كعبٌ يتعثَّرُ في مِشْيته ، ويضطرب من فَعْلَته ، فتبسَّمَ إليه رسول الله تبسم المُغضب ، ثم قال له : ما خلَّفك ؟ ألم تكن قد ابتعتَ ظهرَك ؟

قال : بلى يا رسول الله ، والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرُجُ من سُخطه بعذرٍ ، ولقد أُعْطِيتُ جَدَلاً ، ولكنى واللهِ لقد علمتُ أنى لئن حدثتك حديثاً فيه كذبٌ ترضى به عنى لَيُوشِكَنَّ اللهُ أن يُسْخطك عَلَيَّ ، ولئن حدثتك حديث صِدْقٍ تَجِدُ[1] عَلَيَّ فيه ، إنى لأرجو عفوَ اللهِ . . والله ما كان لى عُذْرٍ .. والله ما كنتُ أقوى ولا أيسرَ منى حين تخلَّفتُ عنك ... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمَّا هذا فقد صدق ، فقُمْ حتى يقضيَ اللهُ فيكَ .

وجاء مرارةُ ، وجاء هلال ، فتحدَّثا بمثل ما تحدَّث به كعب ، وتركهما عليه الصلاة والسلام لقضاء اللهِ وقدَرِه ، كما ترك كعباً لقضاء الله وقدَرِه .

***

ونهى عليه الصلاة والسلام عن كلامهم أو الاختلاط بهم ، حتى يَفصِلَ اللهُ في أمرهم : يُعذِّبهم إن شاء أو يتوبُ عليهم ... ومرَّت عليهم بعد ذلك أيامٌ تَقَسَّمَتْهُم فيها الهموم ، وجالُوا في أوْدِيَةِ الغُمُوم ، وَلَقُوا من جَفْوَةِ رسول الله جَهداً[2] وَبَلاءً ، ومن عُزلة أصحابه عنَتاً وعناء ، أما مرارة بن الربيع ، وهلال ابن مرَّة ، فإنهما قد استكانا إلى بيتهما يَبكيان وينتحبان انتظاراً لقضاء الله .

أما كعب فقد كان شاباً يخرجُ إلى الأسواق ، ويضطرب فيما يضطرب فيه الناس ، ويشهدُ الصلاة ، ويَغشى الطرقات ، ولكن لا يكلِّمُهُ أحدٌ ، ولا ينظر

---

(١) تجد : تغضب . (٢) الجهد – بفتح الجيم – : المشقة

إليه أحدٌ ، ويُقبِلُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن يَنفَلِتَ من الصلاة فيُلقي عليه السلام ولا يدرى من اضطرابه : أتَوَجّه إليه أم أعرَضَ ، رَدَّ عليه أو سكت ؟ !

وضاق به الأمر ، واشتدت به جفوَة الناس ، فذهبَ إلى أبى قَتَادَة[1] ـ وكان ابن عمه وأحبّ الناس إليه ـ وتَسَوَّرَ عليه جدارَ حائطه[2] وسلّم عليه، فلم يردّ السلام ، فقال: يا أبا قتادة ، أنشدك الله ، هل تعلمنى أحِبُّ الله ورسوله؟ فسكت فعاد مرة ثانية ، فقال أبو قتادة : اللهُ ورسوله أعلم ! ففاضت عيناه وتولى . .

ومضى يوماً فى الطريق زائغَ البصر ، موزَّع الفكر ، وإذا بِنَبَطىّ من أنباطِ أهل الشام ، ممن قدم بالطعام يَبيعه فى المدينة يقول : أينَ كعب ؟ فطفقَ الناس يشيرون إليه ، فدفع إليه كتابا مِنْ مَلِكَ غسّان ملفوفا فى حرير ففتحه فإذا فيه : « أما بعد فقد بلغنى أن صاحبكَ قد جفاكَ ، ولم يجعلكَ الله بدارِ هوَان ولا مَضْيَعَة . . فالحق بنا نُوَاسِكَ . . » .

ولما قرأ هذه الرسالة بكى وأعْوَلَ[3] : أن كان كعب قد هانَ أمرُهُ وانحطَ قَدْره ، وأصبح ممن يُطمَعُ فى دِينه ، ويُرْجَى تنصُّرُه ؟ ! ثم أخذ الرسالة ، ودفع بها إلى التّنُّور . .

وانقضت أربعونَ يوماً لم يتلقّ النبىُّ فى هؤلاء شيئاً من الوحى ، ولم يستطع أن يفصلَ من أمْرِهِم بشىء ؛ فأرسل إليهم أنِ اعتزلوا أهْلَكم حتى يقضىَ الله بالأمر فيكم . .

أما هلال فقد دَأَتْ امرأته إلى النبى[4] فقالت : يا رسول الله ، إن هلالا شيخٌ ضائع ، ليس له خادم ، فهل تكْرَهُ أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن

---

(١) أبو قتادة : هو الحارث بن ربعى . (٢) الحائط هنا : البستان .
(٣) أعول ، بكى وصرخ . (٤) مشت إليه .

لا يَقرَبك ، قالت : إنهَ والله ما به مِنْ حركة إلى شيء ، وإنه ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى اليوم .

وأما كعب فإنه لما جاءه رسولُ النبيِّ يأمرُهُ أن يعتزلَ امرأته قال: أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : بل اعتزلها ولا تقربها ، فقال له بعض أهله : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك كما أذِنَ لامرأة هلال أن تخدمه ؟ فقال : واللهِ لا أستأذنُ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يُدْرِينى ماذا يقول رسول الله وأنا رجل شابٌ ؟! ثم سَرَّحها .

* * *

وظَلَّ أمرهم معلقاً ، والحديثُ معهم محظوراً ، حتى انقضت عليهم خمسونَ ليلة ، وما صلّى بعدها رسول الله صلاةَ الصبح حتى أطرقَ برأسه ، وغاب بروحه عمن حوله ، ثم أقبل على صحبه مُتهللَ الوجه منشرحَ الصدر ، وأعلن فيهم أن الله قَبِلَ توبةَ كعب ومرارة وهلال ، فاذهبُوا إليهم مهنئينَ مُبشِّرِينَ .

نخفَّ الناس إليهم مُسرعين ، بعضهم على فَرَس يركض ، وبعضهم فوق جبل يَصيح .. وَوَافى البشيرُ كعباً ، فنزع له ثَوْبيه خِلْعَةً ، وما كانَ يملك غيرهما ؛ واستعار ثوباً وجرى إلى النبى عليه الصلاة والسلام ، فألفاهُ جالساً وحوله الناسُ فى المسجد ، فقال : أبشِرْ بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك . ثم أقبل هلال ، وأقبل مرارة فهنأهما وتلا عليهم جميعاً : (لقدْ تَابَ اللهُ عَلَى النبيِّ والمُهاجرين والأنصار الذين اتبعوهُ فى ساعةِ العُسْرَةِ مِنْ بعدِ ما كادَ يَزيغُ قلوبُ فريقٍ منهم ، ثمَّ تَابَ عليهم إنهُ بهمْ رَءوفٌ رحيم * وَعَلَى الثلاثةِ الذينَ خُلِّفُوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرضُ بما رَحُبَتْ ، وضاقت عليهم أنفسهمْ وظنُّوا أن لا مَلْجأ من اللهِ إلاّ إليهِ ، ثم تابَ عليهمْ لِيتُوبُوا إنَّ اللهَ هُوَ التوَّابُ الرَّحيم)[1] .

(١) سورة التوبة ، الآيات ١١٧ ، ١١٨ .

مسجد الضرار (*)

لفَّ الظلامُ المدينة بردائه، واشتملها بسكونه وهَدْأته، وأوحش الطريقُ وسكنت الدُّورُ، وأسلم الناس إلى نوم عميق، ولكن داراً مازال أهلُها فى يقظة وحذَر، وهَمٍّ وقلقَ، اجتمع أهلوها يبثُّون شكواهم، ويَنْشُرُون مكنونَ همومهم، وقد أمِنُوا على الظلام مَنْ يراهم، أو يسمع سِرَّهم ونجواهم.

قال مُعتب بن قُشير — يشكو بَثَّه لمن دَلَفَ إليه من المنافقين، ممَّن ذهب مَذْهَبه من الكَيد والأذى، ومَنْ رجع مَرْجِعَه من الحسرة والإخفاق، ومَنْ لبس قناعه من المُداهنة والنفاق —: أىُّ هَمٍّ ذلك الذى يَسرى فى أحشائى؟ أىّ نَارٍ من الغَيْظ تلك التى تشتعل بين جوانحى وضلوعى؟ إننى والله كلما لحت فى طريق هذا المكان الذى تهيأ لبنى عَمرو بن عوف، ودَعُوه مسجد قُباء، وزعموا أن محمداً قد وضع لهم أساسه، وأقام قواعِدهُ، أغضى طرفى على القَذَى وأحْنى ضلوعى على الأسى! كلُّ من فى المدينة يهتفُ الآن ببنى عمرو بن عوف، ويتحدث عن مسجد قُباء، ما نحن وبنى عمرو! وأىّ قدم يَفْرعوننا[1] فيها؟ ونحن وإياهم أبناء عُمُومة وأغصانُ نَبْعة؟ لستُ أَكْتُمُكم ذاتَ نفسى، وما تحتويه لفائف صَدْرِى، إن الحسد ليملأ أعطافى، والغيظ ليتسعر فى نفسى، ولستُ أدرى دواء لما أحسُّ، وعلاجاً لما أشْعُر به، إلاّ أن أرى مسجدهم مقوّضاً، ومجدهم دَائراً، ورسمهم عافياً، ولكن أنّى؟ وكيف؟ وقد قلّ العدد، وضَعُفَ الجند، وعزّ النصير، وانقطع الرجاء فى خُذْلاَن المسلمين.

(*) التوبة، آية ١٠٧.

(١) يفرعوننا: يسبقوننا:

قال ثعلبة بن حاطب — وقد استوى فى جلسته ، واعتدل فى قعدته — إن همّك من بنى عمك لهَمٌّ يسير ، وخطبٌ هيِّن ؛ إنما الهم الذى يبعث الأحزان ، ويُثير كامِنَ الأشجان ، هذا الدين الذى لاتخمدُ جذوته ، ولا تسكن حركتُه، ولا ينقطع دخول الناس فيه ، أو مارأيتهم وقد صاح فيهم بِلاَل صيحةً يشق بها صدورهم ، ويغزو مشاعرهم ، فإذا هم جميعاً يُهْرَعُون إلى المسجد ، ويَزْدَلِفون إلى ذلك البناء ، فيتأكد جمعهم ، وتقوى آصِرَتهم[1] ، وتزكوا[2] المودَّةُ بينهم ؛ فإذا كانوا فى يوم تَالٍ ، عادُوا ومعهم جَديد ممن يدخل فى دينهم ، أو ينحَدِرُ إلى عقيدتهم ؛ إن اجتماع محمد وصحبه على النحو الذى أراه كل يوم لما يزيد النفس حسرة ، وَيُذِيقها أسفاً وَكَمَداً .

فقام وديعة بن عامر ، وقال : دَعْكما مما تُفيضان من الحسرة ، وما تبعثان من همٍّ دَفين ؛ لقد جاءنى اليوم كتاب من أبى عامر[3] الراهب ، وهو من عمتم كراهيتَهُ لمحمد ، وحنقَهُ على دينه ، وهمّه من ظُهُورِ أمره ، قال : إنه من يوم أن ترك المدينة ما زال يسير ويكمن ، ويُنْجِد[4] وَيُتْهِم ، حتى انتهى بعد طول ما طوف إلى هِرَقل ملك الروم ، فوجده مَلِكاً متعصباً للنصرانية ، مَغيظاً مُحْنَقاً مما سمعه عن أمر محمد والمسلمين ، ثم حدَّثه بما يَقَعُ لمحمد كل يوم مِنْ

---

(١) الآصرة : الرحم ، والقرابة .

(٢) تزكو : تنمو ، وتزيد .

(٣) أبو عامر الراهب : خزرجى ، كان قد تنصر فى الجاهلية ، وقرأ علم أهل الكتاب ، ولما قدم رسول الله إلى المدينة شرق بريقه وبارز بالعداوة ، ولما انتصر المسلمون يوم بدر ذهب إلى مكة فارا وألب المشركين على رسول الله حتى كان يوم أحد وفيه امتحن المسلمون ولما رأى صبرهم وإيمانهم ذهب إلى هرقل ملك الروم .

(٤) أنجد : من النجد ؛ وهو المكان المرتفع من الأرض . وأتهم : أتى تهامة ، وهى المنخفض من الأرض .

فتح ، وما ينتقلُ فيه من نَصْرٍ إلى نصر . . ولقد ذكر لى – فيما كتب – أنه قد استنصره فوعدهُ النصر ، واستنفره فمنّاهُ بالنَّفر ، وإنه ليُوشِكُ أنْ يعود إلى المدينة ، ولكنه يلتمس منا أن نهيِّىء له مَعْقِلاً خَفِيا ، ومكاناً تحت جُنح الظلام ، يُدَبِّرَ فيه الكيد ، ويحيك نسيج المكر ... فماذا أنتم صانِعُون ؟ وبماذا تشيرون . . ؟

إن عندى لرأياً قد زَوَّرْته[1] فأحكمتُ تزويره ، وخطةً دبرتها وأظننى أحسنْتُ تدبيرها ؛ فإن شئتم سمعتموها ، وإن شئتم رددتموها .

فاستشرف جَمْعُهم إليه ، وقالوا : هات ما عندك ، وأتِ على غايةِ ما فى نفسك . .

قال : لقد علمتم أنّ محمداً قد أصبح من القوة بما لا نستطيعُ صدّه ، أو القيام فى وجهه ، وإننا ما استطعنا أن نُساكِنَهُ فى المدينة إلا بفضْل ما نظهرهُ من مَلَق ، وما نرتديه من ثَوْبِ النِّفاق ، وقد رأيتم كيف كان يَلْحَن[2] لأمرنا ، ويَتَنَبَّهُ لغمزات عُيُوننا ؛ فهو منا أبداً على رِيبَة ، وهو من أمرنا دائماً فى شكّ .

والرأىُ عندى أن نعْمِد إلى مكان فَسِيح نَبْنِى فيه مسجداً ، ونتوهمه مصلى ، ثم نُقيم له مِنْ بيننا إماماً ، ونذهب إلى محمد نَدْعُوه للصلاة فيه مُدَاهنين ، ونحلف له كاذِبين ؛ فإذا ما استجاب إلى دُعائنا ، وصَدَّقنا فى أيماننا ، فقد استطعنا أن نفرق الجماعة ، ونَصْدعَ الوحدة ، ثم يكون المسجد بعد ذلك فى الظلام ملاذاً[3]

---

(١) زورته : أعددته .
(٢) يلحن : يفطن .
(٣) ملاذا : ملجأ .

لأبي عامر ، وملجأ لما يريد ؟ وها هو ذا[1] مجمع بن جارية منّا ، قارىء للقرآن ، عارف بالفرائض ، نَدْعُوه لإمامتنا ، ونوهمه حُسْنَ قصدنا ، فما عندكما رأيت؟!

فكلهم آمنَ برأيه ، وأثنى على تدبيره وحَزْمه ، وغدَوا يَضَعُون الأساس، ويُعِدُّون البناء ، يَحْدُوهم الرجاء ، ويُزَيّن لهم الشيطان خوادِعَ الآمال ، حتى استوى مسجداً قائمَ الجُدْرَان ، مَتِين العماد ، واضِحَ المعالم والحدود .

وانصرفوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدوه متهيّئاً لغزوِ الروم ، قالوا : يا رسول الله ، لقد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة ، والليلة المطيرة والشاتية[2] ، ثم لتُقَامَ فيه الصلاة ، وتؤدّى شعائرُ الله ، وقد اخترنا له مجمع ابن جارية إماماً ، وهو مَنْ عَلِمْتَهُ حِفْظاً للقرآن ، وعِلماً بالفرائض ، وبصراً[3] بما فى كتاب الله ، وقد دَعَوْناك للصلاة فيه ، فإنْ فعلت فقدْ نالنا الخيْرُ ، وحفّتْ بنا البركة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا على جَنَاح سَفَر ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من غَزْو الروم ، حتى إذا لم يَبْقَ بينه وبين المدينة إلاّ يومان ، هبط عليه الروحُ الأمين ، مبلغاً عن رب العالمين : (والّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً[4] وكُفْراً وتَفْرِيقاً بَيْنَ المُؤْمِنِينَ وإرْصَاداً

---

(١) كان مجمع بن جارية إذ ذاك غلاما حدثا قد جمع القرآن ، فقدموه إماما لهم وهو لا يعلم بشيء من أمرهم ، وقد ذكر أن عمر بن الخطاب فى أيامه أراد عزله عن الإمامة وقال : أليس بإمام مسجد الضرار فأقسم له مجمع أنه ما علم شيئا من أمرهم وما ظن إلا الخير ، فصدقه عمر وأقره .

(٢) الشاتية : الباردة .

(٣) بصرا : معرفة وعلما .

(٤) ضراراً : مضارة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء (الكشاف) .

لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى ، واللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لاَ تَقُمْ فيهِ أبداً ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أحقُّ أنْ تَقُومَ فيهِ ، فيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أنْ يَتَطَهَّرُوا واللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ . أفمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ ورِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فى نَارِ جَهَنَّمَ واللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمْ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فى قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)[1] .

فعرف الرسولُ صلى الله عليه وسلم كَيْدَهم ، وعلم ما كان وراء معسول كلامهم ، ومَدْهُون أمانيهم ، وما وصل إلى المدينة حتى بعث رَجُلَيْن بإحراق المسجد وتقويضه وهَدْمه .

وأصبح مُعتب بن قشير وتلفّت ؛ فإذا المسجد قد تهدَّم ، والبناء قد تقوض ، فعلم أن اللهَ فضحَ أمرَهم ، وأفشى سِرَّهم ، وعاد وصَحْبه إلى ما كانوا فيه من هَمٍّ وقلق ، وحُزْن وكمد : (ويمكرُون ويمكر الله واللهُ خَيْرُ الماكرِين)[2] .

---

(١) سورة التوبة ، آية ١٠٧ — ١١٠ ، قيل : إنه لما نزلت هذه الآيات مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء ، فإذا الأنصار جلوس ، فقال : أمؤمنون أنتم ؟ فسكت القوم ، ثم أعادها ، فقال عمر : يا رسول الله ، إنهم لمؤمنون وأنا معهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أترضون بالقضاء ؟ قالوا : نعم ، قال : أتصبرون على البلاء ؟ قالوا : نعم . قال : أتشكرون فى الرخاء ؟ قالوا : نعم ، قال صلى الله عليه وسلم : مؤمنون ورب الكعبة .

(٢) سورة الأنفال ، آية ٣٠

المبـــاهلة(*)

قال أبو الحارث أسقفُ نجْرَان لغُلاَمه : ادْعُ لى الساعة شرحْبِيلاً ، فما لما يهمُّنى الآنَ من أمْرٍ سواه ، وكان شرحبيل هذا خازنَ أسراره ، وموضعَ مشورته ، وأمينَ ما بين جوَانحه . . . وذهب الغلامُ وعاد معه شُرحَبيل .

قال أبو الحارث : دَعَوْتُكَ الساعة يا شرحبيل لأمرٍ رَاعَنى وأفزعنى ما استطعتُ أن اختزل[1] به ، أو أستقلّ بالرأى فيه : جاءنى اليوم كتاب من محمد بن عبد الله يدعونى فيه لدين يُسَمِّيه الإسلام ، ثم يخيرنى - إنْ أبَيْتُ - بين الجزية أو الحرب ! ولا أكْتُمُك أنى دُهشتُ مما يدعو ، وَذُعِرْتُ مما يتوعَّد ، وَقَلِقْتُ من مصاير الأمور ، ولقد حاولتُ أن أفصِل فى ذلك برأى ، أو أصيب من الحقّ مَقْطعاً ، فما تَبَيّنتُ المعالم ، ولا اتّضَحت لى الحدُود ؛ فاقْتَدِحْ لى زِنَادَ رأيك ، وَأشِرْ على بما عندك .

قال شرحبيل : لستُ فى هذا يا مولاى بصاحبِ رأى ، ولو كان أمراً من أمور الدنيا ، أو حادثاً مما يجرى بين الناس ، لرجوتُ أن آخذَ فيه بنصيب ، أو أدلى برأى . . . على أننى قد علمتُ ما وعد اللهُ به من النبوّة فى ذرِّية إسماعيل ، فما تُؤْمِنُ أن يكون هذا هو ذاك ؟ ولكننى - كما حدّثتُكَ - ليس لى فى النبوّة رأى .

قال له أبو الحارث : تَنَحَّ عنى قليلا ، وسألتمسُ الرأى عند سواك .

(*) آل عمران ، آية ٦٠ وما بعدها .

(١) اختزل به : انفرد .

ودعا إليه آخر من أهل نَجْرَان ، واستعان به فى الرأى ، فما زاد على أن صدر عما قال شُرَحبيل ، ثم دعا إليه ثالثاً ؛ فرمى عن قَوْس الاثنين .

ولما رآهم قد استقاموا فى رَأْيهم على عمُودٍ واحد ، أمر بالنواقيس أن تُدَقَّ ، والنيران أنْ تُوقَدُ ، وبالمُسوح أنْ تعلَّق فى الصوامع ، إيذاناً بالدعوة وإعلاناً للائتمار ، وكذلك كانوا يفعلون حينما يغُمُّ عليهم الرأى وتَسْتَغْجِمُ الأمور .

ونَسَلوا[1] من كل مكان ، وَهُرِعُوا من كل صُقْع ، حتى إذا ما اجتمعَ لَفِيفُهم وتألّفَ جمعهم ، قام الأسقف وعالنهم بكتاب محمد ، وفاوضهم فيما يفعل ؛ فأدارُوا قِدَاح الرأى ، وقلّبُوا وجُوهَ الأمر ، وانْتَهَوْا إلى أن يذهبَ وَفْدٌ منهم إلى لقاء محمد ، يُحاجُّونه ويجادِلُونه ، ثم يرجعون بما يَرَوْن .

* * *

وصدر الوفدُ عن نجران ، يتزعمُهم شُرحبيل ، ولما وصلوا إلى المدينة نَضوا عن أنفسهم ملابسَ السفرِ ، وتلَفّفُوا بالحِبَرَات وأرْدِيةِ الحرير ، وَوَضَعوا فى أصابعهم الخواتم ، وانطلقوا حيثُ يَلقَون الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولما اطمأنوا إليه قدموا هداياهم ، فلم يرَ بأساً من قبولها ، وصَلّوا صلاتهم فلم يزجُرهم عنها ، ثم قال شرحبيل زعيمُهم وصاحبُ كلمتهم : يا محمد ، لقد علمت أنّا نصارى ، وليسُرّنا إن كنتَ نبيًّا أن نسمعَ ما تقول فى عيسى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماعندى فيه شىء يَوْمى هذا ، فأقيموا حتى أُخبركم بما يقولُ الله فى عيسَى .

ولما أصبح الغد نزل عليه : (إنَّ مَثَلَ عِيسَى عند الله كمثل آدمَ خَلَقَهُ

---

(١) نسلوا : وفدوا ، وجاءوا . (٢) نضوا ملابس السفر : خلعوها .

مِنْ تُرَابٍ ثم قالَ لهُ كُنْ فيكون. الحقُّ مِنْ رَبِّكَ فلا تكُنْ منَ المُمْتَرِينَ. فمن حَاجَّكَ فيهِ مِنْ بعدِ ماجاءكَ مِنَ العلمِ، فقل تعالَوْا ندْعُ أبناءنَاوأبناءكم وَنِسَاءنَاوَنِساءكمْوأنفُسنَاوأنفُسكُم ثم نَبْتَهِلْ فنجعَلْ لعنةَ اللهِ عَلَى الكاذبين)[1].

فدعاهم وأعلمهم أن قدجاء الفصلُ فى أمر عيسى من الله، فإن لم يُذْعِنُوا ولم يعتقدوا فليجتمع المسلمون والمحاجُّون من أهل الكتاب فى صعيدٍ واحد، رجالا ونساء وأطفالاً، ثم يَبْتَهِلوا ويستنزلوا لعنة الله على منْ كان كاذبا.

فقالوا: دَعْنا نتشاورُ فيما بيننا، ثم نُفضى إليك بما ينتهى إليه رَأْينا.

ولما اجتمعوا قال لهم شُرحبيل: لقد عَلِمْتُمونى بينكم صادقَ المنزَعَة، بعيدَ مراد الفكر؛ وأنّ الوادى إذا اجتمع أعلاهُ وأسفله، لا يَرِدُون إلا عن عِلمى ولا يُصَدرون إلا عن رأيى.. إنى والله أرَى أمْراً ثقيلاً؛ إن كان هذا الرجل ملِكا فإنا أدنى العرب منه جِوَاراً، وأقرب منازل، ولا نأمَنُ أن نُصَاب منه بجائحة[2]، وإن كان نبيا فلا عَنّاهُ[3] لا يبقى على وجْهِ الأرض مِنّا شَعَر ولا ظفر إلا هلك...

قالوا له: فما الرأىُ يا أبا مريم؟

قال: رأيى أن نحكمه، فإنى أرَى رَجَلاً لا يحكم شَطَطاً أبداً...

قالوا له: أنت وذاك، ودونك وما تريد..

وذهب شُرحبيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إنى رأيت خيراً من مُلاَعَنَتك. قال صلى الله عليه وَسلم: وماهو؟ قال: حكمك اليوم إلى الليل، وليلتك إلى الصباح، فما حكت فينا فهو جائز، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة آل عمران، آية ٥٩ – ٦١

(٢) الشدة التى تجتاح المال. (٣) الملاعنة: إن يلعن بعض بعضاً.

لعلّ وراءك أحداً يَثرِب[1] عليك ؟ فقال شُرحبيل : سلْ أصحابى ، فإن الوادى ما يَرِدُ وما يصدرُ إلا عن رأيى ..

فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : اذهبوا على أن تعودوا فى الغد .

وعادوا ؛ فعرض عليهم الإسلام فامتنعوا ، وعرض عليهم الحرب فقالوا : ما لنا طاقة ، وعرض عليهم الجزية فقالوا : ما تريد ؟ فشرط عليهم رسولُ الله ألفَىْ حُلّة : ألف تؤدَّى فى رجب ، وألف تؤدى فى صَفَر ، على أن يظلّ كل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لهم ، ولهم بعد ذلك جِوَار الله ورسوله ، لا يغيّر أسقف من سقيفاه ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته ، ولا يغيّرُ حقٌّ من حقوقهم ، ولا يتحيّفُ شىء من سلطانهم ؛ غير مُبْتَلِين بظلم ولاظالم ، ما أصلحوا ونصحوا .

فرأوْهُ حُكماً عَدْلاً ، وقولاً فصلا ، ورجعوا إلى قومهم يَحْمَدُون محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) يثرب : يلوم .

المجـــادلة(*)

كانت خَوْلةُ بنت ثعلب الخزرجية قد تزوّجَتْ بأوْس بن الصامت ، وهى فى مُقْتَبَل عمرها ورَيْعان شبابها ، وكانت صبيحةَ الوجه ، حَسَنَة القَوَام ، وعاشا معاً عمراً طويلا ، نَعِماً فيه بحياة سعيدة ، وعيشة رَافِغَة(1)، ثم تقدّمت بهما السنون ، ولـكنّ خَوْلةَ ما زالت تحتفظ بشىء من فِتنتها وجمالها .

وفى يوم ما قامَتْ تُصَلِّى ، ورآها زوجُها تَقِفُ فى اعتدال وتركع فى خشوع وتسجُدُ فى أناةٍ ورفقٍ ، فَتَاقَتْ نفسُهُ إليها ، فلما سلّمت داعبها فى خِفّةٍ وطَيْشٍ فنفرَتْ فاستحوذَتْ عليه الدهشة ، وتملّـكَهُ الغَضَب ، وثارت ثائرته ، وحرّمها على نفسه كما حُرِّمَت عليه أمّه ، فقال لها : أنْتِ عَلَىَّ كظَهْرِ أمى .

ولما سألت زوجها عما يَعْنِيه بقَوْلَته ، قال لها : ما أظنُكِ إلا حَرُمْتِ عَلَىَّ ! وكان الظِّهَار من أشدّ طلاق الجاهلية ، لأنه فى التحريم أوْكد ، وفى قَطْعِ الصلة أبين .

فَسُقِط فى يدها ، وحارَت فى أمرها ، وشقّ عليها أن تَبِينَ(2) منه وهو أبو وَلَدِها ، وحَبِيبُ نفسها ، ومُؤْنِسُ وَحْشَتها ، وَزَوْجُها الذى سكَنَ إليها ، وسكنت إليه أعواماً طوالا .

فذهبت إلى النبى صلى الله عليه وسلم تَبُثّه شَجْوَها(3)، وتفضى إليه بما أهمّها ، علّها تَجِدُ عنده مخرجاً من مَأزقها ، وتقدّمت إليه تشكو حالها قائلة له : إنّ أوْساً قد تزوجنى وأنا شابّة مرغوب فىّ ، فبعد أن كبرت سنى وكثر أولادى

(*) سورة المجادلة

(1) عيشة رافغة : واسعة .

(2) تبين : تنفصل .

(3) الشجو : الحزن .

جعلني كأمه ، وإنّ لي منه صبية صغاراً ، إنْ ضممتُهم إليه ضاعُوا ، وإنْ ضممتُهم إليّ جاعُوا . ثم توسّلت إليه أن يُصْلِحَ ما فسد من أمرها ، ويقوِّم ما تأوّد[1] من حالها .

وما كان للنبي أنْ يَقضِيَ بأمره ، أو ينطقَ عن الهوى ؛ فهو رسولُ الله ، مؤمّله الوحي ، ومرْجعه السماء ، وهو لم يتلقّ في الأمْرِ وَحْياً ، ولم يعرف لهذا السؤال جواباً ، لذلك قال لها : ما عِنْدِي في أمرك شيء .

فازدادت حسرتُها ، واشتدّ حُزْنها ، وقالت : يارسول الله ، ماذكر طلاقاً وإنما هو أبُو وَلَدِي ، وأحبُّ الناس إليّ ، ترجو بذلك أن تَلِينَ قَنَاتُه لتضرُّعاتها ، وتأخذَه الرحمةُ بأولادها .

إنّ النبيّ قد علم حقيقةَ حالها ، ووقف على دَخِيلة أمرها ، ولكن ماذا يفعل ، وهو لم يتلقّ بعدُ وَحْياً في مِثل شأنها ؟ وهو الفَيْصَل[2] إذا اختلط الأمر ، وادلهمّ[3] الخَطْب ، وأظلم الطريق ! لذلك أعاد عليها جوابه قائلا لها : ما عندي في أمْرِك شيء .

فالتجأت إلى مَنْ تَسعُ رحمتُه كل شيء ، واتجهت نحو مُرْسل الوَحْي ، ومُبْدع السماء والأرض ، ترجوه أنْ يزيلَ غُمّتها ، ويفرج كُرْبتها ، وقالت : أشكو إلى الله فاقتِي ووَجْدي[4] .

طال بها الوقوفُ ، وأكثرت من التضرع ، وكلما قال لها النبيّ : ماعندي في أمْرك شيء جأرَتْ[5] إلى الله بالدعاء ، وهتفت شاكية إليه حالها ، فَفُتِّحَت لدعائها أبوابُ السماء وسَمِعَ اللهُ شكاتها .

---

(١) تأود : تموج . (٢) الفيصل : الحاكم .
(٣) ادلهم الظلام : كثف واسود . (٤) وجدى : حزنى .
(٥) جأرت : رفعت صوتها بالدعاء ، وتضرعت واستغاثت .

فبينما هي في حيرتها واضطرابها – ترفَعُ وجهها إلى السماء مرة ، وتخفض طَرْفها نحو الرسول أخرى – غَشِي النبي ما كان يغشاه حين نزول الوحي ، ثم نطق لسانُه بالذكر الحكيم ، وهناك أخبرها بأنّ الله قد سمعَ محاورتها ، واستجاب لدعائها ، وأنه ليس على المُظاهِر بعد الآن إذا أراد التَّحِلّةَ من أيمانه إلا أن يعتق رَقبة ، فإن لم يَجِدْ فصِيامُ شهرين مُتتابعين ، فإن لم يستَطِع فإطعام ستين مسكيناً .

قرَّت عينُها ، وعاودها سكونها ، وانفرجت أسارير وجهها ، فقد حقق الله رجاءها ، وأجاب سُؤلها ، فصلُح أمرها ، ورُئِب[1] صَدْعُها ، وها هي ذي سترجع إلى عُشّها ، فتطعم فراخها ، وتدبّر شؤون بيتها ، وتسكُنُ إلى زوجها ، وتتصلُ سعادتها ، وتعودُ سيرتها الأولى .

أرسل النبيُّ إلى أوْس ، فلما حضر إليه ، قال له : ما حملكَ على ما صنَعْتَ؟ قال : إنّ الشيطان لعِب بعقلي ، وأضاع صَوَابي ، فركِبت مَتْنَ الشّطط ، وأبعدت في الغَيّ ، فهل من وسيلة أسترجعُ بها شريكة حياتي ومُنْية نفسي ؟

قال النبي : نعم ، وقرأ عليه قوله تعالى : (قدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التي تُجادِلكَ في زَوْجِها وتشتَكِي إلى اللهِ ، واللهُ يسْمَعُ تَحاوُرَكُما ، إنّ اللهَ سَمِيعٌ بصِيرٌ . الذينَ يُظاهِرُون مِنكم مِن نِسَائِهِمْ ما هُنَّ أمّهاتِهِمْ إنْ أمّهاتُهُمْ إلاّ اللاّئي وَلَدْنَهُمْ ، وَإنهم ليَقُولُونَ مُنكَراً مِن القول وَزُوراً ، وإنّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ . والذينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمّ يَعُودُونَ لما قالوا فتَحْرِيرُ رقَبة مِنْ قَبْل أن يَتَماسَّا ذلكم توعَظُون بِهِ ، والله بما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . فمَنْ لم يَجِدْ فصِيامُ شهرَيْنِ مُتتابعَيْن منْ قبلِ أن يَتَماسَّا ، فمَنْ لم يَستطعْ فإطْعامُ ستين مِسكيناً ، ذلكَ لتؤْمِنُوا باللهِ وَرَسوله ، وتلكَ حُدُودُ اللهِ ، وَلِلْكافرينَ عَذَابٌ أليمٌ).[2]

---

(١) رأب الصدع : أصلحه . (٢) سورة المجادلة ، آية ١ – ٤

ثم قال له النبي : هل تستطيعُ عِتْقَ رقبة ؟ فقال : لا والله ، فقال : هل تستطيعُ الصَّوْمَ ؟ فقال : لا والله ، لولا أنى آكُلُ فى اليوم مرةً أو مرتين لَكلَّ[1] بَصَرى، ولظننت أنى أموت . فقال له : هل تستطيعُ أن تُطعِم ستين مسكيناً ؟ فقال : لا ، إلا أن تُعينني منك بصدقة .

فمدّ النبي إليه يد المساعدة حتى استطاع أن يُطعِم ستين مسكيناً ، وبذلك صارت زوجه حلالاً له ، وجعل الله للمسلمين وسيلةً للتحلُّل من هذه العادة الجاهلية ؛ وهكذا سار ضوء الإسلام فى تلك الأرجاء المظلمة ، يُنير جوانبها ، ويبدِّدُ سحُبَ الضلالِ فى أنحائها ، ويحسنُ ما استهجن من أخلاقِ أهلها ، فطهرت مبادئه أرجاسهم ، وقامت على أسُسِه المتينةِ صروحُ حياتهم ، وضرب مثلا واضحاً فى يُسْر الإسلام وسماحته ، ورفعِ الحرج والمشقة ، وتيسير الأحكام فجعلهم بذلك مُثُلاً عليا ، وأسوةً تُحتَذَى ، إنّ اللهَ بالناس لرءوفٌ رحيم .

(١) كل : ضعف .

التحــــــريم (*)

التقت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم محاط العظمة ، واشتبكت لديه وشائج(1) القربى من الله والحظوى فى الدنيا والآخرة ، وتطلعت إليه أنظار الخليقة أجمعين ، يتنسمون أريجاً من شذاه ، ويرتمون زهرة من جناه ، فهو ملء السمع والبصر ، ومحط العين والفؤاد .

وكان من أشد الناس التصاقاً بالنبى عليه الصلاة والسلام ، وتزاحماً على حوضه ، وتنافساً إلى حماه أمهات المؤمنين رضى الله عنهن .

وليس بدعاً أن تسلك إلى قلوب هؤلاء النساء الطاهرات عقارب الغيرة حباً فيه ، وأثرة عليه ، فتدب دبيباً خفيفاً ، وتسرى إلى الفؤاد ، فتورى فيه ناراً لا ينطفىء لظاها إلا بالقرب من نبى الله الكريم .

ألسن من النساء اللاتى غلبتهن قوة العاطفة ، وتملكتهن دوافع الغيرة والأثرة فى كل عصر وزمان ؟

أوليست قلوبهن تصبو ، ونفوسهن تحنو ، وآمالهن تتدافع ، ورجاؤهن يفيض لخير الناس أجمعين ! !

كان النبى الكريم يفيض قلبه بعاطفة الأبوة ، وتحنو نفسه إلى بنته ريحب فإذا رآها أنس بها ، واطمأن إليها ، وانشرح صدره ، لأنها ثمرة نفسه وحبة

(*) سورة التحريم .

(1) الوشائج : جمع وشيجة ، وهى الصلة والرابطة

حتى إذا أفـلَ نجمُها ، فذهبت إلى جوار ربِّها ، استوحش إليها ، وامتدّتْ آماله إلى الولد ليمسحَ عن قلبهِ انقباضَ الوَحْدَةِ وَأثرَ الفاجعة .

وما زال الرسول الكريم فى وَحْشَتِه وانقباضه ، يدفعهُ شوقٌ أنَ يَكْتَحِل بسنًا نور ابن كريم ، وهو فى حنينه وَوَحْشَتِهِ تدبُّ فى قلبه حسرة وأسى ، لأنهُ شارفَ الستين من عمره ، وأوشكَ مِصباحُ حياته أن ينطفىء ! فما هو ببالغ أملاً يشيمهُ كلُّ والد ، ولا يتنفسُ برُوح يتنَسَّمُهُ كلُّ أبٍ يفيضُ قلبه بالعطف والحنان .

* * *

وحملت إلى النبيِّ الكريم من المقوقس والى مصر هَدَايا ، ومن بينها مارية القبطية ، فقبلها النبيُّ ، وأنزلها منزلة السرارى ، ولم يهبها ما وهَبَ لأزواجه ، فلم يخصِّصْ لها منزلاً بجوار المسجد كغيرها من أمهات المؤمنين ، بل أنزلها بالْعَالية من ضَوَاحى المدينة ، فى منزل يُحيطُ بهِ الكَرْم والزَّرْعَ والنَّخِيل .

وظلَّ الرسول العظيمُ يختلفُ إليها ، ولهامنهُ ما يحلُّ للرجل فيمن ملكت يمينه ، حتى إذا حَمَلت ماريةُ ، وولَدت إبراهيم ، تَفَجَّرت ينابيعُ البشر والسرور فى قلبِ أبيه ، وأنِسَتْ نَفْسُ الوالد عطفاً ورحمةً وحناناً بولده الأغرّ الميمون ، وارتفعت مكانةُ مارية ، فصارَتْ إلى مصافِّ الزوجاتِ المقرَّباتِ ، وازدادت بذلك حُظْوَةً عنده ، ومكانةً ملأت قلبها بالمسَرَّةِ ، وانقلبَتْ إلى ربها بالشكْران والتسبيح .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حَفِيًّا بولده ، قريرَ العين به رضىَ النفس لهُ ، مطمئن الفؤادِ لمولده ، فصارَ يختلفُ إلى منْزِل مارية ، يُطلعُ

كلَّ يوم فى أفقه مشرقَ هذا الغلام ، وينعم بابتسامته البريئة الطاهرة ، ويفيضُ عليه كثيراً من حنانِ الأبوّة ، وطهارةِ النبوّةِ ، ويغمُرُه بهذا الفَيْض الإلهى العميم .

وقد حمله يوماً بين ذراعيه إلى عائشة ، فنَفِسَتْ[1] عليه ، وحجَبَتْها الغيرةُ أن تهِشّ وتبشّ للغلام الكريم .

كذلك كانت الأثَرَة والغَيْرَة تدبُّ فى قلوب نساء النبى ، كلما رأين منه إقبالاً على مارية ، وحُبّاً وتعلقاً بولدها .

وكان الرسول الكريم يَخُصُّ نساءهُ بمكانة مُحترمة ، ويُنزِلهنّ منزلا عزيزاً ، وينفحهنّ أبداً بعطف وإجلال وتكريم ، على غير عادة العرب فى الجاهلية ، فلما رأينه يفيض عليهنّ من عظمته وكرمه ، جنحَتْ[2] نفوسهُنّ ، فتغالَينَ فى الاستمتاع بحريتهن ، واتخذْنَ من بعض الحوادث مَسْلَكاً إلى إغضابِ الرسول .

* * *

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت حَفْصة ، فاستأذنته أن تذهب إلى أبيها ، فأذِنَ لها ، وفى غضونِ غيبتها جاءت مارية ، فأقامت مع النبى عليه الصلاة والسلام زمناً ، فلما حضرت حَفْصة ، رأت مارية فى بيتها ، فانتظرت خروجها ، وقلبها يشتعلُ وَجْداً وغَيْرَة .. ولما خرجت مارية دخلت حفصةُ على النبىّ ، فقالت ، لقد رأيتُ مَنْ كان عندك ، والله لقد سببتنى ، وما كنت تصْنَعُها لولا هوانى عليك !

---

(١) نفست : ضنت عليه

(٢) جنحت : مالت

وأدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الغيْرَة قد تدفعُ حفصة إلى إذاعة ما رأت ، والتحدث به إلى غيرها من الأزواج ؛ وفي ذلك ما فيه إثارة لغيرتهن وتحريك لحفيظتهن ؛ فأراد إرضاءها لحلف لها أنّ مارية حرامٌ عليه إذا هي لم تذكُرْ مما رأت شيئاً ؛ فوعدته أن تكُفَّ عن إذاعة ما كان .

لكن الطبيعة النسوية كانت أقوى جماحاً ، إذ تحركت الغيْرَةُ تأكلُ صدْرَها ، فلم تُطِقْ كِتمان ما وَعَدَتْ بكتمانه ؛ فأسَرّته إلى عائشة ، وذاعَ الأمرُ بين نساء النبيِّ كلهن .

فأكثرْنَ من الحديث في شأنه والجدلِ في أمره ؛ والنبيُّ الكريمُ ليس خليّاً لهذا النوع من اللّجاج والغيْرَة ؛ فأراد أن يُلقى عليهنّ دَرْساً ليكونَ عِبْرَة لهنّ وتذكرة .

عزمَ النبيُّ أن ينقطع عن نسائه شهراً كاملا ؛ تأديباً ورَدْعاً لهن عما تمادين فيه من التمادي به ، وليُخَفِّفَ فيهنّ عواملَ تلك الغيرةِ الحمقاء .

فأدّى به عَزْمُه أن ذهبَ إلى خزانة له ؛ يَرْقى إليها على جِذْع من نخل ، وليس بها من فراش إلا حَصِير جافّ خشن ، وحسبه هناك أُقَيْماتٌ من شَعِير يُقِمْنَ صُلْبَه ... ثم هو يُجْلِسُ غلامه رَباحاً على سُدّتها[1] ؛ دَفْعاً للحاجة الزائرين .

والرسول صلى الله عليه وسلم في خَلْوَته يَتجه بتفكيره إلى ربه ، ويُدَبر أمر المسلمين في الجزيرة ، وفيما وراء الجزيرة ، والمسلمونَ في همّ مُقيم مُقْعِد ، وشغلهم الشاغل انقطاعُ النبيّ في خَلْوَته ، حتى لقد شاع بينهم أنه طلق حَفْصة بنت عمر ، بعد أن كان من إفشائها ما وعدت بكتمانه ، أو أنه مُطلق نساءه جميعاً .

---

(١) السدة : باب الدار .

كانوا يَهْمِسونَ بهذا والحسرةُ تملأُ قلوبهم ، والهمُّ يقُضُّ مضاجعهم ، وقد أقام الناسُ بالمسجد يعبثون بالحصى ، ويُجيلونَ العيون زائغة ، لا تَستقِرُّ على حالٍ من القلق .

وبينما هُمْ كذلك إذ يَنْتَفِضُ عمر رضى الله عنه قائماً من بينهم ، فَيَقصدُ إلى مقام النبيِّ ، ويستأذنُ غلامه رباحاً ، فإذا دخلَ الغلامُ إلى سيدهِ رجعَ إلى عمر ، ووقف فلم يُجِبْ ، فيرفع ابن الخطاب صوته بالاستئذان والإلحاح ، فيؤذن له ، فإذا هو بين يدى الرسول ، ثم يُجيل بصره فى الحجرة ويبكى ، والنبىُّ يقول له : ما يبكيك يا بن الخطاب ؟ فيذكر للنبيِّ سبب بكائه ؛ فيردّه النبىّ إلى الصواب بقول رفيق كريم .

ثم قال عمر : يا رسولَ الله ؛ ما يشقُّ عليكَ من أمرِ النساء ؟ ! إن كنتَ طلقتهُنّ فإنّ الله معك وملائكته ، وجبريلَ ، وميكالَ ، وعمر ، وأبا بكر ، والمؤمنين أجمعين .

ثم يقبل عمر رضى الله عنه على النبيِّ صلى الله عليه وسلم فيحدثه بحديثٍ يُسَرِّى عن نفسه ويُضْحِكه .

فلما آنسَ عمر منه ذلك ذكر له خَبَرَ المسلمين بالمسجد ، وكلامهم وآلامهم ، ورجا النبىّ أن يُفْضى إليه بالقول الفصل فى أمر نسائه .

فذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يطلقهنّ .

حينئذ نزل عمر إلى المسجد ، ونادى بأعلى صوته : إن النبىّ لم يطلق نساءهُ ، فاستبشَرَ الناسُ ، وسَرَتْ إلى قلوبهم الطمأنينة ، واهتزُّوا هِزَّةَ الفرح والسّرور .

وإذا النبىّ صلى الله عليه وسلم مقبلٌ على نسائه تائباتٍ بين يديه عابدات ، حتى نزل الرُّوح الأمين يحملُ رسالة الله الكريم :

(يَاأَيُّهَا النبيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ واللهُ غَفُورٌ رَحِيم . قَدْ فَرَضَ اللهُ لكُمْ تَحِلَّةَ أَيمَانِكُمْ واللهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ العَلِيمُ الحكِيمُ . وَإذْ أَسَرَّ النبيُّ إلى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً ، فلما نَبَّأَتْ به وأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيه عَرَّفَ بعضة وأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ، فلما نَبَّأَهَا به قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هٰذَا ؟ قَالَ : نَبَّأَنِيَ العَلِيمُ الخبيرُ . إنْ تَتُوبَا إلى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكمَا ، وإنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فإنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وجبريل وصالِحُ المُؤْمِنِينَ ، وَالمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ . عَسَى رَبُّهُ إنْ طَلَّقَكُنَّ أن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عابِدَاتٍ سائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وأَبكاراً)[١] .

---

(١) سورة التحريم من ١ — ٥

زينب بنت جحش (*)

هذا زَيْدُ بن حارثة ، وقد وهَبَتْكَهُ ياممد عَبْداً لك مُطيعاً ، ووَفياً أميناً ؛ فشكر النبيُّ الكريمُ زوجته خديجة ، وقبل منها هديّتها مسروراً ، وعاش زيد رضياً بصُحْبَة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، موفّقاً في خدمته .

وبعد حين حضر إلى مكة وفدٌ من بني حارثة ، يطلبون شراء ابنهم زيد وفِدْيَتَهُ لتحريره من رِقّهِ ، ففاض سخاء النبي العربي ، وقال لهم : إن اختاركم فخذُوه من غير ثمن .

ولما جيء بزيد أنعم اللهُ عليه ، فاختار الرّق مع النبي على الحرية بين قومه ، وصار بعد ذلك يُدْعى زيد بن محمد تعظيما له وتكريماً .

بلغ الفتى أشُدَّه واستوى ، فرغب سيِّدُه أن يُزَوِّجه كريمة من كرائم العرب لتكون له في الحياة سَنَداً وظهيراً [1] .

ويبالغ النبي في تكريم زيد ، فيتقدم إلى زينب بنت جحش ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب ، فيخطبها لمولاه ، مكافأةً له ، ودليلا على رضاه .

ولكن عبد الله بن جحش يأبى ويأنفُ أن يزوجَ زيداً ؛ لأنه من غير الصرحاء [2] ، وتشاركه أخته زينب إباءه وأنفته ، ضنّاً بنَسَبها العربي الكريم .

(*) الأحزاب ، آية ٣٦ وما بعدها .

(١) ظهيرا : معينا.

(٢) صرح نسبة : خلص ، وهو صريح من صرحاء .

ولكن (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُم الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)(١) ، فلا يصح لرجل ولا امرأة اختيارُ أمرٍ من الأمور يخالفُ ما قضاه الله ، ثم بلّغه الرسولُ .

إذَنْ فليَرْضَ عبد الله ، ولتخْضَعْ زينبُ لقضاء الله ورسوله ، وليسعَدَا بزَوَاجٍ يخلدُ اللهُ شأنَهُ فى كتابه الكريم .

***

عاش زيد وزينب معيشة زوجين هانئين بما وَفّقهما الله الكريم ، وأرْخَى لهما من حِبَال السعادة ، ورفّه لهما فى العيش ، وَمَدّ من أسباب الرخاء .

وبعد حين أراد الله أن تقعَ الوَاقعة ، سنًّا للشرائع ، وإيضاحاً لأمور الدِّين ، وتبياناً للعالمين ، وتصحيحاً لأوهام الناس .

وهل يقدِم على مخالفة مألوف العرب ، وتحطيم أغلالهم ، وَنَبْذِ خُرَافاتهم إلا رجلٌ مَلك الإيمانُ نفسَه ، وملأ الحقُّ قلبه ، وخالطت الجرأة منه العصَب والدم ، والمسامعَ والأطراف ، وتغلغلت الشجاعةُ الخلقية فوصلت منه إلى اللُّبِّ والشِّغَاف ؟ وهل يسمو بَشَر إلى تلك المنزلة الكريمة سُمُوَّ النبيِّ الكريم ؟

وبعد حين من الدهر ، وَهَتِ(٢) الرابطةُ بين زيد وزَوْجه ، وفترت تلك العلاقةُ التى تجمع بينهما زوجين مُؤْتلفين ، فيتقدم زيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شاكِياً ، يستشيره فى طلاقِ زينب ، فيتجلّى عَطْفُ الرسول وَنُبْله قائلا : يا زيد ، هذه زينبُ يَسّرَ اللهُ لك زواجَها بعد عُسر ، وسَهّله بعد امتناع

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٣٦ .
(٢) وهت : ضعفت .

وعسى أن يَصْلُحَ حالُهَا لك بعد ، فأمْسِكْها عليك ، واتّقِ الله لئلا تَصِمها[1] بأنها لا تحسن عشرةَ الأزواج ، وَتُبْ إلى رشدك ، فلا تَنقُض أمراً أبرَمْتهُ ، ولم يتمّ إلا بعد أنْ نزل فيه قرآنٌ من المدبِّر الحكيم .

يقول الرسول العظيم قوْلَه هذا ، ونفسُه تَفيض حناناً وعطفاً وإشفاقاً ، لما كان قد سبق في عِلْم الله : من أنّ زيداً يطلِّقُ زينب ثم تتزوّج النبيّ صلى الله عليه وسلم من بعده .

واستمرّ الرسولُ صلى الله عليه وسلم متضرِّعاً بينه وبين نفسه إلى الله ، مُبْتَهِلاً إلى رحمته ، عسى أن يمحوَ اللهُ ما أثبت ، فيصلح الحال بين المرء وزوجه ، وينقض أمراً سبق أنْ أبرَمه استكمالا لأسباب التشريع .

فاضت نفسُ الرسول صلى الله عليه وسلم بالنُّصْح لزيد ، وبالضراعة إلى الله ، أمَلاً أنْ يَنقُضَ اللهُ ما أبرم ، وأن يَمْحُوَ ما أثبت ، ولكن أبَى الله إلا أن يَتِمّ قضاؤه ، فأوحى الله إلى رسوله : (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)[2] .

وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يُخْفِي قضاء الله ، عسى أن تَنفَعَ فيه شفاعتُه ، ويخشى الناسَ أنْ يضلّوا بسببِ اعتراضهم عَلَى أمْرٍ لم يَألَفُوهُ ، وتشريع ما تَعَوّدُوهُ ، ولكن مَنْ يَهْدِ الله فلا مُضِلَ لهُ ومَنْ يضلل الله فما له من هاد ، والله أحقُّ بالخشية والرِّعاية من سِوَاه ؛ لأن مألوفَ الناس وعاداتهم ليست أصلا لتشريع ، ولا أساساً لقانون ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم أولى مَن يهدم العقائد الفاسدة ، ويقوِّضُ الخرافاتِ السائدة ، فيقيم بعدها صَرْحاً من الحق ، وَمَنَاراً للشريعة السَّمحة .

---

(١) وصمه : عابه .

(٢) من الآية ٣٧ من سورة الأحزاب .

انقضت عدةُ زينب بعد طَلاَقها من زَيْد ، ثم هيَّأ الله زواجَها من النبى الـكريم ، وكانت زينب فَخُوراً ، تتيه دَلاَلاً ، وتمتلىء عجباً ، فتقول لسائر نساء النبى : إن اللهَ تولى تزويجى ، أما أنتُنَّ فتولى تزويجكهن أولياؤكُنَّ .

ولقد كانت هذه الحادثةُ أمراً خرق مألوفَ العرب ، وغَيَّرَ وجهةَ أحوالهم ومعتقداتهم ، فقد ادَّعوا للدَّعىّ ما للابن من الحقوق ، من إرْثٍ ونَسَب ، وقد تسلَّط ذلك الاعتقادُ على نفوسهم ، ورسخ فى أذهانهم ، وعسر عليهم أن يخلعوا عنهم رِبْقَتَه[1] ، أو أن يُزيلوا عن أفكارهم وَطْأته ، فتقدم النبىُّ الـكريم بآيةٍ واضحة ، وحجة قاطعة ، فقام بما قام مع قيام هذه العادة ، وتمَكّنها من الناس ، وَمَنْ أولى بذلك غير رسول الشريعة الحنيفية ، وهو الذى نادى بحرمة رِبَا الجاهلية ، وأول رِباً وَضعهُ رِبَا عَمّه العباس ، حتى يرى الناسُ صنيعَه بأقرب الناس إليه ، فتنقطع وَساوِسُ الشيطان من صدورهم .

ولقد كانت قصةُ زيد وزينب مثاراً لأقوالٍ وشبهاتٍ ، جرفَتْ كثيراً من الناس ، ممن زَاغ بهم الباطلُ ، ورَانَ[2] على قلوبهم حَلَكُ الضَّلاَل ، فنسبوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه اشتهى زَينب بعد زواجها من زَيْد ، وما كان محمد ليمكّن لميوله ، ويُمَهّدَ لِهَوَاه بما يخالف أمرَ ربّه ، تسامَى قَدْرُ الرسول وتعالَى علوًّا كبيراً .

أما كانت زينب أمامه بِكْراً تحت سَمْعه وبصره وهو فى سنّ الأربعين ، زمن اكتمال الفتوة والشباب ؟ أفبعدَ ثلاث عشرة سنة ، وبعدَ أنْ زالت عنها نَضْرَةُ البكارة ، وهدأت فيه ثروة الشباب ، ينظرُ إليها نظرَ التشهى ؟

---

(١) أصل الربقة : العروة .

(٢) ران : غلب .

ألم يكن له من شواغل الدِّين والفَتْح شاغل عن أُمور النساء، وهو ابنُ السادة الكرام الموصوفين :

قوم إذا حَارَبُوا شدُّوا مآزِرَهم دُونَ النساء ولو بَاتَتْ بأطهَارِ

وهو النبيُّ الكريم الذى نهاه رَبُّه أن يمدَّ عينيه إلى ما متّع الله به الناس من زَهرَةِ الحياة الدنيا .

بل نرجعُ إلى الفطرة الأولى للرجل العربى ، الذى لم تَعْصِمْهُ النبوة ، ولم تزينه رَجاحةُ العقل ، وسموّ المعرفة ، وصِدْق العزيمة ، فنراه يغض الطَّرْفَ عن جارته ، فهذا عنترة الجاهلى يقول :

وَأَغُضُّ طَرْفِيَ إن بَدَتْ لِيَ جَارَتى حتى يُوَارِى جَارَتى مَأْوَاها

بل هو الذِى يقول الله فيه : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم)[1] .

(١) سورة ن ، آية ٤ .

المراجع

(١) القرآن الكريم .

(٢) التفاسير الآتية :

الطبرى ، الكشاف ، الفخر الرازى ، أبو السعود ، البيضاوى ، الألوسى ، تفسير المنار .

(٣) سيرة ابن هشام .

(٤) السيرة الحلبية .

(٥) المثل الكامل .

(٦) حياة محمد .

(٧) نور اليقين .

(٨) قصص الأنبياء .

(٩) البداية والنهاية ، لابن كثير .

(١٠) الكامل ، لابن الأثير .

(١١) تاريخ الأمم والملوك ، لابن جرير الطبرى .

(١٢) مروج الذهب ، للمسعودى ، للنويرى .

(١٣) نهاية الأرب فى فنون الأدب .

(١٤) تفصيل آيات القرآن الكريم .

(١٥) معجم ما استعجم ، للبكرى .

(١٦) مراصد الاطلاع فى أسماء الأمكنة والبقاع .

(١٧) لسان العرب ، لابن منظور .

(١٨) الفائق ، للزمخشرى .

(١٩) القاموس المحيط ، للفيروزابادى.

(٢٠) معجم البلدان ، لياقوت .

(٢١) أسباب النزول ، للواحدى .

(٢٢) أسباب النزول ، للسيوطى .

فهرس كتاب قصص القرآن

رقم الايداع : ٧١٨١ / ١٩٨٤